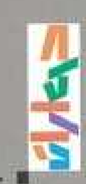
SAKR ABO-FAKHR



صقر أبو فخر

سورية وحطام المراكب المبعثرة

حوار مع
نبيل الشويري
عفلق والبعث والمؤامرات والعسكر



حوارات

صقر أبو فخر

سورية وحطام المراكب المبعثرة

حوار مع

نبيل الشويري

عفلق والبعث والمؤامرات والعسكر



المحتويـــــات

تقديـــــــم

المـــدن في العالم العربي كثيرة، لكن الحواضر قليلة جداً. ولعل دمشق وبغداد والقاهرة، وبدرجة أقل حلب وفاس، كانت، خلال أكثر من ألفي عام، محـــاور التحضر والتمدن في المنطقة التي غمرتها الثقافة العربية منذ عهد الفـــتوحات الأولى فصـــاعداً. ومن مفارقات تاريخنا أن مدينة دمشق، وهي الحاضـــرة الأكثر أهمية في المشرق العربي برمته، استوت منذ أوائل القرن العشـــرين تقريباً على مكانة لا تليق بتاريخها البهي؛ فقد أخذت في التحول، رويـــداً رويداً، إلى مدينة للتجارة والسياسة على الغالب، ويبس في ربوعها الكـــثير من عناصر النماء والتحضر ومعاركة قوى التخلف، وانحسرت فيها الـــتيارات الفكـــرية التحديـــثية والنقدية، وقلما شهدت ظهور مدارس أدبية تجديدية ذات شأن.

كانت دمشق عاصمة بلاد الشام قاطبة وعقدة التجارة الدولية مع العراق ومصـــر وآســـيا الوسطى. وكانت فُتحتها البحرية تمتد من الاسكندرون في الشمال إلى غزة في الجنوب. وفوق ذلك، كانت مدينة كوزموبوليتية اجتمعت فـــي أرجائها جماعات شتى كالأكراد والشركس والتركمان والروم واليونان والداغســـتان والأرناؤوط والأبخاز والهوّارة واليهود والأرمن واليوغسلاف والمغاربة والعجم. لكن هذه الفتحة البحرية راحت تضيق منذ منتصف القرن التاســـع عشـــر، حـــتى إذا أطل القرن العشرون كانت ضربة قاصمة تتهيأ للانقضـــاض عـــلى دمشـــق العاصمة، فتفككت ولايات سورية كلها بدخول الجـــنرال أللنبي إلى فلسطين في عام ١٩١٧، ثم انتزعت اتفاقات سايكس – بيكو منها الســـاحل الفلسطيني بما فيه ميناء حيفا، ثم الساحل اللبناني بما فيه

ميناء صيدا وميناء بيروت، ثم لواء الاسكندرون بما فيه ميناء الاسكندرونة، ولم يبقَ لها إلاّ فتحة صغيرة واقعة بين رأس البسيط ومدينة طرطوس.

تحولت دمشق، إذن، عاصمة لدولة شبه برية وفقدت بذلك طابعها التعددي إلى حد ما. واقتنصت بيروت هذا الدور، وراحت تتحول، تدريجاً، إلى مدينة متعددة ذات شأن كبير، وصارت بعد انحطاط الاسكندرية وتراجع دمشق، المدينة الكوزموبوليتية الوحيدة تقريباً في المنطقة العربية إلى جانب مدينة طنجة المغربية. أما دمشق فاكتفت من دنياها بما بقي لها من نصيب؛ أي التجارة والسياسة وانقلابات الجيوش، فغارت فيها معالم النهوض والتحفز، وراحت تتجاذبها فئات راكدة لا يستفز حميتها عياء الحاضر، ولا يغريها، على الإطلاق، التصدي لصنع المستقبل، وهذه الفئات هي: رجال الدين وملاك الأراضي وأمراء الجيوش. ومع ذلك ظلت سورية، بعاصمتها دمشق، دولة مفتاح، أي دولة مهمة جداً لا في ذاتها بل في موقعها الحاسم بين العراق ومصر، لأن مَن يسيطر على سورية يسيطر على المشرق العربي كله. وطالما سعى العراق إلى بسط نفوذه على سورية، فكانت مصر تخشى قيام كتلة كبرى على حدودها، فتبادر فوراً إلى إعاقة هذا السعي. وعندما كانت مصر تغزل سياستها على المغزل نفسه كان العراق، وحتى السعودية، يبادران بسرعة إلى حماية هذه الدولة ـ المفتاح وعرقلة السياسة المصرية. وهكذا باتت سورية حقلاً رحباً لتنازع القوة في المشرق العربي، ومجالاً مهماً لقياس المصالح المتنافرة في المنطقة. ولعل هذا الأمر يفسر، إلى حد بعيد، اضطراب الأحوال في سورية وانقلاباتها العسكرية المتلاحقة.

في أي حال، فإن سورية التي مزقتها اتفاقية سايكس ـ بيكو في سنة ١٩١٦، تمزق معها، يا للغرابة، جميع مَن حاول توحيدها. فالعائلة الهاشمية تخطّف الموت أفرادها تباعاً: بعضهم انتحر، وبعضهم قُتل، وبعضهم حاقت به اللعنة فتشرد في المنافي طويلاً. والحزب السوري القومي الاجتماعي الذي شكل خطراً أكيداً على السياسات الفرنسية والمصرية والأميركية في سورية اغتيل زعيمه وتمزق لاحقاً. وتناثر حزب البعث العربي الاشتراكي كحطام المراكب المبعثرة وحطم معه بقايا كيانات ظلت، طوال مئة عام، تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد. هذا ما وقع في العراق، وهذا ما حدث في لبنان، وهو ما قد يقع في سورية نفسها مع الأسف.

في خضم هذا الاضطراب العميم الذي شهدته سورية، ولا سيما بعد استقلالها في سنة ١٩٤٣، كان نبيل الشويري شاهداً على بعض جوانب هذا الاضطراب. فهو، منذ يفاعته الأولى، عرف ميشال عفلق كساحر وقديس معاً. وتدرج في مدارج السياسة وفي معارج الفكر السياسي على يديه، وتفتح وعيه على القومية العربية شبه العلمانية التي صاغها عفلق، ثم تمرد عليه وأسقط هالة القداسة عنه، وانحاز إلى أكرم الحوراني، ثم لم يلبث أن انخرط في التآمر السياسي والانقلابات العسكرية مع سليم حاطوم وبدر جمعة، وحُكم بالإعدام. وقادته مصائره اللاحقة في المنفى البيروتي، والباريسي، إلى إدارة الظهر للسياسة كلها، ثم راح، بهدوء، يعيد النظر في تجربته الشخصية، وأسلم عقله لحقبة من التفكير النقدي الهادىء. ولعل نبيل الشويري كان شبه مرآة عكست البعث نفسه وتجربته العاتية في الاضطراب السياسي والبلبلة الفكرية والتآمر وانقلاب الأحوال والأخطاء القاتلة، فضلاً عن النزوع الرومانسي إلى صوغ مشروع مستقبلي لدولة قوية موهومة.

لــم يكن لنبيل الشويري أي شأن مباشــر في سلطة البعث التي انبثقت فـــي ٨ آذار ١٩٦٣، ولـــم يشارك في صنع الأحداث العاصفة التي شهدتها ســـورية مـــنذ ذلك التاريخ فصاعداً، ولم يكن له أي دور في المصائر التي انـــتهى إليها البعث بشظاياه الكثيرة، إنما كان شـــاهداً راصداً لتجربة البعث فـــي ســـــورية، وكان، إلى ذلك، مناضلاً في ذلك الحزب إبان صعوده، ثم راقـــب بحســـرة انحـــداره وتطايره في جميع الاتجاهات. وهذا الحوار هو خلاصة هذه التجربة. ومهما يكن الأمر، فإن أهمية هذا الحـــوار لا تكمن في أنـــه يؤرخ لحقبة من التاريخ المعاصر لسورية، بل في محاولة إعادة قراءة الأحداث في ضوء التجربة الشخصية.

صقـــر أبـــو فخـــــر

بيروت، ٢٠٠٥/٨/٢٧

مقدمة لا بد منها

اتفقت مع المؤلف على إجراء هذا الحوار في أوائل العام ٢٠٠٢ وتمّ تسجيله في خريف ذلك العام، وها نحن في أواسط العام ٢٠٠٥ حينما أصبح الحوار جاهزاً للطبع في كتاب. وبعد قراءتي الأخيرة له وجدت أن لا بد من هذه المقدمة التي أسميتها "دليلاً للقارئ" حتى أوضح فيها ما خشيت أن يكون غامضاً أو ملتبساً، ولكي أسدَّ ما حسبته ثغرات في الحوار كان من الطبيعي أن تقع بسبب الأسلوب أو الطريقة أو النهج الذي اتبعه المؤلف من جهة، وبسبب تباين الآراء أو المواقف أو التجربة أحياناً، أو بسبب تباين العمر حتى لا أقول الأجيال أيضاً، فضلاً عن تباين السكن بين بيروت ودمشق، ولكن خصوصاً بسبب ضيق وقت المؤلف نظراً إلى كثرة أشغاله. وإني بهذا أبدي عذري للقارئ عن طول هذه المقدمة وعمّا قد يبدو له من تعدد موضوعاتها حتى لا أقول تشتت الأفكار فيها، والذي أرجو أن يتلاشى بعد قراءة فصول الحوار.

I

التخلف والتقدم

التهذيب سمة من سمات التمدن، والمتمدنون مهذبون، وقد يصل تهذيبهم الرفيع - خصوصاً في المظاهر- إلى حد النفاق. وفي البلاد المتمدنة يصنفون أنفسهم بلاداً متقدمة، ويطلقون على بلادنا والبلاد الأخرى في العالم الثالث صفة البلاد النامية، ويقصدون بذلك أننا على طريق التقدم، وتهذيباً لا

الذي لم يخرج من بلده. على أنه يستطيع بدوره أن يتجاوز التخلف، نظرياً على الأقل، ولو بجهد أكبر.

عندما يدرك واحدنا التخلف ويتجاوزه يجد نفسه أمام مفترق طرق:

الطريق الأولى، أن تهتم بحياتك الشخصية فحسب من دون إيذاء أحد، فتهاجر إلى بلد متقدم أو تهاجر نفسياً وأنت تعيش في بلدك، فتعيش حالة من الإزدواجية والاستلاب؛ تتصرف مع الأقربين والذين تمون عليهم بطريقة، ومع الآخرين بطريقة أخرى، وتتمنى لهم ولبلدك الخير والتقدم ولكنك لا تبذل جهدك إلا لنفسك ولمن يوافقك من الأقربين.

الطريق الثانية، أن تدعو إلى التقدم وتكرّس لدعوتك جهدك وما تقدر عليه.

الطريق الثالثة، أن تستغلّ التخلف لمصالحك الشخصية من مال وجاه وإشباع شهوات، وهي الطريق التي سلكها ويسلكها أكثرية المثقفين في بلادنا وعلى الأخص من اشتغل منهم بالسياسة. وإلا فكيف نفسر، مثلاً، أن يكتفي المثقفون التقدميون بالاحتجاج على الظلم الذي وقع على نصر حامد أبو زيد وزوجته في مصر بالتوقيع على عريضة احتجاج؟! ولم يتابع هذه المسألة إلا محمد علي الأتاسي بالكتابة عنه أكثر من مرة، وصادق جلال العظم حين دعا أبو زيد كي يحاضر في جامعة دمشق حينما كان العظم مسؤولاً عن قسم الفلسفة في كلية الآداب. يدعون للديمقراطية ويستنكفون عن الدعوة لفلسفة

الديمقراطية. يحاربون الاستبداد وكأنّه من فعل الحكام المستبدين فحسب. والحال أنّ الاستبداد تراث وعقلية وفلسفة هي في أساس انحطاطنا الحضاري منذ أيام المتوكل العباسي وجنوده الأتراك في المشرق، وحكم المرابطين والموحدين وجنودهم البربر في المغرب وفي الأندلس بالتحديد. وأنا أحترم جميع الناس وليس في خلفية كلامي أي نزعة عروبية عنصرية. لكن من لا يفهم القرآن ويتدبر معانيه لا يحق له أن يحكم به. وكيف يفهم القرآن، فضلاً عن تدبر معانيه، من لا يعرف العربية؟!. وأتساءل مرة أخرى: ألا تستحق قضية نصر أبو زيد وزوجته أن نتبناها، على الأقل، إلى حد أن نأتي به إلى جامعاتنا حتى لا يبقى متغرباً في هولندا وكي يستفيد منه طلابنا.

III

الكلام يكون مهدوراً إذا لم يصدّق عليه واقع الحال، فكيف إذا ناقضه؟!

يظن المثقفون والكتّاب التقدميون والناشطون في لجان الدفاع عن حقوق الإنسان أو لجان إحياء المجتمع المدني والمحاضرون في منتدى الأتاسي وغيره، أن المشكلة الأساس في سورية هي في القوانين الاستثنائية وفي مقدمتها قانون الطوارئ، الذي كثيراً ما يخطئون في تاريخ بدء سريانه، وهو على زعمهم يوم الثامن من آذار ١٩٦٣. والحال أنّه بدأ في العهد الاستقلالي مع بداية حرب فلسطين العام ١٩٤٨. وأول حاكم عرفي في سورية كان جميل مردم ثم حسني الزعيم ثم أديب الشيشكلي ثم جمال عبد الناصر ثم طُبّق — أي قانون الطوارئ — في العهد المدعو انفصال، ولم يرفع إلا في

فترات محدودة هي فترات الحكـم البرلمـاني ١٩٤٩ ـ ١٩٥١ و١٩٥٤ ـ ١٩٥٨، وفي أشهر معدودات من صيف ١٩٦٢ إلـى ٨ آذار ١٩٦٣ . وإذا توخينا جوهر المسألة الذي هو حكم الاستبداد العسكري فعمره فـي بلادنـا يحسب بمئات السنين. ونعود فنقول إنّ الظن بأن المسألة أو العقدة الأساسـية في وجه الديمقراطية هي في إصرار الحكم الاستبدادي المخابراتي الفاسـد على إبقاء قانون الطوارئ وغيره في وجه المعارضة ولا سـيما معارضـة الإخوان المسلمين الذين يزعمون أنهم طوروا فكـرهم وصـاروا يقبلـون بالتعددية القائمة فعلياً في مجتمعنا؛ إنّ الذي يظن بأن حـلّ هـذه المشـكلة، مشكلة قانون الطوارئ، سيؤدي إلى مصالحة اجتماعية - سياسـية تسـمح باستئناف الحياة السياسية الطبيعية وتعيد الديمقراطية، هو بالضبط كمن يرى رأس جبل الجليد العائم ويتغافل عن أربعة أخماسه المغمـورة، ومعـروف مصير القبطان وركاب الباخرة في مثل هذه الحال. إن المهمة الأساسية التي يجب أن ينجزها المثقفون التقدميون هي فتح الملفات المانعة للديمقراطية وفي مقدمتها تلك الاجتهادات الفقهية التي تستبيح أموال وأعراض ودماء مسلمين يدينون بمذاهب غير المذاهب الأربعة المعترف بها والخامس المقبول علـى مضض، والتي استند إليها المماليك والعثمانيون عندما قاموا بمجازر مرعبة في تاريخنا، واعتقدنا أنّ الزمن قد عف عليها، فـإذا بقـومٍ يوقظـون تلـك الاجتهادات ويضعونها موضع التطبيق الفعلي، ويمارسون القتل اغتيالاً فـي الربع الأخير من القرن العشرين، ويعلنون على الملأ فـي جريـدتهم أنّهـم ينفذون حكم الله...! فضلاً عن نظرتهم وموقفهم من الـذين يـدينون بغيـر الإسلام أو اللاأدريين أو الملاحدة. إنّ مصالحة بهذا العمق، تراجـع وتنقـي تاريخنا البعيد والقريب من شوائبه هي وحـدها الكفيلة بفـتح أفـق جـدي

من الدول العظمى آنذاك، ولم تقتنع بها أكثرية الناس. والدليل أن المذبحة الشنيعة والمخزية التي جرت للمسيحيين في دمشق سنة ١٨٦٠ كانت، في أحد وجوهها، رد فعل على مسألة المساواة أمام القانون، وإلغاء جانب من جوانب أحكام أهل الذمة، وهو مظاهر الإذلال اليومي لهم باللباس والمشي في الأسواق والركوب... إلخ. فمسألة المواطنة والمساواة أمام القانون لم تنبع من إرادة الناس، ولم تشتغل عليها النخب المثقفة من أجل تعديل الشرع بما يلائمها، فبقيت إلى الآن حبراً على ورق في نصوص القوانين، وفي التكاذب اللفظي بين الناس. ثم جاءت مسألة الدستور ومجلس المبعوثين أي البرلمان والإصلاحات التقدمية التي جاهد من أجلها مدحت باشا والنخب المتنورة المؤيدة له، والتي ما إن انتصرت حتى انقلب عليها السلطان عبد الحميد وراح مدحت باشا ضحيةً لها. ثم جاء انقلاب الجيش بقيادة جمعية الاتحاد والترقي وعنجهية رجالها وعنصريتهم التي ذكرنا بها مؤخراً صدام حسين، إلى أن سقطت الإمبراطورية العثمانية بسبب السياسة الخرقاء التي تكاد تكون مطابقة لخرق سياسة صدام حسين والبعث العفلقي في بغداد... وما حدث في إيران كدولة إسلامية شيعية من الصراع بين القديم والجديد، واستيراد التقدم بالتقسيط من دون فكر تقدمي ومن دون فلسفة يرتكز عليها التقدم، لا يخرج عن الخط العام للإمبراطورية العثمانية. وقد تزامنت المشروطية الإيرانية مع الدستور العثماني. وما نزال إلى يومنا هذا نستورد التقدم من غير فكر تقدمي ومن غير فلسفة تقدمية يرتكز عليها، ونشتري التكنولوجيا لنسيء استعمالها، ونقفز إلى محاولة امتلاك السلاح النووي قبل أن نردم الهوة العلمية والفكرية بيننا وبين المجتمعات المنتجة لها. وما يزال الشيخ يوسف القرضاوي، وهو الوسطي أو المعتدل وصاحب المقدرة

الفائقة على التأثير في الناس، يصر على أنّه لا يمانع بل يدعو لاستيراد واكتساب وتعلّم كلّ ما هو نافع في تقويتنا وتقدمنا، شريطة ألاّ نأخذ من العالم المتقدم الفلسفة التي أنتجته أو التي تكمن خلفه (حلقة الشريعة والحياة ــ قناة الجزيرة، ٥ حزيران ٢٠٠٥). أي أن شيخنا الفاضل ما يزال يعيش اللحظة الزمنية ذاتها التي أُحرقت فيها كتب ابن رشد في الأندلس. فكان أن تُرجم ابن رشد إلى الفرنسية وغيرها من اللغات الأوروبية، وبقي يُدرّس في جامعة باريس نحو مئة عام حتى انتبه الفاتيكان إلى تأثيره في الأجيال، فحرّمه بمرسوم بابوي. وكان فكر ابن رشد المسلم هو الذي فتح آفاق الفلسفة الإغريقية (أرسطو بالتحديد) أمام الأجيال في أوروبا الغربية فاستوردوا الفلسفة التي طمستها المسيحية طيلة ألف عام، وانطلقوا منها إلى النهضة، فتجرأ دانتي على اللاتينية المقدّسة، ونظم أشعاره بالعامية الإيطالية. ثم قامت ثورات الإصلاح الديني فترجموا الإنجيل إلى اللغات الوطنية، وخلعوا نير الكنيسة، ذلك كله حدث طبعاً قبل الاكتشافات الجغرافية الكبرى وقبل الثورات الاقتصادية (خلافاً لحاشية المؤلف في هذا الشأن). وعندما أقول إنّ المسيحية طمست الفلسفة طيلة ألف عام، أتذكر عبارة المؤرخ المشهور " ويل ديورانت" التي ختم بها عصور التاريخ القديم في "**قصة الحضارة**" حيث يقول: " وفي **المجتلد*** انتصر المسيح على العقل وبدأت العصور الوسطى". وعندنا في بغداد المتوكل حُرّمت المعتزلة وقُمعت، ثم حُرّم ابن رشد في الأندلس وأُحرقت كتبه، فانتصر النقل على العقل وبدأ الجمود والانحطاط.

---

* المجتلد هو الحلبة أو المكان الذي كان يعذب فيه المسيحيون ويرمون للوحوش، وغالباً ما كانوا يستشهدون ولا يتخلون عن إيمانهم بالمسيح.

V

تقليد الغير في الشكل لا يصنع نهضة، حتى لو كان هذا الغير هو السلف الصالح

عندما سقطت الإمبراطورية العثمانية التي هي آخر دولة للخلافة الإسلامية ودخلت الجيوش الإنكليزية والفرنسية إلى المشرق العربي، أقامت دويلات مصنوعة على صورتها ومثالها، أي جمهوريات شبيهة بالجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان، وممالك وإمارات في شرق الأردن والعراق والكويت والخليج على الطريقة الإنكليزية، وأبقت فلسطين تحت حكم مباشر ريثما تبنى عليها الدولة اليهودية. أي أنّ الحضارة الأوروبية دخلت إلى المشرق العربي بالإكراه، كما جرى في مصر قبل ذلك بعشرات السنين بواسطة نابليون ثم بواسطة محمد علي ثم بالاحتلال الإنكليزي المباشر.

لقد فشلت جميع الحركات "العصرية" و "التقدمية" التي ظهرت في الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين في إدخال روح العصر وتجذير التقدم، لأنّها قفزت فوق الواقع الذي هو الدين والتراث، وحاولت تقليد العالم المتمدن كما تفعل السعادين!... فمن ثورة البروليتاريا وحكمها في مجتمعات تخلو منها وحتى قبل تعريب الفلسفة الماركسية، إلى الزوبعة الشبيهة بالصليب المعقوف النازي والتحية الفاشية والتنظيم والإنضباط الحديدي في مجتمع عشائري فردي متخلف وغير مهيأ، حتى الحركات الوطنية المكرّسة

لنيل الاستقلال قلّدت قمصان النازي مع تغيير اللون (القمصان الحديدية في سورية والقمصان الخضراء في مصر). وحتى البعث، الذي حاول أن يكون أصيلاً في مجتمعه، لجأ إلى التلفيق للتوفيق بين الدين والقومية متهرباً من ثقل المهمة في مواجهة الواقع. وبعد الاستقلال وجلاء الجيوش الأجنبية وبعد أن رثّت وتهلهلت الطبقة الحاكمة وهي حلف الملاكين والتجار ورجال الدين، بسبب حكم المزرعة وبسبب نكبة فلسطين خصوصاً؛ لم يبق في الميدان إلا حديدان أي الجيش، وهو القوة الوطنية المنظمة في المجتمع التي اعتادت على الإمساك بالسلطة منذ أيام السلاجقة والبويهيين. وقد حاول البعث في سورية أن يعيد السلطة إلى المدنيين وأن يقيم ديمقراطية برلمانية، وناضل ونجح في ذلك بالتحالف مع زعماء تقليديين متنورين وديمقراطيين لكنهم مبهورون بالغرب وخاضعون لنفوذه بشكلٍ أو بآخر. وعندما اشتدت الخلافات معهم وتحالف مع الحزب الشيوعي واقترب من الاتحاد السوفيتي، قامت قيامة الولايات المتحدة الأميركية لإسقاط الحكم البرلماني الذي عاش من العام ١٩٥٤ إلى العام ١٩٥٨ . وكان قد ارتفع نجم عبد الناصر منذ تأميم قناة السويس في العام ١٩٥٦، فالتقى البعث معه في محاربة النفوذ الاستعماري القديم (حلف بغداد). وقامت الوحدة بين سورية ومصر بطريقة أشبه بالفورات الحماسية للجماهير الشعبية عندما يفلت زمام قيادتها من يد الذين صنعوا فورتها. وجاء حبيب الملايين فلم يبقِ ولم يذر أي حراك سياسي، فقد بعثر الحركة الشعبية، وسحب السياسة من التداول بين الناس، وحصرها في أجهزة المخابرات التي يسيّرها بالأمر. أي أنّه احتكر العمل السياسي والقرار السياسي، وأقام حكماً فردياً مدعوماً بمحبة الناس ولكن بخوفهم أيضاً. ومع الوقت صار الخوف يزداد والمحبة تنقص إلى أن حدث انقلاب ٢٨ أيلول ١٩٦١ فسحب سورية من حكمه كما تسحب الشعرة من

العجين. والسبب في نظري أنّ الوحدة لم تقم على أسس عقلانية راسخة، فلا هو اهتمّ بذلك ولا سمح لغيره أن يفعل. وأنا اليوم عندما أعود بالذاكرة إلى العام ١٩٥٨ وأتذكر يوم الاستفتاء على الوحدة وأتأمل بطاقة الاستفتاء – التي أحتفظ بواحدة منها – ملونة بالأسود والأحمر وعليها العلم وصورة عبد الناصر ومطلوب من المواطن بموجبها الموافقة أو عدمها على الوحدة ورئاسة عبد الناصر، أتذكر مبلغ حماستنا وكيف كانت فرحة الناس وهم يتنقلون من مركز إلى آخر حتى يصوتوا بنعم مرات عديدة... ولم نتأمل البطاقة التي توحي بأنّ عبد الناصر والوحدة والعلم ثلاثة أقانيم في واحد!! عندما أفكر بذلك بعد مرور نصف قرن تقريباً، أتساءل: هل المسؤول هو عبد الناصر أم هو الجهل والتخلف؟ أم هو الاستعمار والامبريالية والصهيونية ومؤامراتهم على العروبة والإسلام كما يصر أكثر الناس على ذلك حتى لا يواجهوا أنفسهم ولا يواجهوا الواقع؟!

منذ الصفعة المهينة لحرب حزيران ١٩٦٧ التي سحبت الشرعية من الحركات التقدمية، جميعاً بلا استثناء، عاد الناس إلى الإسلام. والحق أننا لا نملك غيره هوية وتراثاً وسنداً ومرتكزاً وتاريخاً. وهل من أمةٍ عربيةٍ قبل الإسلام ؟! ولكنّ المسألة هي هل يمكن أن نعود إلى إسلام القرن السابع، أم لا بدّ من جلبه إلى القرن الحادي والعشرين؟ لا يستطيع أحد مخالفة سُنّة الكون فالزمن يسير إلى الأمام لا إلى الخلف. وتقليد السلف الصالح في الشكل، لباساً وقيافة وطرائق معيشة، لا يعيده إلينا ولا يرجع لنا أمجادنا الغابرة.

الحق أنّ عدداً من المفكرين اللامعين بدأ يكتب دراسات نظرية تحاول

من خوارج العصر، اليد الطولى في توجيه الرأي العام، وصار العقلاء يرون في أحاديث الشيخ يوسف القرضاوي أملاً في عودة العقل...!

إذن فسياسة المصانعة والمداهنة والنفاق ما عادت مجدية. إنّ سياسة النفاق في تاريخنا العربي الإسلامي كانت مدمرة على المدى الطويل منذ أيام معاوية بن أبي سفيان. أمّا في هذه الأيام التي نعيش، فإن روائح الانقراض بدأت تفوح منها. فذهاب الناس إلى التفكير السلفي أفواجاً ووضع عقولهم في شرنقته، والتمسك بمظاهر القرن السابع، مع وجود الصحن اللاقط على السطوح إنّما هو استقالة رسمية موثقة من الوجود في هذا العصر. ولا يفرحنّ أحد بعمليات الاستشهاد الجهادي (الشمشونية الجبارة)، فهي وحدها لا تؤدي إلى أي هدف، فالعقل هو الذي ينتصر في النهاية، وتاريخ الإنسان على الأرض شاهد على ذلك! وأقولها بالفم الملآن لأنها صارت عندي بعد طول التجربة والدرس قناعة راسخة: إنّ الذي أوصل الناس إلى التفكير السلفي الانتحاري إنما هو سياسة النفاق تحديداً. فالتمسك بمظاهر القرن السابع، واللاقط على السطح والهاتف المحمول في الجيب إنما هو ابن انتصار القائد وهزيمة الأمة!!... لكنّ التوجه إلى الماضي من أجل التقوقع فيه طلباً للآخرة بسبب اليأس من الحاضر يُجرّد الحياة من معانيها، لأنّه يعكس منطق الأشياء. فبدل أن تستشرف آفاق المستقبل مستفيداً من عبر الماضي، تدير ظهرك للمستقبل متجاهلاً الحاضر مهملاً عبر التاريخ متلهفاً للحياة الآخرة. وفي تاريخنا القديم عرب بائدة! والأرض لله يهبها من يشاء، أي أنها تبقى لمن يستحقها.

VI

فارس الخوري وميشيل عفلق بدل عن ضائع

قلنا إنّ قضية المواطنة والمساواة بين الناس أمام القانون على اختلاف أديانهم ومذاهبهم بقيت منذ خط شريف كولخانه في العام ١٨٣٩ وإلى يوم الناس هذا حبراً على ورق لم يتقبلها الناس لا في السياسة ولا في الرئاسة ولا في الأحوال الشخصية. وإنّ الذي يعبر عن ضمير الناس، الأكثرية الساحقة من الناس، هو بن لادن والظواهري والزرقاوي وأمثالهم، وإن شئت التعبير المهذب المرن والراقي في ظاهره، فالشيخ يوسف القرضاوي. والباقي ما هو إلا تكاذب ودود ولطيف بين الناس. أما الأقلية التقدمية واليسارية فقد رأينا كيف انجرف أكثر أفرادها في الموجة السلفية التي أطلقوا عليها اسم الصحوة الإسلامية، ومن حافظ منهم على قناعاته العصرية واليسارية، تراه إلى الآن يرفض التصدي أو حتى التوقف أمام هذه القضية. فمثلاً في الحرب الأهلية اللبنانية، كانت الحركة اليسارية بقيادة كمال جنبلاط تتصدى للتطرف اليميني المسيحي، ولا تعطي أي اهتمام لا للأسباب العميقة للمشكلة، ولا للتطرف الإسلامي المقابل في الذبح على الهوية. ذلك كله بحجة حماية المقاومة الفلسطينية والخلاص من امتيازات المارونية السياسية. وإلى الآن لم يحاول أحد استخلاص العبر. وحده ياسين الحافظ انفرد بموقف أقل سلبية حيال التدخل السوري في لبنان (وهو اليساري المعارض جداً للنظام القائم في سورية) استناداً إلى تحليله للحرب اللبنانية كحرب طائفية قذرة بين فلقتي الأمة ــ بحسب تعبيره ــ ومنح الأولوية لوقف الحرب لا لانتصار اليسار اللبناني، الذي رأى أنه قشرة سطحية على عمق

مفوت، في ما اعتبر المقاومة الفلسطينية متورطة. ورأى أنّ الحرب تعاقب لبنان على ديمقراطيته ودوره كنافذة ثقافية للعالم العربي على العالم الواسع.

لمع في الحركة الوطنية المناضلة ضد الانتداب الفرنسي على سورية اسم فارس الخوري وتولى في قيادتها وفي الحكم مناصب مهمة وأساسية، فكان الرجل الثاني في جميع المراحل منذ العام ١٩٢٥ وتأسيس حزب الشعب برئاسة عبد الرحمن الشهبندر، إلى الكتلة الوطنية برئاسة هاشم الأتاسي ثم شكري القوتلي. وتولى في الحكم رئاسة البرلمان ورئاسة الوزارة. لكن الناس إلى يومنا هذا يستشهدون ببروز دوره السياسي حتى لا يواجهوا حقيقة مسألة المواطنة والمساواة التامة أمام القانون. وحتى بعد أن مات سرت شائعات عديدة، تقبلها بعض الناس، بأنه أسلم. وكُتب وقيل في ذلك شيءٌ غير قليل، بما في ذلك الشيخ علي الطنطاوي، الذي كان خطب من على منبر الجامع الأموي في صلاة الجمعة قائلاً إن أبعد مسلم في باكستان أو أندونيسيا أقرب إليه من فارس الخوري، وكان يومها رئيساً للوزارة في عهد الاستقلال. وإشاعة إسلامه تستند إلى أن المشايخ في دمشق قرأوا له القرآن في مأتمه سنة ١٩٦٢، وإلى أنه كان يحب الاستماع إلى تجويد القرآن في حياته. ولكن السند الحقيقي للشائعة هو راحة النفس من التناقض القائم بين قبولهم بزعامته السياسية وبين كونه مسيحياً. بينما الحقيقة تكمن في أن مسيحيته بالذات كانت سلاحاً في وجه الفرنسيين وسحباً للبساط من تحت أقدامهم كحماةٍ للأقليات كما زعموا...! علاوة على العقل والثقافة وقوة الشخصية والدهاء، وإتقانه العربية والإنكليزية، وهيبة السن أيضاً، فقد بدأ بالظهور على مسرح السياسة مع الشهبندر قبل بروز الآخرين، ومنذ أيام العثمانيين ومجلس المبعوثين. وكان المتعلمون بين الزعماء في بلاد الشام

يعدون على الأصابع. وحتى لا نطيل أكثر من ذلك نقول باختصار: هذه هي مسألة إسلام ميشيل عفلق في جوهرها أيضاً، بل هذه هي مسألة رئاسته لحزب البعث. ولإيضاح المسألة نروي تعليق جلال السيد على إعلان إسلام عفلق بعد وفاته، إذ قال: " إنّ الإيمان مسألة بين الإنسان وربه لا يحق لأحد التدخل بها. لكنّ إسلام عفلق – إن صح – هو خطأ سياسي. فنحن اخترناه لرئاسة الحزب أصلاً لكونه مسيحياً، مع أنه كان يوجد من هو أكفأ منه للرئاسة، ولكننا قصدنا بذلك أن يكون عنواناً لعلمانية الحزب" !! هل هناك أوضح من هذا الكلام؟ وهل هناك من شك في كون رئاسته بدلاً من ضائع؟ وأن الضائع هو قضية المواطنة والمساواة التامة أمام القانون. طبعاً في حالة فارس الخوري لم يحتج الأمر إلى أكثر من شائعات وكتابات وأقوال، لأنهم لم يولوه رئاسة أولى. أمّا في العراق فكان عفلق، بحكم نظام الحزب الحاكم، هو الأول رسمياً وان كانت أوليته شكلية – بروتوكولية. ولكن صدام حسين تحمل الكثير من العنت وخصوصاً من الدعاية الخمينية في أثناء الحرب، فكان أن سرّب عن طريق المخابرات ما سماه وثيقة تثبت إسلامه. وقد قرأتها وليس فيها أي جديد غير السطر الأخير الذي يقول أنه أوصى بأن يدفن مسلماً. وصيغة السطر الأخير هذا، تختلف جذرياً عما قبلها، وليس عليها أي دليل لا بخطه ولا بشاهد غير صدام الذي أعلن ذلك رسمياً بعد وفاته، ليقول للناس أنا قبلت رئاسة رجل مسلم اسمه أحمد عفلق. فتأمل أيها القارئ واحكم على المسألة بما تراه إن كانت المسألة تهمك أصلاً. لكن إسلام عفلق، من وجهة نظري وعلى هذا الشكل، له معنى واحد فقط لا غير، وهو أن ليس لغير المسلم الحق في تعاطي السياسة بالمعنى الكامل للكلمة. أي أن مسألة الذمي ألغيت في الواقع **(DE FACTO)** وليس في القانون **(DE JURE)** كما يقترح ويطالب صادق العظم بإلغائها أسوة بإلغاء

الأحكام الشرعية المتعلقة بالعبودية. وهذه هي النقطة التي استنكرها نصر حامد أبو زيد (في إسلام عفلق وفارس الخوري)، وذهب في انتقاده إلى الكلام على حقوق أقباط مصر. وهو لم ينتقد صدام ولم يهتم بالتصديق أو التكذيب، ولكنه اهتم، أولاً وأخيراً، بموقف الناس من حق المسيحي في المواطنة الكاملة.

بقي أن أقول إنني أبحث في هذا الأمر عن الموضوع. ولست في صدد الكلام على الرجلين أو المقارنة بينهما. إذ شتّان بين نهار فارس الخوري المشرق وليل ميشيل عفلق المظلم، أكان ذلك من حيث الشخصية، أو من حيث النتائج. وإذا كانت السياسة في جوهرها بدائل ونتائج، والنتائج هي التي تحكم على حسن اختيار البدائل، فإن في جلاء الاحتلال عن سورية في العام ١٩٤٦ وفي احتلال العراق في العام ٢٠٠٣ يكمن الفارق الرئيس بين الرجلين...!!

VII

استخلاص العبر

يقول توينبي: "إن الذين يقرأون التاريخ ولا يتعلمون منه، أناس فقدوا الاحساس بالحياة، لأنهم اختاروا الموت هرباً من محاسبة النفس، أو صحوة الضمير والحس." وقد سمّى ابن خلدون كتابه التاريخي، الخالد بمقدمته العظيمة، كتاب العِبَر. ومعلوم أن ابن خلدون هو مؤسس علم التاريخ الحديث، إذ كان التاريخ قبله عبارة عن سرد للوقائع. وهو في بحثه عما

سماه علم العمران هو المؤسس لعلم الاجتماع. وابن خلــدون أساساً هو آخر نور من أنوار الحضارة العربية الإسلامية وآخر مبدع فيهــا، وقــد اســتفاد الغرب منه كما استفاد من ابن رشد قبله. أمّا نحن فنتفاخر بهما ولا ندرسهما، فضلاً عن أن نستفيد مما بناه الغرب على دراستهما... نحــن لا نســتخلص العبر من تجاربنا فضلاً عن تجارب غيرنا! نحــن لا نرتب علــى الشــيء مقتضاه. وليس أتعس ممن لا يتعلم من تجارب غيره إلا الذي لا يتعلم مــن تجاربه ذاتها، فيبقى يردد ما حفظه في شبابه حتى يبلغ أرذل العمر، بلا أيــة مراجعة أو شكوك، ومن دون أن يتعب نفسه في طرح الأســئلة أو إعمــال الفكر. والأنكى أن يكون ما حفظه في شبابه قد عفا عليه الزمن منذ أجيــال وقرون...! نحن نكتفي منذ سقوط بغداد فــي ٩ نيســان ٢٠٠٣ بــالقول إن الولايات المتحدة هي العدو، وأنها تنفــذ سياســتها الإمبرياليــة الصــهيونية المعادية للعرب والمسلمين. ونهتف للمقاومة وندعمها، ونأمل أن تتعب أمريكا فتخرج من العراق، ولا نسأل أنفسنا لماذا حدث ذلك، ولماذا وصــل أكثــر الناس في العراق إلى الحد الذي وصلوا إليه قبل الاحتلال، وبُعيد الاحــتلال، وكيف أقبلوا على عملية الاقتراع والانخــراط في العملية السياســية لبنــاء العراق من جديد، وإعطاء الأولوية لذلك على مقاومة المحتل. نحن لا نسأل أنفسنا عن المعنى الحقيقي للذي حدث بسقوط بغداد، مع أنّ معاناة العرب في جميع دولهم التي نالت الاستقلال في أواسط القرن الماضي ــ وكان العراق أسبقها ــ توضح لنا بما لا يقبل الشك أننا ناضلنا لنيل الاستقلال، وعنــدما حصلنا عليه لم نفعل ما يترتب عليه: لم نبن دولة تلائمنا، ولم نــنهض مــن تخلفنا، بل العكس هو الذي حدث. لقد خرّبنا الدولة التي بناها لنا المســتعمر وازددنا تخلفاً. إنّ الذي حدث بسقوط بغداد في ٩ نيسان ٢٠٠٣ هو ســقوط

دولة الاستقلال وليس أقل. وإذا لم نبادر إلى نبذ هذه "المقاومة" المضحكة المبكية (أو كما يقول المتنبي: ولكنه ضحك كالبكا)، وإذا لم نبادر إلى إعمال العقل لاستخلاص العبر، وللبناء على الأمر مقتضاه، فستكون نكبتنا في العراق أسوأ من نكبتنا في فلسطين، وخصوصاً إذا نجحت جحافل الظلام في إثارة حرب أهلية.

VIII

يقول مالك بن نبي: " تأتي كوارث التاريخ نتيجة لانتقام الأفكار التي خانها أصحابها"

عندما حدث انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ في بغداد، ظن البعثيون أن الحزب المدني هو الذي استولى على الحكم وقضى على انعزالية عبد الكريم قاسم، وأنه، أي الحزب، سوف يعيد إلى العراق دوره العربي الوحدوي ويخرج الوضع في سوريا من بين سندان الرجعية ومطرقة عبد الناصر، ليفتح آفاق وحدة اتحادية تقوم على دعائم شعبية قوية تعيد السياسة إلى التداول بين الناس، أي تعيد الحرية والديمقراطية. وحده عبد البرعيون السود أبصر الأخطار المحدقة وحذّر منها بمقالة عنوانها: "هل يحدث التحول؟" نُشرت في جريدة "البلد" الحمصية في ١١ شباط ١٩٦٣، أي بعد ثلاثة أيام فقط من الانقلاب، وكأنه كان يتنبأ بما حدث بعد ذلك في العراق، لأنه استطاع بنزاهته وبعد نظره أن يرتفع فوق الضغوط الآنية التي كنا نعاني منها جميعاً. ولكن، فوق ذلك، لأنه كان يعرف تفصيلات الوضع الحزبي في

العــراق بسبب قرب بعض أعضاء القيادة القومية السابقة منــه مثــل عبــد الرحمن منيف وغيره.

لقد مهد انقلاب شباط في العراق لانقلاب ٨ آذار ١٩٦٣ في ســورية. وانغمس أكثر البعثيين وحلفاؤهم في البلدين فــي محاولــة تقليــد التجربــة السوفياتية من جهة، ثم تقليد الأسلوب الناصري من جهة أخرى. فكــان أن غابت الوحدة ومعها الحرية وتحولت الأفكار الاشتراكية في التطبيــق إلــى رأسمالية دولة، وعملياً إلى قطاع عام ينخره العجــز والفســـاد. وضــاع استقلال العراق، وما نزال في سورية نتعلق بحبال الهواء كما يقول المثل، أو كالغريق الذي يتعلق بقشة. ولا ندري من أين ستأتي خشبة الإنقاذ.

أما لبنان — الذي لم يقدر أحد على سحب السياسة فيه من التــداول — فإنّ خروجنا منه، بعد حراك شعبي عزّ نظيره في بلادنا العربية، فيجــب أن يكون لنا درســاً وحافزاً لإعادة فحص التجربة السورية واختياراتهــا منــذ مطلع الاستقلال، في ضوء تجربة لبنان من حيث اختيار النظام الحر والعلم الحقيقي. فسقوط التجربة السوفياتية، وفشل الأفكار اللينينية، لم يُبــق أمامنــا مجالاً للمكابرة.

كان للبعث في الخمسينات تجربة أُهملت بسبب ما حــدث فــي عهــد الانفصال المهلهل والسخيف كسخف وضيق أفق الضباط الذين قــاموا بــه، وجاؤوا بمأمون الكزبري الذي كان قد طرده الشعب بعد سقوط الشيشــكلي. فوقعنا ضحية فعل وردة فعل، بين الرجعية والناصرية، وغيّبنا تلك التجربــة التي كان رائدها أكــرم الحوراني. وإنّه لمن الإنصاف أن نقــول ذلــك، إذ

بصرف النظر عما قاله مؤلفو الدعاية ومروجوها أو المتأثرون بها؛ وسواء أكتب سامي جمعة أو محمد معروف أو خالد العظم؛ ومهما تقول الناصريون أو تشدّق العفلقيون عن الوحدة والانفصال؛ تبقى حقيقة تاريخية لا ينكرها إلا مكابر مضحك، وهي أن أكرم الحوراني هو الزعيم الوحيد في تاريخ سورية الحديث الذي صنع للاتجاه التقدمي زخماً شعبياً أفصح عن نفسه في صناديق الاقتراع في خمس دورات انتخابية متتالية، وبوتيرة تصاعدية، من العام ١٩٤٣ إلى العام ١٩٦١، وذلك في وجه أعتى القوى الرجعية أو المحافظة من كبار الملاكين والإقطاعيين، إلى كبار التجار المحتكرين والرأسماليين الجشعين، إلى حلفائهم من رجال الدين والمتاجرين به. ولقد رأينا بعد عزله عن العمل السياسي ماذا حلّ بنا على يد الثورويين الأشاوس...!! وأنا لا أقول هذا من باب الإنصاف فقط، وإنما لألفت النظر إلى إمكانية عودة الحراك السياسي إلى سورية، وأنّه إذا أُحسنت إدارته يمكننا تجنب الوقوع في مطب الرجعية المحنّطة. فالظروف الدولية وحتى الإقليمية وخصوصاً في لبنان بعد خروجنا منه، يمكن أن تكون عوامل مساعدة بدل أن تكون مصادمة ومثبطة.

IX

التقدم ابن المدينة

لقد وصلت روابط المجتمع المدني عندنا إلى حالة انحلال عام لشدة ضعفنا ولخروجنا عن إرث التقاليد من دون الدخول في العصر والحداثة. فغدونا كالمنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى! ومع اقتراب نهاية حياة جيلنا

تنقضي مرحلة كئيبة من تاريخ بلادنا. فنحن لم نفرح فرحاً وطنياً عاماً، خلال ستين سنة، إلا مرتين: مرة يوم جلاء الجيوش الأجنبية في ١٧ نيسان ١٩٤٦، ومرة يوم الوحدة مع مصر في ٢٢ شباط ١٩٥٨، ولم تدم فرحتنا في المرتين. فبعد الجلاء بسنتين نُكبنا بفلسطين وتأسيس إسرائيل فيها. كما لم تدم فرحتنا بالوحدة أكثر من ذلك وانفصلت الوحدة بدل أن تتوسع. ولقد شارك شعبنا ـ بنخبه وجماهيره المدينية والريفية ـ في النضال الوطني من أجل الاستقلال على مدى ربع قرن حتى تم له الجلاء. ثم شارك بنشاط في إسقاط الديكتاتورية العسكرية وإقامة الديمقراطية البرلمانية وحمايتها من المؤامرات. وكذلك شارك في صنع بداية للوحدة العربية. لكن النخب المدينية قصّرت في احتراف العمل السياسي والحزبي في سورية والعراق وفي مصر أيضاً. والنخب الريفية هي التي احترفت النضال السياسي وتصدت للقيادة، وهذا مخالف لطبيعة الأشياء، فالمدينة هي التي تقود التقدم، وكلمة مدينة من المدنية والتمدن. ولأن النخب المدينية قصّرت في ذلك (حتى لا نقول أنها أهملت الأرياف وظلمتها) انقلبت الأمور وصار الحصان خلف العربة. ودخلت عملية التقدم في حالة استعصاء. هذه ملاحظة موضوعية تختصر معاناة جيل بكامله. وإذا لم تخرج النخب المدينية من شرنقة السلفية، فتغادر سلبيتها وتتخلى عن رواسب القرون من التفكير الغيبي وأحلامه، وتنغمس في العمل السياسي بروح العصر وتتصدى بالتالي للقيادة بفكر معاصر وتقدمي حقيقيٍ وواقعي، فإنّ حظوظنا في الخروج من مأزقنا، في المستقبل المنظور، سوف تبقى ضئيلة بل تكاد تكون معدومة. وقديماً قيل: " إذا لم يبن الرب البيت، عبثاً يتعب البناؤون".

X

ملاحظتان

بقيت ملاحظتان لا بد منهما:

الأولى: عن الماسونية، فأنا لا أعرف عنها شيئاً، وهي أمر مذموم لدى أكثر الناس. فهي حركة سرية، والإنسان عادة عدو ما يجهل. ولكن يجدر القول إنّه كانت لها سمعة تنويرية تقدمية في مطلع القرن العشرين. والدليل على ذلك ما كانت تنشره الصحف أو المجلات التي عُرف عن أصحابها انتماؤهم الماسوني (كالهلال والمقتطف). ولهذا كانت رائجة بين المتنورين من المثقفين في العراق خصوصاً وفي بلاد الشام، فضلاً عن مكان صدورها في مصر. وكذلك ما عُرف عن أهم الزعماء الوطنيين في سورية، في ذلك الزمن، وعن دورها ــ أي المحافل الماسونية ــ في مساعدة جمعية الاتحاد والترقي في المطالبة بالدستور (انظر علي الوردي ــ لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، جزء ٣ فصل ٥). ولا أستبعد أن يكون النفوذ الصهيوني قد تغلغل فيها بعد ذلك، فانحسر انتشارها في بلادنا لهذا السبب.

الثانية: حول أصولي العائلية. فنحن ننتمي إلى الطبقة الوسطى، وعندما أتكلم على اليسر والعسر، وأن جديَّ كانا ميسورين، فذلك بمقاييس تلك الطبقة الوسطى التي ننتمي إليها، والتي غالباً ما يعاني أفرادها تقلب حالات اليسر

والعسر. ومن هنا تشبيه الرجال عندنا بأغصان الشجر التي تعرى ثم تكتسي.

نبيل الشويري
دمشق أواخر حزيران ٢٠٠٥

- **ولدتَ في حي الميدان في دمشق العتيقة. كيف تتذكر طفولتك في هذا الحي؟**

- صحيح أنني ولدت في حي الميدان، لكنَّ والدي لم يلبث أن انتقل، مبكراً، إلى حي القصّاع، أي إلى الحي الشرقي من المدينة. أما طفولتي الأولى فقد أمضيتها في الميدان حيث بيت العائلة، وفيه جدتي وأعمامي وعمّاتي، فلطالما كنت أمضي أياماً عندهم خصوصاً في الصيف. كما أن بيت جدي لأمي وأخوالي وخالاتي هو أيضاً في الميدان. فأنا "ميداني" حقاً. وها إنني عدت إلى الميدان بعد هجرة طويلة، وأعدت بناء بيت جدي من جديد وسكنت في الميدان ثانية. ولا أخفيك أني أميل إلى عادات أهل الميدان، فهم أقرب إلى خشونة أهل البر وبساطتهم، منهم إلى طراوة أهل المدينة ودمشقتهم*.

أود أن أروي لمحاتٍ مختصرةً عن الشام العتيقة التي نشأت فيها وترعرعت. الشام، كما تعرف، أقدم مدينة في التاريخ مازالت مسكونة حتى اليوم، ومن غير المعروف تماماً التاريخ القاطع لبنائها. ربما أثبت التاريخ أن هناك مدناً نشأت قبل الشام، لكنها اليوم مهجورة أو ميتة. المدينة الأقدم الوحيدة المستمرة حتى الآن هي دمشق. ومن الغرائب أن نهر بردى الذي يخترق المدينة ينقسم إلى ستة فروع. وهذا التفريع تم بيد

---

* يقال فلان مدمشق أو تدمشق أي تمدن ولانت عريكته.

الإنســان وليس من عمل الطبيعة. ولكن لم يُعرف قط مــن قسّــمه أو مَــن وزّعه. ولعله النهر الوحيد في العالم الذي لا تضيع منه نقطة ماء واحــــدة من منبعه إلى مصبّه؛ فكل نقطـــة منه تستهلك تماماً. حتى أن مصب النهــر قائم في بحيرة على حدود الصحراء لا في البحر*. وهذا المصب يتحول إلى مراعٍ للأغنــام ومستنقعات متناثرة. الآن جفّ هذا النهر لكثرة مــا نشــلوا مياهاً من خزاناته الجوفية وصار مثل الوديان التــي تسـيل تبعــا لمواســم الأمطار والثلوج، ثم تجف في الصيف والخريــف. والمعــروف أنَّ فرعــه الســابع شقّه العرب الأمويون وأسموه نهر "يزيد" الذي صار، في ما بعــد، نهر "تورا".

هــذه هي دمشق شاغلة الدنيــا. إنها عبارة عن شبه دائرة، لا يتجاوز محيطها ٧ كيلومترات. والرجــل الطبيعي، إذا سار سيراً رياضياً منتظمــاً حول السور، يقطعه في ٩٠ دقيقة. أي أن في الإمكان الدوران حول دمشــق القديمة في ساعة ونصف الساعة. لكن دمشق هذه بدأت فــي التوســع إلــى خارج الســور بالتدريج عندما صارت المدن لا تحتمي خلف الأسوار مــع أفول عصر الغزوات. ودمشــق القديمة هذه عبارة عــن مدينــة صــغيرة تحوطها الغوطة، وفيها نهر يجتازها من الغــرب إلى الشرق، يتوزع إلــى سواقٍ تنساب بين البيوت. ثم يخرج النهر منها إلى المراعي المجاورة. إنها مدينة جنّة، كل ما حولها غوطة وأشجار وبساتين وأزاهير.

---

* يصب بردى في بحيرة العتيبة، وطوله ٧١ كلم. ولعل أصل التسمية مشتقة من كلمة "براديوس" اليونانية أي الفردوس. وأشهر فروعه: القنوات والــديراني والمــزاوي. ويقال أن كلمة بردى آرامية وهي تعني أب أو أبونا.

من علامات توسـع دمشـق أن عدة أحياء نشأت خـارج السـور*. مثلاً، صار هناك ما يسمى "عمارة داخلية" و"عمارة خارجية" (أو بالعاميـة جوانية وبرّانية، أي داخل السور وخارجه). سوق ساروجة، مثلاً، هو امتداد للأسواق التجارية، بينما حي القنوات امتداد لأرقى حي في الشـام القديمـة، والقلة يعرفون أن اسمه القديم كان "سيدي عامود" أو "حي سـيدي عـامود"، وكان مقراً للأغنياء من تجار دمشق. وفي سنة ١٩٢٥ عندما استطاع عبـد الرحمن الشهبندر أن يجعل الثورة السورية الكبرى (ثورة جبل العرب) تمتد إلى دمشق، ولا سيما إلى حي الميدان والغوطة، فإن تجار دمشـق تحولـوا فوراً إلى مناصرين للثورة وللشهبندر نفسـه، وراحوا يرسلون التبرعـات إلى الثوار. وعندما قـرر الفرنسيون قصف دمشـق ركّزوا القصف علـى مقر الثوّار في الميـدان، وعلى أحياء مناصري الثورة فـي حـي "سـيدي عامود"، وهذا الحي احترق كله في القصف وصار خراباً.

- **أين كان موقعه بالتحديد؟**

– في موقـع "الحريقة" اليوم الملاصق لسـوق الحميديـة. وسـمي بـ"الحريقة" لهذا السبب.

---

* بناه الرومان في أوائل القرن الثالث للميلاد، وظل قائماً حتى احتل العباسيون دمشق فخرب ولم يبقَ منه إلا قطعة صغيرة بين باب توما وباب السلام. ثم أعيد بناؤه في زمن نور الدين زنكي (الدولة الأتابكية) واستكمل في عهد الدولة الأيوبيـة بعـدما أضاف المماليك إليه بعض المداميك. وتخربت أجزاء منه في عهد الدولة العثمانية.

وبيوت هذا الحي كانت من أجمل بيوت دمشق وعنها نُقلت بيوت الأندلس. إنه حي الأغنياء وأكابر القوم، وامتداده هو حي "القنوات". أما حي الميدان فليس من أحياء دمشق القديمة، فهو يقع خارج أسوارها التاريخية. ثم إنه يبدأ من باب الجابية وينتهي إلى بوابة الله. قبل الفتح العربي لم يكن في دمشق باب باسم باب الجابية*. كانت دمشق القديمة تمتد ما بين الباب الشرقي والباب الغربي، وبينهما الشارع المستقيم المذكور في سفر أعمال الرسل من الإنجيل.

- **اسمه اليوم شارع مدحت باشا. أليس كذلك؟**

– نعم. وهناك وقعت حادثة بولس الرسول عندما انقلب من أحد كبار مضطهدي المسيحية إلى أكبر داعية لها**.

---

* في الروايات التاريخية أن أبو عبيدة بن الجراح دخل إلى دمشق من هذا الباب سلماً في سنة ٦٣٥ ميلادية (١٤هجرية)، بينما دخل خالد بن الوليد من الباب الشرقي عنوة. وفي قرية الجابية في الجولان عقد مؤتمر الجابية المشهور في سنة ٦٨٤ ميلادية الذي بايع مروان بن الحكم بالخلافة، فانتقلت الخلافة من الفرع السفياني لبني أمية إلى الفرع المرواني.

** اسمه العبري شاول. ولد في طرسوس من أعمال كيليكيا، واشتهر باضطهاد المسيحيين، ثم تحول إلى المسيحية بينما كان في الطريق إلى دمشق، واستشهد في سنة ٦٧ بعد الميلاد.

- **بجوار هذا الشارع تقع كنيسة القديس حنانيا أيضاً؟**

– نعم، عند سور دمشق. ومن هناك تدلى بولس عن السور ليخرج هارباً من اليهود. قصارى القول، إن تسمية الباب الغربي بـ"باب الجابية" جاءت من اسم قرية في الجولان اختارتها جيوش الفتح العربية لتكون مقراً لها، وهي (الكوفة السورية). الجابية كانت مقرّاً للقبائل العربية التي جاءت لفتح دمشق وبلاد الشام. وكان دخول هذه الجيوش إلى دمشق يمر بهذا الباب، لذلك صار اسمه "باب الجابية*.

- **مثل أبواب القدس تماماً. هناك باب دمشق وباب الخليل وباب يافا؛ فهذه الأبواب كانت تبدأ منها الطرق التي تؤدي إلى تلك المدن.**

– خارج الأسوار لم يكن هناك حي باسم الميدان، بل مكان اسمه ميدان الحصى. كان مجرد مكان لسباق الخيل ولنزهة الخيالة، ومحطة للوافدين من الأرياف الجنوبية إلى المدينة.

---

* أبواب دمشق الأساسية سبعة هي: الباب الشرقي، باب توما، باب السلام، باب الجابية، باب الفراديس (أو باب العمارة)، باب كيسان، الباب الصغير. وهناك باب الفرج وهو يقع في سوق المناخلية خارج سور دمشق، فضلاً عن باب النصر الواقع عند سوق الأروام وقد تهدم، وباب الجنيق الذي سُدّ منذ زمن بعيد وكان يقع بين باب توما وباب السلام، وباب البريد أيضا.

دمشق مدينة مفتوحة على الأرياف الجنوبية في الأساس. فشرق دمشق غوطة ثم بادية الشام، وفي الغرب وادٍ محصور، وفي الشمال جبال جرداء. الجنوب هو الفضاء المفتوح. والجنوب عبارة عن السهول الخصبة في حوران والجولان وجبل العرب. وعلى جانبي هذا الميدان، الذي هو مجرد طريق ضيق، نشأت الحارات يميناً ويساراً.

حي الميدان، كما أتذكره، كان مجرد طريق ترامواي* أي عبارة عن سكّة حديد تبدأ في ساحة المرجة وتنتهي عند بوابة الله. وكان الرقم ١ هو رقم الترامواي الخاص بالميدان، لأن قطاره كان يربط هذا الحي الكبير بالمدينة منذ أوائل القرن العشرين. الترامواي رقم ٢ لم يكن موجوداً لأنه كان مرصوداً لحي ركن الدين، وظل هذا الخط بلا قطار. الرقم ٣ كان لحي الشيخ محي الدين، ورقم ٤ للمهاجرين، ورقم ٥ للقصّاع، ورقم ٦ لدوما.

إذن، هذا الطريق، الذي هو طريق السكة، وكان اسمه "السلطاني" قبل تدشين السكة الحديد، كانت تتفرع منه عدة حارات تبدأ بالسويقة ثم بالميدان التحتاني. والميدان مقسّم إلى ثلاث جهات: التحتاني والوسطاني والفوقاني. الحي الأقرب إلى المدينة اسمه التحتاني، ومنه تهبط إلى المدينة. ونحن نقول "نازل عَ المدينة" و "طالع عَ الميدان". الميدان التحتاني يعني السويقة وباب المصلى والقرشي. الميدان الوسطاني ينتهي بـِ"الجزماتية". أما الميدان الفوقاني فينتهي عند بوابة الله. وهذه التسمية جاءت من كون

---

* قطار كهربائي.

طـريق الحج يبدأ من هذه البوابة فسميت "بوابة الله". في الحي الذي صار اسمه "باب المصلى" كان ثمة جامع يدعى "باب المصلى"، وفي هـذا المكان كان الحجاج يقفون ويصلون ثم ينطلقون إلى مكة. وبوابة الله عبـارة عـن حارات وأزقّة ضيقة متفرعة من حارات عديدة.

المسيحيون، الذين سكنوا الميدان كلُّهم من أصـول ريفيـة، غيـر أن أكثريتهم سكنت زقاق التيامنة في باب المصلى وفي زقاق الموصلي وزقـاق القرشي وزقاق العسكري.

- **القرشي بالألف أم بالقاف؟**

- هذه كلمة تركية، تكتب (قوره شي). ومهما يكن الأمر، ففي زقـاق القرشي كنيسة للأرثوذكس، مثلما توجد في باب المصلّى كنيسـة للكاثوليـك حتى الآن. وفي خضم هذه التغيرات كانت الكثير من العائلات الدمشـقية تخرج إلى السكن في حي الميدان وفي أحياء أخرى قريبة.

- **مثل بلدة جرمانا؟**

- وفي القصاع أيضاً وفي حرستا. حتى إن عـائلات مشـهورة مـن عائلات دمشق تغيرت أسماؤها في الميدان. عائلة عربي كاتبي مـثلاً مـن دمشق القديمة صار اسمها في الميدان "الرجّال".

أنا ولدت في سنة ١٩٣٣ في الميدان. كان جدّي توفي وترك خمسة أبناء وخمس بنات. نشأت في بيت كبير من البيوت القديمة مساحته ٤٢٥ متراً مربعاً، أي أنّه بيت من بيوت الميسورين في ذلك الزمان، تتوسطه فسحةٌ سماوية تسمى أرض ديار، فيها بحرة ماء وشجر، ويتألف البيت من سبع غرف وقاعة لاستقبال الضيوف يعلو سقفها أكثر من خمسة أمتار، أما الفرش فهو من الطراز القديم. وكان في بيت جدي ياخور للخيل، وهذا الياخور أُغلِقَ عندما حلت السيارة محل الخيول، وتحوّل إلى حمام حديث؛ فالعائلة قبل ذلك كانت تستحم في الحمامات العامة، مثل أهل ذلك الزمان. كان بيتاً جميلاً بجميع المواصفات. لكننا اضطررنا إلى هدمه منذ نحو سبعة عشر عاماً وأنشأنا في مكانه مبنى حديثاً ليستوعب بقية أفراد العائلة، خصوصاً أن خدمته أصبحت متعذرة على الساكنين.

طفولتي عشتها في حارة النصارى أي في باب توما والقصّاع. كنت أذهب إلى بيت جدّي للزيارة فقط. لكن رفاقي ظلوا دائماً من "الميادنة" الذين انتقلوا إلى القصاع وباب توما. والسبب في انتقالنا من الميدان إلى باب توما هو أن إخوتي الكبار باتوا في حاجة إلى المدارس الثانوية، ولم تكن في الميدان مدارس ثانوية ولا مواصلات، ولأن شقيقاتي أصبحن "صبايا"، ويجب أن يكون المسكن قريباً من مدارسهن، ولهذا انتقل والدي إلى حارة النصارى، ودرسنا في المدارس التابعة للطائفة الأرثوذكسية.

- **مدرسة الآسية؟**

- نعم. الآسيّة، وهي تعادل التجهيز، ولم تكن تعلم الفرنسية جيداً، تماماً مثل مدرسة التجهيز التابعة للحكومة. أي أنها مدرسة وطنية تختلف عن مدارس اللعازارية ومدارس بطريركية الكاثوليك والانجيلية ومدارس الراهبات...الخ.

هناك قصة طريفة عن حي الميدان ربما يكون لها مغزى ما. كانت الأكثرية الساحقة في أحد صفوف مدرستنا من المسيحيين، وكان في الصف اثنان من "الميادنة" فقط، أنا وصديق الطفولة فايز بطح. أما بقية التلاميذ فهم من حارة النصارى. ثم جاءت مجموعة من الطلاب المسلمين الذين رسبوا في مدارس التجهيز أو من الذين لم يرغبوا في إعادة صفهم في شهادة "البريفيه". فجأة وجدت نفسي أنا وفايز بطح من أصدقاء هذه المجموعة، بينما بقية التلاميذ نفروا من هؤلاء الوافدين الجدد. ولم أكن أفهم الأمر تماماً. في ما بعد، اكتشفت أن الذين نفروا من التلاميذ الجدد هم أبناء لأشخاص قتلوا في "الطوشة" أو نهبت بيوت أهاليهم. وهم يمتلكون تراثاً من الحكايات والقصص والروايات عن تلك الأحداث الفظيعة.

- **تقصد بـ"الطوشة" أحداث سنة ١٨٦٠؟**

- نعم بالتأكيد. في الميدان لم يكن يوجد تراث من هذا الطراز. فالنصارى في الميدان عاشوا مع المسلمين حياة مشتركة تماماً، ولم يحدث بينهم أي أمر مكدر مثلما حدث في مدينة دمشق نفسها. كنت أنا وفايز بطح عضوين في حزب البعث العربي الاشتراكي. ومن الممكن أن يكون السبب

في انتسابنا إلى حزب البعث هو هذا التسامح. لأننا كنا نشعر دائماً أن لا فرق بين المسيحي والمسلم. بينما المسيحي ابن حارة النصارى، في تلافيف دماغه، ظل ينفر من المسلم. طبعاً أنا أتحدث هنا عن مرحلة الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين، وهذه الظاهرة انتهت إلى حد بعيد. إن تراث حي الميدان، من الناحية الطائفية، مختلف عن تراث حارة النصارى بالتأكيد. فمسلمو الميدان خلال تلك الحوادث، لم يكتفوا بالدفاع عن نصارى حيّهم، بل استقبلوا من هرب من حارة النصارى وطيّبوا خاطرهم. وطبعاً كان لذلك أسبابٌ عديدة منها ما هو اقتصادي، فالتزاحم الذي كان بين أبناء المدينة – مسلمين ومسيحيين – على الصناعات الحرفية وعلى الوكالات التجارية لم يكن موجوداً في الميدان لأنَّ التجارة في ذلك الحي كانت مقصورة على مال القبان: تجارة حبوب ومنتجات حيوانية، وكانت الصناعات الحرفية محصورة في المدينة. ومنها أسباب تاريخية: فالاحتكاكات التي حدثت في المدينة بين الأكثرية المسلمة والأقلية المسيحية حول تطبيق التنظيمات القانونية (خط شريف كولخانة مثلاً)، لم تحدث في الميدان وخاصة في أيام حكم إبراهيم باشا المصري. ومنها طبيعة أهالي الميدان وزعمائهم الأقرب إلى أخلاق الفروسية. كما أن من المعروف تاريخياً أنّه عندما اشتدت حوادث ١٨٤٠ – ١٨٦٠ في لبنان وبدأت تنتقل عدواها إلى الشام قام خطيب جامع الجزماتية – في وسط الميدان – بتوعية المسلمين وتذكيرهم بالمعاني الحقيقية لذمة الرسول، وأنَّ من قتل أو اعتدى على مسيحي أو على حقه فكأنّه اعتدى على ذمة الرسول. وكرر ذلك في سلسلة من خطب الجمعة في ذلك الجامع، والخطيب هذا من آل البيطار الذين تقطن أكثريتهم في الميدان.

- **من أين اكتسبت عائلتكم اسم "الشويري"؟**

- نحن في الأصل من آل جديداني، من جديدة عرطوز*. جد أبي كان اسمه إبراهيم جديداني. ولسبب ما غادر جديدة عرطوز وجاء إلى الميدان، ولا ندري السبب في ذلك أبداً، لأنه مات باكراً وترك ابناً كان عمره آنذاك ثلاث سنوات ونصف السنة. وهذا الابن هو جدي الذي أسس العائلة. وكان لإبراهيم المذكور شقيقان هما حبيب وسليمان هاجرا إلى أميركا الجنوبية. أحدهما لم يتزوج والآخر لم يرزق إلا بنات، فانقطعت الصلة بيننا وما عدنا ندري أين صار. أما جد أبي الذي تزوج بربارة، وهي من آل صوايا في الشوير بلبنان، فرزق صبياً وحيداً أسماه يوسف. والجدة هذه كان لها شقيق ميسور تاجر حبوب في دمشق وله دكان في جبل الدروز، ولم يكن راضياً عن سلوك ابنه؛ بينما ابن أخته يوسف جديداني، أي جدي، فقد كان فتى متفتحاً وجدياً، وراح يعمل مع خاله، ثم ورث تجارته بعدما نشأ على تربية والدته بربارة، أي جدتي الشويرية. أصلاً لا يوجد عائلة كنيتها "الشويري". إنها مجرد نسبة إلى بلدة الشوير اللبنانية التي يوجد فيها خمس عائلات أساسية هي: صوايا ومجاعص وشعيا ومرهج وقربان. الشوير واقعة في قعر وادٍ من وديان صنين، والسفح الذي يظهر منها يدعى ضهور الشوير. ضهور الشوير صارت المدينة أما الشوير فلا زالت تحت، وأهلها يهاجرون منها لضيق الرزق. وكانت أكثريتهم تشتغل في البناء أو في المكاراة (مكارية)، وعندما يصيب بعضهم الثراء يعملون في التجارة.

---

* تقع على مسافة ١٢كلم جنوب دمشق على الطريق إلى الجولان. ويمر بها نهر الأعوج الذي يستمد مياهه من جبل الشيخ، وتشتهر بزراعة الزيتون.

وكانوا يستوطنون بلاد الخير أي حوران وجبل حوران ودمشق، ومنهم شقيق جدة والدي الذي استوطن الشام وعمل في التجارة وصارت كنيته الشويري. وعندما اشتغل جدّي معه كان البدو والحوارنة لا يعرفون إلا دكان الشويري في جبل الدروز ثم في دمشق. وصار هؤلاء يقولون الشويري الكبير والشويري الصغير، وهكذا طغى اسم الشويري على جدي وهو من آل جديداني. ولما مات خال جدي بقيت التجارة باسمه وعُرف بالشويري، ولم يتغير الاسم رسمياً إلاّ بعد أن ولدت أنا وولد أبناء عمي الصغار، وبعد أن شرع اخوتي في تحصيل الشهادات المدرسية. حينئذ أقام أبيّ دعوى لتصحيح الاسم في دوائر النفوس كي لا تصدر الشهادات باسم مختلف عن الاسم المعروف. والآن في سجلات النفوس نجد أن لقب جديداني مشطوب بحكم قضائي. وكان الجديداني الأصلي هو جدي الأعلى الذي سكن زقاق العسكري وحفر بئراً صارت تدعى "بئر الجديداني". وعندما أصبح ابنه ميسوراً، اشترى هذا البيت الذي ما زلنا نملكه منذ سنة ١٩٠٥. والحقيقة أن ثمة ظاهرة في دمشق، وربما في مدن أخرى أيضاً، هي الهجرات المسيحية المتتالية من لبنان إلى سورية والهجرات المسيحية الأخرى من سورية إلى لبنان*. وهذه الهجرات حدثت، أكثر ما حدثت، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وحتى في القرن العشرين. في أواسط القرن التاسع عشر وفد إلى دمشق الكثيرون من قرى جنوب لبنان وسكنوا في أحياء قريبة من المدينة مثل الميدان أو في دمشق نفسها. وهؤلاء

* الهجرات اللبنانية إلى سورية كثيرة منها هجرة اليمنيين بعد معركة عين دارة في سنة ١٧١١، وهجرة العائلات المسيحية والدرزية إبان المجاعة في الحرب العالمية الأولى، وهجرة الكثيرين خلال الحرب الأهلية (١٩٧٥-١٩٩١).

جاؤوا من حاصبيا وراشيا والكفير*. وبالطبع هناك هجرات مسيحية من جبل الدروز ومن الجـولان. فالاضطرابات التي حدثت في أواسط القرن التاسـع عشـر في عهد إبراهيم باشا، ثـم الحروب الأهلية والمجاعات والأوبئـة، كانت من الأسـباب الرئيسية لهذه الهجرات، لهذا تجد أن والد جـدّي مـن جديدة عرطوز وأمه من الشوير في لبنـان. أخوالي أصلهم من حاصبيا من آل أبو داوود. وهؤلاء جاؤوا إلى دمشق في أواسط القرن التاسع عشـر. وأبعد من هذا، فإن الجادة التي نسكنها في باب المصلى تدعى جادة "التيامنة".

- **نسبة إلى وادي التيم في لبنان؟**

- نعم، من وادي التيم. أكثر سكان هذه الجادة أتوا مـن وادي التـيم، ولكنَّ وادي التيم في تلك الأيام كـان سـورياً أي خـارج جبـل لبنـان أو المتصرفية، فهو من وديان السفح الغربي لجبل الشـيخ. وهناك أقليـة مـن الدروز في الحي بينما الأكثرية من المسيحيين. الآن ما عاد فـي الإمكـان التفـريق بين المسيحي والسني والدرزي، فقد اختلط الناس تماماً من حيـث السكن طبعاً.

- **كيف تسرد تاريخ عائلتكم؟**

---

* يقول حنا بطاطو أن ميشال عفلق ربما يرجع في أصوله العائلية إلى منطقة راشيا. أنظر:

Syria's peasantry, Princeton, 1999.

– جدّي تربّى تربية قاسية. وعمل، منذ البداية، في دكان خاله في جبل الدروز وبالتحديد في قرية اسمها "أم الرمّان". المسيحيون في جبل الدروز فلاحون. لكن جدّي لم يكن فلاحاً بل صاحب تجارة بسيطة؛ يجلب البضائع الدمشقية إلى القرية عوضاً عن أن ينزل ابن الجبل في تلك الأيام إلى المدينة لشرائها. لم تكن هناك مواصلات ميسرة إلاّ الجمال أو الخيول. العربات لم تكن موجودة حتى ذلك الوقت. فكان جدّي يأتي بهذه البضائع إلى الفلاح مباشرة. وكان جدّي يشارك أهل جبل الدروز في الغزوات ضد البدو. ففي تلك الأيام كان البدو يغزون العمران في حوران وجبل الدروز وبعض القرى الواقعة على حدود البادية. وكان للدروز ميزة التضامن في وجه البدو، وهم فرسان أشدّاء. فإذا جاء النفير سرعان ما يهبون لنجدة إخوانهم، وكان جدّي يهب معهم ويتقدمهم أحياناً في رد الغزو.

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، كان جدّي قد صارت لديه عائلة كبيرة: خمسة أبناء وخمس بنات. وكانت تجارته في الحبوب جعلته واحداً من أصحاب "البوايك"* إلى جانب أغوات المسلمين من العائلات المهمة، ولم يكن في دمشق، آنذاك، إلاّ ثلاثة مسيحيين من أصحاب البوايك أحدهم جدّي. ومع بداية تلك الحرب بدأ الأتراك يضطهدون أهل الشام. وما كان ابن الميدان، فضلاً عن أبناء الأحياء الأخرى، يقبل الإهانة من الجندي التركي. فاعتقل الكثير من أغوات الميدان ومعهم جدّي. وبحسب الرواية المتواترة، اعتقل لأن رسالة من عمي المهاجر إلى أميركا الجنوبية وقعت في يد

---

* مفردها "بائكة" وتعني مستودعاً للغلال.

المراقبة البريدية التركية وفيها تعريض بالدولة العثمانية. وكاد جدّي أن يُرسل إلى المحكمة العرفية في "عاليه" التي لا تتورع عن الحكم بالإعدام فوراً. لكن مصيره كان جيداً، فصدر العفو عنه وخرج من السجن ليواجه مشكلة ابنه أي والدي. فقد كان أبي مطلوباً للجندية، لكنه رفض الخدمة العسكرية واختبأ في دمشق. وكان عمّي الذي يلي أبي بالترتيب يواجه مشكلة أخرى من شأنها أن تؤدي به إلى السجن، فغادر إلى جبل الدروز. أما جدّي فهو من مواليد سنة ١٨٦٤ وله صلة قوية بزعماء الجبل من آل الأطرش. وفي سنة ١٩١١ رجع سلطان الأطرش من الجندية إلى بلده، وكان والده ذوقان الأطرش أعدمه الأتراك في غيابه وفي السنة نفسها. وجد سلطان الأطرش البيت وقد أصبح خراباً والأراضي مُهملة ولا يوجد له معين غير الأرض. نزل سلطان إلى الشام ليستدين من التجار كما يفعل معظم أصحاب الأراضي. لم يكن سلطان معروفاً لتجار الشام أو لأهل الميدان من الذين يتاجرون مع سكان جبل الدروز. وربما كان هؤلاء لا يحبون كثيراً أهل "القريّة" بلدة سلطان الأطرش. فوالد سلطان الأطرش لم يكن رجل تجارة ومعاملات بل رجل دين و"آدمي" جداً. بينما عمه فايز الأطرش لم يكن محبوباً لصعوبة التعامل معه. وعندما جاء سلطان الأطرش إلى الميدان لم يعرف التجار أنه رجل "آدمي" كأبيه، فلم يرض أحد أن يقرضه مالاً، إلى أن أرشدوه إلى جدّي. وهذه الرواية سمعتها من أبي الذي كان حاضراً في مجلسها. قال لي أبي إن لسلطان الأطرش هيبة طاغية بشاربيه الكبيرين، وكان وجهه معبّراً جداً، وعيناه شديدتا التأثير وله حضور كبير. وبينما كان جدّي يقدم له الضيافة، اكتشف بفراسته شخصيته المميزة، فقال له ماذا

تحتاج؟ فأجابه سلطان: كذا. فأعطاه ما طلب فوراً. ولما قال له سلطان ألا تريد ورقة بذلك؟ أجابه جدّي: كلا، سيماؤهم في وجوههم والكلمة هي الشرف. بعد سنة أو سنتين، جرت العادة أن يذهب التجار لاستيفاء ديونهم في المواسم. وكان سلطان الأطرش قد تزوج وصارت له عائلة وزراعة، وأصبح شيخاً كبيراً ومحترماً في قومه. وعندما وصل جدّي إلى داره، نادى سلطان الأطرش زوجته لتأتي له بالذهب، وقال لجدّي: أتريد مالك ذهباً هذا كوم، أو تريده قمحاً فهذا هو البيدر. ومنذ ذلك الوقت نشأت بينهما صداقة قوية امتدت طويلاً. وحينما قرر جدّي الذهاب إلى جبل الدروز هرباً من الأتراك ترك بيته في الميدان لبعض الأقارب وأجّر بعض الغرف الأخرى. وفي جبل الدروز بدأت أفكار الثورة ضد العثمانيين تراود جدّي كما راودت معظم زعماء دمشق. وكان يحكى عن جمعيات سرية، وعن شكري القوتلي وفارس الخوري وعبد الرحمن الشهبندر وغيرهم. المهم أن جدّي قرر الذهاب إلى جبل الدروز وأرسل ابنه، أي والدي، إلى سلطان الأطرش ليخبره بمجيئه. وعلى الفور أرسل سلطان الأطرش رجاله ليهيئوا منزلاً لجدّي، وقال لأبي: اذهب وقل لأبيك: شرّف البيت جاهز. وهكذا سكن جدّي وعائلته في بلدة "القريّة" وهي مركز زعامة سلطان الأطرش. وكان ثلث سكان هذه البلدة من المسيحيين والثلثان من الدروز. لكن شيخ القرية واحد هو سلطان الأطرش. فهو شيخ المسيحيين والدروز معاً. وبسبب العلاقة الخاصة والحميمة مع سلطان الأطرش صار الناس يقولون عن جدّي إنه شيخ حارة المسيحيين. طبعاً كان جدّي لا ينازع سلطان الأطرش مشيخته بتاتاً، ولكنه نوع من التعبير عن الاحترام والمحبة لجدّي. وكان بيت سلطان

الأطرش في ذاك الوقت قد أصبح مركزاً لعصيان الجبل ضد الدولة العثمانية، بينما أقاربه من آل الأطرش لازالوا يتعاملون مع الدولة العثمانية. أما هو، لأسباب وطنية وفكرية ولأسباب شخصية أيضاً (إعدام أبيه واضطهاده إبّان خدمته في الجيش العثماني) ولتأثره بالأفكار العربية، كان كل من يأتي إليه لاجئاً يحميه*. وفي تلك السنوات، بعد عودته من الجندية، أسس زعامة حقيقية في الجبل والتحق به جميع الشباب الذين كانوا يختلفون مع الزعامة التقليدية لآل الأطرش، فصارت له عصبة من المؤيدين هم أشرس فرسان الجبل وأنبلهم. وطار صيته إلى حوران حتى إن أهل بصرى كانوا إذا اعتدى البدو عليهم يأتون إليه ليستنجدوا به، فيلحق بالبدو هو وعصبته حتى الأردن وحتى إلى داخل أراضي الأردن ويعيد المنهوبات ويسلّمها إلى أصحابها. وبسبب شهامته لم يكن يرضى أن يأخذ حصته التي يستوفيها عادة زعماء العشائر في مثل هذه الحوادث. وكان الدروز من أنصاره يهابون الكلام أمامه على نصيبهم المشروع. وعلى الرغم من ذلك يزدادون ولاء له ومحبة. وكان يتعامل مع مسيحيي بلده بطريقة لائقة ونبيلة حتى اكتسب احترامهم الشديد. وكان جدّي إلى جانبه في تلك الفترة. وحينما اندلعت الثورة العربية الكبرى تحمس لها جدّي كثيراً،

---

* اشتهرت كثيراً قصة المجاهد أدهم خنجر (من لبنان) الذي التجأ إلى منزل سلطان الأطرش حينما كان مطارداً بتهمة اطلاق النار على سيارة الجنرال غورو بالاشتراك مع أحمد مريود على طريق القنيطرة في ٢٣ حزيران ١٩٢١. وفي ١٩٢٢/٧/١٧ دهمت القوات الفرنسية المنزل في أثناء غياب صاحبه واعتقلت أدهم خنجر، والحقيقة أن أدهم خنجر لم يكن في عداد هذه المجموعة.

وشارك فيها إلى جانب سلطان الأطرش. وفي مذكرات فايز الغصين* سكرتير الملك فيصل الأول عن الثورة العربية الكبرى تفصيل عن اتصال رجال الثورة العربية الكبرى بسلطان الأطرش وعن أن الصلة الأولى به كانت من خلال يوسف الشويري صديق سلطان الأطرش. وتروي المذكرات أن فايز الغصين وجماعته جاؤوا إلى بلدة سلطان الأطرش "القريّة". وبعدما استضافهم سلطان الأطرش عدّة أيام وكرمهم قال سلطان الأطرش لفايز الغصين: أخبر الأمير فيصل أن لدى يوسف الشويري الأخبار كلها وهو سيخبره ما هو موقفنا، والدروز سيسيرون إلى جانبنا ضد العثمانيين وسيقفون إلى جانب الثورة العربية. وكانت هناك قافلة مؤلفة من ٣٠٠ هجان على رأسها يوسف الشويري فيها عرب (أي بدو) ودروز وأرمن هاربون من المذابح وشوام. وقد سارت هذه القافلة برفقة فايز الغصين إلى العقبة. وفي العقبة قام فايز الغصين بتقديم يوسف الشويري إلى الأمير فيصل الذي سرّ من أخبار سلطان الأطرش وأخبار جبل الدروز المعروف بفروسية أبنائه. ويحكي لي أبي رواية أخرى تكمل هذه الرواية، فيقول إن هذه القافلة رجعت وجميع أفرادها مقاتلون، لأن الذي ذهب هارباً من الجندية لم يعد، والذي له تجارة قام بها واكتفى، والبدوي الذي أراد الرحيل ارتحل. أما جدّك والدروز المقاتلون فعادوا مع جيش فيصل. وكنت أتشوق إلى عودة جدّك ليتولى شؤون العائلة وأذهب أنا مع الجيش العربي وعندما سمعت أن الجيش العربي وصل إلى درعا ذهبت إلى هناك مع

---

* صدرت في دمشق عن "دار الترقي" في سنة ١٩٥٦، وأعيدت طباعتها في جزئين سنة ١٩٧٠.

سلطان الأطرش وقابلت والدي وقلت له: يا أبي تولَ أمر العائلة وأنا أذهب مع جيش الثورة عوضاً عنك. فرفض والدي هذا الكلام وقال لي: عُد إلى أمك وأخواتك. فتضايقت منه إلى درجة أنني تفوهت بكلمة كانت بشعة بمقاييس الأدب في ذلك الزمان؛ قلت له ساخراً: الآن بسيفك سوف تفتح الشام؟ المهم، أكمل الجيش العربي زحفه على دمشق ومعه فرسان سلطان الأطرش، وبينهم جدّي بالطبع، وهؤلاء انضموا إلى ميمنة الجيش العربي التي كانت بقيادة الشريف ناصر ابن عم الملك فيصل، وهذه الميمنة هي التي دخلت دمشق قبل الجميع ورفعت العلم العربي فوق دار البلديّة. والمعروف أن واحداً من جماعة سلطان الأطرش، وأظن أنه حمد البربور الذي سقط شهيداً في الثورة السورية سنة ١٩٢٥، وهو من أشجع الفرسان الدروز، هو الذي رفع العلم العربي. وتروي لي خالتي، أم زهير فرح، أنها ورفيقاتها، وكن مازلن في سن المراهقة، ذهبن إلى بيت عزّام في بوابة الله ليتفرجن على الفرسان العرب، وأنها رأت فرس سلطان الأطرش وفرس جدّي وهما تدخلان معاً إلى دمشق أمام الجميع بعد أن خاضا المعارك قبل وصولهما مثل معركة الكسوة. وقد حكى لي سلطان الأطرش شخصياً أن جدّي شارك في هذه المعارك، وأنه يعتبر من المجاهدين. المهم، عندما وصلت طلائع الجيش العربي إلى دمشق، وكان والدي لا يزال، حينذاك، في جبل الدروز، وعندما عرف ما يجري فعلاً في دمشق، ركب ناقة وسار إلى الشام بلا توقف. والسبب في انه استعمل ناقة وليس فرساً هو أن بلدة "القرية" حيث يقيم والدي فرغت من الخيول لأن الفرسان ساقوها إلى المعارك.

يتابع والدي روايته: عندما وصل سلطان الأطرش ووالدي (أي جدي) وجدا البيت خراباً تقريباً، فأنزل جدّي صديقه سلطان الأطرش في بيت صديق له. أما أنا فذهبت إليه، وبعد أن سلمت وقبّلت يد أبي جلست. فتطلع إليّ والدي وقال: أرأيت بعينك كيف يكون فتح الشام؟ فأجبت: يا أبي ألا زلت تحفظ لي هذه القصة؟ فرد عليّ: لا تَبُتْ الليلة في الشام، بل عليك العودة فوراً على كعبك إلى الجبل.

- **هذه عقوبة. أليس كذلك؟**

- بالتأكيد. قال لي والدي إن سلطان الأطرش توسط له حتى رضي جدي عنه وسمح له بأن ينام ليلة واحدة فقط في دمشق. وأود أن أروي حكاية أخرى عن جدّي وهي أنه في إحدى غزوات البدو على جبل الدروز شارك بنفسه في رد الغزو، وهزم في هذه الحادثة عرب الحويطات، فألّف جدّي قصيدة يسخر فيها من الحويطات وربما من عودة أبو تايه الذي لم يكن اشتهر بعد. وبعد عدة سنوات، إبان الثورة العربية الكبرى، التقى جدي مقاتلين من الحويطات لدى الأمير فيصل فصاح رجال الحويطات: "إنه يوسف الشويري". ثم نظر عودة أبو تايه إلى جدّي الذي كان ربع القامة وقال له: "عندما كنّا نسمع عنك كنّا نتصور أنك طويل القامة". فأجابه جدّي على الفور: "أنت تراني صغيراً على الأرض، لكنني على ظهر الفرس أكبر مما تتصور". فسكت عودة أبو تايه. كذلك ورد اسم جدّي في مذكرات فخري البارودي في قائمة تتألف من ٤٥ رجلاً من وجهاء دمشق تبدأ بالشيخ عبد الغني الاسطواني خطيب الجامع الأموي. وعند الرقم ٣٧ يرد اسم

أبو حبيب الشويري. وهذه هي قائمة وجهاء دمشق الذين أخذهم الفرنسيون رهائن في سبيل إخماد الثورة السورية التي امتدت إلى الشام في سنة ١٩٢٦.

ويمكن القول إن جدي ومعه أبي شارك، بصورة أو بأخرى، في الثورة على الفرنسيين، فقد كان بينه وبين سلطان الأطرش نوع من الانسجام في المواقف والمفاهيم وفي المصالح أيضاً. ودعني أروي لك بعض التفصيلات التي لا تخلو من عبر وقد تلقي بعض الضوء على ما جرى ويجري في أيامنا هذه.

بعد معركة ميسلون في سنة ١٩٢٠ واحتلال سورية كلها، وقمع تمرد حوران بقيت بؤرة الجولان وجنوب لبنان عصيّة على الاحتلال. ثم جرت محاولة اغتيال الجنرال "غورو" على طريق القنيطرة التي اشترك فيها أدهم خنجر، من جنوب لبنان، إلى جانب جماعة أحمد مريود من الجولان والذي سقط شهيداً فيما بعد*. إن أدهم خنجر هذا هو صاحب القصة المشهورة التي

---

* لم يكن أدهم خنجر في هذه العملية مع أن اسمه تردد كأحد المشاركين فيها. والحقيقة أن المجموعة المهاجمة تألفت من محمد ضاهر (من شبعا) ومحمود حسن (من جباتا الخشب) وشريف شاهين (من جباتا الزيت) وخليل مريود (من جباتا الخشب) وأبو دياب البرازي (من دمشق). وكان موكب الجنرال غورو يتألف من ثلاث سيارات: الأولى أقلت الجنرال غورو ومترجمه الكولونيل بارنيت والجنرال كاترو وحقي العظم، وخلفهم سيارة تقل شقيقة غورو وابنة عمه مدام لونغمار، وخلف الجميع سيارة ثالثة. وقد قتل في العملية التي جرت في ١٩٢١/٦/٢٣ الكولونيل بارنيت وأصيب حقي العظم إصابة طفيفة، وأصيب غورو بثلاث رصاصات، واستولى المهاجمون على قبعة بارنيت التي أرسلت هدية إلى ابنة يوسف العظمة في دمشق.

تسببت بأول تمرد مسلح لسلطان الأطرش على الفرنسيين في العام ١٩٢٢. ولكن هذا التمرد الذي سُميَّ في ما بعد بالثورة الصغرى، تزامن مع تحرك الشارع الدمشقي بقيادة عبد الرحمن الشهبندر ضد الفرنسيين، وكان ذلك بمناسبة زيارة مستر "كراين" إلى دمشق وهو العضو الأمريكي في لجنة "كينغ – كراين"* المشهورة التي أرسلها الرئيس الأميركي "ولسون" بموافقة مؤتمر الصلح سنة ١٩١٩، إلى سورية لاستفتاء الأهالي في مصيرهم السياسي. واللافت أن الذين بدأوا التحرك ضد الفرنسيين هم أنفسهم رجال الثورة العربية ضد الأتراك، وأن الترابط الجغرافي – البشري بين الجولان وجنوب لبنان يذكرنا بتعبير المُتحَّد الجغرافي لأنطون سعادة، ويلقي الضوء على ما حدث ويحدث في أيامنا هذه.

في أثناء الثورة الصغرى، أي ثورة ١٩٢٢، كان سلطان الأطرش يصرف على إخوانه الذين شاركوا في الثورة من ماله الخاص، ويبيع ممتلكاته، فقد كان يملك الكثير من قطعان البقر والماشية، ولم يكن هناك منظمات أو أحزاب أو هيئات سياسية، وطبعاً لا وجود لدعم عربي أو غيره. وقد حدث أن لقاء جرى ترتيبه بين سلطان الأطرش وجدي وأبي في قرية "سِمج" القريبة من قرية "القريّة" لترتيب بعض الأمور، ولسبب ما علم الفرنسيون بهذا اللقاء، فجاءت سرية من الجيش الفرنسي وحاصرت بلدة "سمج" واعتقلت جدي وأبي ونصبت كميناً لسلطان الأطرش. ويروي والدي تفصيلات طريفة عما جرى، خلاصتها أنَّ الفرنسيين منعوا الخروج والدخول

---

* وصلت لجنة كينغ – كراين إلى سورية في ٥ حزيران ١٩١٩ وباشرت لقاءاتها مع القادة السوريين في ١٩١٩/٦/٢٨.

إلى البلدة، ووضعوا أبي وجدي بين العساكر في الكمين. وعندما اقترب سلطان الأطرش مع إخوانه من حدود البلدة، وكان له قطيع بقر يرعى هناك، شعر بالارتياب من بعض المظاهر فلم يقترب أكثر وبدأ بإطلاق الرصاص على المكان المريب، وكان عبارة عن رجمة كبيرة من الصخور يكمن خلفها بعض الجنود ومعهم المعتقلان، فردَّ الجنود على النار بنارٍ أغزر منها. ولكي يتفرغوا للقتال أجبروا جدي على الإمساك بأعنة خمسة بغال إلى جانب فرسه فصار يطلق أعنة البغال واحداً بعد الآخر. وفي هذه الأثناء حمي الوطيس فأصيبت فرسه بشظية حجر إصابة بسيطة, فقال والدي: "أطلقها". فرفض جدي قائلاً: "لعلنا نحتاجها". وعندما اضطر إلى إطلاقها وعرفها سلطان الأطرش أمر بإيقاف النار خوفاً أن يصيب صديقه. ويروي والدي أنَّه شاهد سلطان الأطرش بعدها يتقدم من قطيعه خبباً تحت وابل رصاص الفرنسيين ولم يغير سرعته حتى استطاع أن يلّم القطيع ويبتعد به ... وفشل الكمين. لكنَّ جدي وأبي بقيا في قبضة الفرنسيين وسيقا إلى قلعة بصرى ثم إلى قلعة دمشق حيث أطلق سراح جدي وبقي أبي معتقلاً عدة أيام رهن التحقيق. ولمّا يئسوا من معرفة أيّ أمرٍ منه أطلقوا سراحه.

قلنا إنَّ سلطان الأطرش كان يصرف من ماله، وعندما صدر العفو عنه عاد إلى بلدته وهو في وضع مالي مرتبك. ولم تلبث الأحداث أن توالت خلال سنتين أو ثلاث لتبدأ ثورته الثانية سنة ١٩٢٥، فتراكمت عليه الديون، وبارت المواسم، ونفقت القطعان، حتى بلغ دين جدي عليه ٥٠٠ ليرة ذهبية. وبهذا المعنى يمكن القول إنَّ جدي كان مساهماً في تمويل الثورة بطريقةٍ ما. ويحكي لي والدي أنّه اضطر، فيما بعد، إلى إغلاق محله حتى يفي سندات

الدين التي تراكمت على جدي قبل وفاته في العام ١٩٢٩. وبعد وفاة جدي وفي أوائل الثلاثينيات حينما وقعت أزمة الكساد العالمي التي أنهكت العالم بما فيه سورية، اضطر والدي إلى إغلاق محله التجاري في سوق الحميدية حتى لا يعلن إفلاسه نتيجة للديون المتوجبة عليه، وعمل بقية أيام حياته خبيراً في المحاسبة. وفي سنة ١٩٣٢ تناهى إلى سمعه أن تبرعات وصلت إلى سلطان الأطرش من المهاجر وأن لديه أموالاً كافية. فاصطحب والدي شريكه صادق الرجّال وذهبا إلى سلطان الأطرش ليطالبا بالمال. ويحكي لي أخي الكبير أن والدي عندما رجع إلى دمشق، وكانت جدتي تتوقع أن يحضر معه الذهب، وبعد أن قدمت له القهوة وارتاح قليلاً، سألته: يا ابني ماذا أحضرت معك؟ فقال لها: لم أحضر شيئاً. فقالت له: لماذا؟ فأجاب: ليس مع سلطان أي أموال. وعندما سألته: هل طالبته بالديون؟ قال لها: لم أطالبه قط. فعلقت قائلة: أهذه الرحلة وهذا العذاب لتذهب وتعود خالي الوفاض؟ فقال لها: يا أمي عندما وصلت إليه استقبلني كابن صديقه بالطبع، ولكنني فور جلوسي، لاحظت أن عباءته مرقعة. فهل من المعقول أن تأتي الأموال إلى سلطان الأطرش وتكون عباءته مرقعة؟ سلطان الأطرش معروف بهيبته، وقصة الأموال كذب وشائعات. لم تصل إليه أي نقود أو أموال، فكيف أطالبه بالديون؟ وفي أي حال عاد سلطان الأطرش ودفع الديون كاملة، لكن بالليرة السورية وليس بالليرة الذهبية، أي بالسعر التعادلي المنصوص عنه في القانون وليس بالسعر الواقعي. فقد جرى ذلك السداد في العام ١٩٤٦*. ولذلك عندما قرر المجلس النيابي إهداء سلطان

---

* عاد سلطان الأطرش من منفاه في الكرك إلى سورية في ١٩٣٧/٥/١٨.

الأطرش منزلاً في دمشق، كتعويض له عن خسائره كمجاهد وقائد للثـورة السـورية الكبرى، كان يمازح عماتي اللواتي لم يتزوجن، بـالقول: عنـدما أتسلم هذا المنزل فستكون فيه غرفتان مخصوصتان بكن.

- **هذا عن جدك. ماذا عن والدك؟**

– قبل أن أجيبك عن سؤالك أود أن أختم الكلام عـن جـدي يوسـف الشويري بأنه كان فارساً بكل معاني الكلمة، وهذا ما شهد به معاصروه مـن فرسان جبل العرب وحتى فرسان الميدان؛ ولكن أحداً من أبنائه الخمسة لـم يصل إلى هذه المرتبة، ولا من أحفاده طبعاً. فهل السبب هو تغير ظـروف الحياة أم تربية الأم الآتية من الشوير من أعماق وديان صنين؟ لست أدري؟. ولكني أخشى أن أقول إننا ما زلنا في تراجع منذ فترة طويلة. وعندما قررنا هدم البيت العتيق لنبني مكانه بناءً حديثاً، وزّعنا على أفراد العائلة الأشـياء المهمة المتبقية ما عدا شيئين: الخزانة المصدّفة، وهي تحفـة دمشـقية، لأن علوها مع التاج أكثر من أربعة أمتار، ولا يوجد بيـت حـديث يسـتوعبها، فوزعنا ثمنها بعد بيعها. والسيف الذي كان يقتنيه جدنا وهو أيضاً سيـف دمشقي أصلي* دخل به دمشق مع الجيش العربي في أيلول ١٩١٨، برفقـة سلطان الأطرش، فأودعناه عند منصور الأطـرش ليضمه إلى أسلحة أبيـه، بانتظار أن يتحقق مشروع الضريح المفترض أن يحتوي متحفـاً لأسـلحته

* كانت دمشق من أشهر مدن العالم بصناعة السيوف.

ولبقايا السيوف من رفاق الثورة. أما أبي فكان متعلماً. وأنهى دروسه في مدرسة الآسيّة ثم انتقل إلى مدرسة العازارية.

- **في قلب باب توما؟**

- نعم. وكان يذهب إلى المدرسة على "السكلاويّة" فيربطها إلى باب المدرسة ويدخل.

- **السكلاويّة حمار؟**

- لا، فرس أصيلة. فقد كانت لدينا خيل. آخرها كانت شراكة مع سلطان الأطرش وهي من "نوع الشويمة"، أي تصغير شامة، وقد باع عمّي ما تبقى من حصتنا لسلطان الأطرش. كان أبناء الميسورين يذهبون إلى مدارسهم على ظهر الفرس، مثل حال أولاد الميسورين اليوم الذين يذهبون إلى مدارسهم بالسيارة أو بالدراجة النارية. ترك والدي المدرسة لعدم وجود جامعة واشتغل مع والده في التجارة. وأول تجارة له كانت في سنة ١٩١٢، عندما ركب الدليجانس* من الشام إلى بيروت ثم ذهب إلى ضهور الشوير مع عدد من المكارية الذين يعملون لحسابه، وكانت معه كمية من القمح، باعها في الضهور واشترى بثمنها سجاداً أحضرهُ معه إلى الشام وربح فيه

* الدليجانس هي شركة للنقل بواسطة عربات الخيل بين بيروت ودمشق. وكانت لها محطات على الطريق لتبديل الخيول أو للراحة مثل محطة بحمدون وصوفر وشتورا.

الكثير. كانت المجاعة قد بدأت في لبنان. وفي هذه الأثناء عُرض عليه شراء فندق قاصوف في ضهور الشوير بـ"تراب المصاري" لكنه لم يتحمس لشرائه. فما الذي يدفعه إلى الانتقال من دمشق إلى ضهور الشوير، والمثل الدارج آنذاك يقول: "الأرض التي تتملكها خارج بلدك، لا هي لك ولا لولدك". وفي ذلك تعبير بليغ عن قلة الثقة بالدولة.

- **حي الميدان حي مختلط. فيه مسيحيون ومسلمون وبعض الأقليات كالدروز الذين سكنوا في باب المصلّى تحديداً. هل كانت فيه أقليات أخرى؟**

- كانت هناك عائلات من أصول علوية، وأكثرها يمتهن جز الحشيش من البساتين وبيعه من أصحاب الدواب كعلف. وبعض أبناء هذه الطائفة كان يمتهن مهنة تحويل الحليب إلى قشطة. وعمل البعض في بيع المخلّل في مدينة دمشق. ولا أدري على وجه الدقة هل سكن بعض الشيعة في الميدان. فللشيعة في دمشق عدة أحياء، أولها حي الأمين، وحارتان أخريان وحارة صغيرة في المهاجرين. ميسورو الشيعة والأكابر كانوا يسكنون حياً اسمه الخراب، الذي هو الأمين الآن، أما الفقراء فكانوا يسكنون حي الجورة. وهذان الحيّان يقعان على تخوم أحياء المسيحيين. أما في الميدان فعلى الأرجح انه لم يكن هناك شيعة؛ فالأكثرية الساحقة من السنّة، وفيه مسيحيون وبعض الدروز في باب المصلّى. علاقة المسيحيين بالمسلمين في الميدان كانت راقية، وبلا تعصب. التعصب كان موجوداً في المدينة، وازداد في القرن التاسع عشر نتيجة للتدخل الأجنبي وللإصلاحات التي

تضمنها خط شريف كولخانة*. وبموجب هذا الخط ما عاد النصراني واحدا من أهل الذمّة بل أصبح مواطناً يتساوى في الحقوق مع المسلم. جاءت إصلاحات خط شريف كولخانة، ولم يتقبلها الناس في المدينة. واستغل بعض المسيحيين، ولا سيما "الزعران" منهم، وجود إبراهيم باشا في سورية فارتكبوا بعض الحماقات. ولكن السبب الأساسي كان المنافسة الاقتصادية. فقد صارت الوكالات الحصرية من نصيب المسيحيين الأغنياء، بينما صارت المهن والصنائع والحرف في يد أواسط المسيحيين الذين كانوا لا يخدمون في الجيش، وفي ما بعد صاروا ميسورين أكثر. وعندما بدأ المسيحيون يطالبون بالخدمة العسكرية أسوة ببقية المواطنين، وتنفيذاً لبنود الإصلاحات، ولما علمت الدولة العثمانية إن هذه الأمور تجري بتحريض روسي، افتعلت فتنة دموية سنة ١٨٦٠. وهذه الفتنة التي بدأت في لبنان ثم انتقلت إلى الشام كانت المدينة أرضاً صالحة لها، بينما كانت غير صالحة في الميدان، لأن العامل الاقتصادي لم يكن موجوداً؛ وكما ذكرت سابقاً فأهل الميدان يعملون في تجارة الحبوب، وهذه التجارة لا علاقة لها بالأسواق العالمية. يعني مال قبان وليس مال فاتورة، والصناعات لا وجود لها مثلما لا توجد حرف مهمة في الميدان. ولهذا لم يكن ثمة تنافس بين المسيحيين والمسلمين بل كانوا أخوة. ومع ذلك عندما بدأت الفتنة في سنة ١٨٦٠، سرت شائعات كثيرة تقول إن الدروز وصلوا إلى محطة القدم وهم يطالبون بتسليم النصارى. فظهر لهم "الميادنة" بالرصاص. أما العلاقة مع الدروز فكانت مختلفة. ويروي لي عمي، أنه عندما كان الشيخ الدرزي يمر في الميدان،

---

* كولخانة (والصحيح: غول خانة) تعني محل الورود، وهي اسم الحديقة التي تلي فيها الفرمان في ١٨٣٩/١١/١٣.

وبالتحديد في السلطاني، لا يصدّق متى يصل إلى باب المصلى خوفاً من "زعرنات" أهل السوء وبرضا وجهاء الميدان في أحيان كثيرة*. كان الأولاد يلحقون الشيخ، فينعرونه حتى تقع عمامته على الأرض فيكرونها على سكة الحديد. لكن، بعد سنة ١٩٢٥، وبعد شيوع أخبار بطولات الدروز بزعامة سلطان الأطرش، صار الشيخ الدرزي يمر بالميدان فيقول له أهل الميدان: شرّف يا شيخ، تفضل يا شيخ، ويقفون له احتراما. لقد تغيّر المناخ تماماً بعد ثورة ١٩٢٥.

- **دمشق داخل السور كانت تضم أيضاً حارة اليهود وحارة النصارى وحارة المسلمين. وكان فيها بعض الأقليات الأخرى كالأحمديين في منطقة الشاغور مثلاً؟**

يذكر عزيز العظمة في كتابه: "قسطنطين زريق: عربي للقرن العشرين" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٣، ص١٤) ما يلي: "إن أرثوذكس دمشق القديمة، كجيرانهم المسلمين، كانوا يتفاخرون اجتماعيا على أرثوذكس ومسلمي حي الميدان الذين كانوا يُنعتون بالميل إلى البلطجة واستعراض العضلات الذي كثيراً ما عُلل (هذا الميل) استناداً إلى علاقتهم بالبادية وحوران واختلاطهم بأهليهما وبقيامهم على تجارة الأغنام والجلود وما شابه". ويقول بشير العظمة في كتابه "جيل الهزيمة": كان على الريفي القادم من حوران أن ينزع العقال عن رأسه (...) وإذا تلكأ عن ذلك تسابق الزعران يشدون عقاله". وكان هؤلاء لا يتورعون عن رشق النساء بالحجارة وبالكلام الفاحش ويرددون على مسامعها:"أم الملاية الزم ينزل عليكِ الدم". والملاية الزم هي الملاية المشدودة على الجسم التي ربما تُظهر شكل الجسد الأنثوي.

- ليس لدي معلومات عن الأحمديين في تلك الأيام.

- **هل كانت حادثة الأب توما الكبوشي* متداولة بين المسيحيين في تلك الأيام؟**

- لا، أبداً. لقد قرأت عنها بالطبع وعن الخرافات التي كانت تروج أن اليهود يشربون دم النصارى. هذه كلها خرافات، ولم يكن أحد يتوقف عندها، ولم تؤثر في علاقة الناس باليهود في دمشق قط.

- **أود لو تروي المزيد عن العلاقة الخاصة التي ربطت عائلتكم إلى عائلة الأطرش. هنا في هذا السياق يحضرني زواج منصور الأطرش ابن سلطان الأطرش من شقيقتكم، كيف حدث ذلك، وما كانت آثاره الاجتماعية؟**

- حدث ذلك نتيجة للتمازج العائلي. كان سلطان الأطرش يقيم عندنا حينما يأتي إلى دمشق، وعندما نذهب نحن إلى جبل الدروز ننزل في بيت سلطان بالطبع. والشباب والبنات من العائلتين يتصرفون كأصدقاء وأبناء أصدقاء. وفي هذا المناخ حدث نوع من الاستلطاف بين منصور الأطرش وشقيقتي هند، وعندما قررا الزواج اعتقدا أنه لإرضاء أبي يجب

---

* قتل الأب توما الكبوشي في دمشق في ١٨٤٠/٢/٥ على يد عدد من يهود المدينة لأسباب سياسية. وانتشرت، في الأثر، شائعات عن أن اليهود قتلوا الأب توما لسحب دمه واستعماله في طقوسهم. ومازالت هذه الخرافات شائعة حتى الآن في الدول العربية، وألف البعض فيها كتباً ساذجة وغير ذات قيمة علمية.

أن يقيما إكليلاً في الكنيسة. لكـن أبي رفض ذلك، لا لأسباب دينيـة، بـل لأسباب خاصة بالعلاقة مع سلطان الأطرش. وهو قال لي بنفسـه: يا ابني، لو كان هناك قانون مدني للزواج لما رفضت، لكن صداقة العُمر مع سلطان الأطرش أخشى أن تتأثر، ومنصور الأطـرش أنا ربيته كـأولادي، فكيـف يحدث ذلك قبل نيل إذني وإذن والده؟ مهما يكن الأمر، لقد تزوج منصـور الأطرش وكان عضواً في البرلمان. وحاول والدي أن يمنع الزواج، وكلفني بهذه المحاولة، فسافرت إلى لبنان حيث كانا، شقيقتي وهو، يقيمـان مؤقتـاً فوجدتهما قد تزوجا.

- **إذن، زواجهما تم في لبنان. لكن لا وجود للزواج المدني في لبنان؟**

– تزوجا كنسياً.

- **في أية كنيسة؟**

– في مطرانية الجبل في برمانا. لنتذكر أن هـذا الـزواج وقـع فـي أجـواء سنة ١٩٥٦ حينما كان البعث كما عرفناه أول التحاقنا به، لا فـرق فيه بين مسيحي ومسلم، وأن الزواج المدني مسألة ضرورية، وأن القوميـة العربية هي دين الجميع، ولكل فرد علاقته الخاصة بربه. أنا وأخي وأختي لم نقاوم هذا الزواج ولا أهل منصـور بالطبع. لكـن الكبـار فـي عائلـة الأطرش وعائلتنا لم يتقبلوا الأمر.

- **هل كان للتعصّب الديني أثر في هذا الموقف؟**

- لا أبـــداً. ومع ذلك ظل أبي ١٤ سنة لم يرَ خلالها منصور أو هنـــد أو حتى أبناءهما، إلى أن جاء سلطان الأطرش ومعه وفدٌ من وجهاء حيّنـــا وأقاربنا ودخل إلى منزلنا في غياب أبي وأرسل وراء ابنه منصور وتصالح الجميع بعد أن حضر أبي، وانتهت القصة بعد ١٤سنة.

- **تذكرني هذه الحادثة بأخرى وقعت للأستاذ ميشال عفلـــق، عنـــدما تزوجت أخت ميشال عفلق مسلماً هو نزيـــه الحكـــيم. كيـــف تقـــارن الحادثتين؟**

- ميشال عفلق على الرغم من الكـــلام الكثير عليه كتقدمي ومؤســـس لحزب البعث كان في حياته الخاصة محافظاً وتقليدياً بكل ما في الكلمة مـــن معنى. لم يخلع ميشـــال عفلق الطربوش على سبيل المثال إلا عندما خلعـــه ثلاثة أرباع أهل الشام.

- **متى خلعه تقريباً؟**

- في أواخر الأربعينات.

- **أي بعد تأسيس حزب البعث؟**

- بعد ذلك بفترة. وظل عفلق يركب الترامواي في فئة "البريمو".

- **هو ابن الميدان في أي حال. ابن حيّكم؟**

- كان نزيه الحكيم أحد المعجبين بميشال عفلق ويكن له محبة فائقـــة. وقد أحب نزيه الحكيم ماري أُخت الأستاذ ميشال وكانت فتاة جميلة وذكيـــة، فتزوجا. لم يقبل ميشال عفلق هذا الأمر بصفة كونه رب الأسرة؛ فوالده كان توفي منذ زمن. وبعد هذه الحادثة تخاصم عفلق والحكيم طـــويلاً. وفـــي أي حال لـــم يطل الأمر بهذا الزواج، فانفصلا ولم ينجبا أولاداً. ورجعت ماري إلى منزل ميشال عفلق، لكن العلاقة معه ومع بقية أخوتها ظلت سيئة. لقـــد كان لها مزاجاً متفرداً. وجميع آل عفلق لهم مزاج خـــاص باســـتثناء أختـــه آغني، أم زهير، وشقيقه الأصغر وصفي.

- **هل رفض ميشال عفلق هذا الزواج لاختلاف الدينين؟**

- لا، بل بسبب محافظته وتقليديته.

- **هذه مسألة خطيرة كي تقال عن ميشال عفلق؟**

- نعم. ولم يتصالح ميشال عفلق مع نزيه الحكيم إلاّ في ســـنة ١٩٥٦. في تلك الفترة كانت جـــريدة "الرأي العام" أصبحت أهم جريدة في ســـورية

وفي لبنان أيضاً. وكانت هذه الجريدة يملكها أحمد عسّة* ونزيه الحكيم، وكان كل واحد منهما يكتب الافتتاحية مداورة: يوم من هذا ويوم من ذاك. أحمد عسّة كان أبرز صحافي وقتذاك وقريباً من أكرم الحوراني، بينما قبل نزيه الحكيم أن يفك الشراكة مع أحمد عسّة لإرضاء ميشال عفلق، فكتب مقالاً يمجّد فيه ميشال عفلق الذي اعتبر هذا المقال في منزلة "الصلح".

- **لنعد إلى الميدان وإلى العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة فيه في تلك الفترة. هل كان هناك اختلاط للنساء بالرجال في الحياة اليومية؟**

- التقاليد الاجتماعية في الميدان كانت تقاليد شبه إسلامية إلى حد كبير. وعلى سبيل المثال بيتنا؛ فهذا البيت فيه "برّاني" و"جوّاني". القاعة والبيت الكبير مثل بيوت المسلمين تماماً. وحتى الآن في عزاء العائلات الموجودة في القصاع تجد أن الرجال والنساء يكونون معاً متجاورين ويروون النكات أحياناً. بينما في بيوت "الميادنة" تجد الرجال إلى جانب والنساء إلى جانب آخر، وبعد أن ينتهي المعزي من تعزية الرجال، يدخل على النساء للتعزية أيضاً. النساء "الميادنة" الأصيلات يقفن في العزاء، أي أن الرجل حينما يتجه لتعزية المرأة تقف وتستقبله كما يفعل الرجل. أما عند المسيحيين فتبقى المرأة جالسة.

---

* أصدر أحمد عسة "الرأي العام" سنة ١٩٥٥، وظلت تصدر حتى سنة ١٩٥٧. وبعد حركة ٨ آذار ١٩٦٣ صدر قرار بعزله سياسيا وتجريده من حقوقه المدنية، فغادر دمشق إلى بيروت وعمل مستشارا إعلاميا للأمير (الملك في ما بعد) فيصل بن عبد العزيز، ثم مستشارا للملك الحسن الثاني. وتوفي في الرباط سنة ٢٠٠٥.

- **كيف تتذكر الحب الأول في القصّاع؟**

– طفولتي غريبة قليلاً. درست في مدرسة مختلطة، لكن عندما انتقلت إلى مدرسة الآسيّة فصلوا الفتيان عن الفتيات. وقد مرّت بحياتي قصص كثيرة من حيث العواطف والعلاقات الحميمة، لكنها لم تتحول إلى علاقة راسخة كالزواج لأسباب شتى، إما لاختلاف الدين أو لأسباب اجتماعية، أو بسبب الظروف النضالية الصعبة التي أمضيت في أجوائها أيام الشباب كلها.

- **يبدو أنك كنت جدّياً جداً؟**

– نعم. أذكر في سنة ١٩٥٩ عندما بدأت أتردد على النادي العائلي في دمشق كان أهل الحي يقولون: انظروا، ها هو نبيل يتكلم مع الناس ويجاملهم وصار يعرف كيف يتحدث، ويعرف الرقص أيضاً. أنا يا أخي سجنت أول مرة وأنا في السادسة عشرة، أي أن صورتي بين الناس هي صورة المناضل الحزبي. هذه الصورة كتبتها كوليت الخوري، وسردت فيها تفصيلات عني.

- **في أي مجموعة نشرت هذه القصة؟**

– في مجموعة "أيام مع الأيام"*.

---

* ولدت كوليت الخوري في دمشق سنة ١٩٣٥، ونشرت روايتها "أيام معه" سنة ١٩٥٩. أما رواية "أيام مع الأيام" فنشرت في سنة ١٩٧٩.

- **هل كانت العلاقة بين الجنسين في دمشق الأربعينات، أو في أوائل الخمسينات، متاحة؟**

- في حدود ضئيلة جداً. فلم يكن مسموحاً أن تخرج البنت ومعها شاب لوحدهما إلاّ إذا كان هناك رابط عائلي ما. حتى أن المخطوبين لا يخرجان من غير مرافق. أما الاختلاط فبدأ ينتشر في الستينات أو في أواخر الخمسينات.

- **هل كان ثمة فارق في هذا الشأن بين المجتمع المسيحي والمجتمع الإسلامي؟**

- يختلف بالطبع، ولكن ليس كثيراً. الكنيسة مختلطة بينما الجامع ليس كذلك. وفي أي حال ففي الكنيسة لا يدخل الرجل من جهة اليسار ولا المرأة من جهة اليمين. الرجل من جهة اليمين والمرأة من اليسار.

- **عند جميع الكنائس؟**

- عند كنيستنا.

- **عند الأرثوذكس؟**

- أنا قلما دخلت كنيسة شرقية، وتسألني عن جميع الكنائس؟ لا أدري عن هذا الأمر البتة. فأنا لا أدخل كنيسة إلّا في مأتم أو عرس أو في قداس احتفالي. المهم كان يوجد في الكنائس ما يسمى "الشعائر"، حيث تصعد النسوة إليها لحضور القدّاس. وهذه الشعائر محجوبة بقضبان من الخشب، وتجلس المرأة خلفها فتشاهد القدّاس، وتشترك في الصلاة. لكن إذا نظر الرجل إليها فلا يرى النسوة. وفي هذا المجال، حكى لنا شماس كان يعلمنا دروس الدين في المدرسة أنه ذهب مرة إلى الصلاة في إحدى كنائس حماة في الأربعينات، وكان صوته جميلاً. وعندما صعد لقراءة الإنجيل من "القرّاية" الموجودة فوق العمود تطلع إلى جهة النساء وقال: العمى، المصلّيات جميعهن مسلمات؟ هذا غير معقول!

- **إذن، كانت النساء المسيحيات تتحجبن؟**

- طبعاً. حتى في جبل لبنان في الأربعينات والخمسينات كانت النسوة المسيحيات يضعن على رؤوسهن غطاء.

- **متى تعرفت إلى الراديو أول مرة؟ هل ترك في ذاكرتك أثراً مميزاً؟**

- كلا. في بيتنا لم نكن نملك راديو. ولكن كانت توجد في رأس الحارة خمّارة فيها راديو. فإذا أردنا سماع الأخبار نقف عند رأس الحارة ونستمع إلى صوت المذياع وأخبار الحرب العالمية الثانية. في صيف سنة ١٩٤٠ صدر أمر من المندوب السامي الفرنسي بمصادرة أجهزة الراديو في الشام

فجمعوها ووضعوها في معهد اللاييك الفرنسي الذي أصبح اسمه، اليوم، معهد الحرية، وذلك عقب سقوط باريس بيد الألمان. ما يدل على أن عدد أجهزة الراديو كان محدودا جدا.

- **اللاييك في شارع بغداد؟**

- نعم، في شارع بغداد. كان عدد الأجهزة نحو عشرين جهازاً في دمشق. واستطراداً لم تكن في دمشق سيارات خصوصية كثيرة. وهي، في أي حال، لم تكن ضرورية للتنقل. أنا أعرف الشام كلها في ذلك الزمن: من بوابة الله إلى آخر المهاجرين حيث يقع القصر الجمهوري وتنتهي السكّة، ومن الشيخ محي الدين ابن العربي إلى القصاع الذي ينتهي في باب توما. أما دوما فهي ضاحية الشام. دمشق كانت تعد نحو ٣٥٠ ألف نسمة في تلك الأيام. وكان حي القصّاع محاصراً بنهرين من أنهار بردى: "تورا" في شماله ونهر قليط عند باب توما. كانوا يسمّونه قليط لأن الفضلات كلها ترمى فيه. شارع بغداد الآن في قلب دمشق كان عبارة عن جنائن وبساتين. حي القصّاع وحده كان فيه أربع جنائن تقام فيها سهرات الصيف. الآن الشام صارت تعد نحو أربعة ملايين نسمة أو أكثر.

- **ازدادت عشرة أضعاف على الأقل؟**

- دمشق ضمن السور كان المرء يجتازها في ساعة ونصف الساعة ماشياً. والآن ليدور حولها بالسيارة يحتاج إلى ثلاث ساعات.

- **قصدت إلى القول إن الراديو لعب دوراً اجتماعياً في بيروت على سبيل المثال؛ فالمقاهي كانت تقتني أجهزة الراديو التي يتجمع الرجال حولها. وفي هذا الجو تنشأ علاقات سياسية وثقافية وبشرية. وثمة رواية مشهورة عن أبو عفيف كريدية ومقهاه في بيروت في الحرب العالمية الثانية، حينما كان يونس بحري* يهدده من إذاعة برلين في برنامج "هنا برلين حي العرب". والمعروف أن المقاهي كان لها شأن كبير في التاريخ الاجتماعي لبيروت وللمدن العربية. هل تتذكر شيئاً عن مقاهي دمشق في تلك الفترة؟**

– الحياة الثقافية والسياسية في دمشق تختلف عن الحياة في بيروت. المقاهي كانت محصورة بمن يرغب في تناول القهوة أو لعب النرد أو تدخين النارجيلة.

- **مع أن المؤتمر الأول لحزب البعث العربي الاشتراكي عقد في مقهى؟**

– مقهى "اللونا بارك" الذي صار اسمه "مقهى الرشيد" في ما بعد.

- **المركز الثقافي السوفياتي لاحقاً.**

---

* صعلوك عراقي مشهور ورجل استخبارات وصحافي متجول. اشتهر بخطبه اللاذعة من إذاعة برلين في الحرب الثانية، وبمقالاته الصحافية الغرائبية. ولد في الموصل سنة ١٩٠٤، وجال في العالم كله حتى توفي في بغداد سنة ١٩٧٩.

- نعم. كان هناك أيضاً مقهى الطاحونة الحمراء على ضفة بردى وكان ميشال عفلق وصلاح البيطار يجلسان فيه.

- **كان بردى ينساب في تلك المنطقة؟**

- أكيد. وفي تلك الفترة ظهر مقهى البرازيل ومقهى الهافانا وهما مقهيان اشتهرا بالسياسة. لكن الحياة في دمشق ليست مثل الحياة في بيروت. الشوام "بيتوتية" أكثر وغير معتادين على صرف نقودهم في المقاهي. الشامي حتى الآن عندما يغلط يجلس في المقهى. فإذا اضطر لمواعدة صاحبه في مقهى تراه حينما يأتي النادل قائلاً له: "أؤمر"، يجيبه الشامي: "ماشي". فهو لا يعرف، في كثير من الأحيان أنه إذا أراد الجلوس في المقهى عليه أن يطلب شيئاً. لماذا؟ لأن الشوام اعتادوا القيام بنزهات (السيران) إلى مقاهي دمر والربوة، وهناك كانوا يستأجرون الكراسي بنصف ليرة طيلة النهار، ويأخذون حاجاتهم معهم. بينما الميسورون منهم فقط يطلبون من أصحاب المقهى بعض الطلبات.

- **لم يكن للمقاهي، إذن، شأن مهم في الحياة الثقافية والاجتماعية لمدينة دمشق؟**

- ليس على حد علمي، اللهم إلا مقهى البرازيل خلال فترة حكم عبد الناصر حين صار مصدراً لترويج نكات الهزء بالحكم. ومقهى الهافانا الذي صار ملتقى الضباط المسرحين، الذين هيأوا لانقلاب ٨ آذار ١٩٦٣.

- **من هم أصدقاء الطفولة وأين صاروا؟**

- هذا السؤال يغمر قلبي بالحزن. إن أقرب صديق إلي من أصدقاء الطفولة مات منذ سنوات اسمه فريد دوماني. أصدقاء الطفولة كلهم توزعوا هنا وهناك، ولا يوجد لدي أصدقاء حميمون في هذه الأيام. أصدقاء فترة المراهقة تناثروا أيضاً أو ماتوا. أنت تتحدث إلى رجل تجاوز السبعين، وهو صار يفقد الأصدقاء الواحد تلو الآخر.

- **هل لمع من بين أصدقاء الطفولة أحد في التاريخ المعاصر لسورية؟**

- من بين هؤلاء واحد من أعز أصدقائي اسمه نايف جربوع*. هذا الرجل صار مديراً للتلفزيون، وكان قد انتخب نائباً في انتخابات حرّة سنة ١٩٦١، وأصبح وزيراً ومات وزيراً. وهناك أيضاً سامي صوفان من يبرود**. هؤلاء أصدقاء أعزاء جداً، وقد ماتوا مع الأسف مبكّراً. لكن لم يظهر عباقرة بين أصدقائي لا في الثقافة ولا في الأدب.

---

* ولد في السويداء سنة ١٩٣٠ وانتسب إلى حزب البعث في سنة ١٩٤٨، وانضم إلى أكرم الحوراني عند الانشقاق الحزبي الذي حدث عقب المؤتمر القومي الخامس في أيار ١٩٦٢، وانتخب نائبا عن السويداء. وصار مديرا للإذاعة والتلفزيون قبل حكم البعث، ثم وزيرا للري في العام ١٩٨٠.

** قاد سامي صوفان حركة الوحدويين الاشتراكيين، وهي مجموعة من البعثيين الذين انحازوا إلى عبد الناصر عند وقوع الخلاف بين البعث وعبد الناصر سنة ١٩٥٩.

- **هل التعليم كان فاشياً في عائلتكم في ذلك الزمان؟**

– أنا درست في مدرسة الآسية، وهي مثل مدرسة التجهيز. وتعلمت الفرنسية في صغري ثم الانكليزية، لكنني بقيت ضعيفاً في اللغتين. وكنت أطالع كثيراً: قرأت طه حسين وجرجي زيدان وغيرهما من أعلام الأدباء والمؤرخين. وفي الجامعة قرأت الماركسية وغاندي ونهرو، وكنت أتصور أنني أصبحت من المثقفين. لكن، عندما أتيت إلى بيروت مطارداً، وبعد إقامتي فيها أقل من سنة وقعت هزيمة الخامس من حزيران ١٩٦٧. وهذه الهزيمة هزتني بقوة، وأرغمتني على مراجعة حياتي الخاصة كلها. ومنذ ذلك الزمان تغيّرت نظرتي إلى السياسة. ما عدت متآمراً، وصرت أؤمن أن الحكاية ليست قصة حكم ومعارضة، بل عرب وإسرائيليون. كان مضى على وجودي في بيروت أكثر من سنة، وخلال هذه الفترة نسجت صداقات شتى مع أساتذة جامعيين ومع صحافيين وتجار وأطباء ومحامين، واندمجت في الحياة الاجتماعية البيروتية بسرعة لأن ثمة صداقات وعلائق قرابية هيّأت لي هذا الأمر. ومن أصدقائي، في تلك الفترة، منح دبغي صاحب مقهى "الهورس شو" ثم مقهى "السيتي كافيه"، الذي يظن البعض أنه صاحب مقهى فقط، لكنه مثقّف وقارئ وحائز البكالوريوس من الجامعة الأميركية في بيروت، وله ذائقة فنية عالية ولا سيما في الفن التشكيلي. وأود أن أروي لك الحادثة التالية: فقد كنا في إحدى السهرات، والحديث

يدور على كتاب "ملوك العرب". فالتفت إلي الدكتور يوسف إيبش* وقـــال: ألم تقرأ هذا الكتاب؟ فقلت له: لا. فقـــال: يا نبيل كيف يحـــدث أن شخصـــاً مثلك يعمـــل في السياســـة ولم يقـــرأ كتاب أمين الريحـــاني هـــذا! وكنـــت أحسب كتاب "الأمير" لمكيافيللي كتاباً غير أخلاقي، لأكتشـــف أنـــه كتـــاب تأسيسي في علم السياسة. هكذا كانت بيروت حينما جئتها في ســـنة ١٩٦٦. كان أدونيس نجماً مبدعاً في سماء بيروت، وفيها كانت مغامرتـــه الشـــعرية الكبرى. كان في بيروت وقتذاك سبع عشرة جامعة وأكاديميـــة وعشـــرات الصحف ومئات دور النشر فضلاً عن معارض الفن التشكيلي والمســـارح والمحاضرات والندوات والمجـــلات الأدبية والفكرية والحركات السياســـية. واكتشفت أنني لســـت مثقفاً البتة، بل شـــبه أمّي، لأن التعليم في الشام هـــو التعليم اللاتيني الذي جلبه لنـــا الفرنســـيون، وكـــان متخلفـــاً عـــن التعلـــيم الانكلوساكسوني والألماني. قصـــارى القول، إن الجميع متعلم في عائلتنـــا. وأقل قدر من التعليم كان شهادة البكالوريا. أختي هند التي تزوجت منصـــور الأطـــرش حائزة الليسانس في الفلسفة باختصاص في التربية. وأخـــي درس الأدب العربي، وسافر إلى فرنسا لمتابعة دروســـه. جدي لأمي كان ميسوراً أكثر من جدي لأبي، لكنه كان محافظاً في علاقاته الاجتماعية. مثلاً كان من ضمن جهاز العرس لأمي "ملاية". وكان ممنوعاً على المرأة قص شـــعرها

---

* ولد في دمشق سنة ١٩٢٦ وحاز الدكتوراه من جامعة هارفارد سنة ١٩٦٠. أقام في بيروت أستاذا في الجامعة الأميركية، وأسس المركز الثقافي الإسلامي في بيـــروت، وتولى في سنة ١٩٩٣ الإشراف على مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي في لنـــدن، وتوفي في ٢٠٠٣/١/١٩.

وممنوع عليها السفور. جدّي لأبي كان أقل تعصباً؛ مع أن جدي لأمي كـان أكثر عصـرية فلبس البزة الإفرنجية. أما جدّي لأبي فكان يعتمر طربوشـاً ويلبس قمبازاً عربياً والسترة العربية الشامية.

- **القمباز المقلّم.**

- بالضبط. وأعرف ذلك من الصور. جدّي لأمي كان طموحـاً للعلـم وميسوراً في الوقت نفسه، وقادراً على إرسـال أولاده إلى خـارج دمشـق للدراسة؛ فقبل الحرب العالمية الأولى بعث ثلاثة من أولاده الكبار بينهم أمي وخالتي الأكبر منها إلى القسـم الداخلي في مدرسة زهـرة الإحسـان فـي بيروت. وأرسل ابنه خليل، الذي أصبح مصـرياً في ما بعد، إلـى الكليـة الوطنية في عاليه التي كان مارون عبود مديرها آنذاك. وكـان معـه فـي الصف ذاته صبري حمادة.

- **هذه حكاية جديدة. فحسب الشائع أن صبري حماده غير متعلم؟**

- ربما اقتصـر تعليمه على المرحلة الابتدائيـة فحسب. لكن عنـدما وقعت الحرب العالمية الأولى عاد الجميع إلى دمشق. ولهذا فإن أمي التـي ماتت في التسعينات من القـرن العشرين وعمّرت حتى الرابعة والتسـعين كانت تتكلم الفرنسية. وأنا نشأت في عائلة تعتني جيداً ليس بالعلم فقط، بـل بالصحة والثقافة أيضاً. ووالدي كان مثقفاً بمعايير عصره، ويقرأ باستمرار. وأذكر أنه كانت لدينا دائماً في المنزل صحيفتان – الأهرام والنصر – عـدا عن المجلات الأسبوعية.

- **كانت الصحف تأتيكم من مصر؟**

- كان مشتركا في الهلال والمقتطف، وكانت أعدادها القديمة مجلدة وموضوعة في غرفة المهملات أسفل الدرج. وكنت في الصيف أنزل إلى تلك الغرفة وأمضي فيها ساعات القيلولة القائظة وأروح أطالع تلك المجلدات، وأستطيع أن أزعم أنني اكتسبت منذ الطفولة وقبل العاشرة، المعلومات وطريقة التفكير العصري من تلك المجلدات.

- **هل كان ماسونياً؟**

- لا، أبداً.

- **لأن الهلال والمقتطف مجلتان ماسونيتان؟**

- لا أعرف، لكنه لم يكن ماسونياً. حتى أن عمّي الأصغر منه عندما أراد الانتساب إلى الماسونية منعه. وتروي لي الأديبة كوليت الخوري، أن والدها سهيل الخوري حينما حاول الالتحاق بالماسونية منعه والده فارس الخوري، مع أن فارس الخوري كان رئيس أكبر محفل ماسوني في بلاد الشام.

- **غريب. المسألة تحتاج تفسيراً؟**

- المهم، كانت لدى عائلتنا عادات صحية جيدة كالمشي والاعتناء بالنظام الغذائي واستعمال فرشاة الأسنان حتى قبل أن تشيع هذه العادات في المجتمع.

- **هذه دمشق المتنعّمة في تلك الفترة؟**

- لم يمت طفل في العائلة وهو رضيع، ولم يمرض أي واحد منا مرضاً قوياً.

- **ما هي وسائل اللهو لديكم في تلك الفترة؟ أين موقع السينما والمسرح والحفلات الموسيقية في حياتكم اليومية؟**

- لم تكن ثمة مسارح.

- **ألم يكن المسرح موجوداً؟ أبو خليل القبّاني كان مشهوراً في دمشق.**

- ليس مشهوراً تماماً.

- **وفخري البارودي وصالونه الأدبي والغنائي الذي اشتهر فيه صباح فخري* في ما بعد؟**

---

* اسمه الأصلي صباح أبو قوس من حلب، وسُمّي صباح فخري تيمناً بفخري البارودي.

- لم يكن لنا صلة بهذه الأمور وبهذه الأجواء.

- **ما السبب؟ هل أن طابع حي الميدان كان جافاً وجدياً معاً؟**

- نعم. طابع الميدان وجدية أبي وصرامته، ثم الحال المادية التي بدأت تتدهور. وأذكر أن أبي طالما اضطر إلى رهن قطعة من أثاث المنزل أو قطعة من مصاغ أمي حتى يستطيع سداد دينه. وكثيراً ما كان يأتي من عمله إلى المنزل سيراً لأنه لا يملك أجرة الترامواي. وكان، في الوقت نفسه، مصراً على الحفاظ على مستواه المعهود وعلى تعليم أولاده الخمسة: ثمانية أفواه في البيت عليه أن يؤمن لها حاجاتها: أبي وأمي وخمسة أولاد وخادمة تعيش معنا. كانوا يسمّونها "صانعة"، ويكرهون أن يطلقوا عليها صفة "خادمة" أو "خدامة". وبعد ذلك صاروا يسمونها "لفّاية"، أي التي تأتي إلى العمل في هذا المنزل في يوم وتعمل في منزل آخر في يوم آخر.

- **دمشق المدينة التي يحكمها التجار ورجال الدين ومالكو الأرض تبدو كأنها مدينة مرصودة للتجارة والسياسة فقط، فلم تنشأ فيها تيارات ثقافية جذرية، أو حركات فكرية عميقة. فهل كان نزار قباني، على سبيل المثال، يهز ثقافتكم التقليدية؟**

- هزّ ثقافة الجيل الذي قبلي.

- والتجار؟

– التجار طبقة ثالثة. والتاجر مهما صار غنياً، إذا لم يصبح من المالكين العقاريين يبقى بلا وجاهة، أي بلا سلطة سياسية. الشوام رفضوا الملك فيصل. وبعضهم تعاون مع الفرنسيين مثل عائلات الألشي والحسني.

- **عبد الرحمن اليوسف* مثلاً.**

– نعم. تعاونوا مع الفرنسيين ضد الفيصليين. لماذا؟ لأنهم يريدون أن يحكموا. كانوا حكاماً في أيام العثمانيين وعندما جاءت جمعية الاتحاد والترقي انقلبت الأمور. فجمعية الاتحاد والترقي أرادت أن تبني دولة حديثة. طار عقل الشوام وملاكي الأرض، وظهرت في تلك الفترة فكرة القومية العربية التي صاغها بعض المفكرين المسيحيين في لبنان.

- **أمثال بطرس البستاني.**

---

* في ١٩٢٠/٨/٢٠ أطلقت النار على كل من علاء الدين الدروبي رئيس الحكومة التي عينها الفرنسيون بعد سقوط الحكم الفيصلي، وعبد الرحمن اليوسف رئيس مجلس الشورى في محطة القطار في بلدة خربة غزالة التابعة لمنطقة حوران فقتلا. ويقال أن تاج الدين الحسني مات مسموماً في سنة ١٩٣٩. وقد أعدم جراء عملية اغتيال الدروبي واليوسف كل من: عوض صلاح الدين المصري وحسين الهادي ويوسف العيسى، ونفذ الإعدام في دمشق في ١٩٢٠/٩/٢٠.

- لا، قبل ذلك. المهم أن قصة القومية العربية كانت غريبة على أهل الشام، ولم تدخل عقولهم حتى الآن. الدعوة القومية العربية غريبة على بلادنا وغريبة على الإسلام، وهي تحتاج إلى إعادة نظر والى مراجعة نقدية شاملة. إن أهل الشام الذين كانوا حكاماً في أيام العثمانيين انضموا إلى مناوئي العثمانيين. لكن جمعية الاتحاد والترقي لم تلبث أن أطلقت الدعوة الطورانية. وهذه الدعوة خلقت ردة فعل اسمها "العروبة". أي أن لسان حال أهل الشام كان يقول: إننا نقبل حكمكم بالإسلام فنكون سوية. أما مَن سيحكم بلاد العرب فالعرب أولى. لم يصدق أهل الشام كيف تخلّصوا من العثمانيين ظناً منهم أنهم يستطيعون التفاهم مع الإنكليز والفرنسيين على استقلال سورية. لكن عندما جاء الجنرال غورو واحتل دمشق في سنة ١٩٢٠ تضعضع الوضع. هناك فارق بين سياسة عبد الرحمن الشهبندر في دمشق وسياسة إبراهيم هنانو في الشمال واتجاه سلطان الأطرش في السويداء وبين الاتجاه الدمشقي الذي كان يمثله شكري القوّتلي وجميل مردم وفارس الخوري الذي هو في الأصل ليس دمشقياً ولكنه صار دمشقياً. فشلت ثورة ١٩٢٥ لأنها كانت ريفية. وتحول النضال إلى النضال المديني، وتزعم هذا النضال أهل المدن. في دمشق جميل مردم وفارس الخوري وشكري القوّتلي، وفي حلب سعد الله الجابري، وفي حمص هاشم الأتاسي. فترة النضال هذه استمرت عشر سنوات فقط من ١٩٢٨حتى ١٩٣٨. وعندما تسلم أهل المدن في سنة ١٩٣٦ السلطة السياسية بعد المعاهدة الفرنسية — السورية ظهر أنهم "فالصو"، وبدأ "حكم المزرعة" منذ ذلك الوقت. وحده شكري القوّتلي تميز عنهم في حادثة جرت عندما كان وزيراً للمالية في

حكومة جميل مردم. فعندما سافر القوتلي إلى الحج وقّع عنه جميل مردم إحدى القضايا فاستقال القوتلي وأعلن أن السبب يتعلق بالنزاهة. والحقيقة ان الأمر يتعلق بتنازع الصلاحيات لا أكثر ولا أقل. لكن الجميع راح يتآمر على عبد الرحمن الشهبندر لأن الشهبندر لم يكن من العائلات المالكة للأرض.

• إنه من التجار كما يشير اسمه؟

- نعم، وكان مثقفاً وتقدمياً وعلمانياً وزعيماً شعبياً معاً. أي أن الناس هي التي سارت خلفه لا العائلات. فقتلوه ولم يحاكموا القَتَلَة محاكمة سياسية بل جنائية فقط، مثل حادثة اغتيال اسحق رابين*. لأن المحاكمة السياسية كانت ستُسقط الطبقة السياسية كلها وقتذاك. أهل الشام رفضوا زعامتين توالت عليهم. طبعاً أنا أتكلم على الصفوة، أي عن أهل الحلّ والعقد. فنحن إلى الآن لم نصل إلى تنظيمات وأحزاب شعبية ومجتمع مدني منظم، وثقافة ديمقراطية تصنع رأياً عاماً يفرض نفسه...!

• تقصد بالزعامتين الشهبندر والملك فيصل؟

---

* اغتيل الشهبندر في ١٩٤٠/٧/٦. أما القاتل فهو أحمد عصاصة، والمشاركون هم: أحمد الطرابيشي والشيخ صالح معتوق وسعيد الهندي وعزت الشماع وخليل الغندور ومحمد خيرو الحافي وفوزي القباني ومحمد الحرش وعاصم النائلي. أما الجهة المحرضة فهي رجال من الكتلة الوطنية أمثال لطفي الحفار وسعد الله الجابري وجميل مردم.

الخلافات والجميع يمتثل لقراراتها. وإذا خالف واحد من التجار يقاطعه الجميع فيفلس. لذلك لم تكن تقام الدعاوى القضائية قط.

- **حسناً. هل كانت علاقات التجار، ضمن دمشق القديمة، تختلف كثيراً؟**

- طبعاً، طبعاً.

- **كيف؟ نحن نسمع أن التاجر في الشام كان إذا لاحظ أن جاره صاحب الدكان لا يبيع في هذا اليوم، ثم يأتي زبون يطلب غرضاً ما فيقول له الأول: لا يوجد عندي من هذا الصنف، إذهب إلى جاري. هل هذه من المبالغات؟**

- ربما هي مبالغات التجار الصغار وبعض الصادقين جداً. وغالباً ما يكون مثل هذا التاجر شيخاً.

- **كيف تتذكر دمشق في الأربعينات وكيف تقارنها بدمشق اليوم؟**

- كانت أجمل وألطف وأكثر رخاء. المناخ اختلف كثيراً. في الشتاء كانت أبرد وفي الصيف كانت ألطف والربيع كان أجمل. وأفضل ما سمعت في وصف الشام أن دمشق انتقلت من مدينة يتراوح سكانها بين ٣٠٠ و٤٠٠ ألف شامي إلى مدينة هي، بالفعل، عاصمة سورية، لأن فيها اليوم

أربعة ملايين مواطن من جميع مناطق سورية. فمن مدينة حماه وحدها مئـــة ألف ومن دير الزور خمسون ألفاً، وهكذا من بقية المدن والأرياف خصوصاً.

٢ ـــــــــ ميشال عفلق والبعث

- **أنت وميشال عفلق من سكان الحي نفسه، مع أن هناك فارقاً في السن بينكما بالطبع. كنت قريباً جداً من ميشال عفلق بل لصيقاً به. وهذا الاقتراب منه، فكرياً وسياسياً، كان انعطافة شديدة الأهمية في حياتك. كيف تتذكر ميشال عفلق؟ وكيف ترسم لنا صورته بالتفصيل؟**

- أنا لا أذكر أنني تعرفت إلى ميشال عفلق* لأن ميشال عفلق وآل عفلق على صلة دائمة بعائلتنا. أبوه كان تاجراً في الميدان وصديقاً لجدّي في الوقت نفسه. كانا صديقين حميمين. وثمة تقاليد لدى المسيحيين تقضي، عندما يرزق أحدهم بولد، بأن يختار أقرب الناس من أصدقائه، ولا سيما إذا كان من أهل اليسار، ليجعل منه إشبيناً لابنه بالعمادة، وهذا يدعى "العراب". والعراب عند المسيحيين مسؤول وكفيل معنوي وخصوصاً عند الشدائد. وجدّي هو عرّاب ميشال عفلق وعرّاب جميع إخوته، أي عرّاب العائلة. وصلة "المارون" لدى المسيحيين هي نوع من القرابة الروحية تمنع الزواج، مثل الرضاعة عند المسلمين. أي أن اخته لا يمكنها أن تتزوج عمي مثلاً. وعندما توفي جدّي وَرِثَ أبي الصداقة مع آل عفلق كما ورث الصداقة مع سلطان الأطرش، لأن والدي كبير العائلة. وعندما مات يوسف عفلق والد ميشال عفلق، صار أبي مشرفاً على عائلة عفلق تقريباً. وعلى سبيل المثال كانت ليوسف عفلق ديون لدى بعض أبناء جبل الدروز،

---

* ولد في دمشق سنة ١٩١٠، وتزوج أمل بشور في سنة ١٩٥٨ في الكنيسة المريمية للروم الارثوذكس في دمشق. توفي في باريس في ١٩٨٩/٦/٢٣، وأزيل جانب من ضريحه في بغداد في ٢٠٠٣/١٠/٨ بقرار من مجلس الحكم الانتقالي العراقي الذي نشأ بعد سقوط بغداد في ٢٠٠٣/٤/٩.

وكانت والدة ميشال عفلق تأتي إلى أبي وتكلفه استردادها، فيذهب أبي إلى جبل الدروز لتحصيل الديون بحكم صلاته ونفوذه. وإذا حدث أي خلاف داخلي في عائلة ميشال عفلق نعرف به فوراً في بيتنا، لأنهم يلجأون إلى أبي لحل الخلاف. وفي هذا الجو كان أخي الكبير إميل أحد المعجبين بميشال عفلق وصار من حوارييه الأثيرين. وأنا نشأت في البيت على أمرين: صلة عائلتنا بآل عفلق، وميشال عفلق بالتحديد، لأنني لا أعرف أباه الذي مات قبل أن أُولد، أو ربما كنت طفلاً حين توفي، ثم علاقة أخي بميشال عفلق التي كانت شبه عبادة؛ فأخي كان يعبده حقاً. فسمعت، إذن، بالبعث أول ما سمعت به في بيتنا، وسمعت بقصص آل عفلق من أبي. ورأيت ميشال عفلق في بيتنا. وأنا أرى، بالفعل، أن لميشال عفلق خمس صور: ميشال عفلق منذ الولادة حتى بداية انصرافه إلى العمل السياسي. وميشال عفلق منذ سنة ١٩٤١ وحكاية "جمعية نصرة العراق"* وثورة رشيد عالي الكيلاني. وميشال عفلق منذ ١٩٤١ إلى تأسيس حزب البعث ثم إلى سنة ١٩٤٩ وما تلاها من سقوط حسني الزعيم وتولّيه وزارة المعارف. ثم ميشال عفلق في خمسينات القرن العشرين حتى انهيار الوحدة السورية — المصرية. ثم ميشال عفلق في السلطة.

والآن إليك التفاصيل. بدأت صلتي بالأستاذ ميشال هكذا عفو الخاطر، فوجدت نفسي، من جماعته بلا مقدمات. كانوا يسمّوننا

* أُسست "جميعة نصرة العراق" في سنة ١٩٤١، وساهم جلال السيد في إرسال المتطوعين إلى العراق. وقد قصفت الطائرات الانكليزية بعض المتطوعين في بلدة الميادين القريبة من دير الزور فأصيب فوزي القاوقجي واستشهد من رفاقه حمد صعب من لبنان.

"الحواريين"، وكنا نمتلك إعجاباً منقطع النظير به. ولأنني، منذ البداية، درجت على هذه الحياة وكأنني أكبر من عمري الحقيقي، تعاطيت العمل النضالي مبكراً، وقدمت طلب الانتساب إلى حزب البعث في صيف ١٩٤٧ بواسطة الياس صايغ وهو أحد أصدقاء أخي.

- **أي أنك انتسبت إلى الحزب في سنة تأسيسه؟**

– نعم، في مرحلة التأسيس التي أذكرها تماماً من خلال أحد تلاميذ صفي الذي كان حاضراً في المؤتمر التأسيسي، فضلاً عن أخي.

- **ما اسمه؟**

– إبراهيم رشيد إبراهيم. وعندما قرأ ميشال عفلق اسمي لم يقبل أن أقسم اليمين، فأنا كنت فتى في ذلك الوقت، ولم أبلغ سن الرشد. فقال لي صلاح البيطار: حسناً أنت من الأنصار وكانت المرة الأولى التي أسمع فيها كلمة أنصار. غير أنني، على الرغم من ذلك، كنت أذهب إلى مكتب الحزب وأشارك في التظاهرات وأنفّذ تعليمات الحزب أكثر من الحزبيين. وفي ما بعد أقسمت اليمين الحزبية في خريف ١٩٤٨، وكان عمري ١٥ سنة ونصف السنة. وتألف التنظيم السرّي في أواسط سنة ١٩٤٩ بعد انقلاب حسني الزعيم. وكلفت بمهمة حزبية هي توزيع منشورات في قلب المدينة وفي الحارات القديمة مثل الجامع الأموي والأسواق. وفي تلك المهمة ألقي القبض علي وسجنت. وكانت المرة الأولى التي أدخل فيها

السجن. في هذه المرحلة كنت أنظر إلى ميشال عفلق كقديس. لكن صورته لم تلبث أن بدأت في الاهتزاز، ولا سيما بعد أن تخرجت في الجامعة. ميشال عفلق لم يكن يتعاطى الحياة العامة، ولا علاقة له بالناس البتة. علاقاته كانت محصورة بأنصاف المثقفين والطلاب والمثقفين النظريين الذين لا يتعاطون العمل العام، وهؤلاء "أفندية" كما قال عنهم أكرم الحوراني في مذكراته*. وبالتدريج بدأت أكتشف أن هذا الرجل غير عملي، وغير صالح لأن يكون زعيماً، وهو لا يهيئ نفسه ليصبح زعيماً. هناك حادثة ذكرها أكرم الحوراني في مذكراته وهاجمني فيها في معرض هجومه على ميشال عفلق وهي صحيحة. يقول أكرم الحوراني انه في إحدى اللقاءات الحزبية لاحظ أن كنبة مهمة وضعت لميشال عفلق بينما وضع كرسيان عاديان إلى يمينه وإلى يساره لصلاح البيطار ولي (يعني لأكرم الحوراني). وعلم أن مريدي ميشال عفلق من طلبة الجامعة هم الذين تصرفوا على هذا النحو. وهؤلاء هم نور الدين الأتاسي وإبراهيم ماخوس ونبيل الشويري. وقامت قيامة أكرم الحوراني في الاجتماع لأنه رأى في هذا التصرف نوعاً من عبادة الشخصية، وهي ممنوعة. كان ميشال عفلق في البداية عميداً للحزب ثم صار أميناً عاماً**. ونحن نعرف أن الأمين العام هو الأول في أي حزب أو حركة سياسية. لكن تبين أن الآخرين ليسوا مقتنعين به كرجل أول. أكرم الحوراني عندما كان يدخل مكتب

---

* صدرت في أربعة أجزاء عن مكتبة مدبولي في القاهرة سنة ٢٠٠٠.

** المؤتمر الأول لحزب البعث في سنة ١٩٤٧ انتخب عفلق عميدا للحزب، وصلاح البيطار أمينا عاما، وجلال السيد ووهيب الغانم عضوين في مجلس القيادة.

الحــزب يُدخل ميشال عفلق أمامه. لكن عندما يذهب معــه إلــى القصــر الجمهوري يدخل أمامه. أما صلاح البيطار فكان تابعاً له. صلاح البيطــار كان دائماً ثانياً ولم يكن في إمكانه أن يكــون الأول كأكرم الحوراني. يروى أنه في عهد الوحدة، وربما قبل الوحدة بقليل، سافر عفلــق والبيطــار إلــى القاهرة فحجزت المخابرات المصــرية جناحاً لصــلاح البيطــار باعتبــاره وزيراً، وغرفة واحــدة فقط لميشال عفلق. ميشال عفلق متقدّم حزبياً علــى صــلاح البيطار بالطبع لكن صــلاح البيطار لم يستغرب ذلك، وأقــام فــي الجناح وترك ميشال عفلق يقيم في غرفة منفردة. وفي ما بعد، حينما بــدأت اصبح رجلاً عملياً، وما عدت طالباً، صرت أتعاطى مع عفلق لا كقديس بل بشيء من العملية، ففترت العلاقة.

- **في أي سنة كان ذلك؟**

- في سنة ١٩٥٨. بين ١٩٥٦ – ١٩٥٨ التحقت بالجيش. وطيلة مــدة الخدمة العسكرية لم أره ولم يرني. كان عفلق مســتهتراً بالحــــزب، لأنــه اعتقد، ولا سيما في عهد الوحدة، أنه أصبح وعبد الناصــر شــيئاً واحــداً. وبالتدريج انقطعت صلتي به.

ما هو انطباعك العام عن ميشال عفلق بعد هذه السنين؟

- ميشال عفلق شاب فائق الذكاء، وألمعي، وكانت له ميول أدبية؛ فهو شاعر وكاتب وقاص ومتفوق. وكان من الأوائل في سوريا فــي البكالوريــا

وفي معهد الحقوق بدمشق*. ولهذا أُرسل في بعثة إلى فرنسا لمتابعة دراسته وهو في العشرين. وفي باريس درس الحقوق والأدب والتاريخ، وعاش حياة خاصة، وكانت لديه حيوية كبيرة وذاكرة عظيمة. وفي العاصمة الفرنسية نال، فضلاً عن دراساته في التاريخ والأدب، دبلوماً في علم الأديان المقارن من السوربون. وللغرابة فإنه لا يذكر شيئاً عن هذا الدبلوم، وهو يتكتم على دراسته هذه. قصارى القول إنه عاد إلى دمشق ليعمل في حقل التدريس، ويبدأ الكلام على النهضة الأوروبية وعلى ضرورة نشوء نهضة عربية مماثلة، وبدأ يكتب في مجلة "الطليعة"** وهي مجلة شيوعية، ويلتقي يساريين أمثال كامل عياد***وغيره، ولهذا تَردد الكلام عليه بأنه شيوعي، وهذا غير صحيح بالتأكيد. كان أديباً وشاعراً ويسارياً. وعندما قرر الانخراط في العمل السياسي اخترع تلفيقة فكرية.

- **تلفيقة؟**

---

* أُسس معهد الحقوق العربي في ١٩١٩/١١/١٣، وخطب في حفل الافتتاح كل من نجيب الأرمنازي وعبد الرحمن الشهبندر وفارس الخوري وعيسى اسكندر المعلوف.

** صدرت في دمشق سنة ١٩٣٥ وتوقفت عن الصدور في سنة ١٩٣٩.

*** ولد في سنة ١٩٠١ وهو من أصل ليبي، وكان من أوائل السوريين الذين حازوا الدكتوراه من احدى الجامعات الألمانية في بداية الثلاثينات من القرن العشرين. عمل استاذاً للفلسفة في جامعة دمشق في سنة ١٩٥١، وهو من مؤسسي مجلة "الطليعة" الدمشقية سنة ١٩٣٥ ومجلة "الطريق" اللبنانية سنة ١٩٤١. توفي في سنة ١٩٨٦.

- إنها من أشــهر خطبه وكانت بعنوان "ذكرى الرســول العربــي"، وهي مجموعة فقرات كتبها في أوقات متفرقة، ثم جمّعها وجعل منها خطاباً واحداً*. وهــذا الخطاب المشهور وجــد المسلمون فيه بــديلاً مــن العقــل الرجعي الذي يمثله الإخوان المسلمون، ووجد الشباب فيه أملاً فأعجبوا بــه كثيراً، أما الكبار فانزعجوا منه. المهم أنه اخترع تلفيقة وأســس الحــزب على أساسها. لكن الحــزب في الحقيقة كان، في الأساس، أربعــة أحــزاب. ثلاثة أحزاب حمل كل واحد منها اسم حزب البعث العربي، وهذه الأحــزاب اندمجت بين السنوات ١٩٤٤ و١٩٤٧ وكان آخرها حزب وهيــب الغــانم، والحزب الرابع هو حزب أكرم الحوراني، أي الحزب العربي الاشــتراكي، الذي تم الدمج معه في عهد الشيشكلي. صار الحزب كبيراً بعد الاندماج مــع أكرم الحوراني وفازت قائمة الحــزب في حماة فــي الانتخابــات النيابيــة، واشتهر أكرم الحوراني كثيراً. وبناء على ذلك لمع حزب البعــث وميشــال عفلق، وبدأ ينتشر في الأقطار المجاورة كالأردن والعراق ولبنان. ولم ينتبه أحد إلى أن المنظمات القطرية للحزب خارج سوريا كانت تحــت الســيطرة الكاملة لميشال عفلق، فهو مؤسس الحــزب، والأدبيــات الرائجــة بيــن الحزبيين هي أدبيات عفلق. وكان الحزب خارج ســوريا مغلقاً تماماً حتــى على صلاح البيطار، في الوقت الذي كان فيــه صــلاح البيطــار وأكــرم الحوراني وجلال السيد منصرفين كلية إلى العمل السياسي في سورية.

---

* هذه الخطبة المشهورة ألقاها ميشال عفلــق علــى مــدرج جامعــة دمشــق فــي ١٩٤٣/٤/٥. وقد أثارت نقمة المســلمين والمسيحيين معا؛ فالمســلمون رأوا فيهــا إيحاء بأن الإسلام هو إنجاز عربي أكثر منه وحيا من عند الله، والمسيحيون وجدوا أن عفلق قدم تنازلا كبيرا للتيار الإسلامي.

• **هل تود أن تقول أن ميشال عفلق كان انتهازياً وصاحب شخصية مضطربة؟**

– أقول إن هناك عدة محطات في حياته تفصح عن شخصيته. فمثلاً في١٩٤٢/٧/٣ استقال هو وصلاح البيطار نتيجة لصدام الطلاب مع وزارة المعارف. أي أن عفلق والبيطار، عندما كانا مدرّسَين في التجهيز*، أوهما الناس بأنهما إلى جانب الطلاب، وقدما استقالتيهما. لكن الحقيقة أنهما كانا يريدان التفرغ للعمل السياسي، ووجدا في الاستقالة باباً لذلك، فاكتسبا شعبية كبيرة بين الطلاب بسبب موقفهما من المناهج والسياسة التعليمية.

لكن، في سنة ١٩٤٩، أي بعد سبع سنوات، كان ميشال عفلق قد صار وزيراً للمعارف، فلم يقم بأي شأن في حقل المناهج والسياسة التعليمية. وهناك محطة غير معروفة للكثيرين، هي أنه عندما عاد عبد الرحمن الشهبندر إلى سورية أُقيمت له حفلات التكريم في معظم أحياء دمشق ومنها الميدان. فدعاه ميشال عفلق إلى بيته**. وبعد فترة وجيزة اغتيل الشهبندر فلم يحرك ميشال عفلق ساكناً لا استنكاراً ولا احتجاجاً. وفي سنة ١٩٤٣ أراد عفلق أن يترشح للانتخابات النيابية، وقبيل الانتخابات اجتمع عدد من المثقفين في منزل أحمد الشراباتي لدعم شكري القوّتلي ضد زعماء الكتلة الوطنية الآخرين، وأصدروا بياناً باسم مثقفي دمشق وقعه كل من ميشال عفلق وصلاح البيطار تأييداً لشكري القوّتلي. وتبين أن الأستاذ ميشال

---

* اسمها الآن ثانوية جودت الهاشمي. وفي مصدر آخر أن عفلق والبيطار استقالا في ١٩٤٢/١٠/٢٤.

** عاد الشهبندر من القاهرة إلى دمشق في ١٩٣٧/٥/١٤.

يرغب في الترشّح للانتخابات، وكان شكري القوّتلي رب الناس آنذاك، وهو الذي سيؤلف قائمة دمشق والناس كلها ستنتخب قائمة القوتلي. ولما لم يُدخله القوّتلي في قائمته تغيّر الموقف منه فوراً*. وفي سنة ١٩٤٧ إبّان حرب فلسطين ذهب أكرم الحوراني إلى فلسطين للقتال ومعه فرقة من المقاتلين السوريين، وذهب أيضاً صلاح البيطار وميشال عفلق. لكن صلاح البيطار ذهب إلى فلسطين باسم جريدة "البعث" كصحافي، أما ميشال عفلق فذهب ولم يقاتل، فهو وصلاح البيطار لا علاقة لهما بالقتال في الأساس. وفي سنة ١٩٤٩، أي في عهد حسني الزعيم كانت المحطة الكبرى.

- **تقصد البيان الاستعطافي المشهور الذي أصدره عفلق من السجن تأييداً لانقلاب حسني الزعيم؟**

- نعم. وكان هذا البيان كارثة. وترك الكثيرون الحزب بسببه. لا يجوز أن يكتب زعيم مثل هذا البيان وهو لم يتعرض للتعذيب قط**. وهناك قصة يعرفها عشرات الأفراد من الجيل الأول في الحزب، لكنهم سكتوا عليها، لأنهم رغبوا في عدم فضح مؤسس الحزب وهي قصة نسائية سخيفة

---

* يقول سامي جمعة أن عفلق ترشح سنة ١٩٤٣ فصوت له ١٤٥ ناخبا، أي أكثر من عدد أعضاء الحزب.

** يذكر سامي الجندي في كتابه "البعث" (بيروت: دار النهار، ١٩٦٩) ان عفلق لم يكتب هذا البيان وإنما وقعه فحسب. وأن الذي صاغ البيان هو العقيد ابراهيم الحسيني الذي كان من أنصار البعث. ويروي سامي جمعة أن رسالة ميشال عفلق هذه التي أرسلت إلى حسني الزعيم في ١٩٤٩/٦/١١ كتبت بخط بهيج كلاس وبمعرفة خليل كلاس وأكرم الحوراني.

تتعلق بامرأة لعوب أقام عفلق علاقة غرامية معها، وكان زوجها عضواً في الحزب. وبعد افتضاح أمر هذه العلاقة طلق الزوج زوجته وفُرض على ميشال عفلق مغادرة سورية إلى حين.

- **يبدو أنها كانت من عائلة متنفّذة جداً كي يُفرض على عفلق مغادرة بلده.**

– لا. بل جرى الأمر بالاتفاق معه. كانت فضيحة تم التستّر عليها. وذهب عفلق إلى البرازيل. جميع الناس تساءلوا: لماذا ذهب إلى البرازيل؟ أما الحقيقة فظلت محصورة بين ١٠ أو ١٥ شخصاً فقط. جلال فاروق الشريف* كان يعرف القصة، ومع ذلك لم يذكرها في مذكراته التي لم تنشر حتى اليوم وفيها يقول: اختفى الأستاذ ميشال فجأة ولم نعد نستطيع الاتصال به من أجل تنفيذ مقررات المؤتمر.

- **وماذا حدث للزوج؟**

– أرسل في بعثة تعليمية للحصول على الدكتوراه.

- **والمرأة؟**

---

* ولد في سنة ١٩٢٥ في دمشق ونال الإجازة في الحقوق سنة ١٩٤٨، وتطوع للقتال في فلسطين سنة ١٩٤٨، ثم عاد إلى سورية ليعمل في الصحافة، وتوفي في سنة ١٩٨٣.

- تزوجت ثانية وتزوج زوجها غيرها. وللعلم فقط، إنها ليست سورية بل مصرية. وربما لأنها ليست من بنات البلد، لم يهتم أحد بالموضوع. ربما لو كانت المرأة سورية لكانت الفضيحة أكبر.

خذ قصة الوحدة السورية ـ المصرية مثلاً. فقد ألقى عفلق خطاباً وافق فيه على حل الحزب*، وقال: إن الاتحاد القومي هو بديل من البعث، وأنه طالما عمل مع أولاد في السياسة، والآن يريد أن يعمل مع جمال عبد الناصر. وهذا الخطاب لم ينشر البتة ومنع عفلق نشره بذريعة أنه يثير الحساسية مع عبد الناصر. وهذا الخطاب غير موجود في الأدبيات الحزبية قط. لكن ورقة الحرير التي طبع الخطاب عليها ظلت موجودة. فهذا الخطاب سُحب على الستانسل عند جلال فاروق الشريف الذي أورد هذا النص، في ما بعد، في مذكراته. المهم ذهب عفلق إلى مصر في عهد الوحدة، ولم يكن عبد الناصر ينظر إلى عفلق بالنظرة نفسها التي ينظر بها هو إلى ذاته. عبد الناصر يريد زعماء يقبلون زعامته لتحويلهم إلى أتباع. ولهذا السبب حقد ميشال عفلق على عبد الناصر حِقْداً كبيراً، وعاد إلى دمشق.

مرة، في إحدى الليالي في سنة ١٩٥٩، كنا نسير أنا وعفلق في شارع بغداد وحدنا. وبعد أن ظل يحدّثني نصف ساعة عن عبد الناصر، توقف فجأة بطريقة مسرحية وقال لي: يقولون: "خُلق قبل الشيطان. إن عبد

---

* ألقي الخطاب في ١٩٥٨/٢/٢٣.

الحوراني من الحزب*. لكن الحوراني بعدما خاب أمله في الحـزب حـاول أن يعيد تجربة الديمقراطية إلى سورية، فأدار ظهره للحزب وأسس حركـة سياسية جديدة** وسـار معه كثيرون من البعثيين من جميـع المحافظـات. ومن السلوك البائس لميشال عفلق ما فعله في العراق، حينما مكّن لعصـابة صدّام حسين السـيطرة على الحزب، وكانت النتيجة أن صـدّام قتل متعمّداً الجيل المؤسس للحزب في العراق وأبرز هؤلاء فؤاد الركابي. ولمـا ذهـب ميشال عفلق إلى بغداد، في ما بعد، احتفظ بلقبه "القائد المؤسـس" والأمـين العام للحـزب، لكنه في الحقيقة، كان مجـرد خولي في بيـت التكريتـي، وكانت وظيفته أن يَخْطُب مرة في كل سنة، في عيد الحزب. وفـي إحـدى خطبه المشهورة قال: "صدّام حسين وعبقرية صدّام حسين هي هدية البعـث إلى العراق وهدية العراق إلى الامة العربية". وفي هذا الجوّ نشأ أولاده فـي العراق وأنغمس أصغرهم في الفساد مثل أبناء رجال السلطة العراقية تماماً.

- **ما اسمه؟**

– زياد. أما ميشال عفلـق فعاش أيامه مترفاً في منـزل كبيـر فـي إحـدى ضواحي جنيف. وهذا المنزل الذي يقع في أروع مناطق سويسـرا كان مخصصاً للصيف فقط. وأحيانا يستأجر منزلاً للصيف في "كان" علـى شاطئ الريفييرا الفرنسـية أي "الكوت دازور"، ومنزل ثالث فـي بـاريس،

---

* عقد المؤتمر في أيـار ١٩٦٢، وأعلن فصل أكرم الحوراني فـي ١٩٦٢/٦/٢٢، وكان عبد الله الريماوي أبعد في المؤتمر القومي الثالث، وأبعد فؤاد الركابي فـي المؤتمر القومي الرابع.

** حركة الاشتراكيين العرب. وقد تحولت في سنة ٢٠٠٥ إلى "حزب العهد".

ورابع في بغداد مع حرس وأبّهة. لكن، من غير أي نشاط سياسي ومن غير أي مشاركة في القرار السياسي. وللغرابة، فإن الحرب ضد إيران اندلعت ولم يعلم عفلق خبرها. كان مقيماً في باريس وجاءه السفير العراقي في فرنسا ليخبره أن محطة TVI تريد أن تجري مقابلة مشتركة مع السفيرين العراقي والإيراني، وأن صدّام حسين أمره أن يأخذ توجيهاته من الأمين العام. وبعد ذلك عندما مات عفلق نشر صدّام حسين على الملأ أن ميشال عفلق أعلن إسلامه*. متى حدث ذلك؟ كيف يكون اعتناق الإسلام من غير إشهار؟ ما هذه القصة التي لا يعرفها أبداً إلاّ صدّام حسين، بينما زوجة ميشال عفلق نفسها لا تعرفها ولا يعرفها، فوق ذلك، قدماء الحزبيين في القيادة القومية؟

- **أمثال الياس فرح وشبلي العيسمي مثلاً؟**

- وعلي غنام وطارق عزيز.

- **من أسس حزب البعث العربي الاشتراكي؟**

---

* ثمة رواية ضعيفة جداً عن وصية لميشال عفلق أعلن فيها انه تحرر من العقيدة المسيحية منذ أن كان في الخامسة عشرة، وأنه أصبح مسلماً. وأوصى عفلق ألا ينشر هذا الحديث إلا بعد موته، وان يصلى عليه في المسجد (أنظر: ذوقان قرقوط، "ميشال عفلق: الكتابات الاولى"، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٣).

- ثمة جدال كبير في هذا الشأن لم يُحسم قط. والسؤال الذي لا ينفك يتردد هو: من أسس الحزب حقاً؟ ميشال عفلق أم زكي الأرسوزي؟ لم يوضح أحد هذه النقطة إيضاحاً قاطعاً. ومَن يعتقد أن ميشال عفلق هو المؤسس لديه الحق. لكن كلمة البعث بدأت عند زكي الأرسوزي في انطاكية أولاً لا في الشام. بدأت تتردد قبل سلخ لواء الاسكندرون في سنة ١٩٣٨، وكان الأرسوزي يصدر جريدة "البعث" هناك وتلامذته يقومون بتوزيعها. وفي الوقت نفسه كان ميشال عفلق يؤسس في دمشق مع صلاح الدين البيطار حركه عُرفت باسم "حركة الإحياء العربي" لأن الحزب في التراث الإسلامي كلمة مكروهة إلاّ حزب الله فـ "هم الغالبون". الأحزاب هم الكفار والمشركون الذين حاربوا النبي محمد. بينما كلمة حركة لا تعطي هذا الانطباع الذي يكرهه ابن الشارع. وعدم التحزّب والابتعاد عن الأحزاب مسألة أقرب إلى قلب المسلم وعقله وتراثه. أول حزب أُسس في سورية هو حزب الشعب الذي أسسه عبد الرحمن الشهبندر. ولكن عندما أصبح الشهبندر خارج البلاد منفياً ومحكوماً بالإعدام، وقاده آخرون من الملاكين والتقليديين سموه "الكتلة الوطنية".

- **هذا يعني أن حزب الشعب أُسَس قبل الحزب الشيوعي؟**

- حزب الشعب أُسس في أوائل حزيران ١٩٢٥. طبعاً قبل تأسيس الحزب الشيوعي*. لهذا يمكن تكوين فكرة عن مسايرة ميشال عفلق الشارع

---

* التاريخ الرسمي لتأسيس الحزب الشيوعي السوري ـ اللبناني هو ١٩٢٤/١٠/٢٤ لدى الشيوعيين اللبنانيين و١٩٢٤/١٠/٢٨ لدى الشيوعيين السوريين حينما عُقد

- وسليمان العيسى أيضاً وعبد الحليم قدور ويحيى السوقي. فالكتلة الوطنية في ذاك الوقت تصرفت بشراسة مع انطون سعادة أيضاً. نصري المعلوف ضُرب ضرباً مبرحاً في الشارع بدمشق لأنه يشبه أنطون سعادة بعض الشيء، وظل يُضرب حتى تعرّف إليه واحد من الكتلة الوطنية فقال لهم: توقفوا يا جماعة هذا منّا وفينا*.

- **نصري المعلوف أحد متخرجي معهد الحقوق العربي في دمشق.**

- نعم.

- **في تلك الفترة كان لا يزال طالباً أم تخرّج؟**

- كان متخرّجاً يتردد على دمشق. هناك قصة تروى، لا أستطيع التحقق منها ولكني سمعتها من أناس معاصرين. كان زكي الارسوزي جالساً في مقهى الكمال في دمشق فأرسلت إليه جماعة الكتلة الوطنية اثنين من الزعران ليعتدوا عليه. وهذه التصرفات كانت من أساليب الكتلة. فشعر الارسوزي أنه ضعيف ولا حيلة له ولا يوجد من يناصره فمرض**. ولما علم أن ميشال عفلق وصلاح البيطار ينشران المبادئ نفسها قال لأنصاره: اذهبوا وانضموا إليهما. وكان وهيب الغانم تخرج طبيباً وصار

---

* ولد سنة ١٩١٢، وساهم في تأسيس حزب النداء القومي مع كاظم الصلح وتقي الدين الصلح، وتوفي نيسان ٢٠٠٥.

** توفي في ١٩٦٨/٧/٢.

أحد مناصري الأرسوزي البارزين، وعاد إلى اللاذقية لتأسيس حزب هناك باسم "حزب البعث". وانتشر الحزب في أوساط الفقراء والمتعلمين بسرعة. وكان حزب البعث بدأ ينتشر أيضاً في أوساط دمشق. وبين السنوات ١٩٤٢و١٩٤٧ راح ميشال عفلق يكتسب شهرة لافتة بكتاباته ومحاضراته. وثمة رافد ثالث للحزب هو جلال السيد الذي كانت لديه مجموعة في دير الزور وله أصدقاء في دمشق من المعجبين به. وعندما سمع بميشال عفلق من خلال كتاباته جاء إلى دمشق والتقيا، ونشأت بينهما علاقة متينة جداً. وعندما عقد المؤتمر التأسيسي للحزب في ٧ نيسان ١٩٤٧ كانت الفئات الثلاث حاضرة كلها: حزب ميشال عفلق وصلاح البيطار وبعض الطلاب والمعلمين ولا وجود لأي عامل أو فلاح أو صاحب مهنة شعبية أو ملاّك أبداً بل "أفندية" فقط بحسب أكرم الحوراني؛ وحزب جلال السيد وهو عبارة عن زعامة عشائرية لها تطلعات عصرية؛ وجماعة وهيب الغانم من اللاذقية التي كانت الأكثر فاعلية. وعقد المؤتمر في مقهى الرشيد الذي كان اسمه "لونابارك" الواقع في شارع ٢٩ أيار بين بوابة الصالحية والسبع بحرات. وحضر المؤتمر عدد من المندوبين تراوح ما بين ٢٥٠ إلى ٣٠٠. وعندما عُرض موضوع "الاشتراكية"، وجرى الاقتراح باستخدام مصطلح الاشتراكية بدلا من العدالة الاجتماعية، انقسم المؤتمرون على الفور بين يمين ويسار. وعندما وقف جلال السيد ضد هذا الاقتراح تبين أن الأكثرية مع الاقتراح.

- **الأكثرية من جماعة وهيب الغانم؟**

- انحاز ميشال عفلق إلى كتلة اليسار فصارت الأكثرية معه على الرغم من أن رئاسة المؤتمر كانت لجلال السيد. ولم يتخذ صلاح البيطار

موقفاً في هذا الموضوع. إذن اختار جلال السيد اليمين واختار ميشال عفلق اليسار وظل صلاح البيطار لا يمين ولا يسار. ومنذ ذلك اليوم وهذه الكتل الثلاث لا تميل الواحدة منها إلى الأخرى. أما الكتلة الرابعة التي اندمجت فكانت الحزب العربي الإشتراكي بزعامة أكرم الحوراني*. إذن كان الحزب في الأساس أربع كتل ولكل كتلة نكهة خاصة، ولها اتجاه يختلف عن الأخرى. فمنها من يعتبر نفسه يسارياً والبعض يعتبر نفسه يمينياً، ومنها مَن يغلب القومية على الاشتراكية، ولا يجد غضاضة في التعاطي مع البرجوازية، بينما يكن الآخر العداء للبرجوازية، فضلاً عن أن البعض كان يصر على علمانية الدولة، بينما يعتقد البعض الآخر بأن من الضروري مسايرة التيار الإسلامي. إذن لم يكن هناك حزب متماسك منذ البداية، أي مؤسسة سياسية، بل كان هناك تجميع لأربعة أحزاب: ميشال عفلق الذي يعتمد على صلاح البيطار بالدرجة الأولى. وجلال السيد ذو الفكر التطوري لا الثوري، وهو قومي أولاً وأخيراً ويرغب في الوحدة والتعاون مع الرأسمالية ومع العراق ومع نوري السعيد. وهناك جماعة وهيب الغانم اليسارية، ثم أكرم الحوراني وحزبه وأنصاره.

- **هل انضم زكي الأرسوزي إلى الحزب؟**

---

* ولد أكرم الحوراني في ١٩١١/١١/٤، وإسمه الأصلي: حسن أكرم الحوراني. التحق بالحزب السوري القومي الاجتماعي في سنة ١٩٣٦ وفُصل منه في ١٩٣٨/٢/٢٨ لينضم إلى حزب الشباب الذي أسسه عثمان الحوراني في سنة ١٩٤٣ مع عثمان الارمنازي وصالح قنباز. وفي ١٩٥١/١/١٥ أسس الحزب العربي الاشتراكي.

- كلا. الأرسوزي كان يعتبر نفسه أرفع منهم جميعاً.

- **هذا ما يقوله جلال السيد. يقول أن لا علاقة للأرسوزي بالحزب.**

- صحيح. لكن مجموعته اندمجت بالحزب*.

- **من هي الشخصيات البارزة في المرحلة التأسيسية؟**

- مدحت البيطار (من دمشق)، جمال الأتاسي (من حمص)، شبلي العيسمي (من السويداء)، فؤاد الصواف (من دمشق)، محمد السيد (من حلب)، عبد البر عيون السود وشاكر الفحام وأبو النور طيارة (من حمص)، فيصل الركبي (من حماة)، وجلال فاروق الشريف (من دمشق)**.

- **الشائع أن حزب البعث العربي الاشتراكي هو عبارة عن مجموعة من الطلبة الريفيين ومعلمي المدارس الذين تمكن عفلق من تجنيدهم**

---

* ينفي جلال السيد نفياً قاطعاً ان يكون للأرسوزي أي دور في تأسيس حزب البعث أو حتى مجرد الاطلاع على المباحثات بين عفلق والبيطار والسيد التي أدت إلى التأسيس. ويقول إن عدداً من المتأثرين بمنهج الأرسوزي وبأفكاره انضموا إلى الحزب، ومن بين هؤلاء فايز اسماعيل وصدقي اسماعيل ووهيب الغانم وسامي الجندي.

** فضلاً عن هؤلاء كانت مجموعة عفلق تتألف من عبد الله عبد الدايم وشاكر مصطفى وبديع الكسم وأليس قندلفت وأسعد الأسطواني ومنصور الأطرش. أما مجموعة جلال السيد فكانت مؤلفة من عبد الكريم الفرحان وعبد الخالق النقشبندي وشامل السامرائي ومحمود وكاع ودحام الدندل وسليمان الأسعد.

لحزبه. وهؤلاء عندما تخرجوا في جامعة دمشق وعادوا إلى أريافهم نشطوا لترويج الأفكار التي اكتسبوها في المدينة. لهذا يقال ان حزب البعث العربي بقي هزيلاً في المدن، ولا سيما في دمشق، وله حضور قوي في الأرياف. إلى أي مدى تعتبر هذه المقولة صحيحة؟

- ليس فقط حزب البعث بل معظم الأحزاب. المدن في سورية والنخب المدينية الحاكمة في سورية لا تريد أي تغيير، وتعتبر أن سورية لا تحتاج أي نهضة. الذين يشعرون بضرورة التغيير هم فقراء الريف؛ فالظلم في الريف كان ظلماً مضاعفاً: ظلم الدولة وظلم الإقطاعيين. بينما فقراء المدن مظلومون مرة واحدة. وهؤلاء كرس الشيوعيون أنفسهم لاستقطابهم ولم يستطع حزب البعث التأثير فيهم. بينما تمكن أكرم الحوراني من التأثير بقوة في مدينة حماة. وعندما شرع أكرم الحوراني يخرج من حماة لتأسيس حزب على مستوى سورية راح يعمل في أوساط الفقراء في المحافظات كلها. أما حزب البعث فلم يكن يتوجه إليهم بتاتاً إلا بالحكي فقط. من هنا شهدت الأرياف انتشار حزب البعث فيها. لكن أي أرياف؟ إنها أرياف الأقليات مثل جبل الدروز وجبل العلويين، ولم ينتشر هذا الحزب بين المسيحيين لا في المدن ولا في الأرياف. الحزب الشيوعي والحزب السوري القومي الاجتماعي انتشرا بقوة بين المسيحيين، أما في المدن التقليدية فانتشر الإسلام السياسي.

- **الإخوان المسلمون.**

- عندما أسس الإخوان المسلمون* تنظيمهم في الأربعينات حازوا تأييداً جيداً في المدن. قبل ذلك كان جمهور المدن يؤيد الوجهاء من الملاكين والموظفين الكبار المتحالفين مع المشايخ ورجال الدين.

- **هل كان لهزيمة حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق في سنة ١٩٤١ أي أثر في نشوء حزب البعث، ولا سيما أن جميعة نصرة العراق أسسها ميشال عفلق؟**

- نعم. كانت مجالاً للعمل السياسي المباشر، ومهدت السبيل أمام حركة الإحياء العربي.

- **أفكار القومية العربية التي كان ميشال عفلق يدعو إليها تبدو ساذجة مقارنة بأفكار قسطنطين زريق. هل كان المؤسسون الأوائل غير مطلعين كفاية على فكر زريق العلماني والديمقراطي؟**

- سؤال مهم جداً. في أول اجتماع تأسيسي عقد في منزل ميشال عفلق، حضره ١٣ شخصاً، نعم ١٣ بالتحديد، كان بينهم فؤاد الصواف وشبلي العيسمي.

---

* بدأت جماعة الاخوان المسلمين نشاطها السياسي في سورية سنة ١٩٣٥، وأسست أول مركز لها في حلب هو "دار الأرقم". وعقدت الجماعة مؤتمرها الأول في سنة ١٩٣٦، وفي سنة ١٩٤٤ أصبح مصطفى السباعي المراقب العام للجماعة في سورية.

- **هل كنت حاضراً ذلك الاجتماع؟**

- كلا. كنت ولداً حينذاك.

- **في أي سنة حصل هذا الاجتماع؟**

- لا أدري بالضبط. ربما في أوائل سنة ١٩٤٤. فؤاد الصواف رجل متحمس جداً وقريب من الناس. وآل الصواف في الشام عددهم كبير في القيمرية، وهو درس في الجامعة الأميركية في بيروت، وكان قريباً من قسطنطين زريق*. وفؤاد الصواف هذا كان يروج لضرورة تطوير الإسلام من داخله، وإلاّ فلن يحصل أي تقدم. وكان يقول، في جملة "أفكاره" الطريفة، إنه إذا عاد النبي محمد فإنه سيحلل الويسكي، لأن الويسكي ليس عرق التمر الذي إذا شرب منه المسلمون سكروا تماماً ولا يعودون قادرين على معرفة طريقهم. يروي فؤاد الصواف لصلاح البيطار على مسمع مني وفي منزل صلاح البيطار نفسه الحادثة التالية: "كنا في الجامعة الأميركية معجبين بقسطنطين زريق، ومن حوارييه وتلامذته. ولكن كان دائماً في قلبنا أمر ما مغلق لا نستطيع معرفة ما هو. وعندما عدنا إلى الشام

---

* ولد في دمشق في ١٩٠٩/٤/١٨ وتخرج في جامعة برنستون سنة ١٩٣٠ حاملاً الدكتوراه. تولى رئاسة الجامعة السورية من ١٩٤٩ إلى ١٩٥٢، وأصبح رئيساً بالوكالة للجامعة الأميركية في بيروت من ١٩٥٤ حتى ١٩٥٧. وقد كان له شأن كبير وخفي في تأسيس "الحركة العربية السرية" في سنة ١٩٣٥، وفي نشوء حركة القوميين العرب في سنة ١٩٥٢. توفي في بيروت في ٢٠٠٠/٨/١٢.

وتعرفنا إلى ميشال عفلق، واستمعنا إلى حديثه، فُتح قلبنا واكتشفنا ما الذي كان اغلق على قلبنا عند قسطنطين زريق. يا أستاذ هل عرفت ما هو؟

- **الاسلام؟**

- الإسلام. الإسلام غير موجود عند قسطنطين زريق، لكنه موجود عند ميشال عفلق، وبالتحديد في محاضرته المشهورة "ذكرى الرسول العربي" التي قامت ضجة كبيرة عليها. كان الشباب معه لأنهم وجدوا فيه بديلاً من الإخوان المسلمين، بينما وقف التقليديون ضده ولسان حالهم يقول: ما علاقته بالإسلام وهو رجل نصراني؟ أجاء هذا المسيحي ليعلمنا الإسلام؟ في أي حال فإن هذه المحاضرة، على شهرتها، عبارة عن صيغ لفظية عامة، مثل جراب الكردي يمكنك أن تجد فيه ما هو تقدمي وما هو رجعي.

- **حمّال أوجه.**

- حمال أوجه ومدعاة للهروب من إعادة النظر في تاريخنا. اليهود أسسوا دولة في سنة ١٩٤٨، وقبل مرور ٥٠ عاماً على هذه الدولة انبثقت لديهم جماعة "المؤرخون الجدد" الذين أخذوا على عاتقهم مهمة إعادة قراءة التاريخ المعاصر للصهيونية ولدولة إسرائيل. أما نحن، فبعد ١٢٠٠ سنة، ما زالت "الفتنة الكبرى" جاثمة في بيوتنا. هذا شيعي وهذا سني، هذا علوي وهذا درزي وذاك إسماعيلي، ولا أحد يرغب في الكلام على هذه الأمور. واحد ينتقد معاوية فيعتبرونه شيطاناً رجيماً لأن معاوية من الصحابة. وآخر يؤلّه علياً. ما هذه الدوامة؟

- **ألم يحاول مفكرو البعث نقد التاريخ العربي والإسلامي، وإعادة صوغ هذا التاريخ في ضوء مناهج العلم الحديثة؟**

- ظل الأمر على شاكلة صيغ لفظية مثل "العروبة جسد روحه الإسلام". أي إسلام بالتحديد؟ لا جواب. البعث دار ضمن الفهم التقليدي للإسلام وللدولة الإسلامية.

- **هل كان لدى الحزب، في ذاك الوقت، موقف صريح من العلمانية؟**

- هيك وهيك.

- **على طريقة ميشال عفلق؟**

- في لبنان مع العلمانية. في دمشق كان الجو التقدمي مع العلمانية، بينما شعور الجماهير ضد العلمانية، لذلك كان عفلق متقلباً. سأروي لك حادثة وقعت سنة ١٩٥٥ في برمانا. جاء بيار الجميل إلى عفلق زائراً وطلب إليه عقد اجتماعات بين عفلق وبعض أعضاء المكتب السياسي لحزب الكتائب للتحاور. وبالفعل عقدوا عدداً من الجلسات، وكان أعضاء المكتب السياسي للحزب برئاسة بيار الجميل يجلسون في جهة، وفي الجهة المقابلة يجلس ميشال عفلق ومعه بعض البعثيين اللبنانيين. والحقيقة ان ميشال عفلق رجل مثقف وقادر على الاستماع؛ فهو طويل البال في النقاش، ومقدرته الفكرية والكلامية كبيرة جداً ولا مجال لمقارنته ببيار الجميل. والفكر القومي عند ميشال عفلق لا يوجد فيه فارق بين مسلم ومسيحي.

بينما حزب الكتائب ليس ضد الإسلام كإسلام ولا ضد العروبة كعروبة إنما يريد المحافظة على حقوق المسيحيين وأن يضمن ألاّ يصبح لبنان مثل بقية الدول العربية. ولأن ميشال عفلق كان يتحدث بكلام قابل للصرف عند المسيحيين، ولا مقدرة لبيار الجميل على مجاراته في المناقشات، فقد حسم بيار الجميل النقاش في آخر جلسة وقال له: اسمع يا أستاذ ميشال نريد التحدث بكلام واضح وصريح. أنا أوافقك على هذا الكلام مئة في المئة. ولكن لا تبدأ في لبنان، بل اجعل دولة عربية واحدة تسلك هذا السلوك الذي تتحدث عنه، وتعال بعد ذلك إلى لبنان، وسأكون جنديا يؤدي لك التحية ويسير خلفك.

- **ذكي بيار الجميل. كان يعلم أن من الصعب أو من شبه المحال تطوير طراز من العلمانية في العالم العربي.**

- لا تستطيع إقناع المسلمين بالعلمانية والعدالة الاجتماعية إلاّ إذا بنيت علاقة معاصرة بين العروبة والإسلام. الاسلام جزء من تراثي وثقافتي كعربي. هل هناك دولة عربية بلا مسلمين؟ وقبل الإسلام هل كان ثمة دولة عربية؟ من وحّد العرب غير الإسلام؟ ومن فرط عقدهم غير انحطاط الإسلام؟ الآن، بل منذ أقل من نصف قرن، بدأت تظهر إرهاصات في هذا السياق أمثال محمد أركون وهشام شرابي ومحمد عابد الجابري وهشام جعيط وأدونيس ومحمد شحرور. وفي مصر نصر حامد أبو زيد وغيره. ولعل هذه الأفكار تؤدي إلى حركة سياسية نهضوية مقبلة. أما حرق المراحل والقفز من الفهم التقليدي للإسلام إلى العلمانية مباشرة، فلن ينجح ذلك أبداً.

- **المحاولات بدأت قبل أكثر من مئة سنة ولكنها أجهضت. منصور فهمي، مثلاً، في كتابه "أحوال المرأة في الإسلام" لم يستطع نشر هذا الكتاب في مصر. طه حسين في "الشعر الجاهلي" قامت عليه قيامة العالم القديم كله. عبد الله العلايلي في كتابه "أين الخطأ؟" الذي أباح فيه زواج المسلمة من مسيحي أبيح دمه. أي أن المحاولات كانت موجودة باستمرار ولم تتوقف أبداً، هذا إذا استثنينا الأفكار التنويرية لشبلي الشميل وفرح أنطون وسلامة موسى وحتى لويس عوض كلها أجهضت، وتراجع العديد من المفكرين عن أفكاره لأن الإسلام التقليدي كان ذا سطوة عالية جداً*. وفضلاً عن ذلك ظهرت حركات سياسية علمانية تماماً وبشرت بالعلمانية والوحدة القومية والعدالة الاجتماعية مثل "الحزب السوري القومي الاجتماعي" وأنطون سعادة الذي أتناوله هنا كمفكر خطير لا كسياسي مظلوم.**

- الحزب السوري القومي الاجتماعي وانطون سعادة هذا صحيح. لكن انطون سعادة عاد إلى التاريخ البابلي والآشوري والكلداني والآرامي ليقول ليس الإسلام وحده هو مكون الحضارة العربية.

- **هذا أمر صحيح وعلمي. فتاريخ المنطقة العربية، أي تاريخنا، لا يبدأ بالإسلام بل منذ ما قبل الإسلام.**

---

* من أبرز أعلام التنوير في سورية فرنسيس المراش وعبد الرحمن الكواكبي وطاهر الجزائري ورزق الله حسون وجبرائيل دلال وعبد الرحمن الشهبندر.

- ولكن الإسلام جاء ليطبعه بطابعه. هل تستطيع قول عكس ذلك؟ هذا الكلام أين يمشي؟

- **التعريب والأسلمة كانا قويان جداً بلا ريب. ولكن قبل ٥٠٠ سنة فقط، وربما أقل، كان الكثير من مدن لبنان وسورية مازالت تتكلم السريانية. يعني أن التاريخ العربي - المسيحي قبل الإسلام ظل قائماً وموجوداً في بعض مناطق العراق وسورية ولبنان.**

- ليس له علاقة بحركة المجتمع العامة. إنها مجرد جزر منعزلة.

٣ ــــــــــــــــــــ سوريـــة في العهود المضطربة

• لنعد إلى البعث. فبعد تأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي من أربع كتل، هل شهد هذا الحزب صراعات مكشوفة، أم أن هذا التأسيس تمكن من خلق كتلة واحدة متجانسة نوعاً ما؟

- لا أذكر أن صراعات مكشوفة حدثت وقتذاك. ولعل السبب كامن في أن الحزب لم يكن تنظيما جديا، بل كان كل واحد من المؤسسين يعمل على هواه. إن أول انقسام جدي حدث في سنة ١٩٤٩، بعد رسالة ميشال عفلق إلى حسني الزعيم*. كانت قيادة الحزب مؤلفة من عميد الحزب ميشال عفلق، والأمين العام صلاح البيطار، واللجنة التنفيذية من وهيب الغانم وجلال السيد وأحيانا مدحت البيطار. وقد أعلن ميشال عفلق ترشيح نفسه للانتخابات النيابية في سنة ١٩٤٧. ونشب خلاف بين شكري القوتلي وجميل مردم الذي لم يكن يريد التجديد لشكري القوتلي لأنه كان راغبا في أن يكون هو نفسه رئيسا للجمهورية. وفي هذه الأجواء تحولت معركة الانتخابات إلى معركة جدية، وكان شكري القوتلي يستعد للتمديد مثلما حصل في لبنان مع بشارة الخوري. وكانت الكتلة الوطنية خائفة من الإخوان المسلمين ومن انشقاق جميل مردم. وبالتدريج صار شكري القوتلي تحت عباءة الملاكين المذعورين من أكرم الحوراني. وتبين أن القوتلي ما عاد قادرا على القيام بتعهداته للمشايخ. وكان من نتيجة ذلك ابتعاد المشايخ والإخوان المسلمين عن

---

* ترك عدد من الأعضاء حزب البعث جراء هذه الرسالة من بينهم حامد الجبوري العراقي الذي تعرف إلى عفلق إبان دراسته في الجامعة الأميركية في بيروت، وانضم إلى حزب البعث عن طريق جمال الشاعر. وفي العراق ساهم في تأسيس حركة القوميين العرب. لكنه عاد وانضم إلى حزب البعث في سنة ١٩٦٦، وعين وزيراً عدة مرات في عهد البعث. وفي سنة ١٩٩٣ تحول إلى صفوف المعارضة.

شكري القوتلي. والذي أعرفه شخصيا من ميشال عفلق نفسه ومن صلاح البيطار أيضا أن جميل مردم أعلن أن الانتخابات ستكون حيادية ونزيهة. لم يدرس البعثيون الوضع بدقة، ولم يكتشفوا أن خوف الكتلة الوطنية ليس منهم بل من الإخوان المسلمين. وعندما بدأت نتائج الانتخابات في الدورة الأولى تظهر، قرر شكري القوتلي وجماعته أنه على الرغم من أنف جميل مردم سيقومون بعملية تزوير للانتخابات. ونزل الجنود بالألبسة المدنية ليضغطوا على المراكز الانتخابية. وكان أحمد الشراباتي وزيرا للدفاع حينذاك. أما التزوير فكان ضد الإخوان المسلمين بالدرجة الأولى وضد المشايخ، بينما جرت في الكثير من الأقلام التي كان للبعثيين فيها حضور قوي تسويات مع الحزب الوطني، وحصل التزوير لمصلحة ميشال عفلق.

- **لمصلحة ميشال عفلق؟ هذا يبدو غريبا.**

- هناك مراكز كانت محسوبة ضد ميشال عفلق، لكن الفرز أظهر أن ميشال عفلق كان أقرب إلى النجاح وأن حبيب كحالة منافسه وصاحب مجلة "المضحك المبكي" أقرب إلى الخسران. وذهب كحالة إلى بيته وقد أيقن أنه خسر المعركة. لكن، في الليل قلبت الأصوات تماماً. وحصل التزوير وجرى إعلان فوز حبيب كحالة منافس ميشال عفلق. كذلك تمكنت السلطة من إنجاح ثلاثة أرباع مرشحي الكتلة الوطنية بالتزوير لكن ضد الإخوان المسلمين لا ضد التقدميين كما أشاع حزب البعث. أما في اللاذقية فكاد مرشحو الحزب أن ينجحوا. فشل وهيب الغانم، أما أكرم حوراني فقد نجح نجاحا ساحقا في حماة ضد الإقطاعيين وضد الإخوان المسلمين معا. وكاد جلال السيد أن ينجح في دير الزور. وهذا يدل على أن

الحزب بدأ يكتسب حضورا سياسيا. لكن دمشق رفضت صلاح البيطار وميشال عفلق، وكذلك فعلت حمص بالبعثيين وحلب أيضا وحتى اللاذقية. وهنا حاول الحزب إعادة تنظيم صفوفه، لكن القتال اندلع في فلسطين، وتطوع بعض البعثيين في جيش الإنقاذ، وذهب أفراد منه لتغطية أخبار الحرب، أي كصحافيين، وكانوا يرسلون أخبار المعارك إلى جريدة "البعث". وكان الحكم مشغولا في تلك الفترة بتعديل الدستور وإعادة انتخاب شكري القوتلي*. وفي هذا السياق ثمة قصة تروى عن فلسطين واندونيسيا.

- **فلسطين واندونيسيا؟**

- نعم. كانت لجنة الطلاب تتظاهر من أجل أن تقوم الجيوش العربية بنجدة شعب فلسطين. وكانت الإضرابات تعم مدينة دمشق. لكن شكري القوتلي لم يستطع تصديق أن من الممكن أن تعصى دمشق أمره وتتمرد عليه. وكان متهما أنه والحكم في سورية يواليان الإنكليز، وأنهم وقفوا إلى جانب قرار تقسيم فلسطين. واتُهم جميل مردم ورياض الصلح بأنهما أقنعا الملك فاروق بوضع قيادة القوات العربية تحت إمرة الملك عبد الله لضمان تنفيذ خطة التقسيم. وعندما حاصر الطلاب السوريون المتظاهرون القصر الجمهوري خرج إليهم شكري القوتلي وألقى فيهم خطبة قال فيها: "أنا زعيمكم، أنا رئيسكم، عودوا إلى صفوفكم، فبلادكم في أيد أمينة". وعندما راحت الهتافات تفصح عن عدائها له شعر بأن المسألة جدية، فطلب أن يختار الطلاب لجنة منهم ليتحدث إليها. وتألفت اللجنة التي سمّوها "لجنة الإضراب"، وفي الاجتماع مع شكري القوتلي، طالبوه بالإسراع في إرسال

---

* عدل الدستور في شباط ١٩٤٨، وصار في الامكان انتخاب رئيس الجمهورية لولاية ثانية.

الجيش السوري إلى فلسطين. فأجابهم: ليست فلسطين وحدها بل اندونيسيا أيضــا. أخي الذي كان شاهد عيان على هذه الرواية جاء إلينا ويكاد ينفتل عقله وقال: مـا علاقة اندونيسيا بفلسطين؟ الحقيقة أن قضية اندونيسيا كانت موجودة فـي الشـارع السوري، وأحمد سوكارنو كان ذائع الصيت في سـورية، والإخـوان المسـلمون يريدون ليس تحرير فلسطين من الصهيونية فقط، بل تحرير اندونيسيا من هولنـدا. هنا التقط شكري القوتلي الخيط عندما عرف أن بين لجنة الطـلاب أعضـاء مـن الإخوان المسلمين. وبهذه الإشارة ما عاد أحد يستنكر الموقف السوري. وهنا بدأت الضغوط الداخلية على المعارضة، وتألف حزب فيصل العسلي كحـزب إرهـابي لفرض سلطة شكري القوتلي على البلاد*.

- **هنا قطع انقلاب حسني الزعيم السياق العام في سورية في تلك الفتـرة. البعض يفسر هذا الانقلاب** ** **على أنه انقلاب أميركي خالص هدفـه توقيـع اتفاق النفط مع شركة "تابلاين". والبعض الآخر يفسره علـى أنـه انقـلاب فرنسي – أميركي لمواجهة مشروع الاتحاد السوري – العراقي. كيف تفسّر أنت هذا الانقلاب بعد هذا الزمن الطويل؟**

- في عهـد حسني الزعيم حصلت أمـور كثيرة مهمة جدا. قبـل انقـلاب حسني الزعيم كانت الأجـواء السياسية في سـورية شـديدة التـوتر، ولا سـيما بعـد سقوط فلسطين في أيدي الصهيونية وفشل الجيوش العربية في إنقاذها. النكبة

---

* ولد فيصل العسلي في دمشق سنة ١٩١٩، وأسس "الحزب التعاوني الاشتراكي" في سـنة ١٩٤١، وأصبح نائباً عن دمشق في سنة ١٩٥٤.

** وقع الانقلاب في ١٩٤٩/٣/٣٠.

الفلسطينية هزت الأمة العربية كلها، وكان شكري القوتلي في سورية قد عدّل الدستور وجدد رئاسته. لكن شعبية هذا الحكم باتت في الحضيض، والمظاهرات تكاد لا يخلو منها حي من أحياء دمشق، وتحول الشارع الدمشقي في اتجاه مناوئ لشكري القوتلي. وهنا اضطر القوتلي إلى الاستعانة بالجيش لقمع التظاهرات، فالدرك ما عاد كافيا لقمعها. وحتى المجلس النيابي صار خائفا من الشارع لأن النواب يريدون إعادة انتخابهم ولا يستطيعون الوقوف ضد هذا الشارع. وبالتدريج صارت الديمقراطية البرلمانية في عهد القوتلي فاسدة من وجهة نظر الناس*، وفي الوقت نفسه صار النظام الديمقراطي، من وجهة نظر أصحاب الشأن الدولي من فرنسيين وإنكليز وأميركيين، غير قادر على القيام بما يريده هؤلاء. وكان ثمة مشروع التابلاين أي مد الأنابيب من السعودية إلى صيدا في لبنان عبر الأراضي السورية. كان الأميركيون والملك عبد العزيز يضغطان على الحكم في سورية لتنفيذ هذا المشروع. لبنان كان وافق سلفاً، والأردن أيضا، ولم يبقَ إلا سورية. وكذلك كانت اتفاقية النقد مع فرنسا متعثرة. ولا شك في أن انقلاب حسني الزعيم مصنوع بتوافق أميركي – فرنسي. لم يستطع الأميركيون تمرير اتفاق التابلاين، ولم يستطع الفرنسيون تمرير اتفاقية النقد، وكانت الهدنة مع إسرائيل متعثرة أيضا بعد أن وقعت جميع الدول العربية اتفاقات الهدنة ما عدا

---

* على سبيل المثال ابتاعت الحكومة السورية طائرات حربية ثمن الواحدة ٤٥ ألف دولار بملغ إجمالي قيمته مئة وخمسة آلاف دولار بواسطة سمسار لبناني يدعى عارف الغريب. وعارف الغريب هذا يقول عنه عادل أرسلان أنه سمسار وجاسوس دولي. (انظر: أحمد سامي السراج، "من بقية السيوف"، إعداد: خيرية قاسمية، دمشق: دار الأهالي، ٢٠٠٣، ص ٢٤٠).

سورية. أنا أؤكد أن انقلاب حسني الزعيم جاء لينفذ هذه النقاط العالقة، وقام بـذلك فعلا فور وصوله إلى الحكم*. أما الضباط المساكين الـذين كـانوا يرغبـون فـي الخلاص من عهد شكري القوتلي فقد خاب أملهم. الضباط كانوا يأملون في أن يأتي حكم جديد نظيف، لكنهم اكتشفوا أن حسني الزعيم جاء لينفذ ما عجز عـن تنفيـذه شكري القوتلي**. في أي حال لم يعش هذا الانقلاب غير أربعة أشهر تقريبا، وقتل حسني الزعيم على خلفية تسليمه الزعيم أنطون سعادة إلى السلطات اللبنانية التـي أعدمته فورا***.

---

* وقّع حسني الزعيم مرسوماً يمنح شركة التابلاين امتيازات خاصة في ١٩٤٩/٦/٣٠.

** خطط الانقلاب جيم كيلي، وقام بالتنفيذ مايلز كوبلاند وستيف ميد الذي كان يجـول فـي دمشق إلى جانب حسني الزعيم ويدله على المباني والمؤسسات الواجب السيطرة عليهـا. ويقول كوبلاند: "كان انقلاب حسني الزعيم من إعدادنا وتخطيطنا. فقد قام فريـق العمـل السياسي بإدارة الميجر ميد بإنشاء علاقات صداقة منتظمة مع حسني الزعيم منذ أن كـان رئيساً لأركان الجيش السوري. ومن خـلال هذه الصـداقة أوحى الميجر ميد لحسـني الزعيم بفكرة الانقلاب العسـكري الذي اضطلعنا - نحن في السفارة- بمهمة وضع كامل خطته وكافة التفصيلات المعقدة" (أنظر: مايلز كوبلاند، "اللاعب واللعبة"، بيـروت: دار الحمراء، ١٩٩٠).

*** سلم أنطون سعادة إلى السلطات اللبنانية في ١٩٤٩/٧/٦ التي أعدمته فـي ١٩٤٩/٧/٨. ووقع الانقلاب ضد حسني الزعيم في ١٩٤٩/٨/١٤ وأعدم في اليوم نفسه مـع محسـن البرازي على أيدي عصام مريود ومحسن الحكيم وفضل الله أبـو منصـور. والثلاثـة أعضاء في الحزب السوري القومي الاجتماعي. ويقول عبد الله قبرصي في كتابه "عبد الله قبرصي يتذكر" ان فضل الله أبو منصور جاء إلى جولييت المير أرملة أنطون سعادة فـي دير سيدة صيدنايا وهو يحمل سترة حسني الزعيم وقد خرقها الرصاص.

- **فضل الله أبو منصور ومحسن الحكيم وعصام مريود شاركوا في إعدام حسني الزعيم. والطريف ان فضل الله أبو منصور درزي، ومحسن الحكيم اسماعيلي وعصام مريود سني*.**

– العنف الذي حدث في انقلاب سامي الحناوي ضد حسني الزعيم لم تعهده سورية من قبل. لكن العنف في هذه الحال جاء ثأرا لمقتل أنطون سعادة. إن تسليم أنطون سعادة إلى السلطات اللبنانية فيه إهانة لسورية بكاملها**.

- **هذا التسليم هو النذالة بعينها.**

---

* أنظر كتاب فضل الله أبو منصور "أعاصير دمشق" (بيروت: د. ن.، ١٩٥٩). أما عصام مريود فهو ابن أخ المجاهد أحمد مريود الذي أطلق النار على الجنرال غورو في سنة ١٩٢١. ونشأ عصام مريود في بغداد بعد نزوح عائلته إليها، فدرس فيها والتحق بالكلية الحربية ثم بسلاح الطيران. ومع إعلان استقلال سورية عاد إلى قريته جباتا الخشب وانضم إلى سلاح الطيران السوري.

** في ١٩٤٩/١٢/١٩ وقع انقلاب ضد سامي الحناوي قاده العقيد أديب الشيشكلي، ففر سامي الحناوي إلى بيروت. وفي ١٩٥٠/١٠/٣١ بينما كان الحناوي يهم بالصعود إلى الترامواي في المصيطبة، وكان إلى جانبه عصام مريود، قام حرشو البرازي باطلاق النار عليه فقتله. إلا أن عصام مريود لحق بالقاتل وأرغمه على الاحتماء بأحد المنازل حتى وصلت الشرطة وألقت القبض عليه. ويقول سامي جمعة إن محسن البرازي كان زعيم حزب البارتي الكردي، وهو الذي أسهم في انقلاب حسني الزعيم (والدته كردية) وكان من أنصاره العقيد محمود شوكت آله رشي والعقيد بكري قوطوش وعلي بوظو وهم جميعهم أكراد.

- نذالة وعمل "زعران" وليس سلوك رجال دولة. سأروي لك قصة: في عهد حسني الزعيم سار الناس وراءه وكذلك الجيش والضباط الصغار وعلى رأسهم عدنان المالكي. ثم ظهر بسرعة أن الزعيم رجل مشبوه ولا يختلف في سلوكه عن الرعاع أبدا. ومن جملة الذين عارضوه سلطان الأطرش. وقبل مجيء حسني الزعيم إلى الحكم في انقلابه المشهور، كانت السلطة بدأت تخشى زعامة سلطان الأطرش في جبل الدروز وحركة أكرم الحوراني في حماة. أكرم الحوراني كان أمامه خصوم يقاتلون ضده عند الضرورة. أما سلطان الأطرش فحينما يهب، يهب معه مقاتلون أوفياء ويكسب إجماعا لا مثيل له في جبل الدروز. هنا لعب شكري القوتلي وجميل مردم لعبة تافهة. أرادوا إثارة الانقسام في جبل الدروز، واستغلوا الامتيازات "الإقطاعية" لآل الأطرش في جبل الدروز، والنقد الذي بدأ يظهر في صفوف المثقفين ضد آل الأطرش*. ومع أن "الطرشان" كانوا مؤيدين لشكري القوتلي، إلاّ أن القوتلي استغل هذه الأمور ووجهها ضد سلطان الأطرش لغاية وحيدة هي تفتيت الجبل. ولهذا السبب أيد سلطان الأطرش حسني الزعيم في البداية ببرقية أرسلها إليه. وأيده أيضا حزب البعث وفارس الخوري ونصف المجلس النيابي وحتى حزب الشعب**.

---

* كان شكري القوتلي يتهم آل الأطرش بأنهم من جماعة "سوريا الكبرى"، أي أنهم مؤيدون لمشروع الملك عبد الله، لذلك شجع أحداث "الشعبية والطرشان" التي وقعت في كانون الأول ١٩٤٧ ضد آل الأطرش، والتي قادها حمزة درويش وقاسم أبو خير، وانتهت بالصلح في ١٩٤٨/١٢/٢٤.

** يقول عبد الله قبرصي في كتابه: "عبد الله قبرصي يتذكر" إن الحزب السوري القومي الاجتماعي أيد انقلاب حسني الزعيم "لأن أكرم الحوراني كان وراءه، ولأنه جاء يبشر بنقض التقاليد البالية في الحكم الشامي (...)، كما يبشر بتغيير وجوه حكام لبنان: الرئيسين بشارة الخوري ورياض الصلح".

• **ما كان موقف الشيوعيين آنذاك؟**

- الحقيقة أنني لا أعلم تماماً. لكن، لم يكن للشيوعيين ثقل جدي في تلك الأيام، وكانوا منبوذين من الناس بسبب تأييدهم قرار تقسيم فلسطين العام ١٩٤٧. وما أعلمه أنهم عارضوا الانقلاب ودخلوا السجن معنا.

• **كان وضعهم الجماهيري سيئا بعد قبولهم قرار التقسيم.**

- صحيح. أما الحزب السوري القومي الاجتماعي فلم يؤيد انقلاب حسني الزعيم ولم يعارضه. كان غارقا في الموضوع اللبناني. وأذكر سلطان الأطرش عندما جاء إلى دمشق مثل بقية زعماء سورية لتهنئة حسني الزعيم، فعندما أنهى زيارته البروتوكولية أتى إلى بيتنا، فهو كان ينزل عندنا في دار جدي في الميدان (عندما كان يأتي إلى دمشق في مهمة رسمية ينزل في فندق "أورينت بالاس" المشهور والذي صار اسمه اليوم فندق "الشرق". وعندما ينهي مهمته يغادر الفندق ويأتي إلى دارنا وينام عندنا). وما إن جلس، وقبل أن تأتي الناس للسلام عليه، سأله أبي: كيف وجدت حسني الزعيم، وما انطباعك عنه؟ فعقد سلطان الأطرش حاجبيه وقال: إن طريقة جلوسه وطريقة كلامه وفرشخة رجليه تدل على أنه "أزعر". يا حبيب "أزعر"، مع الأسف "أزعر".

• **أي زقاقي وابن شوارع.**

- بالضبط.

- **روى سامي جمعة في كتابه "أوراق من دفتر الوطن"* أن حسني الزعيم حينما كان مقيما في بيروت كان مقامرا وكذابا.**

- بعد شهر من الانقلاب اتضح أن الرجل قادم لتنفيذ مهمات خارجية. هنا بدأ حزب البعث يستعد ليصبح حزب معارضة، ولا سيما بعد أن أسفر حسني الزعيم عن وجهه، وتبين أن الحكم هو حكم عسكري خالص. ولم يكتف بذلك بل أصدر دستورا بحسب رغباته، وأراد أن يصبح رئيسا للجمهورية، ونصب نفسه مشيرا على الجيش. وقر الرأي في حزب البعث على أن يتقدم الحزب بمذكرة إلى حسني الزعيم يسحب فيها تأييده له، على أن تكون المذكرة غير عدائية، واتفق على أن يوقع المذكرة ميشال عفلق. وفي ما بعد سمعت من ميشال عفلق نفسه يقول انه اتفق مع قيادات الحزب على الاختفاء بعد تقديم المذكرة**. بعد هذه المذكرة بدأ الحزب يتحول إلى السرية، وصدر في الأثر منشور مطبوع على الستانسل ليتم توزيعه على أجهزة الحزب وعلى الناس. قررنا، في فرقة الحزب بحي القصاع، وكنا ثلاثة من المتحمسين، لا أن نوزعه على الحزبيين والناس فقط بل إلصاقه على أعمدة الكهرباء وعلى أبواب المحلات التجارية في الأسواق الرئيسية. واخترنا منتصف إحدى الليالي في حزيران ١٩٤٩ وبدأنا عملية لصق المنشور في أحياء الجامع الأموي والحميدية والمرجة وشارع الملك فيصل حتى العمارة. وعندما نفد منا الغراء الذي كنا نستعمله لإلصاق المنشور، ذهبنا إلى أحد الأفران لنشتري عجينا، وكانت الساعة قاربت الثالثة بعد منتصف الليل، وإذا بأحد

---

* ولد سنة ١٩٢٨ في دمشق والتحق بالشعبة الثانية في الجيش السوري في بدايات العهد الاستقلالي، وعمل تحت إمرة العقيد سعيد حبي مؤسس الشعبة الثانية.

** وقع المذكرة عفلق والبيطار ووهيب الغانم وجلال السيد.

رجال التحري الذي يتتبع خطواتنا، يكتشف ماذا نفعل، فألقى القبض عليّ وعلى أحد رفاقي، واقتادنا إلى التوقيف، فيما فر الثالث. ومنذ ذلك التاريخ، أي منذ حزيران ١٩٤٩ صار نبيل الشويري، في كل عهد عسكري أو ديكتاتوري، وما أكثرها في سورية، إما في السجن أو هارب خارج سورية أو مختبئ تحت الأرض.

- **من هو رفيقك الذي اعتقل معك، ومن هو الذي فر؟**

- الذي فر هو يوسف السالك، أما الذي اعتقل معي فهو توفيق رمان.

- **ألم يكن بارزا في الحزب؟**

- كلا. كان شابا شجاعا ومناضلا. وبعد أن نال البكالوريا التحق بالوظيفة وظل عضوا في الحزب، لكن لم يعرف عنه شيء بعد ذلك. وعندما وصل خبر توقيفي إلى والدي من خلال زميلي الآخر الذي تمكن من الهرب، أرسل والدي إلي في نظارة التوقيف سروالا طويلا، لأنني كنت أرتدي سروالا قصيرا؛ فأنا ما زلت فتى في تلك المرحلة. ثم استنفر جميع أصدقائه وإمكاناته ليحميني من حسني الزعيم الذي لم يتورع عن القيام بإعدامات كثيرة لإرهاب الناس، وكان أول حكم عسكري تشهده سورية. وللمزيد أود أن أخبرك أن اثنين من أصدقاء والدي قابلوا حسني الزعيم شخصيا للتوسط من أجل إطلاق سراحي. والاثنان صديقان لحسني الزعيم ويعرفانه جيدا هما سهيل الخوري ابن فارس الخوري...

- **أبو كوليت الخوري.**

- نعم. والأمير حسن الأطرش الزوج السابق لأسمهان*.

- **تزوج اسمهان في سنة ١٩٣٣ وعاشت معه حتى سنة ١٩٣٩ وأنجبت ابنة تدعى "كاميليا". ثم تزوج ليندا جنبلاط شقيقة كمال جنبلاط في ما بعد**.**

- تماما. وهو زعيم حقيقي في جبل الدروز وله نفوذه الواسع ويستمع إليه حسني الزعيم بكل أدب. أما سهيل الخوري فهو ابن فارس الخوري الذي أيده في انقلابه. المهم ذهب الأمير حسن الأطرش وسهيل الخوري وتحدثا إلى حسني الزعيم بكلام من قبيل أن نبيل الشويري مجرد ولد، وربما لعب بعقله أحدهم، ويجوز أن يكون أغراه شخص ما بالمال ووالده صديقنا ... إلى ما هنالك من هذا الكلام. فصاح حسني الزعيم: ولد؟ تقولون ولد؟ وضغط الجرس، ثم استدعى رئيس الدائرة السياسية وقال له: أحضر إضبارة نبيل الشويري. ويبدو أنه كان قرأ إفادتي، ثم وجه كلامه إلى حسن الأطرش وسهيل الخوري قائلا: هل هذا حكي أولاد؟ واكتشف الحاضرون أن إفادتي كانت في مضمونها أقوى من نص البيان الذي ضبطوه معي. وقال لهم: إنه يتحدث بعنف أكثر من المنشور الذي كان معه. ومع ذلك لم أتعرض إلى التعذيب ولم يحلق شعري.

- **لكنك بقيت في السجن؟**

---

* ولد في سنة ١٩٠٥ في قرية "عرى" في محافظة السويداء وتوفي في سنة ١٩٧٨. قاد الثوار في إقليم البلان والغوطة ووادي العجم في سنة ١٩٢٥، واتهم بتدبير مؤامرة سنة ١٩٥٦ لضم سورية إلى العراق، فحكم عليه بالسجن المؤبد، لكنه تمكن من الفرار.

** اغتيلت في عين الرمانة (بيروت) في سنة ١٩٧٦.

- طبعا.

• **حتى الانقلاب المضاد؟**

- كلا، خرجت قبل ذلك. عندما أرسل ميشال عفلق رسالته الذليلة المشهورة خرجنا كلنا. وللتاريخ، عندما كنا موقوفين في النظارة، جاء إلينا رئيس الدائرة السياسية في وزارة الداخلية وهو ملازم أول اسمه طلعت صدقي، أصبح لاحقا في مكتب جمال عبد الناصر، وهو صديق أخي الكبير وأخوه حكمت هو صديقنا جميعا. المهم، أنه جاء لينبه شرطيا (لاحظ كيف كانت المعاملة في ذاك الوقت في سورية) ويقول له: هؤلاء معتقلون سياسيون، أتفهم ماذا يعني ذلك؟ ضرب الشرطي قدمه بالأرض هاتفاً: "أمرك سيدي". فكرر الضابط الكلام "أتفهم ما يعني أنهم معتقلون سياسيون؟ يعني ليسوا من جماعة السكر والعربدة".

• **يريد أن يقول للشرطي: احترمهم.**

- أي عاملهم على أنهم معتقلون سياسيون. بعد يومين تقريبا فتح الشرطي كوة الباب وقذف لنا منها جريدة وقال: خذوا. معلمكم شنق حاله.

• **كانت عن ميشال عفلق.**

- هبينا نحن الثلاثة: أنا وتوفيق رمّان ومطاع صفدي الذي كان مسؤولا عن فرقتنا. وفي التحقيق معنا كانت أجوبتنا واحدة. فعندما يسألوننا من أحضر لكم

المنشور؟ نقول: مدحت البيطار. ومن طبعه؟ مدحت البيطار. كان مدحت البيطار مختفيا ولا يمكن الوصول إليه. وهكذا نقطع الحلقة. قصارى القول إننا قفزنا نحن الثلاثة واختطفنا الجريدة، وعلى الصفحة الأولى كان العنوان الكبير يقول إن ميشال عفلق استسلم. قرأنا الخبر وكانت ردات أفعالنا مختلفة. أنا شعرت أن قلبي هبط من مكانه، وأصبت بإحباط شديد. فقد رأيت خطه، وأنا أعرف خطه وتوقيعه، وعلى الفور صدقت الخبر. أما مطاع صفدي الذي كان في صف البكالوريا فقال بكل خفّة إن هذه الرسالة من ميشال عفلق تشير إلينا جميعا نحن الموجودين في السجن لنكتب مثلها كي نخرج من السجن، ونتقدم للامتحانات النهائية حتى لا تذهب سنتنا الدراسية هدرا. هنا هب توفيق رمان ليضربه، وراح يردد أن هذه الرسالة مزورة. إذن ثلاث ردات فعل فورية على الرسالة. ثم، بعد ذلك، أخذونا إلى سجن المزة وبعد عدة أيام صدر العفو وخرجنا جميعاً، وكان ميشال عفلق خرج فور نشر رسالته المشهورة، ولم يبق في السجن إلا فيصل العسلي وجماعته*، والشيوعيون أيضا. وجاء والدي لاصطحابي من مقر الشرطة العسكرية، وكان إبراهيم الحسيني قائد الشرطة العسكرية موجودا، فقال الحسيني للعسكري المكلف بنا: هل أمضى التعهد؟ فأجابه العسكري: لا يا سيدي. فقال له: خذه ليمضي التعهد قبل إطلاقه. فنظرت إلى والدي وقلت له على الفور: أنا سأعود إلى السجن. هنا سألني إبراهيم الحسيني: ما هو حزبك؟ فقلت: بعث. قال: بعثي؟ إذن مع السلامة. ونتيجة لهذه الرسالة المخيبة والمذلة ظهر في الحزب موقف متشدد دعا إلى عدم عودة ميشال عفلق إلى سلطاته وإلى موقعه كعميد للحزب.

---

* لم ينسَ حسني الزعيم الحملة العنيفة التي شنها عليه فيصل العسلي في جلسة المجلس النيابي في ١٩٤٩/٣/١٧ حينما اتهمه بالخيانة والتآمر مع الملك عبد الله، وطالب بمحاكمته.

جلال السيد وصلاح البيطار فكّر كل واحد منهما بأنه يستطيع وراثة زعامة ميشال عفلق. لكن عفلق كان قادرا على تبرير الرسالة، فراح يردد أنه بادر إلى كتابتها عندما ضربوا صلاح البيطار أمامه وحلقوا شعره، وعندما أسمعوه التعذيب النازل بالبعثيين، ثم عرضوا عليه قوائم المعتقلين من البعثيين. وطالما ردد أمام بعض أقاربي أنه عندما رأى اسم نبيل الشويري في قوائم المعتقلين حزن كثيرا، لأن نبيل ما زال فتى، وأحس أنه مسؤول عن الإضرار بشباب الحزب. والرسالة في الحقيقة مخجلة ولا تبرير لها، ومع ذلك ثمة أمر غريب، فحينما عقد مؤتمر الحزب في اللاذقية...

- **في السنة نفسها؟**

- بعد سقوط حسني الزعيم. ربما في سنة ١٩٥٠، لم يتأثر موقع ميشال عفلق في الحزب قط. وهنا أود أن أقول التالي: عندما سقط حكم حسني الزعيم كلفوا هاشم الأتاسي تأليف الوزارة، وكان ابن هاشم الأتاسي، عدنان الأتاسي، ورشدي الكيخيا الشخصين الرئيسين لديه في الوزارة. تسلم رشدي الكيخيا زعيم حزب الشعب وزارة الداخلية، وتسلم أكرم الحوراني وزارة الزراعة، وتولى ميشال عفلق وزارة المعارف. خرج ميشال عفلق من السجن وبعد يومين صار وزيرا. أما الرسالة فلأنها حدثت في عهد حسني الزعيم حينما كان الكثير من رجال السياسة إما في السجون أو هاربين، فلم تحظ بأهمية كبيرة، ولم تنتقص من قيمة ميشال عفلق.

- **لعل الوزارة أعادت إليه الاعتبار إلى حد بعيد.**

- نعم، لكن أداؤه كوزير كان "فالصو"*.

- **أعتقد أنه كان يمارس السياسة من خلال الوزارة، فهو وزير وليس تقنيا أو مختصا في المسائل التربوية.**

- أي نعم. سرح جميل صليبا وأرسل المقربين منه في بعثات إلى أوروبا..!! في أي حال بقي وزيرا لثلاثة أشهر فقط، وجرت الانتخابات النيابية وفشل فيها ثم استقال**.

- **ماذا تركت هذه الرسالة من آثار على ميشال عفلق كشخص؟**

- ما كان يوجد في الحزب من هو أقدر منه على الكلام وعلى اختراع الصيغ اللفظية وعلى الصبر والاستماع إلى الآخرين وتناول الأمور ببال طويل. ومن خصال ميشال عفلق أن صدره واسع ولا يغضب إلاّ عندما يوقن أن غضبه سيؤدي إلى نتيجة. فهو يمارس انضباطا شديدا على نفسه وعلى لسانه، والجملة لا تصدر منه إلاّ جاهزة للكتابة والنشر، لذلك كان بطيئا في أحاديثه. وبهذه الصفات تمكن

---

* لم يكن لحزب البعث أي ضلع أو يد في انقلاب سامي الحناوي على حسني الزعيم. ومع ذلك فقد اختار الرئيس هاشم الأتاسي ميشال عفلق وزيراً للتربية. وقبل عفلق هذا التكليف مع انه لم يكن ميالاً إلى المناصب الحكومية. وعدم الميل هذا ربما يجد تفسيره في الخوف من القيام بأعباء المنصب والتعرض للعمل المستمر. وهذا الأمر ليس من طباع ميشال عفلق.

** استقال عفلق من وزارة المعارف في ١٨/١١/١٩٤٩.

من التملص من آثار هذه الرسالة. وبطبيعة الحال لم يكن أحد من البعثيين يريد إنهاء زعامته في الحزب لأن لا أحد يرضى بزعامة جلال السيد أو زعامة صلاح البيطار. والمعروف أنه عندما يكون جلال السيد وصلاح البيطار في مجلس واحد سيكون الزعيم جلال السيد، لأن صلاح البيطار يمتلك شخصية الرجل الثاني.

- **الرجل التنفيذي؟**

- إنه رجل تنظيمي. هكذا هو في الأصل. لكنه تعب على نفسه وصار لامعا في وزارة الخارجية. غير أن شخصيته ليست شخصية زعيم.

- **هل كان لدى عفلق كاريزما مثل عبد الناصر؟**

- لا إطلاقا. الكاريزما لديه لم تكن شعبية، بل كاريزما محصورة بالنخبة التي تلازمه، أي خاصته.

- **متى ظهر الاتجاه اليساري في الحزب؟**

- ظهر الاتجاه اليساري منذ المؤتمر التأسيسي، وكانت نقطة الخلاف هي الاشتراكية.

- **كتلة وهيب الغانم هي التي أصرت على الاشتراكية؟**

- منذ المؤتمر التأسيسي اتضح أن هناك يمينا ويسارا داخل الحزب. وكان رأس اليمين جلال السيد، ورأس اليسار وهيب الغانم* وعبد البرعيون السود الذي كتب معظم مواد الدستور. ميشال عفلق مال إلى اليسار فهو أقرب إليهم في الأساس.

- **كان عفلق في بداياته في باريس اشتراكي النزعة.**

- في بداياته عندما عاد من باريس راح يكتب في مجلة "الطليعة" مع الشيوعيين، لذلك اتّهم بأنه شيوعي، وهو لم ينتسب إلى الحزب الشيوعي مطلقا. في أي حال، فإن هذا الاتجاه اليساري كان الدينامية الحقيقية للحزب وخاصة في اللاذقية وسورية الوسطى أي في حمص وحماة، وكذلك من خلال بعض أعضاء الحزب في دير الزور ممن لا يناصرون جلال السيد، وبعض المناضلين في دمشق أمثال جلال فاروق الشريف وغيره. هؤلاء لو خيّروا في ذلك الوقت بين جلال السيد أو صلاح البيطار أو ميشال عفلق فستكون الغلبة، بالطبع، لميشال عفلق على الرغم من تلك الرسالة. لذلك مُسِحت الرسالة من الذاكرة الحزبية كأنها لم تكن. جلال فاروق الشريف كتب عن تلك الفترة لكنه لم ينشر ما كتب، حتى ابنه من بعده لم ينشر ما كتب والده. والنسخة التي ذهبت إلى أرشيف الحزب ما برح جورج صدّقني يتستر عليها. المؤتمر الذي عقد في اللاذقية بعد نهاية الانتخابات كان شديد الأهمية، وفيه ظهرت التيارات والأفكار واضحة. صلاح البيطار اعتقد، وأعلن رأيه بصراحة، أن سورية بدأت تشهد مرحلة جديدة، وأن الفئة الحاكمة

* ولد في أنطاكيا سنة ١٩١٩، وهاجر إلى اللاذقية بعد ضم لواء الإسكندرون إلى تركيا سنة ١٩٣٩. تخرج طبيبا في جامعة دمشق سنة ١٩٤٤ وافتتح عيادة له في اللاذقية. توفي في أيار ٢٠٠٣.

القديمة، أي الكتلة الوطنية، سقطت وانتهت وسقطت معهـا الزعامـات التقليديـة، وعلى البعثيين تنظيم أنفسهم من جديد من أجل خوض الانتخابـات بجديـة. وبـدأ البيطار يتحدث عن تطوير الحزب إلى حزب ليبرالي تقدمي إصلاحي، وكان جلال السيد إلى جانب هذا الرأي. أما قواعد الحزب فلم تكن تميل إلى هذا الكلام بل تريد انقلابا جذريا في سورية. وميشال عفلق بسقوطه في الانتخابـات لـم يـرضَ أن يترشح مرة ثانية، وأصيب بالخيبة من السلطات والمؤسسات الدستورية، ومال إلى مفاهيم الانقلاب والتغيير الجذري، لأن انتخابات سنة ١٩٤٩ تحولت إلـى حملـة دينية عليه. وشن الشيوخ حملة قاسية على عفلق وكفروه، وتقبل الناس هذه الحملـة لأنه مسيحي ولأن اسمه ميشال*. وفي انتخابات ١٩٤٩** جاء سعيد حمـزة نقيـب الأشراف في دمشق إلى والدي وقال له: تفضل لنذهب معاً إلى ميشـال عفلـق، أو اذهب بنفسك وبلغه على لساني أنني أنا نقيب الأشراف لا أوافق هـؤلاء المشـايخ على حملتهم ضده وإنني على استعداد لجمع بعض المشايخ ذوي الاحترام في البلـد وأوقع بيانا ضد المشايخ الرجعيين، وأعلن فيه تأييدي ميشال عفلق. وذهب أبي إلى ميشال عفلق وحاول إقناعه بهذا الاقتراح إلا أن عفلق رفض. لماذا؟ لأنـه صـار غير مقتنع بجدوى الانتخابات البرلمانية، واتخذ قرارا في هـذا الشـأن وهـو أن الانقلابات هي الأجدى. وربما رصد موقع كل من جلال السيد وصـلاح البيطـار ووقف في الموقع المعاكس تماما. وجاء انعقاد المؤتمر في اللاذقيـة ليعـزز هـذا الموقف لأن النفوذ الحزبي هناك كان للكتلة الحزبية التـي لـم تقبـل المسـاومات البرلمانية والعمل الديمقراطي التقليدي. وفي هذا المؤتمر هوجم جلال السيد بقـوة،

* كان عفلق يعرف تماماً أن من الصعب أن تتقبل دمشق حزباً قومياً بزعامة مسيحي. وهو بنفسه كاشف جلال السيد بهذه الخواطر، وطلب منه أن يصبح أميناً عاماً للحزب.

** فشل أيضا في انتخابات ١٩٤٣. وفي انتخابات ١٩٤٧ سقط بالتزوير.

والأغلبية الساحقة من المؤتمرين اتخذوا قرارا بتفويض ميشال عفلق صلاحيات مطلقة، على أن يشكل بنفسه القيادة الجديدة للحزب وأن يقوم بما يراه ملائما من إصلاحات في الحزب أيضا. يقول جلال فاروق الشريف في مخطوطة غير منشورة إن صلاح البيطار انكفأ ووضع يده على رأسه وبدأ يبكي بكاء حقيقيا، وأن جلال السيد انتفض واقفا وخرج من المؤتمر وعيناه يتطاير منهما الشرر. ويضيف جلال فاروق الشريف: جئنا إلى الشام بهدف لملمة الحزب والشروع في عملية التنظيم الجديدة، وإذا بميشال عفلق يختفي. ورحنا نتساءل: أين هو الأستاذ؟ كيف سنعمل وهو عميد الحزب والمفوض بإعادة تنظيمه. وبعد عدة أيام علمنا أنه صار في البرازيل.

- **ما هو تفسيرك لهذه الواقعة؟**

- لا تفسير لدي، بل عندي معلومات في هذا الشأن.

- **تقصد قصة تلك المرأة المصرية؟ إذن ما تفصيلات هذا الموضوع مجدداً؟**

- في أثناء توليه وزارة المعارف وقعت حادثة خاصة جدا. فزوجة أحد حوارييه وأقرب الناس إليه، كانت امرأة لعوبا ومعروفة بخفة دمها؛ فهي مصرية، وكانت تمتلك موهبة التغرير بالأشخاص. وقد حام حولها العديد من الشبان قبل زواجها من ذلك الرجل، وطالما اعتقد كل واحد من الذين حاموا حولها أنها تحبه وحده. وقد سمعت أن عفلق استخدم هيبته، في ما بعد، كعميد لحزب البعث كي يتمكن من لقائها بحرية. هل أغوته؟ هل أحبته فعلا؟ هل أحبها وهو كان عازبا وفي ذروة

شبابه؟ لا أدري تماماً. لكن ما أعرفه من معلومات استقيتها من شخص عاشرها بعد طلاقها وتتلخص بأن شقيق زوجها اكتشف العلاقة بين عفلق وزوجة أخيه. وكان من نتيجة ذلك أن الزوج طلب أن يهجر عفلق البلد على الطريقة العشائرية، أي أن يجلى عن الديار، وحصل الطلاق بالطبع.

- **هل عادت إلى مصر؟**

- عادت بعد فترة. أما الرجل فتزوج غيرها، وتزوجت هي أيضا. وهذه الحادثة يعرفها العشرات من البعثيين الأساسيين، لكنها بقيت مكتومة.

- **لم يذكر هذه الحادثة حتى معارضي ميشال عفلق. لماذا؟**

- جلال فاروق الشريف في أوراقه عندما يصل إلى هذه النقطة، يقول: "اختفى ميشال عفلق". عبد البرعيون السود قال لي عندما حدثني عن هذه الواقعة: أرأيت كم كنا أخلاقيين؟ لم نحاول البتة استغلال القضايا الشخصية في صراعاتنا الحزبية. وأنا هنا أشهد للتاريخ.

- **هل هناك شبهة أمنية على هذه المرأة كأن تكون مدسوسة على ميشال عفلق من جهة ما؟**

- كلا، كلا. لم يذكر أحد شيئا من هذا القبيل. فقط مجرد علاقة مع امرأة لعوب ومثيرة ومثقفة وذكية.

- **إذن جمعت المجد من أطرافه كلها.**

- وهذا هو السبب الأساسي لذهابه إلى البرازيل.

- **كم دامت فترة غيابه؟**

- عدة أشهر. وأقام حينذاك عند خاله شكري زيدان، ثم عاد بعد هدوء العاصفة. وكان الزوج قد تجاوز هذا الأمر نفسيا وتصالح مع عفلق.

- **ألم تترك هذه الحادثة ندوبا في علاقتهما الحزبية؟**

- لعل الزوج وجد أن زوجته هي المسؤولة، وأنها هي التي كانت تعبث بميشال عفلق. وماتت القصة بعد ذلك. الغريب أن ميشال عفلق الذي ارتكب بين آب ١٩٤٩ وخريف ١٩٥٠ سقطتين: أرسل تلك الرسالة المخجلة لحسني الزعيم، وأقام علاقة غير لائقة بامرأة لعوب، عاد بعد غياب ثلاثة أشهر في البرازيل مبجلا وفرض احترامه ليس على الشباب الذين عرفوا هذه القضية، بل على جلال السيد وصلاح البيطار أيضا.

- **ما تفسيرك لهذا الأمر إذن؟**

- لا أدري. هذا أمر يتطلب بحثاً سوسيولوجياً لست مؤهلاً له، إنما أحكي وقائع للتاريخ. وأذكر أن رفيقنا نايف جربوع - وقد كان من محازبي عفلق الأساسيين في ذلك الزمن - كان يقول: الذي يسبقه ميشال عفلق ليس بمسبوق، وهذا هو سر

أولية عفلق في الحزب. فهو لا يتمتع بكاريزما أو جاذبية الزعيم الشعبي، وفوق ذلك مسيحي، واسمه ميشال. لذلك "فبرك" له صدام اسم أحمد ميشال بعد وفاته ليبرر نفسه أمام الاتجاه الإسلامي الذي طغى في الثمانينات.

- **ألا تعتقد أن هذا الأمر يشبه، إلى حد ما، ومن الناحية السيكولوجية، خروج ملايين المصريين ليطالبوا جمال عبد الناصر بالعودة عن استقالته على الرغم من هزيمة الجيش المصري وتمريغ كرامة المصريين برمال سيناء؟**

- الناس في بلادنا وعلى رأسهم المثقفون لا زالت تؤمن بالمعجزات وتؤمن بالغيب، وغير قادرة على استعمال العقل البحت. وعندما يعثر هؤلاء على قائد يدعو إلى النهضة والتقدم والتحرير، ويكتشفون فيه مظاهر الزعامة يوقفون عقولهم ويسيرون وراءه بلا بصيرة.

- **إنها صورة الأب القاسي والحامي في الوقت نفسه. الجماهير تتمرد على هذه الأبوة أحياناً، لكنها إذا مات الحامي تبكي عليه بتفجع. هذه هي سيكولوجية الجماهير أو الدهماء. الناس وجدت في عبد الناصر مثال الأب الحامي والراعي معاً. وهي خاب أملها في الحماية لكنها بكت عليه لفقدانها الرعاية والوعد بالمستقبل معاً.**

- ربما يكون هذا التفسير السيكولوجي صحيحاً. لكني أكرر أن المسألة تحتاج إلى أبحاث سوسيولوجية؛ عالم اجتماع قد يكون أقدر على التفسير مني ومنك. قد نكون في حاجة إلى ابن خلدون عصري؛ أما أنا فأكتفي بذكر الوقائع للتاريخ.

- **حسناً. أنت تمردت على ميشال عفلق بعدما كان لديك في منزلة القديس. هل تعتقد أن تمردك عليه هو تمرد على صورة الأب؟**

- صياغة هذا السؤال تثيرني، بل تستفزني قليلاً وتحرض ذاكرتي كثيراً. فاسمح لي أن أحكي بعض التفصيلات التي تجيب عن سؤالك والتي ربما لا تخلو من فائدة.

أولاً: نعم كان في نظرنا بمنزلة القديس وكنا نحبه كثيراً، وما زلت إلى الآن لا أكرهه ولا أدينه، وأساساً لست في معرض إطلاق الأحكام عليه ولا أنا مؤهل لذلك، إنّما أتذكر وقائع ومواقف وحوادث تلقي بعض الضوء على تلك المرحلة.

ثانياً: أنا لم أتمرد عليه، لكن بصراحة ووضوح كنت مثل غيري من الحزبيين المناضلين نكبر بالعمر، وتعركنا التجارب ونخرج إلى الحياة بعد سنوات الدراسة، فنتجاوز بالبداهة الطفولة والمراهقة في النظر إلى الناس والأشياء. قلت، إنني لم أتمرد عليه لكنني اكتشفت النواقص الأساسية في شخصيته كزعيم أو قائد أو عميد أو أمين عام لحزب. إن عفلق كشخص أول أو مرجع أول لحزب سياسي نهضوي المفروض فيه أن يصبح زعيماً شعبياً. وسأروي لك مجدداً حادثة وردت في مذكرات أكرم الحوراني الذي يقول انه غضب وأثار الموضوع بشيء من العنف في وجه ميشال عفلق داخل القيادة، وهي حادثة وضع كنبة مميزة له وعن يمينه ويساره كرسيين عاديين للحوراني وصلاح البيطار. لم أذكر لك ما قاله لي ميشال عفلق، وكنا يومها ندعوه الأستاذ. الآن سأروي لك تفصيلات الحادثة: أنا لم أكن أعرف ماذا جرى من احتجاج أكرم الحوراني على الموضوع، وعندما طلب ميشال عفلق مني أن أتمشى معه، وأذكر أنني سرت معه من عرنوس حيث

مكتب الحزب إلى قرب مقهى الهافانا، وهذه مسافة تحتاج بحسب مشيته وهو يتكلم، أكثر من ربع ساعة، صدقني أنني على الرغم من الشرح الذي شرحه (وكان يعظني كيف يجب أن أتصرف في مثل هذه الحال) لم أفهم لا في حينها ولا الآن ماذا يريد بالضبط، ولا أستطيع أن أذكر ماذا قال لي، ليس الآن وإنما منذ ذلك اليوم، لأن كلامه كان من نوع (بدّي وما بدّي) أو على طريقة (يعلم الله، المسألة على ثلاث طوق) وهذه تقال لدى "العقّال" من بني معروف من أهل الشوف الذين يستعملونها للخروج من دائرة الإحراج. ما أذكره أنّه ترك في نفسي شعوراً بالخيبة، وكنت في سنة التخرج في الجامعة، ومسؤولاً عن شعبة الحزب فيها بعد أن تخرّج نور الدين الأتاسي الذي كان قبلي في رئاسة الشعبة. ولأذكر لك ما قاله لي أخي بعد سنوات في معرض الحديث عن ابتعاد جميع مريدي ميشال عفلق عنه. كان أخي أقرب الناس إليه (خصوصاً على الصعيد الشخصي)، وكانت مراسلات الحزب خارج سورية (بعد أن انحلّ في سورية) تأتي إلى صندوق بريد والدي وكان رقمه على ما أذكر ٣٧١ ومفتاحه مع أخي لينقل البريد إلى ميشال عفلق بصفة كونه أميناً عاماً للحزب خارج سورية. كان أخي يساعده في هذا الأمر بعمل أشبه بعمل السكرتاريا، وكان يغتاظ كثيراً من كسله وإهماله، ولم يكن يستسيغ رؤيةَ الرسالة مهملة لدى عفلق من دون جواب وأحياناً من دون قراءتها. ويبدو أن احتكاكاً جرى بينهما فانفجر أخي بوجهه ولكن بكل تهذيب ومودة قائلاً له: يا أستاذ "مين ظل معك من أقرب الناس إليك وأهم الناس في الحزب؟". وعدّد له أكثر من عشرة أسماء. قال لي أخي إن الحزن بان على محياه وكان جوابه: "هلأ أنت بدك تحكم عليّ، اترك التاريخ يحكم". ذكرت لك هذه الحادثة لأقول إنّ موقفي من عفلق كان هو القاعدة في الحزب ولم يكن الإستثناء.

ثالثاً: تحدثنا عن الصلة العائلية بيننا وبين عائلة عفلق، وأنّ أبي كان مرجعهم في حل مشاكلهم وخلافاتهم العائلية. وأذكر حتى بعد أن أصبحت طالباً في الجامعة

أنني طالما كنت أرى أفراداً من عائلة عفلق في بيتنا وهم يختلون بـأبي، وأحياناً يودع بعضهم ليستقبل بعضهم الآخر، بما فيهم الأستاذ ميشال طبعاً. ويا ليتك كنت تعرف أبي. كان أباً لي ولأخوتي وللعائلة وللأقربين بالنسب وبالسكن، وكـان أباً لصديقات أخواتي ولأصدقاء أخي وأصدقائي، وعمّر حتى مات وأنا في الخمسين. وما زلت أذكر كلمات الصديق منح دبغي في تعزيته لنا عندما قال عنه: "طراز فريد لجيل لا يعوض في الشرف والبذل والنزاهة والكرامة." صورة الأب عندي لا تحتاج إلى تمرد من قريب أو بعيد، لذلك أستطيع أن أؤكد لك أنني إنسان سوي من هذا الوجه على الأقل. ولقد انقطعت صلتي بميشال عفلق نهائياً بعد خروج علي صالح السعدي من الحزب، ولم أره بعدها قطّ، ولا أعرف زوجته ولا أولاده إنما سمعت ممن ظل من أصدقائي على صلة به انه بلا شك زوج صالح وأب حنون. وسمعت مرةً ابنته "رزان" في إحدى محطات التلفزيون تتكلم على أبيها وكيف كان أباً رائعاً لها ولأخوتها، وصدقتها بالطبع، ليس لأن المثل يقول: "كلُّ فتاةٍ بأبيها معجبة" بل لأن الحال تصدق كلامها، خصوصاً أنّه أصبح متفرغاً لأبنائه بعد أن حكم أحمد حسن البكر وصدام حسين العراق باسم البعث وتنازل عفلق لهما عن شرعيته الحزبية التي لم تكن قليلة الشأن في العراق أبداً. فالبعث في العراق وصل إلى الحكم مستنداً إلى ثلاث شرعيات شبه متساوية: العروبة في وجه الدعوات الأخرى، وتقديس التنظيم بسبب ظروف الاضطهاد الراعبة، واسم ميشال عفلق الذي أصبح شبه "تابو". تنازل عفلق عن شرعيته لكنّه احتفظ بالشكل، أي بقي أميناً عاماً يخطب مرةً في السنة باسم الحزب في عيد الحزب. وهذه من براعات صدام حسين الذي عرف كيف يداوي ويطّوع شخصية ميشال عفلق النرجسية عن طريق الإغداق عليه بكل ما تحتاجه نرجسيته مادياً ومعنوياً. حينذاك قال صدام في سنة ١٩٦٩ إنهُ رجل تعب كثيراً من أجل الحزب وأنَّه بلغ عمراً

يحق له فيه أن يرتاح، ومن واجبنا أن نكون أوفيـاء له في ذلك، وأنّه أعطانا كـل ما عنده وإذا احتجنا منه رأياً أو قولاً مرةً في كل ستة أشهر يكون في ذلـك خيـر وبركة. وأذكر جيداً تعقيب صلاح البيطار على ذلك بالقول: "لقـد أحالـه (صـدام حسين) إلى التقاعد". علماً أن جلال السيد روى لصلاح البيطار بحضوري، وكنـا في زيارة له في بيروت وكان على ما يبدو عائداً لتوه من زيارة ميشال عفلق، مـا يلي: أخذت أحرضه واستحثه على معاودة النشاط والتحرك السياسي خصوصاً بعد أن صارت دولة العراق سنداً له (كان ذلك في العام ١٩٧٠ أو ١٩٧١ علـى مـا أذكر). فأخذ يشكو همومه العائلية ومسؤوليته في تربية أولاده بعد أن تجاوز الستين وأنه بعمر الجد لهم لا بعمر الأب. فكان جواب جلال السيد: "هيك يا أستاذ بعد أن كنت رائداً للجيل العربي الجديد، اقتصرت على أربعـة...!". وأرجـو أن يكـون جوابي عن "التمرد على صورة الأب" قد أصبح كافياً.

٤ ـــــــــــــــــــ في مهـــب الــريــاح: أنـــطــون سـعادة والبـعث وأكــرم الحوراني

• **ثمة حدث خطير وقع في تلك الفترة هو تسليم أنطون سعادة إلى السلطات اللبنانية*. ما موقف البعثيين من تسليم سعادة؟ ألم تُثر هذه القصة جدلاً سياسياً وأخلاقياً داخل حزب البعث؟**

- معظم قادة حزب البعث كانوا في السجن في تلك الفترة.

• **جميع البعثيين في السجن؟**

- نعم. إما في السجن أو مختبئون.

• **إذن، لم يثر هذا الحادث أي اهتمام خاص وقتذاك؟**

- أنا لا أذكر أنني علمت به في حينه.

• **حسنا. بعد الخروج من السجن ألم يجرِ نقاش في هذا الموضوع؟**

- بعد الخروج من السجن كان الذي ضَرب ضَرب والذي هَرب هَرب. سعادة كان أُعدم وحسني الزعيم أُعدم حتى من غير أن يلبس بزته.

• **أعدم وهو في لباس النوم؟**

---

* ولد أنطون سعادة في ١٩٠٤/٣/١ في بلدة الشوير اللبنانية، وكان في الثامنة والعشرين عندما أسس الحزب السوري القومي الاجتماعي. وكان أسس قبل ذلك "حزب الأحرار السوريين" في الارجنتين سنة ١٩٢٦.

- سمحوا له بتدخين سيكارة قبيل إعدامه. وعلى الفور أُعدم ومعه محسن البرازي. صورة سعادة المظلوم ساهمت في فوز عصام المحايري في الانتخابات النيابية اللاحقة*. وزع الحزب السوري القومي الاجتماعي صورة سعادة في مواجهة فرقة الإعدام وهو يقول لجلاّديه: "شكرا". الشام كلها في ذلك الوقت كانت تردد كلمة "خْطَي" عن أنطون سعادة. وطالما تساءل الناس: "كيف يسلمه حسني الزعيم وكيف يعدمونه بهذه السرعة؟" لهذا ربما انتخبوا عصام المحايري نائبا عن دمشق.

- **تعاطفوا مع الحزب بسبب إعدام زعيمه غدرا.**

- الناس أعطت أصواتها لعصام المحايري تعاطفا مع سعادة. والمحايري لم يكن ليستطيع الفوز بالمقعد النيابي في دمشق بسبب علمانيته وأفكاره في القومية السورية. عصام المحايري رجل محترم، وعائلته محترمة لكنها ليست من العائلات التقليدية المتزعمة ولا هو زعيم شعبي، ولم يكن الحزب السوري القومي الاجتماعي مقبولا في الشارع السوري.

- **تقصد الشارع في دمشق، لا في سورية كلها.**

- نعم، في دمشق العاصمة.

- **لأن الحزب امتلك حضورا قويا في المناطق السورية الأخرى.**

---

* انتخب عصام المحايري نائبا في ١٥/١١/١٩٤٩.

- صحيح. لكن ليس في المدن.

- **في الأرياف. في جبل العرب وجبل العلويين، أي لدى الأقليات. وهكذا نعود إلى الأحزاب العلمانية والتقدمية والأقليات، ورفض المجتمع التقليدي لها.**

- حضور الحزب السوري القومي الاجتماعي لم يكن قويا في جبل العرب. كان كاسحا في جبل العلويين. وبين المسيحيين أكثر مما بين العلويين.

- **نعود إلى حزب البعث. عاد عفلق من البرازيل واستعاد موقعه. ماذا حصل إبّان تلك الفترة؟**

- بعد عودة عفلق من البرازيل التأمت بعض الانقسامات التي ظهرت في الحزب. ومع ذلك قام بعض البعثيين بتوقيع عريضة ضد عفلق. لكنهم فُصلوا من الحزب ثم عادوا بعد ذلك.

- **من هم الذين وقعوا العريضة؟**

- أذكر من هؤلاء، مختار خياط وناظم قضماني وربما كان معهما تيسير النحاس.

- **ماذا كانت تتضمن تلك العريضة؟**

- نقداً لطريقة عفلق في إدارة الحزب أو شيئا من هذا القبيل، لا أذكر أني قرأتها.

- **مع انهيار حكم حسني الزعيم ومجيء سامي الحناوي ظهرت مجددا نغمة الاتحاد السوري - العراقي، هذه النغمة كانت مرفوضة من السعودية ومصر في تلك الفترة. ومعروفة أسباب الرفض، وهي أسباب استراتيجية؛ فالسعودية لا ترضى بأن يكون الشام والعراق موحدين، أي أن تقوم دولة كبرى على حدودها، وكذلك مصر. حزب البعث، وهو حزب قومي عربي، لماذا تحفظ عن هذه الدعوة؟**

- حزب البعث هو في الأصل ثلاثة أحزاب، وفي أي منعطف تاريخي يصبح الرأي هو رأي الأشخاص. جلال السيد الذي نجح في انتخابات ١٩٤٩، ومعه عبد العزيز حرويل ودحّام الدندل وكتلة من نواب العشائر، كان يؤيد الاتحاد على رؤوس الأشهاد. بينما كان ميشال عفلق وصلاح البيطار مع الاتحاد عاطفيا، لكن كلامهما يحتمل أكثر من وجه. أما قواعد الحزب، ولا سيما اليساريون الذين لم يقبلوا ولا مرة زعامة جلال السيد، وهم الذين منحوا ميشال عفلق صلاحيات مطلقة في الحزب، هؤلاء ومعهم بعض مسؤولي الفروع فـــي حمص وحماة واللاذقية وحلب ودير الزور كانوا ضد الاتحاد مع العراق. كذلك أكرم الحوراني، ومعه أكثرية ضباط الجيش، كان ضد الاتحاد مع العراق وضد أي وحدة أخرى لا يكون النظام فيها جمهورياً. وفي هذه الفترة برزت أسماء كبيرة كان لها شأن في تاريخ حزب البعث مثل وهيب الغانم وعبد البرعيون السود وفيصل الركبي وجمال الأتاسي ونور الدين الأتاسي في جامعة دمشق. وكان صلاح البيطار يلتزم الصمت

في مثل هذه الأجواء. أما ميشال عفلق فكان أستاذا في صوغ المخارج السياسية بالجمل اللفظية التي لا يُمسكه فيها أحد. وإذا جد الجد، فأين تكون القوة الأساسية، أكان ذلك في الحزب أم في الجيش، يميل معها. وهنا أروي قصة كنت شاهدا عليها. كان ميشال عفلق يتحدث في الفترة التي ترك فيها جلال السيد الحزب في مقهى الروضة بدمشق العام ١٩٥٥، فقال إنه في إحدى الليالي كان جالسا إلى صلاح البيطار وجلال السيد الذي كان قادما لتوه من المجلس النيابي الذي كان شرع في مناقشة الدستور في العام ١٩٥٠، وثار الجدال الصاخب على موضوع الاتحاد مع العراق. فاتفقنا على أن تكون افتتاحية جريدة "البعث" في اليوم التالي عن الدستور على أن أكتبها أنا أو صلاح البيطار، وعلى الكاتب أن يركز في هذه الافتتاحية على النظام الجمهوري بالدرجة الأولى وعلى الوحدة. فتطوع جلال السيد قائلا: أنا أكتب الافتتاحية. ولما طالت السهرة والمطبعة في الانتظار قام جلال السيد، وكان سريع الكتابة، وأنجز الافتتاحية. وفي اليوم التالي صدرت جريدة "البعث" ولم تتضمن الافتتاحية أي كلمة عن النظام الجمهوري ولا حتى كلمة "جمهورية"*. ويتابع عفلق كلامه بالقول: بقينا شهوراً طويلة أنا والأستاذ صلاح البيطار نتساءل: كيف تصرف معنا هكذا جلال السيد؟ هنا بادرت ميشال عفلق بالسؤال: يا أستاذ، لِمَ لم تجادلوه ولِمَ لم تسألوه عن هذا الأمر؟ هل عاقبتموه؟ فأجابني عفلق: "هيك صار". لقد اكتشفت، حينذاك، أن "الدروشة" لا تصنع زعماء وقادة.

- **حسنا. من أين كنتم تجمعون نفقات الحزب؟**

---

* أصدر حزب البعث في ١٩٥٠/١/٩ بياناً يوافق فيه على الاتحاد مع العراق بشرط أن يكون النظام في البلدين جمهورياً.

- من الاشتراكات والتبرعات.

• **هل كانت الاشتراكات والتبرعات تكفي نفقاتكم حقا؟ ألم تكن ثمة مصادر أخرى؟**

- طبعا. كانت جريدة الحزب تتعطل بين الحين والآخر. فتنشر أن هذا التعطيل حدث لأسباب فنية. بعض أنصار الحزب ومنهم على سبيل المثال خالي رفلة فرح، وكان تاجرا، يبادر إلى التبرع. خالي هذا ليس حزبيا ولكنه نصير للحزب ويحب ميشال عفلق. وكان يمزح فيقول: تعطلت الجريدة لأسباب فنية؟ ثم يفرك إبهامه بسبابته ليشير إلى أن السبب مالي.

• **في هذه الفترة كان عفلق والبيطار متفرغين للعمل الحزبي؟**

- كانا يعتاشان من جيوبهما، ولم يكن هناك تفرغ حزبي.

• **ألم يوجد التفرغ الحزبي قط؟**

- البتة. كان عفلق والبيطار يعطيان دروسا خصوصية. البيطار يعمل في مدرسة دوحة الأدب وعفلق في إحدى المدارس. ومرت فترة لولا شقيقه وصفي لما تمكن عفلق من العيش. وفي فترة لاحقة خصص الحزب له راتباً قيمته ٣٠٠ ليرة سورية وهو مبلغ يقبضه موظف يحمل الليسانس.

• **لنتوسع قليلا في موقف حزب البعث من موضوع الاتحاد مع العراق. فالكلام الشائع أن سورية هي قلب العروبة النابض وهي أم الحركات**

الوحدوية العربية. لكن ثمة رأي مختلف موجزه أن السوريين ليسوا وحدويين تماما...

- من أين أتيت بهذه الفكرة؟ كنت أريد أن أتحدث عنها.

- **المقصود بهذه الفكرة أن الدمشقي ليس وحدويا. ودمشق كمدينة ـ حاضرة، وعقدة التجارة في المنطقة، تريد هي أن تضم لا أن تُضم. وهناك لدى الشام والشوام خوف دائم من أن تُضم إلى العراق، وهي تسعى إلى التملص في كل مرة يكون فيها العراق قويا. وحينما يزداد الضغط العراقي تتجه الشام نحو القاهرة. هذا ما حدث في سنتي ١٩٥٧ و١٩٥٨ مثلا الذي أدى إلى قيام الوحدة مع مصر. ولكن، مع زوال الضغط العراقي باندلاع ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في بغداد بدأ التفكك يضرب الوحدة السورية ـ المصرية حتى انهارت في سنة ١٩٦١. لماذا؟ لأن الشام نفسها مدينة ـ حاضرة. تأكل ولا تؤكل. والشوام وحدويون حينما يتعلق الأمر بلبنان والأردن وفلسطين. لكن دمشق ليست وحدوية حينما يتعلق الأمر بضمها إلى كيان أكبر منها وأقوى مثل العراق أو مصر. وبهذا المعنى فإن سورية وحدوية ضمن بلاد الشام، أما في النطاق الأوسع فهناك نزوع عام إلى عدم الوحدة مع العراق، ونستثني من ذلك المشاعر الشعبية ورغبات الناس ولا سيما في دير الزور مثلا، بسبب الجوار الجغرافي أو القرابات القبلية والعشائرية. كيف تنقد هذا الرأي؟**

- هذا ليس كلاماً صحافياً، هذا كلام علمي وتاريخي واجتماعي وسوسيولوجي. وسأبدأ من فيصل ملك سورية، وربما أعود إلى التاريخ العربي

والإسلامي وإلى الجغرافية السياسية الفائقة الأهمية في هذا الحقل من المعرفة. كنا نعتقد أن التاريخ هو المهم فتبين لنا أن الجغرافية أهم. واستطراداً أقص عليك قصة دير الزور. سألت جلال السيد مرة عن زعامة رشدي الكيخيا* في حلب، فقلت له: أنت ممَّ تشكو؟ أنت في نظرنا أكبر وأهم من رشدي الكيخيا. فنظر إليّ بمنتهى الحكمة وقال بحرقة: يا نبيل، نواب الملحقات ملحقات. أين نائب حلب وزعيم قائمة انتخابية في حلب من نائب عن دير الزور؟ دير الزور لا تقرر، بل إن هناك مدينتين في سوريا هما اللتان تقرران: حلب ودمشق. والقصة بين حلب ودمشق قديمة جدا. حلب كانت المدينة التجارية الأكثر أهمية، بينما دمشق كانت حاضرة تاريخية وتجارية ودينية؛ فمنها ينطلق محمل الحج الشامي إلى الحجاز. حلب كانت أغنى من دمشق لأنها محطة القوافل وطريق الحرير وفيها الوكالات التجارية الأوروبية ومركز القناصل ومنفذ البصرة إلى العالم الأوروبي والعثماني. لكن، عندما افتتحت قناة السويس في سنة ١٨٦٩ تدهور مركز حلب وبدأت دمشق تزدهر. وفي جميع الأحوال ظلّت مصالح حلب مرتبطة بالموصل والبصرة وبالعراق عموما، أكثر من ارتباطها بالداخل السوري.

- **كانت إسكندرون ميناء حلب، وعندما سلخت فرنسا أنطاكيا ولواء الاسكندرون عن سورية ازداد تدهور حلب.**

- نعم. ثم صار منفذها الإقليمي في الشرق أي في البصرة. ولهذا فحكاية دمشق مع العراق تختلف عن حكاية حلب مع العراق. ولعل هذه العجالة تفسر لماذا

---

* ولد في حلب سنة ١٩٠٠ وانتخب نائبا، أول مرة، سنة ١٩٣٦ عن حزب الكتلة الوطنية. ثم انشق عن الكتلة وأسس الكتلة الدستورية التي تحولت إلى حزب الشعب في سنة ١٩٤٨. وأصبح لاحقا رئيسا لمجلس النواب.

كان أهل دمشق غير راغبين في زعامة الملك فيصل، واختاروا في مواجهته الأمير عبد القادر الجزائري. فقد كانوا يعتقدون أن عبد القادر الجزائري يمكنه التفاهم مع فرنسا. وبهذا التفاهم يتخلص السوريون من الانتداب الفرنسي، وهذا أفضل بكثير من أن يحكمهم "بدوي من الحجاز".

- **هل ظهر هذا الكلام في المؤتمر السوري في ١٩٢٠/٣/٧؟**

– ظهر قبل ٧ آذار ١٩٢٠، بل منذ أن أتى الأمير فيصل إلى دمشق. هذا هو موقف الشوام الأصليين الملاّكين. الملاّكون الدمشقيون من العائلات الشامية الأساسية ومعهم علماء الدين وخطباء الجوامع وقضاة الشرع والتجار، وهم في الدرجة الثالثة، أي الدكنجية. هذا الثالوث الذي كان حاكما في زمن العثمانيين يريد أن يبقى في الحكم في زمن الاستقلال. ففي زمن العثمانيين كان الحكم لامركزياً. ومهما اختلفت الناس في الولايات، ومهما حدث من مصادمات مع الانكشارية أو من مؤامرات القصور، فإن السلطة راسخة للباب العالي، وثابتة لهذه العائلات ولمثلث الملاكين ورجال الدين والتجار.

- **ألم تغير إصلاحات مدحت باشا من سطوة هذا الثالوث المستبد؟**

– الإصلاحات التي بدأت في "خط كولخانة" حتى إصلاحات مدحت باشا* جعلت القوى الحاكمة في الشام تتحول، بالتدريج، إلى الموقع المناهض للأتراك،

---

* أحد أكبر الاصلاحيين الأتراك، وهو الذي أعد الدستور العثماني ونظام مجلس المبعوثين، وترأس حزب الأحرار. وفي سنة١٨٧٦ قاد انقلاباً ضد السلطان عبد العزيز ونصب مكانه السلطان مراد الخامس. وبعد جنون مراد نصب مكانه عبد الحميد الثاني وأعلن الدستور في ١٨٧٧/١٢/٢٤. وفي ما بعد نفي إلى الحجاز، وهناك قتل بلا ضجة.

ولا سيما مع ظهور الحركة الطورانية. كان لسان حالهم يقول: نحن والأتراك مسلمون. وعلى الرغم من أن الإسلام منا والخلافة للعرب فقد قبلنا بخلفاء لا يعرفون العربية ولا يفهمون القرآن، لكنهم مسلمون. أما أن تحولوا الدولة العثمانية إلى دولة طورانية وتتصروا غير العرب على العرب فهذا مرفوض. لتكن القومية العربية مقابل القومية الطورانية. وما فكرة الوحدة عند الثالوث الدمشقي إلاّ ردة فعل على الطورانية وليست خيارا فكريا أو سياسيا*. وهم التحقوا بالثورة العربية الكبرى في سنة ١٩١٦ ليستعيدوا الحكم من الضباط الأتراك الظالمين أمثال جمال باشـا. فكيف يقبلون ملكا من الحجاز أراد الإنكليز تنصيبه عليهم؟ لذلك اقترحوا عبد القادر الجزائري بديلا من فيصل. ولكن عندما فشلوا في هذا المسعى نجح فيصل مدعوما من الزعامات السورية الكبرى.

- **أمثال سلطان الأطرش مثلا.**

- سلطان الأطرش في السويداء، وعبد الرحمن الشهبندر وفارس الخوري وبطريرك الروم الأرثوذكس غريغوريوس حداد في دمشق، وفي حلب تلك المدينة العظيمة، قال فيصل كلمته المشهورة: "الدين لله والوطن للجميع"، لأن ربع سكان حلب من المسيحيين.

- **من هو صاحب هذا الشعار؟**

---

* بدأ الفكر الإصلاحي في تركيا أولا قبل أن تتعرف إليه النخب العربية، فهـو بـدأ لـدى الانتلجنسيا التركية التي شاهدت واطلعت على التقدم الأوروبي، وتحفزت للإصـلاح فـي سبيل مواجهة انحطاط النخب العسكرية والدينية الحاكمة.

- الملك فيصل.

- **قيل أن عادل أرسلان هو الذي صاغه.**

- أعوذ بالله. عادل وشكيب أرسلان كانا اسلاميي التفكير والتعبير.

- **هذا الشعار موجود في البيانات الأولى للثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥ الذي وقعه سلطان الأطرش.**

- سلطان الأطرش من جماعة الملك فيصل. كانت حلب مدينة مغلقة في وجه فيصل، والنفوذ الفرنسي قويا بين مسيحيي المدينة. فالمسلمون لم يفرحوا لذهاب تركيا، والمسيحيون كانوا يخافون، مثل مسيحيي لبنان، من أي وحدة عربية كبيرة يذوبون في أرجائها. مسيحيو حلب يختلفون عن مسيحيي دمشق فهم كثر في حلب وأغنياء ولهم اتصال قوي بروما مركز البابوية، وفرنسا تؤازرهم. وحتى يكسب الملك فيصل ثقتهم ويستميل قلوبهم أطلق هذا الشعار في تلك المدينة بالذات. ووقف معه الزعماء الكبار في متصرفية جبل لبنان وسار في ركابه حتى الموارنة. وفي جانب آخر كانت هناك شخصيات دمشقية تفاوضت مع الفرنسيين ضد الملك فيصل أمثال علاء الدين الدروبي الذي ذبحه الحوارنة، وجميل الألشي* وغيرهما.

---

* ولد سنة ١٨٨٣، وتخرج في كلية الحرب العثمانية. التحق بالأمير فيصل في دمشق الذي عينه ضابط الاتصال مع الجنرال أللنبي. ثم عينه الملك فيصل بعد إنذار الجنرال غـورو رئيسا للحكومة التي تولت تنفيذ شروط الفرنسيين. عين رئيسا للحكومة في سنة ١٩٤٣ ثم عزله الجنرال كاترو.

- **وعبد الرحمن اليوسف.**

- وعبد الرحمن اليوسف. لكن عندما راح نظام الملك فيصل يترسّخ تحولت القوى الدمشقية في مواقفها أيضا. ولعل هذا التحول يفسر قصة معركة ميسلون واستشهاد يوسف العظمة. يوسف العظمة بطل بلا ريب. وهو ذهب إلى القتال وكان يعلم أنه سيموت. لكن الدمشقيين أثاروا المواقف المتطرفة وبالغوا في هذه المواقف حتى أوصلوا الأمور إلى موقعة ميسلون، ولم يفسحوا للملك فيصل في المجال ليعقد ولو اتفاقا مؤقتا مع فرنسا. وفي ما بعد، وجرّاء الثورة السورية الكبرى واستمرار نضال المدن والتحولات الدولية، نالت سورية استقلالها، فكانت أول بلد عربي يستقل استقلالاً كاملاً. وبالتبعية نال لبنان استقلاله أيضا. وفي ما عدا سورية لم تنل أي دولة عربية استقلالها الناجز، بل ارتبطت بمعاهدة مع المستعمر.

- **مثل العراق ومصر.**

- الجميع.

- **ألم تكن سورية مرتبطة بفرنسا بمعاهدة؟**

- أعوذ بالله.

- **معاهدة سنة ١٩٣٦.**

- هذه المعاهدة فشلت، ولم يوقعها الفرنسيون*. عندما نالت سورية استقلالها، نالته من غير قيد أو شرط. ستقول ان اليمن كان دائما مستقلاً. اليمن مسألة مختلفة ولم يخضع للاستعمار المباشر. ستقول الملك عبد العزيز آل سعود ومملكة نجد والحجاز. الآن تتكشف اتفاقات سرية عُقدت بين الملك عبد العزيز وبريطانيا وأميركا مثل اتفاقية استقلال الكويت. ولحسن حظ الملك عبد العزيز أن أي عراقي لم يكشف حتى الآن أي اتفاقية مستورة. وأنا أتساءل: متى كان العراق والشام متحدين؟

- **مرات قليلة.**

- لنبدأ منذ فجر التاريخ. البابليون والآشوريون احتلوا المنطقة ثم تراجعوا عنها. لكن الممالك السورية الآرامية بقيت. عندما اجتاح الإسكندر الكبير المنطقة واحتلها حتى الهند في خلال ثلاث سنوات، دانت هذه الإمبراطورية المترامية له. وبعد موته، وحتى لا يختلف القادة الكبار في جيشه الكبير، تقاسموا المملكة. وكانوا طلبوا منه، وهو على فراش الموت، أن يوصي فقال: المملكة للأقوى. لكن الحكمة تغلبت على الوصية وقالوا: تعالوا لنقتسم المملكة حتى لا

---

* تم توقيع المعاهدة السورية - الفرنسية في وزارة الخارجية في باريس، ووقعها عن الجانب الفرنسي مسيو فينو وكيل وزارة الخارجية، وعن الجانب السوري هاشم الأتاسي. لكن البرلمان الفرنسي رفض التصديق عليها بضغط من الإكليروس والعسكر والتجار وخصوصا تجار مدينة ليون. لكن الحرب العالمية الثانية اندلعت في سنة ١٩٣٩ وسقطت فرنسا في أيدي الألمان، وأصبحت لبريطانيا اليد الطولى في تقرير مصائر السوريين واللبنانيين.

نختلف. فأخذ بطليموس مصر، ونال سلوقس سورية؛ فسورية الكبرى التي يتحدث عنها أنطون سعادة صارت دولة متحدة مرة واحدة في التاريخ ودامت نحو ٢٠٠ سنة، وكانت عاصمتها أنطاكية.

- **دولة موحدة لكن تحت حكم أجنبي.**

- صحيح، لكنها موحدة. ثم جاءنا الرومان واكتسحوا الدنيا واحتلوا سورية، لكنهم لم يصلوا إلى العراق. بقي العراق تحت سيطرة فارس، وأنشأوا مملكة الغساسنة ليردوا عن أنفسهم غزوات العرب. هنا صارت سورية ولاية، وكانت مصر الفرعونية تتمدد قبل ذلك الزمان نحو الشمال. مع الفتح الإسلامي صار العراق وسورية تابعين للمدينة. واستمرت هذه الحال عدة سنين فقط حتى جاءت الفتنة الكبرى، فانتصر فيها الأمويون، ثم قامت إمبراطورية عربية كبيرة في دمشق وضمّت نصف الدنيا في ذلك الزمان. لكن العراق لم يخضع قط لحكم دمشق إلاّ بالسيف. لم تدم دولة الأمويين أكثر من تسعين سنة، وصارت بغداد عاصمة الإمبراطورية العباسية الجديدة. وصارت سورية تابعة للعراق.

- **سورية لم تخضع أيضا للعراق.**

- لم تخضع قط.

- **إنها قصة الجيوبوليتيك.**

- تماماً هي قصة الجغرافيا السياسية. فإذا كان لا بد من وحدة ما فلتكن مصر. لأن البحر ناقل للثقافة، البحر فاصل واصل مثل الدوبرياج في السيارة. أما الصحراء فهي فاصل أكثر من واصل.

- **إلى أي مدى يمكن اعتبار بادية الشام وبادية السماوة فاصلا حقيقيا؟ فهذه المنطقة ظلت، على مدى العصور، مسرحا حيويا لانتقال العشائر من العراق والحجاز إلى الشام.**

- أنا لا أتحدث عن بادية الشام فقط، أنا أقول إن الصحارى تفصل أكثر من البحر. على أن الطريق البري الساحلي الذي يصل سوريا بمصر (قبل وجود اسرائيل طبعاً)، هو أسهل واقصر وأكثر أمناً، من الصحراء الفاصلة بين دمشق والمدن السورية وبين بغداد والعراق.

- **صحيح نسبياً. الصحراء الافريقية فصلت العرب عن الأدغال.**

- أهل الشام، وجنوب سورية، إذا ناداهم نداء السفر خرجوا إلى مصر، وربما تحولوا إلى الحجاز. وإن خرجوا شمالاً فإلى كيليكيا، وغربا إلى الساحل السوري (لبنان وفلسطين)، لكنهم لا يذهبون إلى العراق. أهل حلب فقط يتجهون نحو العراق والموصل بالتحديد.

- **إن أقرب مدينة إلى دمشق هي بيروت.**

- أقرب من حلب.

- **أنت تتكلم على أهل الشـــام. لكن في العـــراق الأمر مختلف. العراق كان دائما مسكونا بنداء السندباد، أي الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط أو**

البحر السوري قديماً. نداء البحر عند العراقيين مسألة حيوية جدا. لأن العــراق عمليا بلد بري إلاّ من فتحة صغيرة جدا على شط العرب.

- نداء المتوسط أم الخليج؟

- **المتوسط. أنظر إلى الغزوات، فجميع الغزوات والهجرات كانت تتجه غربا. أما نداء الخليج فهو محسوم. العراقيون موجودون على أبواب الخليج عند البصرة، وتجارتهم مع الهند رائجة منذ آلاف السنين، وخط التجارة يبدأ من البصرة إلى عُمان حتى الهند، وهذا هو الإطار الحيوي للعراق، أو بلاد ما بين النهــرين. أما الاتجاه غربا فهو طموح دائم من سرغون الأكادي حتى الملك غازي.**

- هذه موجات ليست ثابتة، ولم تتكون حولها طموحات شعبية.

- **أتحدث عن الجغرافيا السياسية.**

- في قراءتي للتاريخ أخالفك هذا الرأي تماما. ومن خلال تجربتي السياسية لم أكتشف أن هناك طموحا عراقيا حقيقيا للوصول إلى المتوسط إلاّ لأجل الاصطياف في لبنان.

- **لقد كانت فكرة الوحدة مع سورية تأتي من العراق لا من السوريين. والوصول إلى البحر المتوسط لا يعني، في نهاية المطاف، ضم الساحل**

السوري إلى العراق. يكفي أن يكون للعراق السيطرة أو حتى بعض النفوذ. لا تنسَ أن تجارة العراق كلها مع العالم كانت تأتي عبر ميناء بيروت وميناء حيفا. وبعد إقفال ميناء حيفا، انفردت بيروت بهذا الامتياز. ولا تنس أنابيب النفط إلى بانياس وطرابلس وحيفا. المصالح العراقية كثيرة على المتوسط.

- يا أخي الوحدة كان في إمكانها أن تتحقق بوجود حزب واحد حاكم في البلدين. من الذي أفشل هذه الوحدة؟ العراقيون بالطبع. انقلاب صدام حسين في سنة ١٩٧٩ أطاح الوحدة*. وقبله انقلاب عبد السلام عارف في ١٨/١١/١٩٦٣.

- **هل تعتقد أن الوحدة بين العراق وسورية كانت على الأبواب حقا؟ أظن أن هذا الاستنتاج غير صحيح. وفي أي حال نحن هنا نحاول أن نستكشف التاريخ فقط.**

- حدثني ابن خالتي زهير فرح وكان كبير مهندسي سد الفرات، أنه لاحظ في المفاوضات المائية المثلثة بين سورية وتركيا والعراق أن الوفد العراقي كان يميل إلى جانب الأتراك إذا اقتضت مصلحته ذلك.

---

* في سنة ١٩٧٩ أرسل الملك حسين مندوبا إلى صدام حسين ليبلغ إليه معلومات أمنية. وتقول هذه المعلومات أن مجموعة من خمسة أعضاء في مجلس قيادة الثورة هم: عدنان الحمداني ومحمد محجوب وغانم عبد الجليل ومحمد عايش ومحيي المشهداني، اتفقوا مع الرئيس حافظ الأسد على الإطاحة بصدام حسين، وعلى إتمام الوحدة السورية – العراقية على أن يكون أحمد حسن البكر رئيسا للدولة وحافظ الأسد نائبا للرئيس، وأن يكون منيف الرزاز أمينا عاما للحزب بدلا من ميشال عفلق. وهكذا تمت تصفية المجموعة وتولى صدام حسين السلطة في ١٦/٧/١٩٧٩.

- **الشيء نفسه ربما ينطبق على سورية وعلى أي دولة عربية أخرى.**

- كان هـذا المهندس يردد أن من الأفضـل أن نتفق نحن العراقيين والسوريين أولاً ثم نفاوض الأتراك. العراق بلد غني حتى قبل ظهور البترول، والغني لا يحب أن يشاركه أحد في ثروته.

- **هذه نظرة لا علاقة لها بالجغرافيا السياسية والمفهومات المعاصرة للأمن القومي. مفهوم الأمن القومي يتعدى عنصر الثروة، والثروة هي مجرد عنصر واحد من مجموعة عناصر تشكل معا الأمن القومي لأي بلد. ومهما يكن الأمر، ففي هذه الأثناء، وقع أهم حدثين في تاريخ البعث أي الاندماج مع حزب أكرم الحوراني (الحزب العربي الاشتراكي) ثم الاستيلاء على السلطة في العراق وسورية سنة ١٩٦٣. واسمح لي أن استطرد في هذه النقطة بالتالي: عندما وقع الاندماج بين الحزب العربي الاشتراكي وحزب البعث العربي كان ذلك مقدمة مهدت للحزب الجديد كي يصبح حزبا كبيرا في سورية. ألا تعتقد أن تصفية الحزب السوري القومي الاجتماعي في سنة ١٩٥٥ بذريعة اغتيال عدنان المالكي، وكان هذا الحزب من الأحزاب المهمة جدا في سورية، وتصفية الحزب الوطني قبل ذلك، وهو من الأحزاب التقليدية المهمة في سورية، وكذلك تصفية حزب الشعب بتهمة العمل على ضم سورية إلى العراق، ذلك كله أفسح في المجال ليصبح حزب البعث العربي الاشتراكي الحزب القوي في سورية؟ هذه القوة لم تأت من قدراته الذاتية بل من القضاء على الأحزاب المنافسة له بالتتالي.**

- هل حزب البعث هو الذي قضى على هذه الأحزاب؟

• **لا بالطبع. السلطة هي التي قضت على هذه الأحزاب وساهمت في هذه الحملة المتمادية المصالح المصرية والأميركية. وهذه الظروف الموضوعية المستقلة عن الارادة ساهمت في هذه النتيجة.**

- هذه الأحزاب هي التي قضت على أنفسها بأنفسها.

• **مهما تكن الحال، هل كان ثمة من عارض دمج حزب البعث العربي والحزب العربي الاشتراكي؟**

- طبعا، وأول المعترضين كان ميشال عفلق، فضلا عن جلال السيد. قبل الدمج كان هناك تعاون جدّي بين الطرفين*. وكان أكرم حوراني ونصف حزب البعث، ولا سيما اليساريون منهم، يتعاونون على المكشوف. ومنذ سنة ١٩٤٧ عرض ميشال عفلق وصلاح البيطار على أكرم الحوراني القدوم إلى دمشق والعمل معا. وعندما كان الحوراني نائبا في البرلمان. كانت جريدة "البعث" تنشر أقواله بالتفصيل لأن مواقفه كانت متطابقة مع مواقف قادة البعث. لكن بعد الدمج ظل هناك قطبان فيه: جلال السيد وهو مؤيد للوحدة مع العراق، وأكرم الحوراني الذي اتهم بأنه ضد الوحدة مع العراق. والحقيقة أنه كان ضد الإنكليز وضد فقدان النظام الجمهوري في سورية لمصلحة الملكية. على أنه ربما كان يقبل الملكية

---

* يروي سامي جمعة أن الحوراني كان يردد القول إنه لولا ضرورة النضال ضد حكم الشيشكلي لما وافق على دمج حزبه بحزب البعث العربي. وفي أي حال فقد جرى الدمج في تشرين الثاني ١٩٥٢ وباتت القيادة تتألف من عفلق والبيطار والسيد والحوراني وأنطون مقدسي ووهيب الغانم.

بشــرط ألاّ يشوب الوحدة أي شائبة أجنبية*. وكان جلال السيد ممن ينافح عن الوحدة مع العراق ويسايره في ذلك ميشال عفلق وصلاح البيطار. والآن، ألا زلت تعتقد أن الإنكليز ونوري السعيد كانا يريدان وحدة بين سورية والعراق؟

- **كانا يريدان اتحاداً، أي السيطرة على العراق وعلى سورية معا.**

- إنكلترا قدمت عرضاً لعبد الإله ليصبح ملكاً في ســورية بحيث يحكمون من خلاله سورية كما يحكمون العراق، وتبقى دولة هنا ودولة هناك**.

- **عرش هاشمي لعبد الإله؟**

- في سورية.

- **هل كان هذا المشروع جدّيا؟**

- الملك عبد الله هو الذي عارض المشروع.

---

* يقول بهجت أبو غربية في مذكراته إن أكرم الحوراني حينما كان رئيسا لمجلس النــواب السوري عرض على الملك حسين توحيد الأردن وسورية على أن يكون الملك حسين ملكا على الدولة الجديدة طيلة حياته. لكن الملك رفض هذا الاقتراح.

** في سنة ١٩٤٩ جاء إلى دمشق من العراق وفد من حزب الاستقلال ضم فائق السامرائي وصدّيق شنشل ومهدي كبة وسلمان الصفواني، وطلب توقيع وثيقة تدعو إلى اتحاد سورية والعراق على ان تكون سورية عرشاً للأمير عبد الإله.

- **في تلك الفترة كان لا يزال يطمح إلى سورية الكبرى.**

- طبعا. طموحه كان الأهم، وهو أهم من عبد الإله في العائلة الهاشمية. وعندما حدث انقلاب أديب الشيشكلي بدأ اضطهاد حزب البعث وبدأ اضطهاد أنصار أكرم الحوراني من المدنيين والعسكريين. وفي هذه المرحلة تسلم بعض البعثيين من الصف الثاني التنظيم الحزبي، وتوليت أنا التنظيم في مدينة دمشق بتكليف من صلاح البيطار، وتوسعت في التنظيم السّري. كنت قائدا للتنظيم السّري مع أنني لم أكن سياسيا ولم أتسلّم أي موقع قيادي سياسي، فكانت الأوامر تأتيني من صلاح البيطار وميشال عفلق. وبدأ التنظيم السري يُرسّخ وجوده، وكان جلال السيد ذا حضور قوي في البرلمان وفي الحياة السياسية وفي الصحافة. لكن عندما سيطر الشيشكلي على السلطة صار جلال السيد بلا قوة حتى في دير الزور. أما القوة التي يمكنها أن تجابه الشيشكلي فكانت جماعة أكرم الحوراني وأنصاره في الجيش والتنظيم السري.

- **ما كان دور حزب البعث العربي الاشتراكي في إسقاط عهد الشيشكلي؟**

- إذا علمت كيف سقط الشيشكلي تستطيع أن تكتشف أن الدور الرئيسي كان لحزب البعث*. في تلك الفترة تحول حزب البعث تنظيما سريا حقيقيا ومناضلا في

* يقول جلال السيد أن العراق كان له الضلع الأكبر في سقوط الشيشكلي، وأن حزب البعث لم يكن يدري عن ذلك شيئاً مع أنه كان يخوض نضالاً قوياً ضد حكم الشيشكلي، لهذا استبعد الحزب من الوزارة التي تألفت بعد سقوط الشيشكلي من حزب الشعب والحزب الوطني والمستقلين.

جميع المدن السورية والمحافظات. وسأروي تجربتي الشخصية، فأنا كنت مسؤولا عن المنظمة الحزبية السرية في دمشق. وهذه المنظمة ازدادت فاعليتها خلال أكثر من سنتين من العمل السري، ولم تتمكن مخابرات الشيشكلي من اختراقها على الرغم من أنها اعتقلت جميع القادة السياسيين وعددهم يربو على ٥٠٠ شخص. إذن، تحول الحزب إلى حزب سري في عهد الشيشكلي. لكن الضربة المباشرة جاءت من ضابط بعثي معروف اسمه مصطفى حمدون، وكان يساعده ضابط معروف اسمه محمد عمران.

- **وعبد الغني قنوت؟**

– قنوت كان مسرّحا من الجيش وفي السجن، وكان عدنان المالكي في السجن أيضا. قام مصطفى حمدون بتمرد على أديب الشيشكلي وتحول التمرد إلى ثورة في البيانات فقط. عبـد الفتاح الزلط* رئيس فرع حلب لحزب البعث لعب دورا كبيرا في الإذاعة لأنه كان خطيبا ومحرضا من الطراز الأول. والحقيقة أن العراق دعم هذا التمرد. ولا ريب في ذلك، فالشيشكلي اتهم، من بين اتهامات عديدة، بأنه أميركي الهوى**.

---

* تمرد عبد الفتاح الزلط على اسمه وأقام دعوى لشطب كلمة "عبد" منه. وعبد الفتاح الزلط يرد اسمه في مذكرات بهجت أبو غربية (ص ١٨٥) فيقول أنه جـاء إلـى الأردن مـع مصطفى حمدون سنة ١٩٥٧ مبعوثين من أكرم الحوراني لتحذير حزب البعث من مغبـة القيام بانقلاب عسكري في الأردن لأن هذا الانقلاب "يعتبر خيانة قومية".

** في ١٩٥٤/٢/٢٤ أذاع النقيب مصطفى حمدون بياناً من إذاعة حلب أعلن فيه التمرد على الشيشكلي. وفي المساء اضطر الشيشكلي إلى مغـادرة سـورية إلـى بيـروت. وفـي ١٩٥٤/٢/٢٦ أعلن استقالته. وكان الشيشكلي صديقاً حميماً لمايلز كوبلاند الذي أطلق على

- كان أقرب إلى السعودية ومصر.

- الحقيقة أنه تعاون مع السعودية ومع عبد الناصر، وكان عبد الناصر يعتبره أستاذه. الشيشكلي هادن أميركا لكن لا يستطيع أحد الادعاء بأنه عميل لأميركا. كان ينهج نهج عبد الناصر في أوائل ثورة يوليو ١٩٥٢. لكن بعد سقوطه تملكت منه أحقاده وأوصلته إلى أن يصبح عميلا للمخابرات الأميركية بالفعل، وصرفت له السعودية معاشا دائما بعد سقوطه. القوة الفاعلة في تلك الفترة، مدنيا وعسكريا، كان حزب البعث. وكان يقود جبهة وطنية ضمت الكثيرين من رموز السياسة في سورية ما عدا الحزب الشيوعي والحزب السوري القومي. لذلك عندما أعلن مصطفى حمدون عصيانه في حلب ودعا الجيش إلى تأييده، أيدته أكثرية الجيش بالفعل. فالجيش لم يكن إلى جانب الشيشكلي. والبرهان أن الشيشكلي حينما أراد قمع جبل العرب أرسل رسمي القدسي، وهو ضابط كبير، على رأس قوة من الضباط الصغار أمثال عدنان حمدون شقيق مصطفى. لكن، عندما سمع أفراد هذه القوة بالعصيان في حلب بادر ضابطان صغيران إلى السيطرة على القوة العسكرية الموجودة في السويداء التي كان من المقرر أن يقودها رسمي القدسي، وأوقفوا المجزرة وأفشلوا الخطة. أعود إلى تجربتي في العمل السري. إن تجربة العمل السري تحدث عنها أكرم حوراني في مذكراته لكنه لم يأت على ذكر هذه التجربة في مدينة دمشق، لأنني لم أكن من أنصاره، فأبرز دور من كان من أنصاره في المحافظات وأغفل دمشق. وهو اتهمني بأنني من أنصار ميشال عفلق، وهذا

ابنه اسماً مركباً هو "إيان أديب كوبلاند"، لأن أديب الشيشكلي نقل زوجة كوبلاند بنفسه إلى المستشفى حينما جاءها المخاض. وقد اغتيل الشيشكلي في منطقة غويانا أنابوليس في البرازيل في ١٩٦٤/٩/٢٧ على يد نواف غزالة وهو أحد أبناء محافظة السويداء.

صحيح في تلك الفترة. وفي مذكراته ذكر حكاية اعتقالي. أنا اعتقلت في أيام الشيشكلي أربع مرات، بينها مرتان تلقيت فيهما تعذيبا جسديا وتعذيبا نفسيا متواصلا، وبقي التنظيم السري الذي كنت مسؤولا عنه يعمل كالساعة السويسرية، فلم تتمكن المخابرات من انتزاع أي معلومة مني.

- **كم كان عدد أعضاء التنظيم السري في دمشق؟**

– بدأ التنظيم باثني عشر عضوا ثم ازداد إلى أربع وعشرين.

- **إنه عدد محدود جدا في أي حال.**

– نعم. لكنه فاعل جدا. الخلايا الصغيرة توزع المنشورات والشائعات وتستقصي الأخبار وتجمع التبرعات. كنا نعمـــل كالسمك في الماء، أي كالنواة الصلبة في بيئة صديقة. إن إسقاط عهد الشيشكلي جرى من خلال النشاط السياسي العلني والمظاهرات الطالبية في المدارس وفي الجامعة خصوصاً. ذلك كله أسقط هيبة الشيشكلي أولاً، تمهيدا لسقوطه الأخير لاحقاً. ولست مبالغا في القول إن الدور الرئيسي في إسقاط الشيشكلي كان لحزب البعث. حتى سلطان الأطرش، مع ما يمتلك من هيبة بين الدروز، كان مع حزب البعث وليس مع العائلة الأتاسية أو مع حزب الشعب والحزب الوطني. إن اثنين من أبناء سلطان الأطرش كانا بعثيين، هما منصور وناصر. وربما بسبب انتماء ابنيه إلى الحزب، فضلا عن صلتنا نحن به ومواقفه الشريفة الدائمة ضد الأجنبي وضد اضطهاد الشعب، ذلك كله جعل سلطان الأطرش يدعم البعث. وعندما عُقد مؤتمر المعارضة في حمص كان جلال السيد في السجن، ولم يخرجه الضباط الانقلابيون الجدد من سجنه، فاعتقدَ أن عدم

إخراجه مؤامرة من بعض ضباط الجيش الذين يرغبون في منعه من الذهاب إلى حمص، ولأن ميشال عفلق وصلاح البيطار لا يفقهان كثيرا في السياسة. وقد تأخر إطلاقنا نحن أيضاً من السجن ٤٨ ساعة حتى انتهاء مقاومة أنصار الشيشكلي. والحقيقة أنهم لم يخرجوننا من السجن بل فتحنا الباب ونزلنا من طريق الجبل حتى الشارع الرئيسي.

- **كنتم في سجن المزة؟**

– نعم، في سجن المزة*. وفي تلك الليلة توزعنا على عدة بيوت، منها منازل معروفة لنا في باب المصلّى وفي بيت خالي في القصاع، لأننا خشينا أن يعود عبد الحق شحادة ويعتقلنا مجددا في بيوتنا. لهذا لم ننم في بيوتنا تلك الليلة. وفي أثر هذه الأحداث اكتشف جلال السيد ضعف الموقف الحزبي، فالحزب نفذ العملية الانقلابية ولم يتمكن من المشاركة في الحكم الجديد. وعندما أدرك الجميع أنها كانت غلطة هائلة، بدأوا يمارسون ضغطا شعبيا وعسكريا على الحكم الجديد إلى أن تغيرت الوزارة وجاءت وزارة جديدة لتشرف على تنظيم انتخابات حيادية. وبالفعل كانت هذه الانتخابات أول انتخابات نظيفة في سورية.

- **في أي سنة حدث ذلك؟**

---

* واحد من أشهر السجون في العالم العربي. واكتسب شهرته من كثرة رجال السياسة الذين اعتقلوا فيه أمثال شكري القوتلي وناظم القدسي وأمين الحافظ ونور الدين الأتاسي وحافظ الأسد وأكرم الحوراني وجاسم علوان وعبد الحميد السراج وصلاح جديد. وهذا السجن بناه الفرنسيون كسجن للعسكريين الفرنسيين وجنود جيش الشرق. لكن حسني الزعيم حوّله إلى معتقل سياسي. وقد أقفل نهائياً في سنة ١٩٩٨.

- في سنة ١٩٥٤.

- **أي بعد سقوط الشيشكلي فورا؟**

- سقط في آذار ١٩٥٤، وجرت الانتخابات في أواخر الصيف. لا يوجد اثنان يختلفان على أن الذي أسقط عهد الشيشكلي هو حزب البعث. لكن الحزب لم يكن مهيئاً لتولي الحكم. لذلك تقدم الآخرون وقطفوا الثمار.

- **من هم جماعة العراق في تلك الفترة؟**

- صبري العسلي ومعروف الدواليبي ورشدي الكيخيا وناظم القدسي وغيرهم. وهذه الأسماء ظهرت كلها في محاكمات المهداوي في العراق.

- **بعد سقوط الشيشكلي بدأ العصر الذهبي لحزب البعث في سورية. وفي هذه الفترة بدأت فروع الحزب تتكون أو تقوى خارج سورية: في لبنان والأردن وفلسطين والعراق واليمن. هل تتذكر تلك الفترة؟**

- لا أتذكر مثل هذه الأمور بتاتاً. أعني فروع الحزب خارج سورية، لأنني بدأت نضالي التنظيمي في حزب البعث إبان عهد الشيشكلي. قبل ذلك كنت طالبا يساهم في الإضرابات ويتولى بعض المهمات الحزبية. في ما بعد كلفت بتأسيس التنظيم السري. وعلمني صلاح البيطار، إبّان مرحلة حل الحزب، كيف يجب أن يبنى التنظيم السري على أساس خلايا لا تعرف الواحدة الأخرى.

- **تنظيم عنقودي.**

- عنقودي، ورأسه يجب أن يكون موصولاً بآخر حتى إذا أمسكت المخابرات بالثاني يستطيع الأول أن يهرب. المهم أن أول شخص عينوه ليكون مسؤولا عني هو جلال فاروق الشريف. سلمني جلال فاروق الشريف المهمات، وتمكنت أن أجمع اثني عشر عضوا.

- **هل تتذكر أسماءهم الآن ؟**

- لا. واحد فقط كان نائبي في التنظيم السري اسمه خيري الشالاتي الذي أصبح ناصريا في ما بعد، وانتخب نائبا في مجلس الأمة. والبقية كانت من الطلبة، وأكثرهم هاجر إما للدراسة في الخارج وظلوا في المهاجر، أو لضيق ذات اليد. وهؤلاء، بعد حل الحزب، لم يتابعوا نضالهم ولم يحترفوا السياسة. في أي حال تمكنت من تأليف أربع خلايا من اثني عشر شابا. وعندما ازداد عدد أعضاء التنظيم السري صار عدد الخلايا ثمانية.

- **أي أن الخلية الواحدة تضم ٣ عناصر؟**

- نعم. في السنة الأولى كنا أربع خلايا، ١٢ شابا وخيري الشالاتي وأنا، أي ١٤ شخصا. في السنة الثانية صار عددنا ٢٦ وانقسمنا إلى ثماني خلايا. في بداية عهد الشيشكلي، قبل أن يبادر إلى حل المجلس النيابي والأحزاب، كان الشيشكلي يتفاوض مع حزب البعث، ويلتقي أكرم الحوراني وميشال عفلق وصلاح البيطار في منزله. وبعد عدة اجتماعات يئس الثلاثة من الشيشكلي، فبادروا إلى إتمام دمج الحزبين أي دمج حزب البعث العربي والحزب العربي الاشتراكي. هنا سارع الشيشكلي إلى انتهاج الدكتاتورية، وبالتحديد عندما أيقن أن الدمج صار نهائيا. فهذا الإجراء مسألة "حموية" وحماة هي قاعدة الشيشكلي، فهو من مدينة

حماة أيضا. ارتعب الشيشكلي من عملية الدمج، وصار الحزب الجديد يمتلك قاعدة كبيرة بين الضباط البعثيين وبعض الضباط الحوارنة مثل أحمد عبد الكريم الذي كان، في الأصل، بعثيا. وكان هناك أيضا عدنان المالكي، وهو غير بعثي لكنه قريب من البعث. واستباقا لأي تحرك مضاد من الضباط البعثيين والقريبين منهم في الخط السياسي بادر الشيشكلي إلى اعتقال عدد من الضباط وتسريح آخرين بذريعة اكتشافه مؤامرة كان يعد لها حزب البعث. وأراد اعتقال عفلق والحوراني والبيطار، فقد خاف من بقائهم أحرارا. لكنه فشل في اعتقالهم بعدما اختبأوا في دمشق أولا ثم تسللوا إلى لبنان*.

- **من هم الذين هربوا غير هؤلاء الفرسان الثلاثة؟**

- شبلي العيسمي، وهو من المؤسسين لحزب البعث، وهو رجل نظيف وجدّي وشجاع وعاقل وذكي. خبأه التنظيم السري في البداية. ثم قمت بنفسي بتأمين وسيلة لتهريبه إلى لبنان بمساعدة أقاربي. وأمكننا تهريبه عن طريق دير العشاير – حلوة حتى منزل آل الداود. وآل الداود أصهار منصور الأطرش وسلطان الأطرش. وقد التحق العيسمي بالأساتذة الثلاثة في بيروت. لكن، بعد فترة، كلف بالعودة إلى دمشق ليتولى القيادة المركزية للحزب**.

---

* في ١٩٥١/١٢/٢ ألغى الشيشكلي البرلمان، وفي ١٩٥٢/١/٢٦ أغلق جريدة "البعث" وتحول الحزب إلى العمل السري.

** ولد شبلي العيسمي في سنة ١٩٢٤ في قرية "إمتان" في محافظة السويداء، وانضم مبكراً إلى حزب البعث، وهو يعد من جيل المؤسسين. عين وزيراً للاصلاح الزراعي في أول حكومة لحزب البعث في سورية في ١٩٦٣/٣/٩. وبعد حركة ٢٣ شباط ١٩٦٦ حكم بالاعدام، وفر إلى بغداد، وأصبح الأمين العام المساعد لحزب البعث. وبعد سقوط بغداد في ٢٠٠٣/٤/٩ غادرها إلى القاهرة.

وقمت أنا شخصيا بتأمين مخبأ له في دمشق لا يعرفه أحد. وكان في هـذا المخبـأ أحد البعثيين الأساسيين من غير أعضاء التنظيم السري، وغير مكشوف للأجهـزة الأمنية في دمشق، اسمه نايف جربوع من جبل العرب.

- **الذي صار وزيراً؟**

- كان نائباً قبل ذلك، فهو انتخب في العهد الديمقراطي نائبا عن السـويداء. المهم، أن العيسمي سـكن مع نايف جربوع في بيت إمـرأة شامية لا علاقة لهـا بالسياسة أو بالحزب. ومنذ ذاك الوقت انقطعت صلة جـلال فـاروق الشـريف بالتنظيم السري. كانت مهمات التنظيم السري توزيع البيانـات والمناشـير وبـث الشائعات وجمع الأخبار وجمع التبرعات والاشتراكات وإرسال ذلـك كلـه إلـى القيادة. وكل عضو في التنظيم السري عليه ألا يظهر على أنه رجل حزبـي. فـي المرحلة الثانية عندما توسع التنظيم السري، جاءتنا من بيروت قنابل صوتية مثـل تلك التي يستخدمها صيادو السمك. وصرنا نجهز إلـى جانـب المناشـير القنابـل الصوتية، وأنا بنفسي سافرت إلى بيروت وتدربت على تصنيعها، وصرتُ أصنعها في دمشق.

- **هل كنتم ترمونها في الأحياء؟**

- كنا نرميها في الأماكن التي تسبب الإزعاج الشديد للشيشكلي مثل مكاتـب حركة التحرير العربي ورئاسة الأركان ومديرية الشرطة العسكرية. وكنا نحـرص على ألا تسبب هذه القنابل أي أذى للأفراد. رمينا عشرين قنبلة ولـم تتسـبب أي واحدة في الإيذاء. وفي آخر عهد الشيشكلي أرسل التنظيم السري إنذارا إلى مـدير

الشرطة جاء فيه أنه إذا لم يفرج عن المعتقلين فسنضرب المديريــة بالقنابــل. لــم يصدق مدير الشــرطة. لكن لم يطل الأمر حتى دوى انفجار كبير فــي المديريــة، فأصيب بالرعب هو والضباط والجنود، وظلوا إلى فتــرة لا يعرفــون أيــن وقــع الانفجار، وبالطبع لم تنجم عنه أي أضرار. إحزر ماذا جرى؟ قام أعضاء التنظــيم السري المكلفون بهذه العملية باحتساب سرعة جريان مياه نهر بردى الذي يمر إلى جانب مقر مديرية الشرطة.

- **وضعوها إذن في مجرى النهر.**

- قاموا بعدة تجارب، وحسبوا لو أنهم وضعوها عنــد جســر الحريــة كــم ستستغرق من الوقت لتنفجر قرب مركز الشرطة.

- **أين كانت مديرية الشرطة في ذلك الوقت؟**

- قبل ساحة المرجة بقليل.

- **في مكان وزارة الداخلية اليوم.**

- نعم. وانفجرت القنبلة في النهر. وإلى أن اكتشف رجال الشرطة مكان الانفجار عاش قائد الشرطة وضباطه حالة من الرعب والارتباك لا يُحسد عليها. وفي إحدى المرات وضعنا القنبلة على فرع إحدى الأشجار بالقرب من منزل الشيشكلي. تحطم فرع الشجرة، لكن لم يكتشف أحد كيف ألقيت هذه القنبلة ومن أي مسافة. كان من مهمات التنظيم السري أيضا، إرسال التبرعات التي تجمع لمصلحة

الأساتذة الثلاثة في بيروت. فكنا نرسل إليهم الأموال حتى يتمكنوا من دفع الإيجار والإنفاق على الطعام والشراب. وكانت المنشورات تأتينا مطبوعة من بيروت، وكان أكرم الحوراني هو الذي يتولى مهمة إيصالها إلى حماة ومنها إلى حمص وكانت تصلني من حمص مع رجل اسمه نزار الأتاسي، وهذا الرجل هو الوحيد اليساري في آل الأتاسي. ربما الآن هناك يساري آخر هو ابن نور الدين الأتاسي.

- **تقصد محمد علي الأتاسي.**

- نعم. ألاحظ من كتاباته أنه تقدمي فعلاً. أما نزار الأتاسي فقد كان محاميا يتردد على قصر العدل في دمشق بحكم مهنته. ومثل بقية المحامين يحمل حقيبة المحاماة كالعادة، ولا أحد يفتشه. وبنتيجة الاتصال السري كنا نتواعد على اللقاء في مقهى الهافانا، فنشرب القهوة أمام الناس، وأحضر معي حقيبة شبيهة بحقيبة المحامي تماما، ثم نتبادل الحقيبتين ونفترق.

- **تتبادلان الحقائب على طريقة تجار المخدرات في الأفلام السينمائية.**

- بالفعل، كنت آخذ حقيبة المناشير وهو يأخذ مني الحقيبة الفارغة.

- **من كان مدير الشعبة الثانية في تلك الأثناء؟**

- تبدل أكثر من شخص في هذه الشعبة.

- **أقصد في فترة العمل السري.**

- سامي جمعة مثلا وبرهان أدهم من الأسماء التي أتذكرها، لكني لا أعرف أو لا أذكر أسماء رؤساء الشعبة الثانية. أما أشهر من اشتغل في المخـــابرات ثــم صار مديرا للشرطة في عهد الشيشكلي فهو إبراهيم الحســيني، وحــاول إبــراهيم الحسيني أن يكتسب شعبية في دمشق. وفي إحدى المرات اعتقل المئات من طلاب جامعة دمشق. وفي آخر النهار أصدر أوامره بإخراج جميع الطلاب الشوام وإبقــاء أبناء المحافظات*.

- **أدمشقي هو؟**

- نعم، دمشقي. ومن ذكرياتي في هذه الفترة أنني كنت في إحــدى المــرات أهم بإشعال فتيل قنبلة بالقرب من أحد مكاتب حركة التحرير العربي فــي ســاحة النجمة. ومر في تلك اللحظات شاب شك، على الأرجح، في أنني لص. فقام بإقفال

---

* المقدم ابراهيم الحسيني من أخطر ضباط المخابرات في سوريــة. يقول عنــه مصــطفى طلاس في "مرآة حياتي" (ص ١٢٨) انه يهودي الأصل، وهو من آل سلمان فــي عكــا. وهذه العائلة كانت يهودية قبل إسلامها. وشقيقه عصام حكم بجريمة تجسس. أما هو فقتل بحادثة سيارة في السعودية. ويضيف سامي جمعة أن إبراهيم الحسيني كان صلة الوصــل بين حسني الزعيم وموشيه شاريت. ويقول مطيع السمان في كتابه "وطــن وعســكر" ان العقيد محمد ناصر قبل أن يلفظ أنفاسه بعد اغتياله في "الربوة" كتب بخط يده اسمي اللذين اغتالاه وهما: المقدم إبراهيم الحسيني والملازم عبد الغني قنوت. وبرز من بــين ضــباط الشعبة الثانية، ولا سيما في البطش، عبد الوهاب الخطيب وعبده حكيم وطلعــت صــدقي (وكان جيد السلوك). أما قادة الشعبة الثانية فهم علــى الترتيــب: العقيــد ســعيد حبــي (المؤسس)، المقدم جميل رمضان، المقدم محمود الرفاعي، المقدم محمود شطرا، مطيــع الجابي، مصطفى رام حمداني، المقدم بديع بشور، المقدم عبد الحميد السراج... إلخ.

الباب الحديد من الخارج، وبادرني بالسؤال: ماذا تفعل هنا؟ فارتعبت، وظننته من رجال الأمن، ثم قلت له: إنني أبحث عن منزل الدكتور شنيارة الذي يسكن إما في هذا المبنى أو في المبنى التالي، وكنت أشعل عود الثقاب لأتمكن من رؤية أسماء السكان على لوحة الجرس، وحتى لا أقرع أحد الأجراس بالخطأ. عندها تغيرت ملامحه وقال لي: بيت الدكتور شنيارة هنا. لكن أنت من تكون؟ فأجبته: لماذا تسأل مثل هذا السؤال؟ أنا طالب جامعة وأحد أقاربي لديه مشكلة في عينه. وخوفا من أن يمتد الجدال طويلا، وأنا أحمل قنبلة لا لعبة، أخرجت بطاقتي الجامعية وعرضتها عليه. وعندما رأى البطاقة التي كانت لها قيمة كبيرة في تلك الأيام، قال لي: معذرة، ثم غادر المكان. وحتى أكمل حيلتي صعدت إلى سطح البناية ووضعت القنبلة غير المشتعلة على السطح. ثم هبطت الأدراج وذهبت للقاء رفاقي وأخبرتهم أنني لم أتمكن من إشعال فتيل القنبلة. ولو أنني عدت وأشعلته بعد ذهاب الشاب الذي شك فيّ وانفجرت القنبلة، فعلى الأرجح سيتذكر الشاب اسمي وسيلقى القبض علي. فقال لي شبلي العيسمي: "بسيطة"، الآن نخرج معا في نزهة ونصعد إلى سطح المبنى ونستعيد القنبلة ونؤجل العملية إلى توقيت آخر.

- **أكان شبلي العيسمي مسؤولا عن التنظيم السري؟**

- لا، أنا كنت المسؤول عنه. كانت مهمة العيسمي القيادة المركزية لكل سورية. ومن هنا صلة تنظيم دمشق به عن طريقي*. الخلاصة، أننا ذهبنا إلى

---

* يقول مصطفى طلاس في كتابه "مرآة حياتي" (الجزء الأول، ص ٣٥٩) إن شبلي العيسمي كان القائد السري للمقاومة البعثية في دمشق، ولهذا اعتقل في ١٩٥٣/١٢/٢٧.

ساحة النجمة وصعد أحدنا إلى السطح وأحضر القنبلة. وزيادة في الحذر أرسلوني إلى بيروت لأقابل الأساتذة وأسلمهم الأموال التي جمعناها، ولأنقل إليهم صورة عن الأوضاع. أما المهمة "العسكرية" فجرى تكليف أحد الرفاق بتنفيذها ولكن في مكان آخر هو منزل الشيشكلي في منطقة السبع بحرات. وخوفا من أن يظهر اسمي في التحقيقات، أصروا على أن أبقى في بيروت عدة أيام حتى يتأكدوا من أن اسمي لم يرد في التحقيق. وهكذا بقيت خمسة أيام، حظيت منها بصورة مع ميشال عفلق وصورة أخرى مع محيي الدين البرازي الحارس الشخصي لأكرم الحوراني الذي علمني صنع القنابل الصوتية.

- **ألم يكن فرع لبنان في حزب البعث يساعد الأساتذة الثلاثة ماليا؟ كيف كانوا يعيشون في بيروت؟**

- في تلك الفترة، كان في لبنان بعثي لامع هو الدكتور علي جابر.

- **من الرعيل الأول كان جبران مجدلاني؟**

- لم يكن جبران مجدلاني من الرعيل الأول. جبران مجدلاني بدأ في جمعية الشبيبة الأرثوذكسية* ثم انتقل إلى الحزب التقدمي الاشتراكي ثم اقترب هو وكلوفيس مقصود من ميشال عفلق، وكان عفلق لا يرغب في أن يتركا الحزب التقدمي الاشتراكي ويلتحقا بحزب البعث.

---

* ظهرت في لبنان سنة ١٩٤١، وكان من المؤسسين اغناطيوس هزيم (البطريرك الارثوذكسي لاحقاً) وألبير لحام والأب الياس مرقص وجبرائيل سعادة وجورج خضر (المطران في ما بعد).

- **لماذا؟**

- كان عفلق يحاول أن يقيم صلة شخصية بهما من غير أن يضمهما إلى حزبه. وحجته أنهما لا يستحقان أن يكونا عضوين في الحزب، فليبقيا إذن من الأنصار ولكن في حزب آخر. ومثال آخر آل الفرزلي. كان الحزبي العريق بينهم الذي وصل إلى موقع القيادة القومية هو نقولا الفرزلي. لكن الأكثر فاعلية والذي يفوق بنشاطه نقولا بخمس عشرة مرة هو الياس الفرزلي الأخ الأكبر لنقولا، وهو الذي أوجد له في البقاع زعامة حقيقية، وكاد أن ينجح في الانتخابات النيابية. وهو لم يقسم اليمين الحزبية مطلقا مع أن عفلق كان يكلفه بالكثير من المهمات الأساسية في الحزب.

- **ألم يكن عضوا رسميا في حزب البعث؟**

- لا أبداً. لم يكن ولم يصبح عضواً في الحزب بالمعنى الرسمي للعضوية. لقد بدأ حياته مكافحا، وكان مثلك يشغل أكثر من وظيفة في الإذاعة والصحافة والتعليم. إلى أن تفرغ للمحاماة والأعمال وخدمة الناس والدفاع عنهم. وعندما ترشح للانتخابات النيابية في العام ١٩٧٢ خسر بفارق ٥٠٠ صوت فقط، لأنه لم يتعاون مع أي جهة ذات نفوذ، واعتمد على محبة الناس. ثم أخرجته الحرب اللبنانية من أرضه وبلده، فتزعزع وسار خلف السراب العفلقي في بغداد، وسقط في تلك السبخة القذرة، ولكنه عاد الآن إلى بلده وإلى الناس، بعدما رجع إلى لبنان في سنة ٢٠٠٤.

- **في هذه الفترة بدأ تأسيس فروع لحـزب البعـث فـي لبنـان والأردن والعراق. كيف جرى تأسيس فرع الأردن مثلا؟**

- الطلاب هم الذين أسسوا الفروع. علي جابر مثلا درس الطب في دمشـق، ولما عاد إلى لبنان بدأ في تأسيس فرع الحزب في لبنان.

- **في الأردن كان عبد الله الريماوي؟**

- لا، عبد الله الريماوي جاء في ما بعد. أمين شقير هو الأول ثم بعده جمال الشاعر ومنيف الرزاز. أما عبد الله الريماوي فالتحق بالحزب بعدهم.

- **وبهجت أبو غربية؟**

- أبو غربية وعبد الله نعواس في الفترة نفسها*.

- **يحكى في مصر عن انتماء عصمت سيف الدولة وأحمد عبـد المعطـي حجازي ورجاء النقاش إلى حزب البعث، ما صلتهم الحقيقية بالبعث؟**

- لي صديق من البعثيين الأوائل، وهو كان عضوا في التنظيم السري، ثـم سافر إلى مصر للدراسة، وكان مسؤولا عن فرقة حزبية في مصر، واستقطب إلى صفوف الحزب مصريين من المسلمين والأقباط، وتعرف إلى جمال عبد الناصـر وهو الذي ناقشه عبد الناصر في موضوع البعث والقومية العربية وكيـف يكـون

---

* انضم بهجت أبو غربية إلى حزب البعث في أواسط تموز ١٩٤٩.

رئيس هذا الحزب مسيحيا. فأجابه: يا عمي أنا أسكن في حي الميدان إلى جوار ميشال عفلق، وأصلي من حوران أي من المسلمين السنّة. وعفلق لدينا مواطن لا فارق بينه وبين المسلمين إطلاقا ولم تدخل هذه الفكرة إلى عقل عبد الناصر.

- **من هو هذا الشخص؟**

- سليم حبي الذي صار مهندسا كهربائيا وربما كان ابن شقيق الضابط المشهور سعيد حبي*.

- **لكن من هم البعثيون المصريون؟**

- عصمت سيف الدولة ظل حتى أوائل الثمانينات على صلة بميشال عفلق وصلاح البيطار، ويردد أمام البعثيين أنه منهم وفيهم.

- **وفي البحرين؟**

- علي فخرو. وعلي فخرو كان بعثيا ولم يكن من حركة القوميين العرب كما شاع عنه. وفي ليبيا كان منصور الكيخيا بعثيا أيضا**.

---

* وصل إلى رتبة عميد. وهو مؤسس شعبة الاستخبارات في الجيش السوري (الشعبة الثانية).

** ولد علي فخرو في البحرين سنة ١٩٣٢، وتخرج طبيباً في الجامعة الأميركية في بيروت سنة ١٩٥٨، وأصبح وزيراً للصحة في البحرين سنة ١٩٧١، ثم وزيراً للتربية والتعليم

• **إنه وزير الخارجية الليبي السابق الذي اختفى في القاهرة.**

- في تونس كان عمر السحيمي* الذي اغتيل في بيروت. وكان هناك صديق للحزب اسمه محمد بن صالح الذي درس في دمشق وكان صديقا للحزب، لكنه لم يصبح حزبيا بصورة رسمية. وهو شقيق أحمد بن صالح.

• **حسناً. أنت كمسؤول عن التنظيم السري، كيف اعتقلت؟ وكيف تتذكر الحادثة؟**

- اعتقلت أربع مرات في أيام الشيشكلي والمرات الثلاث الأُول وقعت حينما كنت طالبا في الجامعة. المرة الأولى كُشفت فيها قصة القنابل واعترف منصور الأطرش للضابط عبد الحق شحادة ببعض المعلومات. وحصلت هذه الحادثة في منزل عمه زيد الأطرش، وكنت هاربا وقتذاك. لكنهم طلبوا من منصور الأطرش أن يهاتفني ويقنعني بتسليم نفسي.

• **لماذا اعترف منصور الأطرش؟ هل عذبوه؟**

سنة ١٩٨٢. أما منصور الكيخيا فقد ولد في بنغازي سنة ١٩٣١، وهو من أصل سوري. وزوجته بهاء العمري سوريّة. عين وزيراً للخارجية الليبية سنة ١٩٧٢. واستقال من جميع مسؤولياته سنة ١٩٨٠ وانضم إلى المعارضة. اختفى في القاهرة في ١٠/١٢/١٩٩٣.

* ولد في سنة ١٩٤٠، وانضم إلى حزب البعث سنة ١٩٦١ في جامعة القاهرة، وأصبح مسؤولاً عن مكتب المغرب العربي في حزب البعث، وأحد مسؤولي جبهة التحرير العربية. اغتيل في بيروت في تشرين الثاني ١٩٧١.

- القصة فيها تفصيلات كثيرة، وخلاصتها أن رجال المخـابرات أحضـروا منصور الأطرش إلى منزل عمه زيد الأطـرش بلباقة وكـرامة. وأحضروا إليـه شخصا من رفاقنا*. وهذا الشخص هو الذي اعترف ببعض الوقائع تحت التعـذيب. لقد صمد ثلاثة أيام متتالية واعتقد المسكين أننا هربنا في هذه الأثناء. لكننا نحن كنا سذجاً ولم نكن قد أتقنا الصنعة بعد، فاعتقلنا الواحد تلو الآخر: منصـور الأطـرش وشبلي العيسمي وناصر الأطرش وكنت أنا الأخير. ومع ذلك تعرضـت لتعـذيب حقيقي على يدي رقيب في الشرطة العسكرية اسمه إسماعيل الشيشكلي. بعد ذلـك رموني في سجن المزة إلى أن أصدر الشيشكلي، وكان رئيسا للجمهوريـة، عفـوا وخرجنا جميعا. المرة الثانية أمضيت فترة أطول في السجن وفاتني امتحان السـنة الثانية في كلية الحقوق، فرسبت. وقبل ذلك في عهد حسني الزعيم خسـرت سـنة دراسية قبل صف البكالوريا. في أواخر عهد الشيشكلي ألقوا القبض على كل مـن هو بعثي. المئات اعتقلوا في دمشق، ولم يكن أي واحد يعرف شيئا عـن التنظـيم السري غيري. وتعرض الكثيرون للتعذيب لكنهم ما كانوا يعرفون شـيئا بالفعـل، واعتبروني مثل بقية البعثيين لا أعرف شيئاً. وهنـاك حادثة طريفة حدثت لي فـي الاعتقال الأول. لقد خاف جلال فاروق الشريف أن أنهار في أثناء التحقيق قبـل أن يتمكن من الاختباء. وكان شديد الاضطراب لأنه معلم والامتحانات بـدأت وكـان عضوا في لجنة التصحيح. وفي هذه اللجنة أيضا كانت أختي. وعندما فُتحت سـيرة السجون في أحد الأيام انفجرت أختي بالبكاء ولم تستطع السكوت. وانتظـر جـلال فاروق الشريف أول مناسبة لا يكون فيها أحد من أعضاء لجنة التصحيح وقال لها: أشكري ربك أن أخاك هو المعتقل وليس غيره. فوجئت أختي بكلامه، بل صدمت. فقال لها: ستفهمين ما أقصد في ما بعد. وقد ذكرت لي هذا الحديث في مـا بعـد،

---

* القصة مذكورة في مذكرات أكرم الحوراني لأن الشخص الذي اعترف كان حموياً ومـن محازبي أكرم الحوراني.

وكان جلال فارق الشريف شرح لها مغزى كلامه عندما سقط الشيشكلي قائلا: بعد اعتقال نبيل الشويري لم يلقَ القبض على أحد بعده. ولو كان غيره هو من اعتقل أولاً لكان اعترف عن الجميع، وفي جملتهم هو، أي جلال فاروق الشريف.

- **في تلك الفترة كانت هناك قوتان سياسيتان مهمتان في سورية: القوميون السوريون والشيوعيون.**

– نعم، لكن فاتني أن أقول لك أن القوميين السوريين لم ينضموا إلى الجبهة الوطنية التي كان يقودها حزب البعث لأنهم كانوا مع الشيشكلي قلبا وقالبا، وكانوا يعتبرونه منهم وفيهم. لكن الشيشكلي كان يخدعهم.

- **صلاح الشيشكلي شقيق أديب الشيشكلي كان سورياً قومياً.**

– نعم، كان من أصدقائي في جامعة دمشق أحد القوميين السوريين اسمه نعمة حمادة*، وهو محام معروف في لبنان. وعندما كنا نناقشهم في الموقف من الشيشكلي، وننتقد تأييدهم للدكتاتورية، كانوا يجيبوننا بكل صراحة: هل أنتم أحسن منه؟ إنه، على الأقل، يعمل لمصلحة حزبنا ونحن بهذه الطريقة ننتشر في الجيش وفي المجتمع. ولهذا كرهتهم بعض الفئات السياسية في سورية. أما الشيوعيون فلم يهادنهم الشيشكلي طيلة عمره، بل كان يناوئهم ويضطهدهم. وعندما أتى جون فوستر دالاس إلى دمشق لم يذعن الشيشكلي للمطالب الأميركية. لكنه عندما نظم انتخابات نيابية في ظل معارضة الجبهة الوطنية التي ضمت آنذاك الحزب

---

* توفي في أيار ٢٠٠٥ وهو شقيق الوزير اللبناني طراد حمادة.

الوطني وحزب الشعب وحزب البعث والإخوان المسلمين وزعماء سورية التقليديين وزعيم جبل العرب والثورة السورية سلطان الأطرش الذي قرئت رسالته إلى مؤتمر المعارضة في حمص* فضلا عن خطبة هاشم الأتاسي الذي ترأس المؤتمر، جاء – أي الشيشكلي – بنواب وصوليين وانتهازيين ومتسلقين، وجميعهم من الموظفين. كان شكري القوتلي وجميل مردم خارج سورية. فارس الخوري كان في دمشق لكنه استنكف عن التعاون مع الشيشكلي الذي أصر على إجراء الانتخابات، فأعلنت الجبهة الوطنية والأحزاب كلها مقاطعتها الانتخابات، ولم يشارك فيها إلا حزب الدولة أي حركة التحرير. ومن هذه الحركة صنع الشيشكلي المجلس النيابي السوري آنذاك، فضلا عن عدد من الأشخاص الذين انتقاهم من الزعماء التقليديين الذين قبلوا التعاون معه وكانوا جميعهم تافهين، لأن الزعماء الأساسيين في سورية أيدوا الجبهة الوطنية المعارضة بينما الحزب السوري القومي الاجتماعي تحالف مع الشيشكلي. أما الحزب الشيوعي فقد شارك في الانتخابات لكن لم يترشح لها خالد بكداش، لأنه كان متخفيا في ذلك الوقت، والحزب الشيوعي كله عبارة عن تنظيم سري. أنا بنفسي تفاوضت مع الشيوعيين رسميا، وبعثوا لي رسالة تتضمن اقتراحا بتنسيق الجهد المشترك في حي القصاع الذي يمتلكون فيه قوة أكبر من قوتنا بكثير، وكانوا يناضلون معنا ضد الشيشكلي. وفجأة انخرطوا في الانتخابات التي لم يقترع فيها إلا ٥% فقط. الدولة بجبروتها ومعها حركة التحرير والحزب السوري القومي لم يتمكنوا من حشد إلا ٥% من الناخبين. وعندما عاد صلاح البيطار من روما التي التقى فيها الكثير من الشيوعيين والاشتراكيين، وجاء بعض الشيوعيين للسلام عليه، راح يقرأ عليهم بعض الأدبيات

---

* عقد هذا المؤتمر الذي أطاح الشيشكلي في ١٩٥٣/٧/٤.

الشيوعية التي تدين موقفهم من دكتاتورية الشيشكلي، واستشهد بالمواقف اللينينيـــة، وسرد على أسماعهم متى كان لينين يشارك في انتخابات الدوما ومتى يُقاطع.

- **بعد سقوط الشيشكلي تألفت حكومة مدنية من دون حزب البعث. وعلـــى الصعيد الحزبي استقال جلال السيد من الحزب في سنة ١٩٥٥. كيف تتحدث عن تلك المرحلة؟**

– عندما اجتمعت المعارضة في مؤتمر حمص للتـــداول فـــي البـــديل مـــن الشيشكلي، كنا نحن في سجن المزة ومعنا جلال السيد. أما ميشال عفلق وصـــلاح البيطار وأكرم الحوراني فكانوا في المستشفى العســكري التـــابع لســـجن المـــزة ويعاملون كالمرضى. جاء شوكت شقير الذي كان رئيسا للأركـــان إلـــى حمـــص وهرب الشيشكلي إلى لبنان. كان قائد الشرطة العسكرية عبد الحق شحادة، وعبـــد الحق شحادة هذا هو المسؤول المباشر عن مقتل مجيـــب المرشـــد ابـــن ســـليمان المرشد*.

---

* سليمان المرشد رجل مقدس لدى أتباعه. ولد في سنة ١٩٠٧ في قرية "جوبة برغال". وفي سنة ١٩٢٣ راح يبشر بقرب ظهور المهدي المنتظر، فتجاوب معه الكثيـــرون. وخافـــت السلطات الفرنسية هذه الظاهرة ولا سيما أنه حاول تأليف مجموعات مسلحة رغبت فـــي التعاون مع جماعات عمر البيطار في مقاومة الانتداب الفرنسي، فاعتقل ونفي إلى الرقة. وفي ١٩٢٧/٩/٣٠ انتهت فترة النفي وعاد إلى قريته، وصارت له شعبية كبيرة. وتمكن، في ما بعد، من فرض سيطرته على شركة حصر التبغ والتنباك الفرنسية، وتخاصم مـــع زعماء العائلات المتنفذة مثل عائلة شريتح التي انتزع منها أراضي قريـــة "سطامو" فـــي سنة ١٩٣٩ وأعادهـــا إلى الفلاحين. انتخب نائبـــا سنة ١٩٤٣. وفي ١٩٤٥/٢/٢ جاءت قوة من الدرك إلى منزل زوجته هلالة بنت محمود داود حسن (أم فاتح) لاصطحابها إلى

- **ما هي الأسباب التي دفعت عبد الحق شحادة ليقتل مجيب المرشد بمسدسه الشخصي.**

- أوامر من الشيشكلي، ومجيب المرشد أعرفه، فقد تزاملنا في الجامعة، وأهداني كتاب "آلام فارتر".

- **كتاب "غوته" المشهور.**

- نعم، كان رجلا مثقفا وكان زميلي في كلية الحقوق*.

- **هو قتل وأبوه أعدم.**

- أعدم أبوه بتهمة القيام بثورة، أما الابن فلم يقم بأي شيء. بل اغتيل علانية، فقط ليخسر آل المرشد هيبتهم. عبد الحق شحادة كان من الجلاوزة، أي أنه لم يكن مجرد سفاح فقط، وإنما أداة لتعذيب الناس، وكان بعثيا في الأساس.

التحقيق فقابلهم رجالها بالرصاص. وفي ١٩٤٦/٩/١١ هاجمت قوات مسلحة قرية "جوبة برغال"، فتصدت لهم أم فاتح. وعندما أراد المرشد الاستسلام خاف أن يأسر الجنود زوجته ويحققها مئات الدعاوى، فأطلق النار عليها في ١٩٤٦/٩/١٣ واستسلم. وحوكم أمام المجلس العدلي المنعقد في دار الكتب الوطنية في اللاذقية في ١٩٤٦/١١/٢٥، وحكم بالإعدام في ١٩٤٦/١٢/١٠، وشنق في ساحة المرجة بدمشق في ١٩٤٦/١٢/١٦.

* في ١٩٥٢/١١/٢٧ اغتيل مجيب المرشد (صفته الدينية لدى المرشديين "القائم الموعود") في قرية الصير في منطقة الغاب. وتبين أن القاتل هو عبد الحق شحادة قائد الشرطة العسكرية الذي نفذ هذه العملية بأوامر من أديب الشيشكلي.

• **ليس غريبا هذا الأمر.**

- أحمد عبد الكريم كان بعثيا أيضا لكنه سار مع الشيشكلي، وعلى الرغم من ذلك لم تتلوث يداه باضطهاد الناس. حسين حدّة بعثي هو الآخر، وكان قريبا من أكرم الحوراني. عبد الحق شحادة حاصر سجن المزة، لذلك بقينا نحن في السجن بعد أن ذهب قادة الحزب إلى مؤتمر حمص، وأرسل حسين حدّة رسالة إلى أكرم الحوراني يقول له فيها: تفضل واستلم الحكم أنت وحزب البعث. الحكم نسلّمكم إياه أما أنا فلا أستسلم للرجعية. كان جواب أكرم الحوراني ما يلي: لا أنا ولا حزب البعث نستلم الحكم من العسكر، نحن نستلمه من الناس. في هذه الأحوال المضطربة رأى قائد الحامية التي حاصرت سجن المزة أن الشيشكلي انتهى، ونحن المعتقلين سنخرج، وكان بيننا رياض المالكي شقيق عدنان المالكي وجلال السيد ومنصور الأطرش. فقال لمدير السجن: افتح لهم الباب من غير أن تقول انني قلت لك ذلك. فخرجنا وهربنا من حارات المزة إلى دمشق، وتفرقنا إلى المخابىء. في هذه الأثناء كان شوكت شقير مجتمعا في حمص مع المعارضة، بينما هرب الشيشكلي إلى لبنان وأصدر بيانا يعلن فيه أنه تخلى عن الحكم لحقن الدماء.

• **ثم ذهب إلى السعودية.**

- أما شوكت شقير، كرئيس للأركان وتحت ضغط عبد الحق شحادة وحسين حدّة، فقد ترك القوى السياسية الموجودة في دمشق تتصرف إلى إعادة الشرعية إلى المجلس النيابي. وبموجب الدستور صار مأمون الكزبري رئيس المجلس النيابي رئيسا للجمهورية. هنا قام الحزب بتنظيم تظاهرة جماهيرية كبيرة في دمشق وصلت إلى المجلس النيابي، وهدد الناشطون في التظاهرة النواب بالأحذية، فهرب

النواب من المجلس وبينهم مأمون الكزبري. ومن وقع من النواب بأيدي المتظاهرين أشبع ضربا. وعلى الأثر قوي مركز شوكت شقير إزاء عبد الحق شحادة وحسين حدة، فضمن لهما السلامة ووعدهما بإرسالهما ملحقين عسكريين.

وعندما أدرك الحزب خطأ الابتعاد عن الحكم وخشي أن تعود الرجعية لإجراء انتخابات مفبركة بدأ يضغط على الحكم في المجلس النيابي الذي أعيد وألغي حله، بل ألغي عهد الشيشكلي غير الدستوري كله. ولعبت مقدرة جلال السيد وكفاءته البرلمانية دوراً أساسياً، وكذلك ضغط الشارع الذي يسيطر عليه البعث وجوّ الجيش الملائم، وخصوصاً الضباط الأعوان (أي الرتب الصغيرة)، فسقطت حكومة صبري العسلي بعد أن تم الاتفاق على تأليف حكومة حيادية تشرف على الانتخابات.

٥ ـــــــــــــــــ البعث والوحـــدة:
أحـــداث ورجـــال

- **من كان الأبرز بين مناضلي حزب البعث في الفترة التي سبقت الوحدة المصرية ـ السورية؟**

- في ما عدا القيادة الأولى، يمكنني أن أتذكر عبد البرعيون السود المسؤول عن التنظيم السري في حمص. وعبد البرعيون السود من قادة الصف الثاني الذين منحوا الحزب الطابع النضالي في غياب ميشال عفلق وأكرم الحوراني وصلاح البيطار في لبنان. ومن بين قادة الصف الثاني أيضاً عبد الفتاح الزلط في حلب وعبد الكريم زهور في حماة ووهيب الغانم في اللاذقية ومنصور الأطرش في جبل العرب، ومحمد عيد عشاوي ومصلح سالم وإسماعيل عرفة وحسام حيزي في دير الزور. إسماعيل عرفة هو الأهم، وكان جلال السيد يسميهم "الويلاد" أي الأولاد. وهؤلاء هم الذين اختلفوا مع جلال السيد واتهموه بأنه إقطاعي وحدث الافتراق منذ ذلك الزمن.

عبد البرعيون السود كان من القليلين الذين رفضوا أداء القسم الذي فرضه الشيشكلي على موظفي الدولة للتبرؤ من الولاء لأحزابهم، فسرح من وظيفته وهو في أمس الحاجة إليها. وكان من أبرز الناشطين في التحضير لمؤتمر حمص الذي ضم أهم زعماء سورية، وكان من بين الموقعين على بيان الجبهة الوطنية التي انبثقت عن المؤتمر، والذي دعا إلى مقاطعة الانتخابات "الشيشكلية"، وحدد أهداف الجبهة بإبعاد الجيش عن السياسة وإقامة حكم ديمقراطي برلماني جمهوري منبثق من انتخابات حرة ونزيهة. وقد اطلعت على نسخة من البيان المؤرخ في

١٩٥٣/٩/١٧ محفوظة لدى أخيه فوزي. وقد شارك عبد البر في التحضير لعصيان مصطفى حمدون في حلب، الذي قضى على عهد الشيشكلي وأفسح في المجال لتحقيق أهداف الجبهة الوطنية. وكان فوزي عيون السود مديرا للمالية في القامشلي، فغامر بفتح خزانة الدولة وأرسل إلى مصطفى حمدون رواتب العسكريين في حلب، لأن العصيان وقع مصادفة آخر الشهر. ولو بقي الشيشكلي في الحكم لأحيل فوزي عيون السود إلى المحكمة وفقد وظيفته وحكم عليه بالسجن. سامي الجندي شارك في المؤتمر التأسيسي سنة ١٩٤٧ على ما أعتقد. كان من جماعة الأرسوزي مع وهيب الغانم، وفي ما بعد اقترب قليلا من أكرم الحوراني، وترشح للانتخابات النيابية في السلمية ولم ينجح. وبعد حل الحزب في عهد الوحدة تعاطى مع المخابرات الناصرية، وأصبح لاحقا من قادة حركة الوحدويين الاشتراكيين. وكان عبد الكريم الجندي ابن عمه. وقد عاش معظم أيامه وهو يضع رجلا في البور وأخرى في الفلاحة. لكنه برع ككاتب وروائي.

- **لماذا كلف سامي الجندي بتأليف الحكومة في عهد البعث؟**

- كُلّف لأنهم اعتقدوا أنهم بهذه الخطوة يتقربون من القاهرة. ويبعدون، في الوقت نفسه، صلاح البيطار عن الوزارة. كان تكليفه مناورة، مثلما كان تكليف سامي الدروبي مناورة أيضاً.

- **سامي الدروبي كان قريباً من القاهرة.**

- كان ناصرياً.

- **اعتادت سورية بعد الاستقلال على أن يكون الضباط هم صانعو السياسة. وفي هذه الفترة بدأ اسم جمال عبد الناصر يلمع في سماء المنطقة العربية ولا سيما بعد مؤتمر باندونغ في سنة ١٩٥٥. ثم أصبح، عقب العدوان الثلاثي في سنة ١٩٥٦، زعيماً قومياً مبجلاً. في هذا المناخ انخرط حزب البعث في الجهد الكبير لتحقيق الوحدة مع مصر وكان من شروط الوحدة التي اشترطها عبد الناصر حلّ حزب البعث في سورية*. إلى أي مدى كان حزب البعث جدّياً في الوحدة مع مصر؟ وإلى أي مدى التزم حزب البعث في سورية شرط حل الحزب؟**

- في تلك الفترة كانت المؤسسات السياسية التقليدية تهلهلت، والمؤسسات الحديثة لم يترسّخ وجودها بعد. فلما فشلت مؤسسة الملاّكين المدعومين من المشايخ والتجار، ثم جاءت كارثة فلسطين في سنة ١٩٤٨ وبدأت فئات جديدة تصعد في المجتمع، لم تبق مؤسسة سياسية واحدة في سورية ذات صدقية، والأحزاب المعارضة لم تكن تحولت إلى مؤسسات حقيقية. الكتلة الوطنية تحولت إلى الحزب الوطني بزعامة شكري القوّتلي. وهذا الحزب لا يملك من صفات الأحزاب إلاّ الاسم. إنما هو فئة من الملاكين مدعومين من الشيوخ والتجار. إنها ثلاث فئات ظلت

---

* اتخذ قرار حل الحزب في ١٩٥٨/٢/١.

حاكمة مئات السنين ثم تهلهلت. وفي مقابل فقدان الثقة بالمؤسسات القديمة، لم تكن الأحزاب الحديثة المعارضة اكتسبت ثقة كافية ولا سيما حزب البعث والحزب الشيوعي والحزب السوري القومي. المؤسسة الوحيدة التي كانت موجودة وتنمو باطراد هي المؤسسة العسكرية، وهي مؤسسة لها تاريخ منذ أيام المتوكّل حتى اليوم. منذ أيام المتوكل والعسكريون يسيطرون على الحكم. السلاجقة والمماليك والأيوبيون ثم العثمانيون، هذه كلها مؤسسات عسكرية.

- **لكن هناك أيضاً مؤسسة أخرى ثابتة وشديدة الرسوخ هي مؤسسة الطائفة.**

– نعم. لكن أهل السنّة والجماعة، ليسوا حزباً أو طائفة، بل هم المسلمون. وباسم الإسلام اضطهدوا الطوائف الأخرى والمذاهب الأخرى. وفي أي حال فهذه المؤسسات غير العربية، لم تكن حاكمة باسم الطوائف، بل خدعت طوائف الناس وأوهمتها بأنها من أهل السنة وضد الشيعة؛ مسلمون وهم لا يعرفون القرآن ولا حتى اللغة العربية. المهم، أن المؤسسة العسكرية الحديثة التي جُرحت كرامتها في سنة ١٩٤٨ تحولت مع انقلاب حسني الزعيم إلى مؤسسة حاكمة. وعندما سقط أديب الشيشكلي لم يكن ذلك السقوط جراء ثورة مدنية أو حزبية أو سياسية تقتلع جذور العقل العسكري، بل نتيجة لحركة عسكرية شبه مدنية من طراز مماثل للذي حدث في العراق في العام ١٩٦٣ بزعامة علي صالح السعدي. لذلك سقط الشيشكلي بينما المؤسسة العسكرية استمرت في الحكم. وهذا الأمر جعل

إمكان تأسيس مجتمع مدني مستحيلاً. ولـم تترسّخ الديمقراطية ولم تتجـذر في بلادنا بل بقيت جذورها على البلاط.

- **لكن حزب البعث نفسه استخدم العسكريين وسيلة للوصـول إلـى السلطة. ومشهورة جداً علاقات أكرم الحوراني ببعض الأقليات وببعض الضباط أمثال مصطفى حمدون*.**

- أود أن أضيف أن الشيشكلي لم يسقط بثورة مدنية، لكنه لـم يسقط بانقلاب عسكري أيضاً. كان السـقوط جهـداً مشـتركاً بـين المـدنيين والعسكريين. وإسقاط الشيشكلي في سنة ١٩٥٤ يشبه إلى حد بعيد ما جـرى في انقلاب شباط ١٩٦٣ في العـراق وآذار ١٩٦٣ فـي سـورية. أي أن الحـزب المدني كان له دور في التغيير. وفي سـورية كـان علـى رأس الحزب قائد مجرب ومحنّك وداهية اسمه أكرم الحوراني. وهـذا الرجـل السياسي استخدم الجيش ولـم يسمح للجيش أن يستخدمه، وفي الوقت نفسـه لم يقم بصـدام مـع الجيش. بينما في العراق، مع الأسف، كان على رأس

---

* يقول سامي جمعة إن أكرم الحوراني اجتمع عدة مرات إلى حسني الـزعيم قبيـل انقلابه. وكان عراب هذه الاجتماعات العقيد بهيج كلاس. أما مكان الاجتماع فكـان في منزل خليل كلاس وهو شقيق بهيج، وحضر بعض هذه الاجتماعـات شـقيقهما الثالث نخلة كلاس. وينقل سامي جمعة عن سعيد حبي أن الحوراني وخليل كـلاس سهرا ليلة تنفيذ الانقلاب في مبنى رئاسة الأركان إلى جانب حسني الزعيم، وهمـا اللذان صاغا البيان رقم واحد الذي أعلن قيام الانقلاب. وبعد نجاح الانقلاب كلـف حسني الزعيم الحوراني رئاسة لجنة التحقيق في فساد عهد شكري القوتلي.

الحزب رجل أحمق مثل صدام حسين فأكل الحزب، وأزاح المدنيين أمثال علي صالح السعدي الذي لم يكن في حجم اكرم الحوراني.

- **كان علي السعدي غوغائياً إلى حدٍّ ما.**

- لا ليس غوغائياً، لكنه مع الأسف حاول أن يلعب دوراً أكبر من إمكاناته. لم يكن ناضجاً تماماً، والتآمر يحيط به من جميع الجهات.

- **في هذه الأجواء بدأ السعي نحو الوحدة مع مصر، مع بزوغ نجم عبد الناصر كزعيم كبير في العالم العربي. هل كان البعث جدّياً في سعيه إلى الوحدة مع مصر؟**

- هل تعتقد أن حزب البعث كان يمزح؟ صوت العرب ومحمد حسنين هيكل ومخابرات عبد الحميد السراج والقوميون العرب أصحابك هم الذين أشاعوا ذلك.

- **ثمة من اعتقد أن الضباط جاؤوا بحزب البعث إلى الوحدة، وليس الحزب هو الذي انخرط فيها، أو على الأقل لم يكن يريد الوحدة بهذا الشكل.**

- يا أخي هذه قصة كتب تفصيلاتها أكرم الحوراني في مذكراته، وأحمد عبد الكريم كتب عنها وبشير العظمة أيضاً، وآخرون. وأنا أقول لك

إن حزب البعث كان جاداً فعلاً بالوحدة. وعبد الناصر اكتشف بذكائه وتجربته أن سورية يمكن أن تتحول حاملة طائرات ضد مصر أو مع مصر، وأن مَن يحكم سورية يحكم المنطقة.

- **هذه نظرية باتريك سيل في كتابه "الصراع على سورية".**

- لكن أحمد عسة كان أول من تحدث عنها. المهم، عندما اقتنع عبد الناصر بهذه الفكرة، كان رجاله في سورية أمثال محمود رياض يتعاونون مع حزب البعث، وكانوا يقولون لقيادة الحزب ان عبد الناصر غير متحمس للوحدة. البعث صار يناضل بقوة كي يقبل عبد الناصر الوحدة. والحقيقة أن عبد الناصر كان توّاقاً إلى الوحدة لتعزيز المكانة الاستراتيجية لمصر. وبهذه المناورة ظهر حزب البعث كأن نضاله الوحيد اقتصر على موضوع الوحدة، وانقلبت القصة من النضال في سبيل الوحدة إلى النضال في سبيل الوحدة مع عبد الناصر، وصار شعار الجماهير في سورية: "بدنا الوحدة باكر باكر مع هالأسمر عبد الناصر"، وما عاد في إمكان أحد في سورية أن يتراجع عن الوحدة حتى رشدي الكيخيا. وهنا بدأ العسكريون يتخذون الموقف نفسه، فاستدعاهم عبد الناصر إليه في القاهرة للتباحث.

- **هو استدعاهم أم هم ذهبوا إليه؟**

- هناك رواية تقول إن صلاح البيطار عندما عاد من مصر قبيل الوحدة نقل رسالة إلى القادة السياسيين تقول إن عبد الناصر لا يقبل أن

يتدخل الجيش في السياسة. وقبل أن يبلغ صـــلاح البيطـــار الحـــزب بـــذلك استدعى أحمد عبد الكريم إلى وزارة الخارجية وقال له إن المسألة صـــارت برقبتكم. تفضلوا إذهبوا إلى القاهرة وتحدثوا إلى عبد الناصـــر. عنـــد ذلـــك اجتمع كبار الضباط في جو شديد العصبية. البعثيون مـــنهم كـــانوا جميعـــاً يريدون الوحدة. أحمد عبد الكريم يتحدث عن الشروط التي يجب عرضـــها على عبد الناصر، أبو عبدو (أمين الحافظ) يضع يده على المسدس ويقـــول: من يضع شرطاً على عبد الناصـــر لم يخلق بعـــد. وفي نهايـــة المطـــاف سافروا إلى القاهرة على طريقة "العراضة" والتقوا عبد الناصر في بيته مـــع المشير عبد الحكيم عامر، وتقبلوا فكرة عدم التدخل في السياسة، وقالوا لـــه: من أجل الوحدة نحن نقبل أي شيء تريده. وفتح عبد الناصر كفيـــه وقـــرأ الفاتحة.

- **هكذا صارت الوحدة إذن؟**

- نعم هكذا صارت الوحدة.

- **حسناً. ما كان دور حزب البعث في هذه العملية المضطربة؟**

- كان البعث أنجز مشروعاً للاتحاد لا للوحدة. لكن مشروع الاتحـــاد هذا طوي تماماً في أجواء "العراضات" القومية. اثنان فقط وضـــعا شـــروطاً على الوحدة: خالد بكداش وخالد العظم. وفي هذا الســـياق أود أن أروي أن ميشال عفلق كتب افتتاحية لجريدة "البعث" بعد قرار تأميم قناة السويس فـــي

سنة ١٩٥٦ يصف فيها عبد الناصر بـ "القائد الملهم". حينذاك جئت شخصياً إلى ميشال عفلق والتقيته في حديقة مكتب الحزب وأبديت له استغرابي من هذه الافتتاحية، وقلت له: "شو يا أستاذ، هل بايعت عبد الناصر بالزعامة*؟ فأجاب بحزم: "نعم هل من اعتراض؟!". قلت بشيء من الإرتباك: "أنا استفسر فقط".

- **الزعيم لديكم كان ميشال عفلق؟**

– لا. لكننا لم نكن نقبل مفهوم "الزعيم الأوحد" في ذلك الوقت. ولم تكن لدينا مفردات مثل "القائد الملهم" و"الزعيم"، لأن ميشال عفلق كان، في نظرنا، فيلسوف الحزب وكفى. لكن ميشال عفلق كان يتضايق من هذه التسمية.

- **كيف تقرأ الآن قصة انتخاب رياض المالكي نائباً عن دمشق وسقوط مصطفى السباعي في سنة ١٩٥٧؟**

– هذه الحادثة تدل على تبدلات خطيرة حدثت في سورية في تلك الفترة. كان حزب البعث قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من السلطة، فخافت الرجعية وخاف المشايخ من هذا التطور السياسي، وراح الكثيرون من

---

* يروي جلال السيد أن ميشال عفلق وصف عبد الناصر بعبارة "زعيمنا الملهم" في واحدة من مقالاته. فطلب جلال السيد من عفلق أن يحذف كلمة "الملهم"، فلم يقبل عفلق ونشر المقالة كما هي.

العائلات الحاكمة يروجون أنهم سيختارون عبد الناصر ولا يمكن أن يختاروا حزب البعث. وفي هذه الأثناء صار للشيوعيين مكانة سياسية.

- **هل كان رياض المالكي بعثياً؟**

- نعم، ومرشح الحزب أيضاً.

- **هو شقيق عدنان المالكي الذي اغتيل قبل ذلك بسنتين تقريباً.**

- نعم. وكان رياض المالكي مرشح الجبهة الوطنية. وكان من ضمن القوى الفاعلة في الانتخابات الحزب الشيوعي، مع أن الحزب الشيوعي لا يستطيع إيصال نائب واحد في دمشق غير خالد بكداش. أما حزب البعث فصارت له قيمة وبدأت بعض الأوساط الدمشقية تنفتح على الحزب، لأن فوز رياض المالكي لم يكن انتصاراً لمرشح بعثي ضد مرشح الإخوان المسلمين، بل نجاح للبعث ضد المشايخ والرجعية. أي نجاح للاتجاه اليساري ضد الاتجاه اليميني، بل إنه نجاح مستغرب في مدينة مثل دمشق: محام لا يتجاوز الخامسة والثلاثين يفوز على مصطفى السباعي الذي كان يمتلك جاذبية قوية، وكان زعيماً فعلاً. إذن، كانت دمشق تتبدل نحو اليسار. وهذا ما أخاف لا السلطة وحدها بل أصحاب الشأن في المنطقة.

- **دعنا نلملم الكلام. بدأت المفاوضات بين عبد الناصر والعسكريين السوريين. وافق حزب البعث على شروط عبد الناصر كلها وفي رأسها حل جميع الأحزاب بما فيها حزب البعث. ألم تجرِ الأمور هكذا؟**

- حزب البعث، كما قلنا، كان مشـروعه اتحادياً لا اندماجياً. لكن عبد الناصـر لم يكن راغباً في ذلك. كان يقول انه يريد وحدة تدريجيـة. لكنـه حينما رأى الناس متحمسة للوحدة، وحينما ذهب إليه العسكريون ومحضـوه الطاعة، ثم رأى زعامته تكبر وتتخطى حدود مصر إلى بلاد الشـام كلهـا، فضلاً عن المغرب، قال للضباط السوريين: تكون الوحـدة اندماجيـة أو لا تكون، والأحزاب يجب أن تُحل وأنتم العسكريون عليكم أن تقبلوا ما فعلنـاه هنا في مصر. ومن أجل الوحدة قال له الضباط جميعاً: نعـم، نحـن نقبـل شروطك كلها. إن أكثر واحد ردد مزايدات على عبد الناصر كـان الفريـق عفيف البزري. لقد ظن أن عبد الناصر لن يقبل الوحدة الاندماجية، لكن عبد الناصر كـان يريد إيصالهم إلى هـذا الموقف، وأن يلزمهم مـوقفهم. أمـا مسألة الوحدة التدريجية فكانت برأيي مناورة. في هذه الفترة كنـت أقضـي خدمتي الإلزامية في الجيش، لكنني على صلة دائمة بالحزب وبـالتطورات السياسية، وكنت أصبحت ضابطاً وتخرجت في كلية الاحتياط. فـي هـذه الأثناء كانت قوة الشيوعيين تزداد وتكبر، بينما حـزب البعـث "يتهلهـل"، والخلافات تكبر بين قادته الأوائل. وفي محاولة تنظيمية حقيقية ربما تكـون الوحيدة لتحويل الحـزب إلى مؤسسة سياسية، جـرت انتخابـات للقيـادة، ونجـم عن ذلك ظهور قيادة جدّية من رجال الصف الثاني، وهـذه القيـادة كانت من الطراز الذي قاد الحـزب في غياب الأساتذة في روما. والجديـد فيها هو أن هذه القيادة اكتسبت الصفة الشرعية بالانتخاب.

- **ذكرت في سياق الحديث اسم عدنان المـالكي. مَـن قتـل عـدنان المالكي*؟ لأن هذه الحادثة، بعد هذا الزمن الطويل، ما زالت غامضـة. ولعل اغتيال عدنان المالكي يذكرنا باغتيال عبد الرحمن الشهبندر.**

---

* اغتيل العقيد عدنان المالكي في ١٩٥٥/٤/٢٢.

- الذي اغتال المالكي جندي في الشرطة العسكرية ينتمي إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي.

- **اسمه يونس عبد الرحيم.**

- نعم. وفور أن أطلق يونس عبد الرحيم النار على المالكي، قام شخص آخر بإطلاق النار عليه وقتله، مدّعياً أنه كان يدافع عن المالكي، ثم انتحر. وبعد ذلك اكتُشف أن جورج عبد المسيح رئيس الحزب السوري القومي الاجتماعي آنذاك يقف وراء اغتيال المالكي.

- **لكن الحزب كمؤسسة سياسية لم يقرر اغتيال المالكي. بل إن جورج عبد المسيح هو مَن اتخذ قرار الاغتيال بمعزل عن الحزب. وحتى هذه الرواية فيها تشكيك أيضاً.**

- أنا أتساءل: لو نجحت مؤامرة جورج عبد المسيح بعد اغتيال المالكي، هل كان الحزب كمؤسسة سياسية سيقبل النتائج أم سيرفضها؟

- **في العلم، ولا سيما في علم التاريخ لا يمكنك أن تتساءل بعبارة "لو". هذا سؤال افتراضي ولا يمكن الجواب عنه. ربما قبل الحزب النتائج وربما رفضها. لا يمكن معرفة ذلك بتاتاً.**

- في أي حال كان مقتل عدنان المالكي يختلف تماماً عن مقتل الشهبندر. الشهبندر قتل ثلاث مرات، واقترب الإعدام منه، وكان يسمّي

نفسه الشـــهيد الحي. نجا من الإعدام في قافلة الشهداء الأولى فــــي عهـد جمال باشا، مع أن الشهبندر كان الطبيب الشخصي لجمال باشا. لكنه عنــدما أحس بالخطر هرب حتى وصل إلى مضارب البــدو في بادية الشــام، ثــم وصل إلى العراق عبر البادية، ومن العراق إلى الهند ثم إلى مصر بـــالبحر. أما كيف قُتل ثلاث مرات فدونك التالي: أولى عمليات القتل هي أن الحركـــة الوطنية السورية لم ترفع اسمه في غيابه، فرجال الحركة لا يقبلون به وهــم من الملاكين. كيف يقبل به آل مردم والقوّتلي والحفّار والعظــم والعمــري، وهؤلاء طالما تساءلوا مَن يكــون الشهبندر هــذا؟ الشـــهبندر، كمــا هــو معروف، ابن عائلة صغيرة من التجار في دمشق كانوا في المرتبـــة الثالثـــة اجتماعياً بعد الملاكين ورجال الدين. وبين التجار أنفسهم هنـــاك درجـــات*. والد عبد الرحمن الشهبندر كان تاجراً عادياً في سوق الأروام. ومنذ صـــغره كان عبد الرحمـــن فائق الذكاء. والمعروف أن شريك والده في الدكان هـــو الذي أصر على تعليمه في الجامعة الأميركية في بيروت. وفي ذلك الزمـــان مَن كان يتخرج طبيباً في الجامعة الأميركية ويعود إلى دمشـــق يصـــبح ذا شأن كبير. المهم أن الشهبندر عمل في السياسة منذ بداية القرن مع فـــارس الخوري، وهو من حي القيمرية. والقيمرية منطقة لا زعامة فيها مثل حـــي الشاغور أو سوق ســـاروجة أو الميدان. وســـكان القيمريـــة متحضـــرون

* في مطلع القرن العشرين كانت النخبة الاقتصادية – السياسية في دمشق تضم نحــو ٥٠ عائلة مسلمة و١٢ عائلة مسيحية و٤ عائلات يهودية. واشتهر من هذه العائلات كل من: صحناوي والأيوبي والمالكي والعمـــري والبكـــري والميـــداني والعطـــار والمحاسني والأسطواني والركابي والحفار والجلاد والطبـــاع والعظمـــة والعظـــم والحكيم... إلخ.

وعصريون. ويقال أن عمر بن عبد العزيز عندما تولى الخلافة رفع شعار أن النبي محمد جاء هادياً لا جابياً. وأكد أن الذي يعتنق الإسلام تُرفع الجزية عنه، وهذا ما شجع المسيحيين على اعتناق الإسلام. ولعدالته أسلمت دمشق بالتدريج. ويذكر الواقدي في كتابه "فتوح الشام" ان الذين أسلموا من أهل الشام ودّعوا سبعين أسقفاً، أخرجوهم بزياح. والزياح هو القدّاس الذي يحصل خارج الكنيسة. أي أن حديثي الإسلام ودعوا الأساقفة بزياح، أي بكل تكريم. ويقال ان آخر من أسلم من أحياء دمشق القيمرية.

- **حي القيمرية الذي ولد فيه قسطنطين زريق، وهو ملاصق لحارة النصارى.**

- صحيح. ونادراً ما تجد بين أبناء القيمرية شخصاً متزوجاً امرأتين، ونادراً ما تقع حالات الطلاق.

- **لا زالوا نصارى إذن.**

- لا أبداً. هم الآن مسلمون من أهل السنة والجماعة مثل آل المحايري والغميان والصواف والخطيب وكحالة ورباط وفرا وموصلي وقضماني.. إلخ. ولكن مثلهم مثل الكثير من أبناء عائلات الشيعة في حي الأمين مثل آل مرتضى والجمّال ونِظام يرسلون أولادهم للتعلم في المدارس الخاصة خصوصاً مدرسة الآسية، ربما بحكم الجوار. إن هذه الدائرة من دمشق القديمة والتي تبدأ من حدود باب السلام ومئذنة الشحم إلى الشرق

يتجاور فيها المسلمون والمسيحيون في أحياء بـاب توما وبـاب شـرقي والقصاع. ولكن ما أريد قوله إنّ الشهبندر، لأنه متعلم ومثقف وخطيب ومناضل، امتلك كاريزما قوية في دمشق، واشترك في الثورة السورية مع سلطان الأطرش، بل كان هو قائدها السياسي وهو الذي اقترح أن يكون سلطان الأطرش قائداً عاماً لها، ولولاه لبقيت محصورة في جبل الدروز. وهذا واضح في العديد من مجريات الأمور ومن المصادر العديدة مثل مذكرات الشهبندر نفسه. ولمّا أشرفت الثورة على الفشل فرّ شكري القوتلي وجميل مردم إلى فلسطين، وأكمل الأول طريقه إلى مصر ولم يقبل الانجليز لجوء الثاني فعاد إلى سورية وسلم نفسه وسُجن في جزيرة أرواد مع فارس الخوري وغيره. وما لبث القوتلي أن حظي بالعفو عنه فعاد إلى دمشق. وأساساً لم تصدر السلطة الفرنسية أحكاما على القوتلي ومردم لأنَّ دورهما في الثورة كان هامشياً. بينما حُكِمَ على الشهبندر بالإعدام مثل سلطان الأطرش. ولم يعد إلا مع باقي المجاهدين في عام ١٩٣٧. هذه واحدة، أما ثانية عمليات القتل فكانت التحريض ضده وإشاعة الكلام عليه بأنه ملحد ومؤيد لسفور المرأة ... إلخ. أما الثالثة فكانت الاغتيال الجسدي وهو نتيجة منطقية للتحريض.

- **ماذا عن فارس الخوري؟**

- فارس الخوري كان ضد الثورة، مع أنه لم يعلن موقفاً صريحاً. وهنا لا بد من الدخول في التفصيلات التي تشرح خلفية موقفه. والتي لا تخلو من فائدة، نظراً لأهمية الموضوع.

أولاً: فارس الخـوري رجل عقلاني إن لم نقل داهية من دهـاة عصـره لا تجره الأحداث إن لم يقـدر على توجيهها. هكذا كان موقفـه مـن معركـة ميسـلون الذي لم يعلنه صـراحة. وهو يقول في مذكـراته إنّـه اقتنـع بخوضها – أي معركة ميسلون – فقط لإنقاذ الشرف، كما بـاح لـه بـذلك يوسف العظمة.

ثانياً: فارس الخوري وجميل مردم وشكري القوتلي بحكـم تكـوينهم غيـر مؤهلين للاشتراك في ثورات وأعمال عنف فكيف بقيادتها؟ لكنهم، خصوصاً مردم والخـوري، قادوا النضال السلبي في المدن وبرعـوا فيـه، وقـادوا النضـال الحقوقي والقانوني في المحافل الدولية التي لعـب فيهـا شـكيب أرسـلان في جنيف دوراً أساسياً، وهي مرحلة تمتد من العام ١٩٢٧ إلـى العام ١٩٣٧، أي بعد أن فشلت جميع ثورات الأرياف، بدءاً من ثورة صالح العلي وصبحي بركات وانتهاءً بسلطان الأطـرش مروراً بـإبراهيم هنـانو وتمرد الحوارنة.

في مذكرات الشهبندر شرح كافٍ لموقفه الثوري. فهـو أول مـن بـدأ تحريك الشارع في دمشق نحو النضال السلبي، وهو الـذي أسـس حـزب الشعب في حزيران ١٩٢٥، هذا الحزب الذي كان أبو الكتلة الوطنية التـي قادت النضال في ما بعد. بل هو أول من أطلق عبارة الكتلة الوطنيـة فـي خطابه يوم تأسيس ذلك الحزب. لكنّه يقول في مذكراته إنّ انتصار سـلطان الأطرش والدروز في معركة الكفر أولاً ثم في معركة المزرعـة، فـرض موقفاً ثورياً تجاوب معه الناس، إذ انه كان أول نصـرٍ عسكري للسـوريين

يثأر من هزيمة ميسلون. وكم كان يتحرق لو أنّ ثورة سلطان الأطرش تأخرت حتى يتم تنظيم حزب الشعب في سورية كلها، لكان اجتمع النضال الثوري العنيف في الأرياف مع نضال المدن السلبي الذي استمر ونجح لاحقا. لكنّه يعود فيتساءل: هل تستطيع التمنيات التحكم بتوقيت الأحداث؟ أم هل نستطيع أن نطلب من سلطان الأطرش بعد انتصاره أن يتوقف بانتظار اكتمال تنظيماتنا السياسية؟.

- **ونبيه وعادل العظمة هل هما من هذا النسيج؟**

- أظن ذلك. المهم أن معسكر الثوار انقسم بين شكري القوتلي والشهبندر. عادل أرسلان مع شكري القوتلي، والشهبندر مع سلطان الأطرش. وشكيب أرسلان كان في سويسرا ومع شكري القوتلي أيضاً، بينما الكتلة الأساسية من رفاق سلطان الأطرش مع الشهبندر. الإضراب الستيني في دمشق سنة ١٩٣٦ الذي أرغم فرنسا على الشروع في المفاوضات السياسية، أدى إلى انفلات الشارع من يد الكتلة الوطنية، وصارت القيادة في يد الطلاب بالدرجة الأولى، ولا سيما في مكتب عنبر والتجهيز والجامعة. كانت شبه ثورة مدنية. وفي معمعان هذه الحوادث برز مطلب إعادة المنفيين من الخارج والعفو عن الثوار. وتبنت قيادة الكتلة الوطنية هذا المطلب. وفي المفاوضات مع حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا جرى الإقرار بهذا الأمر في أيار ١٩٣٧، وعاد عبد الرحمن الشهبندر ليكتشف أنه صار، بعد هذا النفي الطويل، بلا قوة سياسية، فعرض عليه أقطاب الكتلة الوطنية الانضمام إليها فقال في خطاب مشهور:

أنا من الكتلة الوطنية. ولما سمع الجمهور هـذا الكلام راحـت الطـرابيش تتقافز في الفضاء تعبيراً عن الاستحسان. لكن الشهبندر أشار إلـيهم ليكمـل حديثه فقال: أنا مع الكتلة الوطنية لكنني لست مع حزب الكتلة الوطنيـة، ولا أقبل أن أكون في هذا الحزب. وفي ما بعد أراد أن يبني حزباً جديداً، فبـدأ بتأسيس "الهيئة الشعبية" التي كان عليها أن ترث حزب الشعب، وشرع فـي عقد الاجتماعات واستعادة المناصرين له. عند ذلك فُرِضَت عليـه الإقامـة الجبرية في بلودان وبدأت الشائعات تتهمه بأنه كافر وزنديق ويـدعو إلـى سفور المرأة وماسوني...ألخ.

- **لكن الشهبندر كان ماسونيا بالفعل.**

- تلقف هذا الأمر المشايخ المتعصبون وأرادوا إبعاده عن التأثير فـي الناس. وفي هذا الجو أفتى شخص يدعى مكي الكتاني بقتل عبـد الـرحمن الشـهبندر، بعدما استفتاه في ذلك شخص من آل عصاصة. ومكي الكتـاني هذا مغربي الأصل ومن جماعة "المكتب الثاني" الفرنسـي فـي سـورية. اكتشف أحمد فؤاد القضماني أحد كبار المحامين عن الشـهبندر رأس خـيط المؤامـرة وطلب من القاضي تحويل المحاكمة من محاكمـة جنائيـة إلـى محاكمة سياسية وطلب استدعاء مكي الكتاني إلى الشهادة. لكـن المحاكمـة ظلت جنائية، وبسبب المحاكمة اضطـر جميل مردم وسـعد الله الجـابري ولطفي الحفّار إلى الهرب إلى العراق، بينما بقي شكري القوتلي في دمشـق بحماية القنصلية السعودية. القاتل، كما تبين من خـلال المحكمـة، مـن آل عصاصة، والمحرّض المباشر هم مشايخ الدين على رأسهم مكّـي الكتـاني المشبوه بعلاقته بفرنسا، والمحرض السياسي الكتلة الوطنية.

- **مادامت هذه الشبكة قوية إلى هذا الحـــد، لماذا لم تتم حماية القاتـــل بدلاً من إعدامه، ولا سيما أن للفرنسيين، على الأرجـــح، ضـــلعاً فـــي عملية الاغتيال؟**

- القاتل مجـــرد شخص مسلم متعصب، قتل الشهبندر لأنه اقتنع مـــن مكي الكتاني أنه كافر. أما القصة كلها فهي مـــن صـــناعة الخبـــراء فـــي المخابرات.

- **هذا ما أردت أن أقوله في قصـــة اغتيال عـــدنان المـــالكي. أي أن قصة الاغتيال مصنوعة بدورها.**

- لم تجرِ محاكمة سياسية لجريمة اغتيال الشهبندر. لكن المحاكمة في جريمة اغتيال عدنان المالكي كانت سياسية تماماً، لأن المنفذين قُتلـــوا فـــي ساحة الجريمة قبل أن يلفظ عدنان المالكي أنفاسه نهائياً. جورج عبد المسيح القاتل الحقيقي هرب ولم يُلق القبض عليه.

- **من هو القاتل الحقيقي؟**

- جورج عبد المسيح.

- **أنا أسأل عن الجهة السياسية التي حرضت جورج عبد المسيح على إصدار أوامر الاغتيال.**

- جورج عبد المسيح هرب وهو جهة سياسية، وكان رئيساً للحـزب. أما الحزب السوري القومي الاجتماعي وقيادته أمثـال عصـام المحـايري وجولييت المير (زوجة أنطون سعادة) فلم تكن لهما أي علاقـة بالاغتيـال. وعلى الرغم من ذلك سجنا بتهمة اغتيال المالكي. لكن رئيس الحـزب هـو الذي اتخذ قرار الاغتيال. أما عن التفصيلات فلا أدري عنها شيئاً، ولا أريد أن أظلم أحداً.

- **لكن الحزب جـرت تصفيته في أي حال. فكيف يكون الـذي اتخـذ القرار ضالعاً في مؤامرة تصفيته.**

- لو أن الحزب اتخذ موقفاً آخر فليس في إمكان أحد تصفيته. لـو أن الحـزب، بعد مقتل المالكي، بادر إلى تحميل جورج عبد المسيح المسؤولية لما كان حصل ما حصل. الحزب كان رأس الحربـة ومخلـب المـؤامرات الرجعية والأنكلو – أميركية في ذلك الوقت ضد الحكـم التقـدمي والجبهـة التقدمية الحاكمة برئاسة صبري العسلي.

- **سامي جمعة يقول أن المصريين هم الذي قتلـوا عـدنان المـالكي، وجورج عبد المسيح كان مجرد منفّذ.**

- لا. لا أعتقد أن جورج عبد المسيح مجرد منفّذ لجهة مصرية.

- **سامي جمعة يتهم الولايات المتحدة والسفارة المصرية في بيـروت بتدبير عملية الاغتيال.**

- يمكن جورج عبد المسيح أن يشتغل مع الأميركيين، أو مع الأردنيين أو مع الإنكليز، ولكن أن يشتغل مع المصريين فلا يمكن ذلك أبداً. هل أصدر جمال عبد الناصر أوامره لتصفية عدنان المالكي؟ لا. مستحيل. ولكن أن تكون المخابرات المصرية مخترقة من C.I.A فهذا وارد. اغتيال عدنان المالكي أزاح عقبة كبرى أمام محمود رياض السفير المصري وأمام عبد المحسن أبو النور الملحق العسكري المصري في دمشق. وصارت القوة الرئيسية في الأركان السورية تابعة لهما.

- **أي شوكت شقير وعبد الحميد السراج.**

- هذا ما أردت أن أقوله. أي أن اغتيال المالكي لم يتم بأوامر موحدة أميركية ـ مصرية، ولكن ربما جرى ذلك على قاعدة تقاطع المصالح، فقد كان للمصريين مصالح أكيدة بإزالة عدنان المالكي، وللأميركيين مصالح أيضاً. وتقاطعت هاتان المصلحتان ونفّذ جورج عبد المسيح العملية لمصلحة أحد الطرفين. وأود أن أخبرك أنني حينما كنت في الجامعة السورية مسؤولاً عن إحدى الفرق الحزبية، وكان نور الدين الأتاسي مسؤولاً حزبياً عن شعبة الجامعة، كان الجمهور متحمساً لتصفية القوميين السوريين. الجمهور لم يكن بعثياً قط، لكن كانت هناك كراهية للقوميين السوريين لأنهم ساروا في ركاب الشيشكلي، ولأن أفكارهم غريبة على الناس.

- **تقصد فكرة الأمة السورية؟**

- الأمة السورية والعلمانية أيضاً. أتذكّر نعمة حمادة، وكان زميلاً لي في الجامعة وفي صفي. ونعمة حمادة سوري قومي اجتماعي. وعندما أراد جمهور الطلبة ضربه بعد اغتيال المالكي، هجمتُ عليهم بضراوة، وخلصت نعمة حمادة من أيديهم، ووضعته خلفي لحمايته. كادوا أن يقتلوه. لكن أنا ما كان أحد يستطيع الاقتراب مني لأن البعث ورائي. المهم أنني حميته من غضبة الناس. فقد كان عدنان المالكي محبوباً، ودهش الجميع لمقتله برصاصة في رأسه وهو يشجع فريق كرة القدم. الناس لم تتقبل هذا الأسلوب المافيوي: أي أن ترسل أحدهم ليقتل ثم يُقتل القاتل، ثم ينتحر القاتل الثاني حتى ينقطع خيط الجريمة. هذا أسلوب لا نراه إلاّ في الأفلام السينمائية عند عصابات المافيا.

- **في تلك الفترة، أي في أواسط الخمسينات، كانت هناك حركة سياسية ناشئة، قيض لها أن تلعب، فيما بعد، دوراً مهماً هي حركة القوميين العرب، التي كانت في منشئها، ذات صلة بـ "كتائب الفداء العربي". ما كانت علاقتكم، كبعثيين، بهذه الحركة؟**

- حركة القوميين العرب لم تنشأ من كتائب الفداء العربي*. أنا أعرف قصة كتائب الفداء العربي وأعرف قصة القوميين العرب. حركة

* أسست "كتائب الفداء العربي في آذار ١٩٤٩. والمؤسسون هم: جهاد ضاحي وهاني الهندي (من سورية) وجورج حبش (من فلسطين) وحسين توفيق وعبد القادر عامر (من مصر)، وهي حصيلة اندماج مجموعة "العربية الفتاة" ومجموعة "شباب الثأر" ومجموعة "كتائب الفداء العربي". وبعد تفكك كتائب الفداء العربي جراء المحاولة

القوميين العرب نشأت في جو جمعية العروة الوثقى في الجامعة الأميركية في بيروت، ومن التلمذة الفكرية على قسطنطين زريق. ومن هذه التلمذة ولدت كتائب الفداء العربي على أيدي هاني الهندي وجهاد ضاحي وسامي ضاحي ونجيب كحيل وانطون حمصي وغيرهم. فأنطون حمصي كان ماركسياً وأنا أعرفه من مدرسة الآسيّة، ثم صار موظفاً كبيراً في وزارة الثقافة يشرف على نشر الترجمات، وأعرف أيضاً جهاد ضاحي وهاني الهندي. وأعضاء حركة القوميين العرب كانوا أقل منا بكثير عدداً وتأثيراً، وكنا نتساءل: لماذا لا يلتحق هؤلاء بحزب البعث؟ وعندما نعرض السؤال عليهم يكون جوابهم: نحن نختلف عنكم*. الأولوية لدينا للوحدة القومية ثم الاشتراكية، وهذا الموضوع خاضع للنقاش بالطبع. هم كانوا موضع التقدير لدينا، لكننا لم نرغب في أي يوم من الأيام، في التعاون معهم، لأننا لم نكن في حاجة إلى التعاون معهم. وفي المقابل لم يقفوا في أي يوم من الأيام ضدنا. لم يكونوا من أنصار الشيشكلي كالسوريين القوميين، ولم يكونوا ذوي تأثير كبير في وسط الشعب أو حتى في الجامعة. لكنني لا أعرف الكثير عن نشاطهم في الأردن. لكن في المجال الفلسطيني فلا ريب في

الفاشلة لاغتيال أديب الشيشكلي في ١٩٥٠/١٢/١٢ بادر كل من جورج حبش ووديع حداد وهاني الهندي فضلاً عن أحمد الخطيب وصالح شبل وحامد الجبوري إلى تأليف حركة القوميين العرب في صيف ١٩٥١ في اجتماع عقد في مقهى محيو في الروشة في بيروت.

* في ربيع ١٩٥٠ اتصل جورج حبش وهاني الهندي بميشال عفلق وعرض عليه جعل "كتائب الفداء العربي" الجناح العسكري لحزب البعث. لكن عفلق رفض هذا العرض.

أهمية دورهـــم، وجورج حبش هو موضع تقدير كبير لدينا. حركة القوميين العرب في ســـورية كانت ضعيفة جداً، لكنها نمت في عهد الوحدة. ولمـــا وقع الصدام بين البعث وعبد الناصر بادر عبـــد الحميـــد السّـــــراج إلـــى تنشيطهم، وجـــاء ببعض البعثيين من عملائه وشغّلهم. وهـــــؤلاء صـــاروا عقبة أمام الحركة الشعبية في ســـورية، أو أداة مـــن أدوات قمـــع الحركـــة الشعبية في سورية في تلك الفترة.

- **في أثناء الوحدة؟**

– في أثناء الوحـــدة والاتحاد القومي ومجلس الأمة. وهؤلاء ســـاهموا في رذالات السّراج وعبد الوهاب الخطيب.

- **لكن أعضاء حركة القوميين العرب التحقوا بالنظام الناصري بنـــاء على قناعات فكرية، وليس لأنهم من أراذل عبد الحميد السراج.**

– لا يا سيدي. كانوا يأخذون أموالاً منه وينفذون أعمالاً سيئة.

- **كأفراد ربما، ولكن الحركة لم تكن كذلك.**

– من قال لا؟ أظن أنني قلت إن بعض البعثيين أيضاً كـــانوا عمـــلاء للسراج.

- **طبعاً. فالسّراج ضابط في نهاية المطاف، والتسلط جزء من مهنته.**

- لولا تعاونهم مع السّراج لكانت سمعتهم، كحركة سياسية، أفضل. لكنهم، بنضالهم في فلسطين، أزالوا عن تاريخهم ما انزلقوا إليه مع السّراج. ولا أحد يستطيع القول أن القوميين العرب تحولوا إلى عملاء للسّراج. لكن ما أقوله إن الوحدة السورية ـ المصرية لم تُنجز أبداً، ولم تحدث وحدة بين سورية ومصر. ما حدث هو إخضاع سورية لمصر فقط. فقد حكم عبد الناصر سورية كما حكم حافظ الأسد لبنان، ولكن بذكاء أقل. حافظ الأسد أخضع لبنان من غير أن ينجز وحدة. أما عبد الناصر فباسم الوحدة حكم سورية بذكاء أقل.

- **ألهذا حصل الانفصال وفشلت الوحدة؟**

- نعم.

- **في هذا الجو العاصف في سورية، من سقوط الشيشكلي إلى عودة الحياة الديمقراطية ومعضلة الحزب السوري القومي الاجتماعي، ومن الضغط العراقي على سورية إلى اغتيال عدنان المالكي. في هذه الفترة استقال جلال السيد وهو أحد كبار المؤسسين في حزب البعث*. لماذا استقال؟ وما هي ملابسات استقالته؟**

- جلال السيد هو الذي بدأ الخلاف. وكنتُ تحدثت عن أن جلال السيد تبرع بكتابة افتتاحية لجريدة "البعث" في أحد الأيام على أن تتضمن

---

* استقال جلال السيد من حزب البعث في ١٩٥٥/٨/٢١.

الافتتاحية فكرة النظام الجمهوري. وعندما صدرت الافتتاحية كانت خالية تماماً من كلمة جمهوري. وفي الأثر راح عفلق والبيطار يتحاوران في هذا الموضوع طيلة شهرين ولم يتوصلا إلى شيء، لأنهما أساتذة وليسوا زعماء. وعندما بدأ الحزب يميل في بعض مستوياته إلى أكرم الحوراني، وكان من بين من مالوا عبد البرعيون السود وفيصل الركبي ووهيب الغانم، بدأ جلال السيد يشعر أن الحزب ما عاد حزبه، وأنه صار غريباً فيه. وجلال السيد هو نموذج البرلماني الديمقراطي البرجوازي الذي لم يكن متحمساً لثورية الحزب أو اشتراكيته، بل إنه لا يريد كلمة اشتراكية مطلقاً. وقبيل اتخاذ قرار دمج حزب البعث بالحزب العربي الاشتراكي اجتمع السيد والحوراني وعفلق وآخرون في منزل صلاح البيطار بناء على طلب جلال السيد. وفي هذا الاجتماع سأل جلال السيد أكرم الحوراني: هل أنت وحدوي أم لا؟ فقال له الحوراني: حتى لو كان النظام في العراق ملكياً فأنا أقبل به إلاّ أن يكون الإنكليز وراء الوحدة. المهم أن جلال السيد وافق على الدمج على مضض، ووافق عفلق على الدمج على مضض أيضاً. وصارت جماعة السيد في الحزب تصغر، حتى أن فرع الحزب في دير الزور تحولت ضده، ولم يتمسك به ميشال عفلق، بينما ظل أكرم الحوراني والآخرون يحاربونه. في هذه الأجواء كان جلال السيد يقترب من حزب الشعب وصار يشعر بغربة داخل حزب البعث ويشعر أنه أقرب إلى رشدي الكيخيا، وإلى زعماء العشائر في دير الزور. وفي هذه الأثناء استأجر أراضي من الدولة ونال قروضاً لزراعتها. وهنا وقع حادث في دير الزور أدى إلى استقالته من حزب البعث، وخلاصته أن عراكاً بين أفراد من حزب البعث والقوميين السوريين أدى

إلى سقوط قتيل، وانقلب العراك إلى صدامات عشائرية. البعثيون في دير الزور كانوا أقوياء ومسلحين ورفضوا الخضوع للحلول العشائرية. وبالطبع كُلِّف جلال السيد بحل المشكلة. وبدلاً من أن يحلّها لمصلحة الحزب، مع مراعاة الأصول العشائرية، استغل الوضع ليتخلص من خصومه الحزبيين، وقام بحل فرع دير الزور، فأظهر أن قبيلة القتيل (وهو من الخرشان أي من قبيلته) كانت على حق مع أن أفرادها هم المعتدون. وفي هذه الأثناء كان القوميون السوريون يقومون ببعض الاعتداءات على البعثيين بعد مقتل عدنان المالكي، فقتلوا واحداً من البعثيين في حمص، واعتدوا على آخرين في دمشق والغوطة، أي أن سياسة جورج عبد المسيح لم تتوقف بعد ضرب الحزب وتصفيته، فتحولوا إلى عصابات مدعومة من العراق ومن حلف بغداد. المهم أن جلال السيد حل فرع الحزب في دور الزور، وأراد أن يعيد إدخال الحزبيين من جديد إلى الحزب فيوافق على من يريد ويرفض من يريد، فقامت القيامة ضده. وأذكر أن مُصلح سالم، وهو كبير خصوم جلال السيد، جاء إلى ميشال عفلق ليناقش المشكلة معه باسم فرع دير الزور، وكنت حاضراً كأمين لشعبة جامعة دمشق. وبعد أن عرض مصلح سالم المشكلة وشروط حلها، سأله ميشال عفلق باستهزاء: هذه شروط حزب الدير. أنا أسألك ما هي شروط فرع الدير؟ ونتيجة لهذه المناقشات كلها كلفت لجنة حزبية جديدة بإعادة النظر في القرارات التي اتخذها جلال السيد*. وبالتدريج أخذ موقع جلال السيد يتضاءل في الحزب. إن جلال السيد الذي كان ثلث الحزب قبل

* كُلِّف منصور الأطرش وخليل كلاس معالجة المشكلة حزبياً.

الدمج وصار ربع الحزب بعد الدمج، لا يمكنه أن يقبل أن يكون هامشياً في الحزب. عندما استقال جلال السيد من الحزب جاء إلى بلدة جديتا في لبنان بالقرب من شتورا ليرتاح مع عائلته، فجاءه مندوب من شكري القوتلي يعرض عليه الاشتراك في الوزارة المقبلة. ويقول جلال السيد إن ميشال عفلق جاء يزوره بعد فصله من الحزب وقال له: "كلنا لاحقينك ... كلنا صرنا شاعرين أن الحزب لم يعد حزبنا. لنبقَ أصدقاء*".

• لماذا اتخذ ميشال عفلق هذا الموقف؟

- ميشال عفلق يريد أن يُبقي قواعد الحزب ضد جلال السيد وأن يبقى هو وحده اليساري والاشتراكي والتقدمي وأن يحافظ على صداقته مع الزعيم السياسي جلال السيد. وأنا اعتقد أن ميشال عفلق دفع الأمور بطريقة لبقة ليخرج جلال السيد من الحزب. كان عفلق يوازن قوة أكرم الحوراني بجلال السيد داخل الحزب. وعندما صار أكرم الحوراني الأقوى حزبياً وسياسياً والقواعد الحزبية إلى جانبه، بينما جلال السيد أصبح غريباً وضعيفاً حتى في دير الزور، بات ميشال عفلق غير قادر على الكسب من بقاء جلال السيد كقوة موازية لأكرم الحوراني، بل صار أربح له أن يكون جلال السيد خارج الحزب.

---

* محمد العايش هو المندوب الذي أرسله شكري القوتلي. ويروى أن ميشال عفلق جاء إلى جلال السيد في بلدة جديتا ونصحه بعدم التراجع عن الاستقالة وقال له: لا تسحب استقالتك، فنحن ربما نتبعك قريباً.

• الطريف في هذا السياق أن جلال السيد عاد فتزوج إحدى النساء المنتسبات إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي؟

- لا أعرف. ما أعرفه أن نحو ثلاثة من أصدقاء جلال السيد خرجوا معه من الحزب لكن جريدة "البعث" قالت أن الحزب فصلهم.

• من هم هؤلاء ؟

- مختار الخياط وعدنان الفرا وتيسير النحاس.

• في هذه المرحلة لمعت في أوساط البعث شخصيات كثيرة. ما هو الانطباع الذي تركته لديك هذه الشخصيات أمثال وهيب الغانم وسامي الجندي وشبلي العيسمي ومنيف الرزاز؟

- وهيب الغانم لا أعرفه شخصياً. فقط تبادلنا "المرحبا" من بعيد. لم أعمل معه مباشرة، ولكن أصدقائي كانوا يقولون ان مصداقيته ليست كما يرام. فهو يتقلب في مواقفه كثيراً. وهيب الغانم لوائي أي من لواء الاسكندرون، ثم صار شبه زعيم في جبل العلويين مع أنه ليس من جبل العلويين. وكان محترماً في اللاذقية، وفي الحزب كان دائماً في القيادة وأصبح نائباً ثم وزيراً. إن قربه الشديد من أكرم الحوراني جعل جماعة حزب البعث في اللاذقية ينفرون منه، وخصوم أكرم الحوراني نفروا منه أيضاً.

● ماذا عن أمين الحافظ؟

- أميـــن الحافظ مزحة لطيفة. لقد أحببت أمين الحافظ، وهناك نوع من المـــودة بيننا، وأعرف عنه أشياء كثيرة كلها حسنة. لكن عندما ظهر كرئيس ســـابق لدولـــة البعث على شاشة قناة "الجزيرة" في سنة ٢٠٠٢ وتحدث عن ذكـــرياته على مدار ١٥ حلقة شعرت بخجل شديد. فأمين الحافظ يعمل بعقل "قبضاي" و"زكرت". حتى أنني تذكرت نكتة قيلت عنـــه في حينها، وهي أن أحد الحزبيين انتقد أداء أمين الحافظ، فانبرى له أحـــد المشاركين في حركة ٨ آذار ١٩٦٣ وراح يـــردد أن أميـــن الحافظ شـــريف لا يغـــدر وأخلاقه عاليـــة، وهـــو رجـــل شجاع...الخ. وعندما انتهى من هذه الموعظة أجابه الأول: "يا عمي هذه صفات كفيلة بدفعنا إلى مصاهرته. نحن نقبل به صهراً ونـــزوجه ابنتنا أو اختنا، لكن لا نعطيه رئاسة الدولة". أمين الحافظ كان من الممكـــن أن يكـــون وزيـــر داخلية ناجحاً. لكن المشـــكلة لا تكمن في أمين الحـــافظ بل في ميشال عفلق وصلاح البيطار اللذين وضعاه في ذلك الموقع. ولكـــن عندما "جد الجد" ومع مـــرور الأيام، تبين أنهما أيضاً مزحة ولكنها ثقيلة الدم ومكلفة وخصوصاً في العراق.

● ماذا تتذكر عن شبلي العيسمي؟

- شـــبلي العيسمي من مؤسسي الحـــزب، وهو رجل نظيف ومناضل، ولم يقم بأي عمل يستحق اللوم عليه. لكن علته الوحيدة هي أنه كان يصطف إلى جـــانب عفـــلق في كل مرة تحدث مشكلة في الحزب، علماً أنه ليس من جماعة ميشال عفلق.

● ربما كان ينحاز إلى الشرعية؟

- ربمـا. لكـنه أصبح موظفاً في الحزب. وفي العراق صار موظفاً تمامـاً في حزب البعث. مثله مثل عبد الله الأحمر في سورية. مع أن شبلي العيسـمي شخصية مهمة، ووالـده كان الثاني في الثورة السـورية الكبرى بعد سلطان الأطرش.

● ومنيف الرزاز؟

- لا أعـرفـه. مـنيف الـرزاز كـان يقيم في الأردن ويعمل طبيباً ويمـارس مهماتـه في قيادة الحـزب في الأردن. وقد أُستدعي إلى دمشق ليتسـلم الأمانة العامة للحزب كتسوية. وكان وراء ذلك أحمد سويداني رئيس المخابرات العسكرية الذي صار رئيساً للأركان وبإشارة من صلاح جـديد. اللجنة العسكرية هي التي أتت بمنيف الرزاز، وجعلته أميناً عاماً. لم يصدّق نفسه، مع أنه في البداية شكل كتلة حزبيـة مع منصور الأطـرش وجبران مجدلانـي، وحاول أن يمارس دور القائد في الحـزب. لكن صلاح البيطار قـال لمنصـور الأطرش في إحدى المرات: إذا كان صاحبك منيف الرزاز يظـن نفسه أنه يُخطط ونحن ننفّذ، فهو "غلطان" جداً. منيف الرزاز لم يكن يستطيع الوقـوف في وجه ميشال عفلق وصلاح البيطار في الحزب. ولأنه اعتقد أنه الأمين العام فعلاً، وقف ضد حركة ٢٣ شباط ١٩٦٦.

● وكتب كتابه المشهور "التجربة المرة"*.

---

* أنظـر: منيف الرزاز، "الأعمال الفكرية والسياسية"، بيروت: مؤسسة منيف الرزاز للدراسات القومية، ١٩٨٦.

- لم يتفق مع هؤلاء ولا مع أولئك. أي أنه لم يتفق مع عفلق ولا مع صلاح جديد. وفي النهاية ذهب إلى العراق. في سورية سُجن فقط. أما في العراق فقتلوه.

• هل مات مقتولاً حقاً؟

- يقال مات مسموماً، ويقال إنه مرض ولم يعالجوه في الوقت الملائم. وبقي في الإقامة الجبرية إلى أن مات. ولا يعرف أحد كيف مات حقاً. صدام حسين كان يريد إعدامه، وبنصيحة من عفلق أبقاه في الإقامة الجبرية ولم يقدّمه إلى المحاكمة، وكذلك فعل بعبد الخالق السامرائي مؤقتا، لأنه عندما صار صدام حسين رئيساً، قام بالتصفية الدموية المشهورة لأعضاء القيادة فقتل عبد الخالق السامرائي في السجن من غير محاكمة بالطبع*. أما ميشال عفلق فصمت عن منيف الرزاز وعن غيره بل عن جميع جرائم صدام حسين وبررها وأيدها ببقائه أميناً عاماً للحزب، ومديحه لعبقرية صدام داخل الحزب وعلى الملأ في خطابات مذاعة ومتلفزة.

• منصور الأطرش؟

- منصور الأطرش قصة أخرى، وأنا، في هذا المقام، أتردد بين نزاهة الرأي وعواطفي. عواطفي إيجابية أما رأيي فسلبي. خلاصة الرأي السلبي هو أن منصور الأطرش نشأ وقد اعتنى به أبوه كثيراً، فعلمه

---

* حكم بالسجن مدى الحياة في تموز ١٩٧٣، وفي سنة ١٩٧٩ أعدم.

أحســن تعــليم، ودأب عــلى تعليمه منذ أن كان في المنفى قبل عودته إلى ســــورية. ومــثل جميع الأطفال في القــرية أرسله أبوه إلى الكتّاب وتعلم القــرآن عــند شيخ الكتّاب فأتقن العربية طفلاً. ثم جاء إلى سورية في سنة ١٩٣٧ مــع أبيــه، وكان مراهقاً فأرسله والده إلى اليســوعية في بيروت، ودرس فــي القسم الداخلي حتى البريفيه فأتقن الفرنسية واللاتينية. وكان في الصــف نفســـه مــع جــبران مجدلاني، وكان جــبران الأول على صفه ومنصــور الأطـــرش الثاني. ثم عاد إلى دمشق ودرس المناهج السورية وحــاز البكالوريا الأولى في معهد اللاييك وهو أهم معهد في دمشق في ذاك الوقــت؛ معهــد فرنسي لكنه علماني وليس مثل اليسوعية. ثم نال البكالوريا الــثانية فــــي فــرع الفلسفة من مدرسة التجهيز. وبعد ذلك أرسله أبوه إلى الجامعــة الأميركية في بيروت فنال البكالوريوس في العلوم السياسية وأتقن الإنكــليزية إتقانـــاً تامــاً. وبعد أن نال البكالوريوس في العلوم السياسية من الجامعــة الأميــركية فــي بيــروت، ســـافر إلى باريس والتحق بجامعة الســـوربون ودرس القانون ثلاث سنوات. إنه رجل ذكي وحضوره لطيف جــداً ووســيم ومــتحدث لبق وكاتب جيد، ويتقن ثلاث لغات، كتابة وقراءة وخطابــة وتنكيتا. ويستطيع تقليد كلام سائقي التاكسي في باريس حتى تعتقد أنــه ولـــد في أحد شــوارع المدينــة، وفي الوقت نفســه يتحدث بلغــة موليــر و راسين. وقد دانت له المناصب العليا في الحزب والدولة. في أي حــال ربمــا كانت لدى منصور الأطرش عقدة الأب. لأن سلطان الأطرش حيــنما توفــي في سنة ١٩٨٢ كان منصــور يقترب من الستين فهو مــن مواليــد سنة ١٩٢٥، ولو ظل منصور الأطرش يمارس حياته كرجل تقدمي ومــثقف ومتعلم نهل العلم من المراكز الثقافية الكبرى فــي الشرق الأوسط

وباريس لكان تقويمي له أعلى. لكنه حاول أن يتساوى مع أبيه وهو يعلم أن والده قماشة لا نظير لها. أنا أعرف سلطان الأطرش جيداً، وأعرف منصور الأطرش جيداً أيضاً. قماشة الزعيم ليس في إمكان أحد أن يفصلها على قده. أما منصور الأطرش فيستحق أن يكون وجيهاً في قومه أو قائداً في حزبه. وقد روي عن لسان حافظ الأسد أنه قال: "من أين لنا أن نأتي بفرنسيين يحاربهم منصور ليصير مثل أبيه؟!".

- **وزير مثلاً؟**

- وزير طبعاً. الوزراء أصغر منه، لكنه ليس زعيماً جماهيرياً. هذه لسلطان الأطرش. عندما ظهر شاربا سلطان الأطرش، كان هناك عشرة زعماء في جبل العرب أكبر منه. وعندما عاد من الجيش العثماني وكان والده قد أُعدم استلم مشيخة بلدته "القرية" فقط. وفي الجبل كان زعماء آل الأطرش أقوى منه وأكبر منه ومدعومين من الدولة. لكن، خلال عدة سنوات..

- **صار زعيم سورية؟**

- بالضبط. وراحت الناس تمشي وراءه بكل فخر. كان سلطان الأطرش يخاطب عبد الغفار الأطرش بكلمة "عمي" وعبد الغفار يمشي وراءه لا إلى جانبه، سياسيا طبعا. وقد قال عبد الغفار الأطرش مرة بعد أحد الاجتماعات العامة مخاطباً أم منصور زوجة سلطان: "نحن لا نسير خلف زوجك ولكن خلف السرّ الذي وضعه فيه الإله". ولعمري ما هو

هــذا الســر غير مؤهلات الزعامة؟!. شخصيته شخصية زعيم حقيقي. أما الظــروف الــتي صنعته، فهي ظروف تلك المرحلة: تركيا والثورة العربية والــثورة عــلى فرنســا ثــم معارضة فساد الحكومات الوطنية في سورية والدكتاتوريات العســكرية. ستين سنة من النضال أعطت اسمه لمعاناً وهيبة لا تضاهى.

• هــل كــان منصــور الأطرش يسعى فعلاً إلى أن يكون زعيماً في حجم والده؟

- تصــرفاته كانت تدل على ذلك، ومن حرصي ومحبتــي أخلصت له النصــيحة. وفــي الذكــرى الســنوية الأولى لوفاة أبيه نشرت في مجلة "المســتقبل" (١٩٨٣/٣/٢٦) مقالة بعنوان "سلطان الأطرش .. رمز وطني" قــلت فيهــا: "المجــد هبة شعبية لمن أهّله تكوينه الشخصي للزعامة في الظروف الحالكة، فهو هالة معنوية تحيط بهامة مستحقها في حياته، وتقترن باســمه بعد وفاته. إنها لا تزول ولا تورّث". لكنه بعد وفاة والده وعمه زيد الأطــرش استقر في الجبل كأحد زعماء آل الأطرش. وربما ظن أنه أصبح أكــبر عمــراً مــن جميع آل الأطــرش. الناس تغيّرت. لا الطرشان ظلوا طرشــاناً ولا الدروز في جبل الدروز ظلوا كما كانوا. إنك اليوم تذهب إلى جــبل الــدروز فــتجد التقاليد وقد صــارت من الفولكلور، أما الناس فتحيا بطــريقة معاصــرة. فالموظف يمارس حياته كالموظف والضابط كالضابط، مــثله مــثل الشــامي أو الحمصــي والحلــبي. فالجميع صاروا متشابهين. والمواصــلات وحدت أنماط السلوك في سورية كلها. وابن السويداء يستطيع اليــوم أن يعمل فــي دمشق ويعود إلى بلدته في اليوم نفسه. وفــي أي حال

أيـــن ابن ديغول؟ وأين ابن ستالين؟ وأين ابن تشرشل؟ فليس بالضرورة أن يكون الابن مثل أبيه.

• أين ابن جمال عبد الناصر؟

- نعـــم. أين ابن عبد الناصر؟ بل أين ابن شكري القوتلي وابن جميل مـــردم وأبـــناء الشهبندر؟ وقديماً قالت العـــرب: "ولد النجيب لا يَنجُب، وإن نَجُبَ فاق أباه".

• لأن منصور الأطرش صهرك، فما تقويمك الشخصي له؟

- رجـــل "آدمي"، وفي بعض الأحيان كان "آدمياً" أكثر من اللازم. كنا أصـــحـــاب وبينـــنا محبّة حقيقية، ولاسيما عندما سكنّا معاً في بيروت قرابة الســـنة بعد هروبي من ســـورية إلى لبنان وخروج منصور من السجن في حزيـــران ١٩٦٧. عشـــرته حلوة ومريحة. لكنه دأب في السنوات الأخيرة عـــلى ممارســـة نشاط لا طائل منه، وليس فيه أي فائدة، بعضه مسموح به، وبعضـــه "مـــدوزن" في دوائر المخابرات. وأنا لا أستطيع أن أستسيغ ذلك، وأتســـاءل بحـــرقة:هل يعقل أن يذهب منصور الأطرش إلى بغداد ليحضر مؤتمـــرا أو ندوة يرأسها ويوجهها "رجل الدولة الخطير والمفكر الكبير" طه ياســـين رمضـــان الجـــزراوي، المجهـــول باقي الهوية أكان لجهة الأصل والنشـــأة، أم لجهـــــة التحصيل العلمي...؟! أو ندوة تلفزيونية يشرف عليها "أحمـــد ســـعيد العـــراق"، المدعـــو محمد سعيد الصحاف؟هل نقف في وجه المخططـــات الأميـــركية والإســـرائيلية بهذه الأساليب المضحكة في هزالها

والمبكية بدعم صدام حسين؟! أم نحقق وجاهة فارغة من أي معنى؟. والحال أن الوجاهة الحقيقية لها عنوان دائم في بيت سلطان الأطرش بل في بيته هو أيضا لو استقر فيه وحافظ على الخط التقدمي وأحسن قراءة علامات الأزمنة. أم هي مشورة السوء من معشر السوء، ممن احترف أساليب الكذب والنميمة والسمسرة..؟!. وأخيرا فإن صورة كاريكاتورية تخطر في بالي كلما فكرت بالفارق النوعي الكبير بين مؤهلات منصور ومناقبه، والحياة "المحشومة" التي عاشها، وسمعة أبيه وهيبة اسمه، وبين الأعمال السياسية الهزيلة التي يمارسها منذ سنوات: إنها صورة صياد مولع بالصيد وعنده مدفع ١٠٥ ملم يتسلى بإطلاقه على عصافير الدوري! وهو خير من يفهم هذا الكلام لأن رياضته المفضلة منذ طفولته هي الصيد، فهو مولع بها وبالسياسة...!

- **ياسين الحافظ؟**

- ياسين الحافظ نشأ مناضلاً ومثقفاً وشهوته إلى المعرفة هائلة. ثم أنه امتلك ذكاء وعقلاً ناضجاً وقدرة على الكتابة كان يقول لي انه تعلم الكتابة من قراءة نصوص لينين، وقلّد لينين في الكتابة. ياسين الحافظ صاحب تجربة اقتنع من خلالها أن لا أمل من متابعة المسيرة مع خالد بكداش فترك الحزب الشيوعي.

- **ياسين الحافظ هو من صاغ المنطلقات النظرية لحزب البعث في المؤتمر القومي السادس.**

- ياسين الحافظ* خرج من الحزب الشيوعي، وعمل مع الياس مرقص. الياس مرقص ظل ماركسياً ثم صار وحدوياً وناصرياً ولم يقترب قط من حزب البعث. أما ياسين الحافظ فاقتنع بتقدمية علي صالح السعدي والثورة الشعبية في العراق، فجاء إلى حزب البعث وإلى المؤتمر السادس وكان المنظّر الرئيسي في هذا المؤتمر**.

• إذن بدأ ياسين الحافظ في الحزب الشيوعي السوري، ثم التحق بحزب البعث، ثم أسس حزب العمال الثوري العربي ثم ... إلى السلام عليكم.

- وبقي يكتب إلى أن مات.

• لنعد قليلاً إلى الوحدة المصرية ـ السورية. لماذا لم يقترح أحد الوحدة المتدرجة مثلاً بدلاً من الوحدة الفورية؟

- لم يخطر في بال أحد في الحزب أن الوحدة ستكون على الشكل الذي حصل. الجميع اعتقد أنها ستكون اتحاداً فيدرالياً بقيادة جمال عبد الناصر. والشريك الأساسي في هذا الاتحاد هو حزب البعث وإن لم يكن الشريك الوحيد. كانت الديمقراطية جزءاً من ثقافة حزب البعث على مدى

---

* ولد في دير الزور سنة ١٩٣٠، وتطوع للقتال في فلسطين سنة ١٩٤٧ إلى جانب عبد الكريم زهور. أسس مع حمود الشوفي وحمدي عبد المجيد وآخرين "حزب العمال الثوري العربي"، وتوفي في بيروت سنة ١٩٧٩.

** عقد هذا المؤتمر في ١٩٦٣/١٠/٥.

ســنوات، والعمل الجبهوي عنصر أساسي من سياسته.في تلك الفترة أصبح أكرم الحوراني رئيساً لمجلس النواب، وبدأ نجم صلاح البيطار يلمع كوزير لــلخارجية، ويحاول أن يكون زعيماً في دمشق، بينما أكرم الحوراني زعيم حقيقــي في حماة وسورية كلها.هنا بدأ ميشال عفلق يشعر بالامتعاض. لذلك عــندما اشترط جمال عبد الناصر حل الحزب جاء هذا الشرط كالماء البارد الــذي ســكب عــلى جميع البعثيين، فوقعوا في حرج شــديد، أو أمام خيار صــعب: إمــا الوحــدة أو حل الحزب. ووقفت الأكثرية الحزبية مع الوحدة بالطبع. ولم يحاول أحد أن يختار الوحدة مع بقاء الحزب لأن عبد الناصــر مــا كان ليقبل ذلك*. وكنا بدأنا، كبعثيين، نعشق عبد الناصر وجميعنا صار يحــب عــبد الناصــر. أنا شخصياً أتذكره حينما أتى إلينا في أحــد الألوية العســكرية، وعندما وصل إلى جانبي قدمت نفسي إليه بالقول الملازم المجنّد نــبيل الشويري، سيدي الرئيس. وصافحته تلك المصافحة الشــديدة وندمت عــلى أنــني أتعــبت له يــده. لقد رّف قلبي محبّة له كما حــدث مع معظم الــناس. أما البعثيون من ذوي التجربة والوعي فقد خافوا لا على الحزب بل عــلى الوحدة، لأن سورية لا تُحكم بالطريقة التي تُحكم بها مصر. وخافوا، مــنذ الــبداية، مــن انتكاس الوحــدة. لكن لا أحد كان يمتلك المقدرة على المجادلــة فــي هذا الشــأن. وبعد الاستفتاء على الوحدة دعا عفلق نحو ٦٠ رجــلاً من المستوى القيادي في الحزب، وارتجل حديثاً غير مذكور الآن في الــتاريخ الرسمي للحــزب. وفي هذا الحديث نوع من تمنين الآخرين، كأنه يــريد أن يقــول إنــني اشتغلت طويلاً مع فتيان، والآن أنــا أعمل مع عبد

---

* في ١٩٥٨/٢/١ اجتمعت قيادات الفروع وأبلغ عفلق إليهم قرار القيادة القومية بحل الحزب في سورية.

الناصـــر وليـــس مع "أولاد" يثرثرون دائماً بضرورة القيام بمحاولة لتطوير الوضع التنظيمي للحزب. لقد ظن أنه أصبح وعبد الناصر شيئاً واحداً.

● من هم الذين حاولوا تطوير الحزب آنذاك؟

- إنهـــم كثيرون، وقد انبثقت منهم قيادة قطرية في مؤتمر الحزب سنة ١٩٥٧، والتفصـــيلات موجـــودة في مذكرات الحوراني الذي امتعض من النتائج ولكنه قرر التعاطي معها. أما عفلق فقد ظهر موقفه في ذلك الخطاب الـــذي تكلمنا عليه قبل قليل. وللتذكير، عندما انتهى ميشال عفلق من خطبته أمـــام الحاضـــرين وقف أحد الأعضاء وقال له: يا أستاذ صنعتم وحدة، هذا جيـــد. لكن هـــل حصلتم على ضمانات كي لا تكون القيادة فردية، وحتى لا تقـــع أخطـــاء تهـــدد الوحـــدة نفسها؟ هنا، التفت إليه ميشال عفلق وقـــال: ضـــمانات؟ نحن نقوم بعمل تاريخي ونؤسس وحدة عربية وأنت تتحدث عن ضمانات؟ ما هذه "الولدنة"؟ أخبرني عبد البرعيون السود أنه سمع واحداً من الحاضـــرين، بعدما سمع جواب ميشال عفلق، يتمتم بالقول: "ياالله يا إخوان، كل واحد يرجع إلى عشيرته أو إلى طائفته. لم يبق هناك حزب".

● هل حدث ذلك حقاً؟ أي هل عاد الجميع إلى طائفته وعشيرته؟

- نعـــــم، حصـــل هذا جزئياً. في أي حال أخذ جلال فاروق الشريف خطـــاب عفـــلق لأنـــه المســـؤول عن تحرير جريدة "البعث" وطبعه على الستانســـل، وأراد إرســـاله إلى الجـــريدة كي يصدر في اليوم التالي. لكن ميشـــال عفلق سحبه ومنع نشره. لم يخالف الإجماع على الوحدة في سورية

إلاّ خالد بكـــداش وخالد العظم*. الوحدة قامت على مبايعة أهل الحل والعقد، ثــم مــبايعة الناس. لا ديمقراطية ولا شيء من ذلك. فقط مبايعة أهل الحل والعقد.

● والضباط؟

– كلا، ليس الضباط بل زعماء سوريا. الضباط ما كان في استطاعتهم تســيير أي أمــر لــو أن حزب البعث وأكرم الحوراني رفضا ذلك. من هم الضباط؟ الضباط بعثيون يتلقون الأوامر. أبو عبدو (أمين الحافظ) وضع يده عــلى مسدّســه وقال. مَن يضع شروطاً على عبد الناصر لم يخلق بعد.عبد الغــني قــنوت ومصطفى حمدون إذا لم يرغب أكرم الحوراني في أمر فهما سيرفضــانه بالــتأكيد. ولولا موافقة الحوراني ما كانا ذهبا إلى القاهــرة**. الحكــم كــان في يد الأحزاب، والضباط يتلقون الأوامر من هؤلاء الزعماء. أهل الحل والعقد بايعوا عبد الناصر، أما الاستفتاء فهو مبايعة العامة. الناس بــايعت عــبد الناصر غريزياً. أما أهل الحل والعقد فلكل واحد منهم سبب. أولاً، مشــروع الوحدة كان أمراً لا خلاف عليه. الجميع يريد الوحدة. ثانياً،

---

* اعــترض النائبان في البرلمان السوري صالح عقيل وهاني السباعي على الدستور الموقت الذي عرض على مجلس النواب السوري في ١٩٥٨/٢/٥. وفي هذه الجلسة سجل غياب خالد بكداش.

** ضم الوفد العسكري الذي سافر إلى القاهرة في ١٩٥٨/١/١٢ كلا من: اللواء عفيف الــبزري والمقــدم مصطفى حمدون والمقدم أحمد عبد الكريم والمقدم أحمد حنيدي والمقــدم طعمــة العودة الله والمقدم حسين حدة والمقدم عبد الغني قنوت فضلا عن جــادو عــز الديــن ومصطفى رام حمداني وأكرم ديري وجمال الصوفي وياسين فرجاني وعبد الله جسومة.

أولاً، مشـــروع الوحدة كان أمراً لا خلاف عليه. الجميع يريد الوحدة. ثانياً، كـــل زعيم توهم أن عبد الناصر أقرب إليه من خصومه فـــي سورية. حتى رشـــدي الكيخيـــا اعتقد أن عبد الناصر أقرب إليه من البرلمان الذي أمسى أنصــاره فيــه أقلية، ولاسيما بعدما صـــار أكرم الحوراني رئيساً للمجلس. ميشـــال عفلق اعتقد أيضاً أن عبد الناصـــر أقرب إليه من أكرم الحوراني، وأنـــه إذا كـــان لا بد من زعيم، ليكن عبد الناصر. وأكرم الحوراني تحمّس لـــلوحدة جدياً، ورأى أن الوحدة تبقى أفضل من الصراع الداخلي الذي نشب فـــي ســـورية آنـــذاك، والـــذي كان ينحو نحو واحد مـــن احتمالين: إما المؤامـــرات الأميركية أو الشيوعية. يقول محمد حسنين هيكل: عندما قامت الـــثورة فـــي بغـــداد، في ١٤ تموز١٩٥٨، وسقط حلف بغـــداد، أدرك عبد الناصـــر أن مرحـــلة جديـــدة ستبدأ في المنطقة. ولا بد من إعادة النظر في السياســـة الخارجيـــة، وإعادة تقويم الإمكانات المتاحة، والاحتمالات المقبلة. وجمـــع عـــبد الناصـــــر عشرة من كبار المسؤولين وأصحاب الرأي. وإذا بهؤلاء العشرة كلهم مصريون.

● هذا جرى بعد قيام الوحدة.

— نعم، بعد ١٤تموز١٩٥٨. والغريب أن هيكل لم يلفته عدم وجود أي ســـوري بيـــن هؤلاء العشرة، وكان مرّ على الوحدة ستة أشهر فقط، والود مازال قائماً بين عبد الناصر والزعماء السوريين المفترضين أنهم شركاء في الوحـــدة. ويقـــول بشير العظمة في مذكراته*، انه بعد سنة على وجوده في

* "جيـــل الهـــزيمة بيـــن الوحدة والانفصال"، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩١.

القاهرة كوزير مركزي للصحة، أي بعد سنتين على الوحدة، حاول في أثناء عـرض موازنة الدولة على مجلس الوزراء أن يناقش مسـألة توحيد أعباء الدفاع والأمن في الإقليمين، وأنه لا يجوز أن يبقى الإقليم الشمالي يتحمل ٥٣ % والجـنوبي ١٧% فقط. وأضاف العظمة أن ذلك ربما كان سبباً في تأخر التـنمية في سـورية. فقوطع كلامه بالصخب والهياج، وكان أول الهائجين المشـير عبد الحكيم عامر. فتدخل عبد الناصـر قائلاً: "دعوا الوزير الفني يُكمل".

- **الوزير الفني؟**

- نعـم. وكـان عبد الناصر يقصد أن يقول لبشير العظمة: ما علاقتك بهـذا الموضـوع. كان جواب عبد الناصـر في نهاية النقاش أن لا مجال إطلاقـاً لتغيير ما كان قبل الوحدة وسيبقى القديم على حاله. والآن بعد أكثر مـن أربعـة وأربعين عاماً نتساءل: هل كان هناك وحدة فعلية بين سورية ومصـر في سنة ١٩٥٨ وانحلت هذه الوحدة بالانفصال في العام ١٩٦١؟ أم أن المسألة كانت في جوهرها تحكم عبد الناصر بسورية؟

- **حسـناً، تمـت الوحدة على الرغم من أن الجيش كان مشرذماً إلى ثلاث كـتل. وكل كتلة تأتمر بأحد السياسيين:كتلة الضباط الشوام برئاسة عبد الكريم النحلاوي، وكتلة أحمد عبد الكريم، وفيها طعمة العودة الله وأحمد حـنيدي، وكتـلة الضباط البعثيين. تمت الوحدة وجرى حلّ الحزب. هل كنت مع حلّ الحزب؟**

- كان موقفي هو نفسه موقف الحزب، مع أنني شعرت بالامتعاض. لكن ثقتنا في ذلك الوقت بعبد الناصر كانت كبيرة ومحبتنا له كانت أكبر. ولكن دعني أصحح لك معلوماتك العسكرية عن الجيش السوري يومها:

أولاً: لم يكن هناك شيء اسمه عبد الكريم النحلاوي. ربما كان ضابطاً صغيراً مغموراً لا يسمع به أحد. كانت كتلة الضباط الشوام يتزعمها اللواء سهيل العشي الذي كان من جماعة القوتلي، وضد الحوراني وضد البعث وضد الاتجاهات التقدمية واليسارية عموماً. ومذكراته التي صدرت من بضع سنين تقول ذلك، بل تقول أكثر من ذلك: يخرج القارئ بعد مطالعتها بانطباع أنّه لا يزال عند أفكاره التي كونها في العام ١٩٤٧ في القصر الجمهوري في المهاجرين رئيساً للغرفة العسكرية في رفقة شكري القوتلي...! وأكثرية كتلة الشوام هكذا. لكن في الوقت الذي نتكلم عليه، كان العشي وكل من معه قد أدركوا حقيقة قوتهم في الجيش بسبب عصيان قطنا* وأنهم لا شوكة لهم في الجيش ولا في الشارع ولا في المجلس النيابي. وهنا بدأ التآمر الذي انخدع به المشير عبد الحكيم عامر في ما بعد.

ثانياً: الكتلة الثانية هي كتلة أمين النفوري وأحمد عبد الكريم وأحمد حنيدي وطعمة العودة الله وهم على الترتيب من القلمون شمال دمشق، ومن حوران

---

* وقع عصيان قطنا في ١٩٥٧/٦/١.

ومـــن ديـــر الزور ثم من حوران أيضاً. وكانوا ضد أكرم الحوراني وضد الـــبعث ومـــن أركـــان عهد الشيشكلي. لكن بعضهم تطور في ما بعد فكرياً وسياســـياً وأنضجتهم الأحداث ولا سيما أحمد عبد الكريم والنفوري، فاقتربوا من الاتجاه التقدمي والتأقلم مع الديمقراطية.

ثالـــثـــاً: خفّـــت حدة الصراع داخل الجيش وظهرت كتلة جـــديدة هي كتلة عفيـــف البزري والضباط الشيوعيين اليســـاريين وأكثرهم فلسطينيون*. وأنا أتكـــلم دائمـــاً عـــلى هذه الفـــترة بين عصيان قطنـــا في ربيع ١٩٥٧ وبين أواخـــر ١٩٥٧ وأوائـــل ١٩٥٨، وهي الفترة التي ورد سؤالك عنها. فعندما ذهـــب ضباط الجيش إلى القاهـــرة كان ذلك بقرار من مجلس الدفاع، وهو المجلس الذي تشكل في تلك الفترة ليمنع حدة الصراعات التي أوصلت الجيش إلى عصـــيان قطـــنا، وكـــان المجلس برئاسة عفيف البزري رئيس الأركان ومؤلفاً من أهم ضباط الجيش السوري من جميع الاتجاهات السياسية.

---

* أول دفعـــة مـــن الضـــباط الفلسطينيين الذين تخرجوا في الكلية العسكرية في قطنا ضـــمت الأسماء التالية: وجيه المدني، صبحي الجابي، عبد العزيز الوجيه، بهجت الأمين، عبد الرزاق اليحيى، وليد جاموس، عبد الكريم العمر، محمد الشاعر، حسن أبو رقبة، مصباح البديري، طاهر دبلان، عثمان حداد، فتحي سعد الدين، أمين نور الله، سمير الخطيب، بحري سكيك، محمد رفعت الحلبي، رشيد جربوع.

● **يقال ان بعض الفروع لم تحل نفسها، بل بقيت تعمل سراً، مثل فرع دير الزور؟**

- فرع اللاذقية لم يحل نفسه أيضاً*.

● **كيف تشكلت اللجنة العسكرية في تلك الفترة؟**

- بدأت منذ عصيان قطنا في سنة ١٩٥٧ الذي قاده مصطفى حمدون وعبد الغني قنوت وضباط البعث. كان محمد عمران حينذاك نقيباً وله نفوذ واسع في الجيش. وكان لصلاح جديد نفوذ قوي وكذلك لحافظ الأسد وعبد الكريم الجندي ومصطفى طلاس. كان هدف أكرم الحوراني من عصيان قطنا منع شكري القوتلي من إحكام سيطرته على الجيش والحيلولة دون عزل السّراج كي لا يمهد ذلك للانقضاض على حزب البعث، أو حلّ البرلمان وإجراء انتخابات مزورة بعد ذلك. ولإجهاض خطة القوتلي اتفق مصطفى حمدون وأكرم الحوراني على القيام بعصيان، لا بانقلاب، يكون هدفه منع نقل عبد الحميد السّراج، والتهديد بالقيام بانقلاب عسكري إذا أصر

* يقول سامي الجندي في كتابه "البعث" إنه دعي في آذار ١٩٥٩ إلى اجتماع في حلب ليتبين له أن بعض قياديي حزب البعث شكلوا لجنة لدراسة الأوضاع واتخاذ القرارات. وفي صيف ١٩٥٩ عقد هؤلاء وآخرون معهم مؤتمراً للحزب. وقد اتخذ هذا المؤتمر، غير الرسمي، قراراً بإلغاء قرار حل الحزب.

القوتــلي عــلى نقله. كان في إمكان أكرم الحوراني القيام بالانقلاب، لكنه لا يــريد أن يخســر الديمقراطية. نفــذ مصطفى حمدون والضباط العصيان، وكــان وزيــر الدفـــاع حيــنذاك خالــد العظم، وبدأت المفاوضات بين قادة العصــيان والحكومـــة. الكتلة الأساسية من الضباط الشوام المؤيدين لشكري القوتــلي كانت تريد القضاء على العصيان وتطبيق الأحكام العسكرية. وتبين أن ٧٠% مــن الجيش مع مصطفى حمدون. وكان أكرم الحوراني يفاوض وبيــده ورقة العصيان، لكن في النهاية أعيدت الحال إلى ما كانت عليه، من غيــر أن يعاقب أحد. كان يعتقد أن ســورية مقبلة على انتخابات نيابية وفي هذه الانتخابات سيصبح البعث أكثرية، أو أكثرية مع حلفائه، ولم يبق لرئيس الجمهوريـــة إلا سنة واحـــدة. وفي هذه الحال سيتمكن حزب البعث وحلفاؤه مـــن إيصـــال مَـــن يريدون إلى الرئاســـة. لكن عبد الناصر أرسل نصيحة بواســطة محمــود ريـــاض وعبد المحسن أبو النور يدعو الضباط فيها إلى تطويـــر العصيان إلى انقلاب كامل، والتخلص من عذاب المناورات وكشف المؤامـــرات. وبعـــد ذلـــك يتفق الضباط وعبد الناصر على المستقبل. أكرم الحوراني كان يريد الانتخابات لا الانقـــلاب، وكانوا يسمونه شيخ العقل أي أنـــه لا يقـــبل إلاّ الحـــلول العقلانية. وفي النتيجة انكشـــف التنظيم الحزبي الســـري في الجيش. ومنذ تلك اللحظة ظهرت فكرة إعادة تنظيم الحزب من وراء ظهـــر الحـــزب وأكـــرم الحوراني. ومنذ ذلك اليوم بدأت فكرة اللجنة العســـكرية* التي تألفت من الضباط الذين كانوا ضد قرار الحل الذي توصل

---

* أسســت في القاهرة في أواخر سنة ١٩٥٩، وبدأت بخمسة ضباط هم: المقدم محمد

إليـــه أكـــرم الحوراني. ولكن، في أثناء الوحـــدة جرت عملية نقل لـِ ٥٠٠ ضابط إلى القاهرة وصار هؤلاء بلا عمل*.

• من ضمنهم كتلة الضباط الفلسطينيين؟

– تماماً. هؤلاء الضباط الفلســـطينيون سرّحوا في معظمهم. والعجيب أن اللجـــنة العسكرية تمكنت من تشكيل تنظيم ســـري تحت سمع المخابرات المصـــرية وبصـــــرها. لمـــاذا؟ لأن فـــرع اللاذقية في الحزب، وكان جيد التـــنظيم، استمر في العمل سراً، وظهر في الحزب محور جديد هو محور حمـــص – دير الزور – اللاذقية. فرع دير الزور كان ضد جلال السيد. في حمـــص كان جناح عبد البرعيون السود هو الناشط لا أنصار الأتاسية. في اللاذقيـــة كـــان وهيب الغانم لا مصطفى الحـــلاّج. في ذلك الوقت لم تظهر

عمـــران (المخرّم)، الرائد صلاح جديد (دوير بعبدا)، الرائد أحمد المير (مصياف)، النقيب عبد الكريم الجندي (السلمية)، النقيب حافظ الأسد (القرداحة). ثم انضم إليهم كـــل مـــن عـــثمان كـــنعان (الاســـكندرون)، سليم حاطوم (السويداء)، حمد عبيد (الســـويداء)، موســـى الزعـــبي (حـــوران)، مصطفى الحاج علي (حوران)، أحمد ســـويداني (حوران)، أمين الحافظ (حلب)، حسين ملحم (حلب)، محمد رباح الطويل (اللاذقية)، مصطفى طلاس (الرستن)، سليمان حداد (بيت ياشوط).

* مـــن بين هؤلاء، علاوة على أعضاء اللجنة العسكرية: نزار الجندي، شفيق عبده، عـــبد الغـــني قنوت، عدنان دباغ، حسن شهوان، محمد حاج رحمون، نواف حمزة، جابر الصبح، محمود جديد، أحمد صقر، توفيق جدعان، محمد إبراهيم العلي.

بذور الطائفية قط. أكثرية فرع دير الزور من السنّة. عبد البرعيون الســود وجماعــته فــي حمص سنة أيضاً. وكان هناك بعثيون علويون مع الأتاسية وليــس مع عبدالبرعيون السود مثل سليمان العلي. وهيب الغانم في اللاذقية عــلوي. إذن لــم تكــن نشأت في الحزب قصة علوي وسنّي بالشكل الذي يتحدثون عنه اليوم.

- **بدأت الخلافات بين البعثيين وعبد الناصر تكبر بالتدريج. وكان في رأس الخلافــات حكــم المخابــرات والقمــع الــذي مارسه ضباط المخابرات المصريون في سورية....**

– السوريون في سورية أسوأ.

- **تقصد عبد الحميد السرّاج؟**

– طــبعاً. عــبد الحميد السرّاج وعبد الوهاب الخطيب وبرهان أدهم. هؤلاء أسوأ من الضباط المصريين.

- **في هذا السياق استشهد فرج الله الحلو في السجون السورية، ماذا تتذكر من تلك الفترة؟**

– أتذكر القمع الرهيب الذي طال الحزب الشيوعي السوري.

● وطال البعثيين أيضاً.

- لا، ليس مثل قمع الشيوعيين. هذا القمع الذي استعملت فيه أساليب لم تستعمل منذ أيام العثمانيين. إنها قصة التعذيب حتى الموت، وتنفيذ الأجهزة إرادة الحاكم من دون الرجوع إلى القانون ومن دون الخوف من سلطة القانون*. سورية لم تعرف هذا الأمر إلاّ عندما قمعت فرنسا ثورة ١٩٢٥. قبلها عرفت سورية ضروباً من القمع في زمن السلطان عبد الحميد وفي أيام جمال باشا. لكن تاريخ سورية المعاصر منذ انتصار الحركة الوطنية السورية على الفرنسيين في سنة ١٩٣٦ حتى بداية الوحدة، لا يعرف هذا النوع من الإرهاب الذي وقع على الشيوعيين. اعتقلوا جميع الشيوعيين باستثناء الذين هربوا. خالد بكداش غادر إلى موسكو. أما منظمات الحزب الشيوعي فجميعها كُشفت ووضع أعضاؤها في السجن وتعرضوا للتعذيب ما عدا الذين تعهدوا خطياً بترك الحزب وبمبايعة عبد الناصر. وظل الكثيرون في السجن حتى جرى الاتفاق مع خروشوف على بناء السد العالي فأفرج عنهم وخرجوا أشلاء. أنا أعرف جورج عويشق مثلاً، وهو حتى الآن لا زال يعرج. اعتقدنا أنه سيموت لأنه خرج بعشرين مرضاً ثم تحسنت حاله بعد ذلك ولا زال حيّاً حتى الآن**. وثمة نساء اغتصبن، وفي ما بعد هاجر الكثير من الشيوعيين وعمل البعض مع المخابرات.

---

* من الذين ماتوا تحت التعذيب: فرج الله الحلو (حصرايل)، شريف الدروبي (حمص)، بيار شدرفيان (حلب).

** ترشح جورج عويشق للانتخابات النيابية في سنة ١٩٥٤. أما أشهر الذين تعاونوا مع المخابرات فهما: ميشال أبو زيدان ورفيق رضا.

● اتسعت دائرة القمع لتشمل البعثيين، ولذلك استقال الوزراء البعثيون*.

- اشتد التضييق على البعثيين، لكن لم يحصل تنكيل بهم مثلما حدث مع الشيوعيين. أكثر الذين صمدوا هم من كنا نعتقد أنهم انتهازيون، وهم من أنصار أكرم الحوراني. وأكثر الذين صاروا مع المخابرات هم الذين كنا نعتقد أنهم عقائديون من جماعة ميشال عفلق.

● بماذا تفسّر هذه الظاهرة؟

- المنشأ الطبقي يلعب دوراً مهماً في هذا الشأن، وكذلك شخصية القائد. أكرم الحوراني ظل حتى آخر أيامه يرتاد المقهى ويجلس إلى الناس. يحب الناس والناس تحبه. ميشال عفلق ليس من هذا الطراز.

سأروي لك موجزاً لجدال دار بيني وبين أكرم الحوراني. كان سامي صوفان ومصطفى الحلاج من أعز أصدقائي. وجاء سامي صوفان إليّ للتشاور في العرض الذي تلقاه بأن يشارك في انتخابات الاتحاد القومي، وطلب إليّ أن أؤيده. وأنا أعرفه نظيف الكف، وليس غوغائياً مثل أديب النحوي الذي تعاركت معه في منزل منصور الأطرش على الموضوع نفسه. سامي صوفان لم أتعارك معه لأن طريقته في الحديث جعلتني أشعر أن له وجهة نظر في هذا الشأن. وفي النقاش مع أكرم

---

* في ١٩٥٩/١٢/٢٢ استقال الوزراء البعثيون من حكومة الوحدة وهم: أكرم الحوراني، صلاح البيطار، مصطفى حمدون، عبد الغني قنوت.

الحوراني عرضت وجهة نظر سامي صوفان بشيء من الحماسة. واعتقد أكرم الحوراني أنني أعرض رأيي الذي يقول بخوض الانتخابات ثــم نعارض من الداخل.

- **أكرم الحوراني كان ضد خوض الانتخابات؟**

نعــم. لكن أكرم الحوراني قال لي: يا نبيــل، لنفترض أننا شاركنا في الانتخابات، وفي إحدى جلســات مجلس الأمة أدليت برأي معارض للحكــم. من سينشر هــذا الرأي؟ وأقول لك أكثر من ذلك، أضاف الحوراني، لو أن الصحف نشرت فــي اليوم التالي كلاماً مناقضاً لخطابي في مجلس الأمة فكيف سأكذبه. هل يوجد أمامي حينذاك إلاّ الاستقالة؟ وما دام الأمر كذلك فلماذا أجرب الآن؟ هل هناك ديمقراطية من غير صحافة حــرة؟ فقلت له: معك حق يا أستاذ وتخليت عن النقاش.

- **ماذا كنت تفعل في تلك الفترة؟**

- رجعــت مــن الجــندية إلى المحامـــاة. بدأت أعمل محامياً تحت الــتدريب، مــع أني لم أحب هذه المهنة ولم أنسجم معها. فعرض علي عبد الغــني قــنوت وظيفة في وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل*. حينذاك أراد

---

* ولــد عــبد الغــني قــنوت فــي حماه سنة ١٩٢٥. أصبح وزيرا للعمل والشؤون الاجتماعية في حكومة الوحدة سنة ١٩٥٩. عين وزيرا للأشغال العامة سنة ١٩٧٠ عقــب قيام الحركة التصحيحية بقيادة حافظ الأسد. الأمين العام لحركة الاشتراكيين العرب. توفي في ٢٠٠١/٣/٣.

المصـــريون إنشاء "مؤسسة التأمينات الاجتماعية" كما هو الحال في مصر. وكـــلف بتأسيسها رفيق بعثي اسمه رفيق طيلوني، وكان مسؤولاً عن دائرة الـــنقابات، وكــــان يدعم خالـــد الحكيم في هذا المجـــال. أرسل عبد الغني قـــنوت فـــي طلـــبي وقـــال لي: هل تقبل أن تعمل فـــي مؤسسة التأمينات الاجـــتماعية مديـــراً لفـــرع دمشـــق؟ رفيق طيلوني سيكون المدير الاقليمي لســـورية، والمديـــر العام هو فيصل آقبيق وهو لا علاقة له بالحزب. وقبلت وظيفـــة مساعد محامي المؤسسة وكان اسمه محمد الحسن. وفعلياً أصبحت مديـــراً لمكتب دمشق. كنت مسؤولاً عن مكتب دمشق وكان عبد الحليم خدّام مســــؤولاً عـــن مكتب اللاذقية. وكان لي دور من خلف الستار في محاولة إعـــادة تـــنظيم الحزب. ميشال عفلق كان في بيروت، وصلاح البيطار في القاهـــرة. ذهبت إلى القاهرة في مهمة رسمية لمؤسسة التأمينات الاجتماعية فـــزرت صـــلاح البيطار واتفقنا على مناقشة وضع الحزب عندما يعود إلى دمشق.

كنت بدأت أتأثر بالماركسية وأردد أن من الضـــروري الاستفادة من هذه النظرية. ووافقني صلاح البيطار. وراح بعض الشـــباب يميلون إلى هـــذا الاتجاه ومنهم خالـــد الحكيم وحمود الشوفي ومحمد بصل وراتب النشواتي. لكننا اكتشفنا أن صـــلاح البيطار يريد العمل كزعيم سياســـي مستقل ويريدنا من أنصاره فقط. وفشلت محاولة إعادة تنظيم الحزب، والذي أفشلها هو صلاح البيطار.

- **قـــبل المحامـــاة كنت طالباً في الجامعة، كيف تتذكر سنوات الجامعة السورية في تلك المرحلة؟**

- فــي فترة دراستي في كلية الحقوق بالجامعة السورية كان نور الدين الأتاسي مسؤولاً عن شعبة الحزب فيها، وكان معه إبراهيم ماخوس*. في تلك الأثناء، وبالتحديد في عهد أديب الشيشكلي، كنت مسؤولاً عن التنظيم السري فــي دمشـــق. ولكــن، مــع سقوط الشيشكلي تخرج نور الدين الأتاسي، وأصــبحت أنا في السنة الدراسية الأخيرة. وفي هذه الأثناء عُرض عليّ أن أكــون أميناً لشعبة الجامعة، والجامعة في تلك الفترة كانت تسقط حكومات. وقــد أصــبحتُ، بالفعل، أميناً للشــعبة مع أن ثلاثة من المتقدمين عليّ في الحــزب كــانوا أعضاء في تلك الشــعبة آنذاك هم: إسماعيل عرفة من دير الزور، وسامي صوفان من يبرود، ومنير عبد الله من اللاذقية، ولكنهم أيدوا ترشــيحي. وقــد ترشح ضدي رفيق اسمه شريف الراس ونال صوتاً واحداً فقط.

- **شريف الراس الكاتب؟**

- نعــم. وهو حموي ومن أنصار أكرم الحوراني المقربين، وابن أكرم الحوراني تزوج، في ما بعد، ابنة شريف الراس.

---

* ولــد في سنة ١٩٢٩، وانتسب إلى حزب البعث في أوائل الخمسينات. عين وزيراً للصحة في حكومة البيطار الأولى في ١٩٦٣/٣/٩، ثم أصبح وزيراً للخارجية في حكومة الدكتور يوسف زعين في ١٩٦٥/٩/٢٣. أما نور الدين الأتاسي فقد ولد في حمــص ســنة ١٩٢٩، وعين وزيراً للداخلية في ١٩٦٣/٨/٤، وأصبح أميناً عاماً لــلحزب ورئيســاً لــلجمهورية في ١٩٦٦/٢/٢٣. لكنه اعتقل في ١٩٧٠/١١/١٦ وأفرج عنه في ١٩٩٢/٨/٢٨ وتوفي بالسرطان في باريس في ١٩٩٢/١٢/٢.

- **ما ذكرياتك عن تلك الفترة؟**

- كان حزب البعث في الجامعة هو الأقوى عددياً ومراساً بين جميع الأحزاب، مع أن الإخوان المسلمين والقوميين السوريين كانوا موجودين بقوة. لكن، حينما كنا نخرج في تظاهرة يسير معظم الطلاب معنا. لكن حينما يخرج القوميون السوريون بتظاهرة يسيرون وحدهم. وفي أي حال، فقد كان شهر رمضان هو شهر المشاكل دائماً، وفي كثير من المرات وقع جرحى جراء الاشتباكات، وفي بعض الحالات سقط قتلى. وكانت معظم هذه المشكلات تقع لأسباب دينية كالإفطار في رمضان. أنا مسيحي، لكن كان البعض يظن أنني درزي، لأن شاربيّ غليظين وأكثر رفاقي من الدروز، وكنت شرساً مثلهم. وكي أتجنب تفاقم المشكلات بعد أن أصبحت أميناً لشعبة الحزب في الجامعة، دعوت إلى اجتماع مع قيادة الإخوان المسلمين في الجامعة واقترحت عليهم أن نقسم الجامعة طوال رمضان إلى قسمين: الندوة للبعثيين ولمن يريد التدخين والإفطار، وبقية الجامعة يمنع فيها التدخين والإفطار. وعلى هذا الأساس فإن أي طالب يُضبط وهو يدخن في حرم الجامعة لسنا مسؤولين عنه قط ويمكن منعه من ذلك. وفي المقابل لا يسمح لأي طالب من الإخوان المسلمين أن يدخل إلى الندوة لإلقاء عظة أو ليحتج على التدخين أو الشرب. وقد قبل الإخوان المسلمون هذا الاقتراح، ومر شهر رمضان بلا مشكلات.

- **هل تتذكر حادثة تصدي الدكتور قسطنطين زريق للشرطة حينما اقتحمت حرم الجامعة؟**

- كنت موجوداً آنذاك. وأتذكر أن إبراهيم ماخوس دخل إلى مكتب قسطنطين زريق، وكنت معه، وأمسك بصورة أديب الشيشكلي من على الحائط وحطمها على الأرض بعد أن قال: "مَن وضع هذه الصورة؟ لا يجوز أن توضع صورة هذا الكلب هنا". فأجابه قسطنطين زريق: "لا يا ابني. هذه صورة رئيس الدولة".

لقد كان دخولنا وإبراهيم ماخوس إلى مكتب رئيس الجامعة اعتداء على مركز الدكتور زريق، وهذا لا يجوز. لكننا كنا ثائرين على الشيشكلي بعنف وغضب. هذا ما شاهدته بعيني. لكن قصة اقتحام الشرطة حرم الجامعة وتصدي قسطنطين زريق لها بجسده لم أشاهدها عياناً لكنني علمت بها سماعاً. كان الدكتور زريق يريد أن يحمي الطلاب، وأنا نفسي هربت بمساعدة ملازم ثانٍ اسمه عثمان كنعان وكان بعثياً أيضاً*.

* كان قسطنطين زريق علما مشهورا في سورية آنذاك واسمه متداول لتولي وزارة الخارجية، وكان يشغل رئاسة الجامعة السورية في سنة ١٩٥٢. وفي إحدى التظاهرات الطالبية التي خرجت للمطالبة بالدستور وعودة الحياة البرلمانية وإطلاق المعتقلين، وبينما كانت الشرطة تطارد الطلبة، اقتحمت مجموعة عسكرية حرم جامعة دمشق، وكانت المرة الأولى التي يتجرأ فيها العسكريون على مثل هذا التصرف. ونزل زريق بنفسه ليتصدى للمجموعة العسكرية التي كانت بقيادة ضابط صغير برتبة نقيب. فما كان من هذا الضابط إلا أن اعتدى باللكم على زريق. وعلى الرغم من الاعتذار الشديد من السلطات الإنقلابية، غير أن زريق أيقن أن لا سبيل للتعايش مع العسكر، وغادر دمشق إلى بيروت.

- **في ٢٨ أيلول ١٩٦١ وقـع الانفصال. والسؤال هو: ما دام الشعب السـوري كان كله تقريباً مع الوحدة، وما دام حكـم عبد الناصـر كان موجوداً مباشرة في سورية، فكيف تمكن الانقلابيون من أن ينجحوا في انقلابهم؟**

– أتذكر حادثة وقعت قبل يومين من الانفصال. فقد كان لي صديق ضابط في الجيش اسمه عبد الرحمن خليفاوي.

- **صار رئيس وزراء سورية في ما بعد.**

– نعـم. وكـان قـبل ذلك قائد دورتنا في سلاح المدرعات، وكان مصـطفى طلاس يعمل مدرباً فيها. في تلك الفترة عزل عبد الحميد السّراج واسـتدعي إلى القاهـرة، وسـلمت سـورية إلى المشير عبد الحكيم عامر. وأردت الـتحدث إلى خـليفاوي في شأن الوضع المتفجر لأن عزل السّراج مسـألة خطيرة. سهرنا طويلاً وشربنا كثيراً. وتعليقاً على مسألة السّراج قال لـي: يـا أخـي غريب عقل عبد الناصر. لم يبق معه في سورية إلاّ كلب الحراسة، فكيف يبعده؟

- **هذه الواقعة حدثت قبل الانفصال بيومين؟**

– نعم. وأضاف خليفاوي: لم يبق أحد مع عبد الناصر في سورية. الشرطة العسكرية قادرة على القيام بانقلاب وحـدها. كل الناس ضده، والجيش ضده. إن فرقة هجانة (وكان يحتقر البدو كثيراً) إذا جاءت من البادية إلى الشام ستنجح في تنفيذ انقلاب.

* **تماماً مثلما فعل حيدر الكزبري.**

- خليفاوي رماها كلمة عابرة ولم يكن له علم بما كان يجري في الخفاء. في اليوم التالي وقع الانفصال وظن الناس أن السّراج هو بطل الانقلاب*.

* **لأنه أبعد إلى القاهرة معزولاً.**

- بالفعل. فقد قام أنصار السّراج بتظاهرات الابتهاج. لكن سرعان ما اكتشفوا أن الذين قاموا بالانقلاب هم عناصر تنظيم الضباط الشوام، أي بطانة عبد الحكيم عامر وأعداء البعث. وأعيد التذكير أن الوحدة بين مصر وسورية لم تتحقق، وإنما الذي تحقق هو استفتاء على حكم عبد الناصر لسورية. ورويداً رويداً تحولت جميع القوى الأساسية ضد حكم عبد الناصر بما في ذلك الجيش والزعماء. كانت مجرد بيعة أهل الحل والعقد ثم بيعة العامة. أهل الحل والعقد سحبوا البيعة من عبد الناصر، أما العامة فبقيت

---

* جرت الوقائع الأخيرة قبيل الانفصال على النحو التالي: قدم عبد الحميد السراج تقريرا إلى جمال عبد الناصر في صيف ١٩٦١ ورد فيه أن عبد الكريم النحلاوي مدير مكتب المشير عبد الحكيم عامر في دمشق يعد لتنفيذ خطة انقلابية. وعندما عرض عبد الناصر التقرير بوجود السراج وعامر معا، رفض المشير عامر مضمون التقرير وقال لعبد الناصر: "النحلاوي وحدوي أكثر مني ومنك يا جمال". وأخذ عبد الناصر برأي عامر، ثم نقل السراج إلى القاهرة. فما كان من السراج إلا أن قدم استقالته وعاد إلى دمشق. وهكذا خلا المجال أمام النحلاوي ونفذ انقلابه في ١٩٦١/٩/٢٨، ولهذا اعتقد الناس، في البداية، أن السراج وراء الانفصال.

عــلى بيعــتها، لكنها كانت تكره أجهزة عبد الناصر. لذلك سارع أهل الحل والعقد إلى بيت أحمد الشراباتي للتوقيع على تأييد الانفصال*.

- **ألا تعــتقــد أن عبد الحميد السّــراج ظُلم كــثيراً. فهو كان يمارس وظيفــة حماية الوحــدة وحماية رئيسها جمال عبد الناصــر. لذلك فإن الكــثير من الكلام على القمع والتنكيل والتعذيب الذي مورس في عهد عــبد الحميــد السّــــراج كان مبالغاً فيه. ومن المؤكــد أن الكثير من الفواجع وقعت مثل فاجعة فرج الله الحلو على سبيل المثال. لكن أليس هناك مبالغات كثيرة في هذا الموضوع؟ ثم لماذا وقّع الحوراني والبيطار وثيقة الانفصال؟**

- أنا لا ألوم السّراج ولا أمدحه ولا أذمه. السّراج موظف ورئيسه يأمره فينفذ. لكن عندما عينه عبد الناصر نائبا للرئيس بدلاً من أكرم الحوراني أصابه الغرور. وعندما ســحبت منه صلاحياته صار ضد عبد الناصر ثم سجن بعد وقوع الانفصال، ثم خطف من السجن. وحتى الآن هو سر لا يعرفه أحد ولا أحد يدري من خطفه**.

---

* جــرى الاجتماع في ١٩٦١/١٠/٢، وكتب وثيقة الانفصال صلاح البيطار بمساعدة نجيــب الأرمنازي، ووقعها كل من: أكرم الحوراني، بشير العظمة، هاني السباعي، أحمد الشراباتي، أسعد هارون، خالد العظم، أحمد قنبر، سهيل الخوري، حسن مراد، رشــاد جــبري، فؤاد قدري، صبري العسلي، محمد العايش، حامد الخوجة، أمين النفوري، أحمد عبد الكريم وغيرهم.

** لقــد أوضح السرّاج تلك الحادثة في إحدى المقابلات الصحافية النادرة التي أجرتها معــه فـــي القاهرة جريدة "الرأي العام" الكويتية في ٢٠٠٠/٧/٢، والتي تحدث فيها

- **من هرّبه؟**

- منصور الرواشدة وشخص من آل الروسان*.

- **أليست القاهرة هي التي قامت بتهريبه؟**

- بترتيبات من القاهرة طبعاً.

- **وهو منذ ذلك الوقت صامت صمتاً غريباً.**

- لا، سار مع الأصوليين.

- **مع الأصوليين السوريين؟**

بالتفصيل عن خطة هربه من السجن، وعن دور كل من كمال جنبلاط وسامي الخطيب وشبلي العريان وشوكت شقير في عملية الهروب من المزة إلى دير العشائر ثم إلى المختارة فبيروت. وبوصوله إلى المختارة حيث كان ينتظره كمال جنبلاط جاءه شوكت شقير وأخذه إلى منزل محمد نسيم، وجرى إبلاغ الرئيس فؤاد شهاب والسفير المصري عبد الحميد غالب. وتولى سامي الخطيب ترتيبات الخروج من مطار بيروت بطائرة خاصة كانت تنتظره في المطار، وفيها سامي شرف وعبد المجيد فريد. ومن هناك إلى القاهرة.

* ساهم في هذه العملية منصور الرواشدة ومحمد الروسان ونذير رشيد، والأخيران ضابطان ناصريان في الجيش الأردني، وأصبح نذير رشيد، في ما بعد، مديراً للمخابرات العامة في الأردن.

- نعم. وذهب إلى بغداد و حضر مؤتمرات.

- **في أية فترة؟**

- في أواخر السبعينات أو أوائل الثمانينات.

- **بعد موت عبد الناصر.**

- نعم.

- **لكن لم يعرف عنه أي نشاط علني كالتصريحات على سبيل المثال.**

- أنا أروي لك ما أعرفه، بل ما أنا متأكد منه. أنا لم تقع عيني عليه في أي يوم. أعرفه بالصورة فقط وأعرف سلوكه منذ أن كان ملازماً أول. أنا لو عادت الحياة من جديد، وأعطيتني مُلك الأرض لا أرضى بأن أسلك سلوك السّراج، فهذا النوع من الناس احتقره. ولو عُينتُ قاضياً لحكمت على عبد الناصر بجرائم السّراج. كان الإقطاعيون يضحكون من الفلاحين، فيقولون ان الشيخ لم يخطئ ولكن أزلامه هم الذين يسيئون إليه. البطريرك أو المفتي أو الشيخ هم من يفعل ذلك دائماً، ثم يجدون كبش محرقة. السّراج كان وجه المقابحة لعبد الناصر. يروي سامي جمعة حادثة معروفة، وبعض شهودها أحياء، وهي أنه عندما بدأ السّراج يعمل ضد البعثيين في أول عهد الوحدة دخل عليه عبد الغني قنوت وضرب الباب برجله وقال له: "نحن الذين صنعناك ونحن الذين حميناك، وأنت الآن تريد

أن تشتغل فينا يا ابن الفاعلة التاركة؟ أختك على أخت معلمك"، ثم غادر المكتب. كاد السّراج أن يموت رعباً لأن عبد الغني قنوت كان لا يزال في سورية ولم ينتقل إلى القاهرة بعد، ويقود لواء دبابات. بعد ذلك جاءه مصطفى حمدون وقال له بابتسامته اللطيفة: "أنت تعرف أن أخاك أبو أحمد، أي عبد الغني قنوت، يحبك، لكن أعصابه فائرة. روق يا أبو حميد وطوّل بالك".

- **واحد يدك البارود والثاني يقوّص.**

- نعم. وقد أجابه السّراج كأنه موظف صغير قائلاً: "أن يشتم أمي وأختي فأنا أغفر له، فنحن أصدقاء. أما أن يشتم الرئيس فهذه غير مقبولة أبداً". بالطبع، كان يريد أن يكتب تقريراً لرئيسه عن الحادثة.

- **ربما.**

- ثم ما هي النتيجة؟ هل حمى السراج الوحدة؟

- **قاد الناس نحو الإنفصال.**

- أما سؤالك عن أكرم الحوراني وصلاح البيطار وكيف وقّعا وثيقة الانفصال فإن صلاح البيطار أوضح أنه نَدِم وبكى. أما رأيي فهو أن الاثنين ذهبا إلى الاجتماع ومعهم خليل كلاّس ومنصور الأطرش ولديهم القناعة بأن إعادة الوحدة مسألة مستحيلة. وكان لسان حالهم يقول: فلنُعد

الديمقــراطية إلى ســـــورية ثــم نتكلم على الوحدة لاحقا. والغريب أن هذا الموقــف حـــاز إجماعاً من أهل الحــل والعقد. حتى الرمــوز الوطنية في ســـورية مــن سلطان الأطــرش إلى فارس الخوري وشكري القوتلي أيدت خطيــاً الانفصال، والجميع أرسل برقيات التأييد أو أدلى بأحاديث صحافية، وظهــر شـــكري القوتـــلي على شاشة التلفزيون وفي الإذاعة ليتكلم في هذا الاتجاه.

- **هذا أحد المظاهر العميقة لفشل الوحدة.**

- طـــبعاً. كـــان عند أهـــل الحل والعقد إجماع أكيد. الأكثرية الساحقة وقفـــت ضـــد عـــبد الناصـــر. سقطت الوحـــدة لكن الناس ظلت تحب عبد الناصــــــر، لأن الديمقـــــراطية ليســـت مطلباً لدى الناس. ولكن هل فشلت الوحـــدة أم فشـــل حكم ناصر لسورية؟ أنا أقول لم تتحقق الوحدة حتى نقول فشلت.

- **الديمقراطية غاية للنخب المتنورة؟**

- أو للـــنخب التي تريد الوصـــول إلى السلطة. الديمقراطية تتعارض مع الأديان التوحيدية، ولا يمكن أن يتعايش الإيمـــان باليهودية أو المسيحية أو الإســـلام مع الديمقراطية. فلسفة الديمقراطية هي حكم الشعب لا حكم الله. والديمقـــراطية تحـــتاج إلى الـــتعددية الفكرية. الديمقراطية عودة إلى الوثنية بمعـــنى مـــا. المهـــم أن أكـــرم الحورانـــي بقي على قناعته في ضرورة

الديمقـــراطية ونجـــــح هو وقائمته في الانتخابات. أما صلاح البيطار حينما ســـقط فـــي تلك الانتخابات ســـنة ١٩٦١ أصبح ضد هذه القناعـــة.صلاح الـــبيطار عندما وقّع بيان الانفصـــال، تقاطر عليه الكثيرون وخصوصاً من البعـــثيين القريـــبين منه ومن عفلـــق وراحوا يعاتبونه بلهجة اللوم والتقريع وشـــعر بأنه أخطأ وندم، ويقال إنه بكى وأصدر بياناً، لكنه مع ذلك لم يغير موقفه السياسي. بمعنى أنه لم يقاطع الانتخابات مثل الناصريين، بل ظن أنه ســـينجح بســـهولة ويكـــون من الأوائل ويطرح قناعاته من داخـــل المجلس الـــنيابي. وفاتـــه أنه نجح في العام ١٩٥٤ بقوة الحزب وبالتحالف مع خالد العظـــم، والذي دبـــّر له هذا الأمر هو أكرم الحوراني. ومع ذلك كان آخر الـــناجحين وبفارق ٥٠٠ صوت لا غير بينه وبين أول الفاشلين. فكيف يظن أنـــه ســـينجح وحده ويكـــون من الأوائل من دون الحزب وأكرم الحوراني وخالد العظم، خصوصاً أنه أمسك العصا من وسطها بين البعث والناصرية. بيـــنما نجـــح أكـــرم الحوراني في انتخابات سنة ١٩٤٣ وحـــده، وفاز في انـــتخابات ســـــنة ١٩٤٧ ونـــال أكثر الأصوات، وفاز في انتخابات ســـنة ١٩٤٩، وفـــاز فـــي انتخابات ســـنة ١٩٥٤ بقائمة شبه كاملة. أما في سنة ١٩٦١ ففاز بقائمة حزبية كاملة*.

---

* يقـــول خالد العظم في مذكراته ان أكرم الحوراني لجأ في سنة ١٩٤٣ إلى سعد الله الجابـــري لإنجاحه في الانتخابات، وتدخل الجابري لدى زعيم حماه فريد العظم كي لا يعارض ترشيح الحوراني على لائحته بدلا من واصل الحوراني. ودخل الجابري عـــلى العظم "دخيلة عرب" فلم يشرب القهوة عنده إلا بعد أن حصل منه على وعد بعـــدم معارضـــة الحوراني. ويقول سامي جمعة ان بعض أعضاء الحزب الوطني احتج على ذلك فقال القوتلي الذي تدخل أيضا لمصلحة أكرم الحوراني انه أكره على

• فـــي سنة ١٩٦٢ جرى تأليف حــركة الاشتراكيين العرب. هل كان ذلك يعني انشقاقاً عن حزب البعث؟

- قــلت إن حــزب البعث العربي الاشتراكي هو حاصل عملية الدمج بيــن أربعة أحزاب. وعندما جرى حل الحزب في سورية عادت الأمور إلى أربعــة أحــزاب بأربعــة أشــخاص. ميشال عفلق لم يمتلك زعامة حقيقية؛ فزعامـــته وهـــم، وقيمته خارج الحـــزب كانت أكبر من قيمته الحقيقية. أما أكـــرم الحوراني فقد عاد إلى حزبه. حزب وهيب الغانم تطور إلى مجموعة متماســكة ذات قيادة عســكرية انفرد بها حافظ الأســد في ما بعد. الحزب فشــل تمامــاً في ســورية. وعندما حكم حزب وهيب الغانم بعد ٢٣ شباط ١٩٦٦ طــلع عليــنا عبد الكريم الجندي ببشاعات ضد الناس واضطهادات ورعونــة لا تحــتمل. لــم يمتلك نور الدين الأتاســي هيبة الزعامة مع أنه امتــلك عقــلاً متنوراً. حتى صلاح جديد، بذكائه ونظافته، فشل في تطوير الحــزب إلى مؤسسة. وعندما شارف الحكم على الانهيار بعد هزيمة ١٩٦٧ جاء حافظ الأسد بالحركة التصحيحية التي بنيت على فكرة حزب الدولة، لا عــلى دولــة الحزب. أي أن الحزب لي ولست أنا للحزب. وكان لديه حزب حقيقـــي هـــو الجيش. وبالجيش أنقذ سورية من الصراعات الداخلية والتهتك السياســي، وتخــلى عن فكرة الحزبية المثالية التي كان صلاح جديد يحاول تنفيذها، وأقام حكم الأجهزة، فاستقرت سورية.

ذلك لأن الجنرال سبيرز ألح عليه بذلك. ويقول محمد معروف في مذكراته ان أكرم الحورانـــي نجح في انتخابات ١٩٤٩ بفارق ١٢٨ صوتاً عن آخر مرشح في قائمة عبد الرحمن العظم وهو الشاعر بدر الدين الحامد مع أن الحكومة دعمت الحوراني دعماً مكشوفاً.

• **القبور مستقرة أيضاً.**

- الاستقرار بمعنى إنهاء الصراعات الحزبية الداخلية. كان يقال: ماذا تريد الناس؟ البيت والسيارة؟ إذن، سنساعد في تحسين الأحوال الاقتصادية. أما في السياسة فكم هو عدد الذين يرغبون في ممارسة السياسة؟ ألف؟ ألفان؟ إذا كانوا معنا فأهلاً وسهلاً بهم، وعند ذلك إما أن يلتحقوا بالحزب أو بالجبهة الوطنية التقدمية. أما مَن هم ضدنا ويشكلون خطراً علينا فنضعهم في السجن.

• **في هذه الحال صارت جماعة أكرم الحوراني بكاملها خارج الحزب؟**

- الآن عدنا إلى العام ١٩٦٢. ويومئذ حاولنا إعادة توحيد الحزب، وكان علي صالح السعدي في هذا الاتجاه. لكنه بعد أن يئس من ميشال عفلق تسلل إلى العراق وبدأ يعد لانقلاب عسكري هناك. بدأت عملية إعادة توحيد الحزب تأخذ أبعادها ولاسيما أن أكرم الحوراني كان موافقاً على ذلك ومعه أكثرية الحزبيين بما في ذلك جماعة اللاذقية وجماعة دير الزور وحمص والسويداء ودرعا ودمشق والنقابات والعسكريون المسرّحون وغير المسرّحين. وتلقى ميشال عفلق نصيحة من جمال الأتاسي*

---

* ولد جمال الأتاسي في حمص سنة ١٩٢٢، وشارك في تأسيس حزب البعث وكان عضوا في المؤتمر التأسيسي. عين وزيراً للإعلام في أول حكومة لحزب البعث في ١٩٦٣/٣/٩. اختلف مع البعث ومال إلى الناصرية وأصبح الأمين العام للاتحاد الاشتراكي العربي في سورية سنة ١٩٦٤، وتوفي في دمشق في ٢٠٠٠/٣/٣١.

الــذي قــال له في حضوري: نحــن الكبار ما عاد في يدنا شيء يا أستاذ. تـــولَ أمر هؤلاء الناشــئة واصنع منهم تنظيماً فعلياً. فأجابه ميشال عفلق: المهم أن يأتي "ذاك" قبل عقد المؤتمر.

- **من هو "ذاك"؟**

- أنا لم أفهم من هو "ذاك" في البداية. ولكن علمت أن المقصود هو علي صالح السعدي. فقد كان ينتظر حدثاً ما في العراق. وعقد المؤتمر الخامس بالفعل في بيت أحد آل الاتاسي، نادر الاتاسي أو ربما جمال الاتاسي، ويقال فرحــان الاتاسي الذي تبين أنه جاسوس، وأعدم في النهاية.

- **جاسوس لمن؟ فقد قيل أنه جاسوس للولايات المتحدة الأميركية؟**

- أعــدم شــنقاً في عهد نور الدين الأتاسي. المهم، حضرت المؤتمر فــروع الحــزب كلها في الخارج ما عدا فروع سورية بحجة أن الحزب في ســورية كــان لا يزال محلولاً. والمؤتمر هذا هو مؤتمر قومي اتخذت فيه قــرارات كــان الهــدف مــنها إبعــاد القيادات المعارضة داخل المؤتمر وخصوصــاً إبعــاد أكــرم الحوراني. وقد استنكر أكرم الحوراني كثيراً هذا التصـــرف؛ فكيــف لا يدعى إلى مؤتمر قومي منعقد في حمص بسورية؟ وعــند هــذا الحد أصدر عدة تصريحات ضد المؤتمر، ففصلوه من الحزب. وفي الأثر أعاد أكرم الحوراني بناء حزبه.

- **واتخذ اسم "حركة الاشتراكيين العرب"؟ ولكن من هي القيادات التي أبعدت وكانت معارضة داخل المؤتمر؟**

- نعم، حركة الاشتراكيين العـــرب. أما جماعة اللاذقية فقد حافظوا على تنظيمهم السّري الذي كان موجوداً في الأساس، وأُطلق عليهم اسم "القطريون" مع أنهم قوميون. صــــلاح البيطار لم يكن يومئذ حزبياً خالصاً. ظل ممسكاً بالعصا من الوسط بين الحزب والناصرية. وجلال السيد ترك الحزب، وخاض الانتخابات وفاز، وبعد ذلك صار وزيراً للداخلية ونائباً لرئيس مجلس الوزراء.هذا في سوريا، أما القيادات العربية التي أبعدت من داخل المؤتمر الخامس وكانت معارضة لخطط عفلق فهي غسان شرارة وعبد الوهاب شميطلي من لبنـــان وفيصل حبيب الخيزران من العراق، وعبد الرحمن منيف من السعودية وغيرهم.

- **هذا كله حدث في فترة الانفصال؟**

- نعم. والكثير من البعثيين خاضوا الانتخابات وفازوا. بعضهم سار في ركاب أكرم الحوراني، وبعضهم مع جلال السيد، فعادت الأمور إلى ما كانت عليه قبل الدمج.

- **هــل أسهم انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ في العراق في دفع حزب البعث إلى الاستيلاء على السلطة في سورية؟**

- طبعاً، طبعاً. أسهم جداً، ومع الأسف أعطى لعفلق وتنظيمه الهزيل قيمة ليست له حيال أهم زعماء وكوادر البعث في سوريا وأوسع قواعده. وهذه هي الورقة التي كان عفلق يراهن عليها ولم يكن يعرفها أحد.

* **ما دور اللجنة العسكرية في حركة ٨ آذار ١٩٦٣ في سورية؟**

- اللجنة العسكرية كانت مع فرع اللاذقــية مثل الأواني المستطرقة. ليس فقط مع فرع اللاذقية بل مع فروع دير الزور وحمص ودرعا أيضاً. كان ثمة تعاون وعمل تنظيمي مشترك، وثمة ضباط من اللجنة العسكرية شاركوا في العصيان في حلب الذي أفشل انقلاب النحلاوي في ٢٨ آذار ١٩٦٢*.

* **والقوميون العرب؟**

- القوميون العرب كان ينظر إليهم على أنهم من جماعة عبد الحميد السرّاج، وحضورهم ضعيف. وفي أي حال صُدم الناس ليس بمأمون الكزبري فقــط، بل بالانتخابات التي أوصلت الكثير من الرجعيين إلى المجلس النيابي. وقد مُني التقدميون بالهزيمة ما عدا أكرم الحوراني وبعض الأشــخاص من إدلــب أمثال الوليد طالب وفهمي العاشــوري ونايف جربوع من السويداء ومحمد الحسن من ريف اللاذقية. والمجلس النيابي الجديد أراد إعادة الشركات المؤممة إلى أصحابها والتراجع عن قانون الإصلاح الزراعي وقانون العمل الزراعي. أي أنهم كانوا يريدون إعادة سورية إلى ما كانت عليه قبل عبد الناصر، فاشتبك الصراع الاجتماعي

---

* قــام بهــذه الحــركة كل من العميد زهير عقيل والعقيد محمد منصور والرائد فايز الــرفاعي والدكــتور فــريد زين الدين ونهاد القاسم (قوميون عرب) وعبد الكريم النحلاوي ومهيب الهندي ومنيب الرفاعي وعبد الغني دهمان.

بالصراع القومي، وانقسمت سورية إلى معسكرين، ووقع الحرج على أكرم الحوراني لأن عواطفه مع الناس لكنه مضطر إلى التعامل مع الرجعية في المجلس النيابي، فسار في خط المعارضة. لكن عبد الناصر كان ضده، والناس مع عبد الناصر. لذلك كانت معارضته باهتة وبلا سند شعبي.

كان المجلس النيابي منقسماً إلى تيارين: الأكثرية تريد إعادة الأموال المؤممة للأغنياء، والأقلية، وعلى رأسها أكرم الحوراني وجلال السيد، تريد الليبرالية الحقيقية لا سخافات مأمون الكزبري وعبد الكريم النحلاوي. وهذا الاتجاه كان يدعمه داخل المجلس النيابي خالد العظم وكتلته، ومن خارج المجلس النيابي الشيوعيون الذين كان لهم ثقل جماهيري، لكن لم يكن لهم أي وجود في الجيش. أراد أكرم الحوراني أن يحقق الديمقراطية البرلمانية وهي خلاصة تجربته الحياتية والسياسية التي بدأها منذ أن كان طالباً ومشاركاً في تظاهرات سنة ١٩٣٦، مروراً بثورة رشيد عالي الكيلاني ثم بأربعة عهود في المجلس النيابي حتى الوحدة ثم الانفصال.هذه التجربة أنضجت في رأسه فكرة أن لا طريق لسورية إلاّ الديمقراطية. هنا، اجتمع المجلس النيابي في بيت خالد العظم، وألف حكومة جديدة فرضوها على ناظم القدسي. لو قبل ميشال عفلق الاشتراك في هذه الحكومة، وكان الفريق عبد الكريم زهر الدين مُستعداً لإعادة الضباط البعثيين المسرّحين إلى الجيش، لكانت التجربة الديمقراطية بدأت حقاً، وكانت سورية عادت كما كانت في سنة ١٩٥٧. لكن ميشال عفلق رفض المشاركة في الحكم. وهذا كان مستغرباً. وفي أحد الاجتماعات في منزل أخيه وصفي حضرته بنفسي مع أكرم الحوراني وصلاح البيطار وجمال

الأتاسي ومنصور الأطرش وعبد الغني قنوت واثنين أو ثلاثة آخرين لم أعد أذكــر أســماءهم، جاء كل من البيطار والحوراني بعرضٍ على لسان ناظم القدســي، الذي عاد من السجن إلى الرئاسة، وعبد الكــريم زهر الدين قائد الجيــش الذي صار موقفه أقوى بعد نفي النحلاوي وجماعته؛ عرضٍ مفاده اشــتراك الــبعث في الحكم الجديد مع إمكانية الحصول على ست وزارات أساســية، والأهــم هو عودة الضباط المســرحين إلى الجيش. البيطار كان يــرغب في رئاسة الحكومة، لكن الحوراني قال: يجب أن نتفاوض عليها، لأنهــا ليســت مضمونة. أما عفلــق فكان ضد الاشتراك أصلاً وأوحى أن موقفــه هــذا مبدئي لا سياسي. أذكر أني نهضت وجلست إلى جانب عفلق وهمســت في أذنه: "يا أستاذ لماذا ترفض؟ وعلامَ تعتمد؟ إذا قبلنا نستفيد من إعــادة تكويــن الحــزب الموحدّ على الأقل". فتطلع إليّ وقال: "يا نبيل من اليأس لا يخرج شيء".

في تلك الأيام لم يكن أحد يدري ماذا يعد ميشــال عفلق في العراق. الــبعض، وأنا منهم، ظنّ أنه بالفعل موقف مبدئي. والبعض ظنّ أن عفلق لا يمارس سياسة وإنما مثاليات هوائية.الوحيد الذي يخفي البطاقة "الرابحة" في جيــبه كــان ميشــال عفلق! ولكن أي ربح ؟ ربح شخصي له، وسراب لنا، و"هات ياكوارث على الناس"..!

- **والورقة الرابحة كانت علي صالح السعدي.**

- هــو الوحيــد الــذي كان يعرف ماذا يجري في العراق على صعيد الحزب على الأقل. كان يعد انقلاباً عسكرياً. وحــركة ٨ شباط ١٩٦٣ كان

مـن الممكـن أن تحدث في سـنة ١٩٦٢. كان يعتقد أنه إذا وقع الانقلاب البعثي في العراق، فسورية ستتبع العراق فوراً. فلماذا يفاوض ناظم القدسي الآن، وغـداً سـيكون العـراق فـي يده؟ وفي النتيجة رفض ميشال عفلق المشـاركة فـي الحكومـة، فذهب أكرم حوراني إلى ناظم القدسـي وسمّى وزيـره عبد الحليم قدّور، وصلاح البيطار سمّى وزيره عبد الله عبد الدائم. وبـالفعل لـو وافـق عفلق على الاشتراك في الحكومة وجرت إعادة تنظيم الحـزب الموحّـد لنال البعثيون ست حقائب وزارية. والأهم من ذلك كله عـودة الضـباط المسـرحين إلى الجيـش. فتخيل لو عاد عبد الغني قنوت ومصـطفى حمـدون ومصطفى طلاس ومحمد عمران ومعهم العشرات من خيـرة الضـباط المسرحين إلى الجيش، لأمسكوا به بالكامل. لهذا استغربت لمـاذا لم يرض عفلق بعرض ناظم القدسي. واكتشفت، في ما بعد، أنه كان ينتظر الحدث العراقي.

قـلت إن ميشـال عفـلق عقد في أوائل أيار ١٩٦٢مؤتمراً قومياً لـلحزب في حمص لم يكن فيه سوري واحـد غيره، وعزل القيادة القومية وأتى بقيـادة جديدة، وتألفت لجنة تنظيمية برئاسـة علي صالح السعدي ولم يكـن فيهـا سوري واحد أيضاً، لأن الحـزب في سوريا ما زال منحلاً ولا تمثيل للبعثيين في سورية في المؤتمر القومي العام. وعندما وقعت حركة ٨ آذار ١٩٦٣ لم يكن عدد البعثيين في سورية يتجاوز المئة عضو*.

---

* يقول حنا بطاطو إن عدد أعضاء البعث في سورية بلغ في سنة ١٩٥٢ نحو ٤٥٠٠ عضـو. بينما كان عدد أعضاء الحزب العربي الاشتراكي سنة ١٩٥٠ نحو عشرة آلاف عدا عن المناصرين.

• **مئة عضو في جميع أنحاء سورية؟**

- نعم.

• **مئة عضو فقط؟ هذا غريب!**

- لم يتجاوزوا المئة، صدقني. الحزب الحقيقي كان في الجيش، أي التنظيم السرّي العسكري.

• **اللجنة العسكرية.**

- نعم. أما الحزب المدني فكانوا يسمّونهم "القطريون" الذين لم يحلوا فروعهم الحزبية وظلوا يعملون سرّاً.

• **مثل فرع اللاذقية.**

- فرع اللاذقية وفروع دير الزور وحمص ودرعا والسويداء والفلسطينيون. وبسبب غياب القيادة الحزبية في سورية قامت اللجنة العسكرية بملء الفراغ. وحاولت تطوير عصيان حلب الذي وقع في ١٩٦٢/٣/٢٨ إلى انقلاب كامل لكنها فشلت.

• **ألم يكن ميشال عفلق على علم بهذا؟**

- لا. لأن ميشال عفلق لم يكن له أنصار في الجيش.

- **وعبد الغني قنوت ومصطفى حمدون؟**

- كانوا خارج الجيش، أي في الحياة المدنية. أما الضباط البعثيون الصغار الذين ظلوا في الجيش فهؤلاء كانوا تحت لواء اللجنة العسكرية.

- **هل كان عفلق أو الحوراني مطلعين على أمر اللجنة العسكرية؟**

- لا شك في أن أكرم الحوراني كان يعلم. أما ميشال عفلق فأنا أشك في أنه كان يعرف، لأنه كان منهمكاً في رصد ما يجري في العراق. وأتذكر، في تلك الفترة، نكتة عن الحزب رواها لي أحد الشوام الظرفاء فقال: "يا أخي، هؤلاء الأساتذة لديكم أمثال ميشال عفلق وصلاح البيطار وأكرم الحوراني عملوا مثل بائعي الخضار في سوق الهال". فقلت له: "كيف"؟ أجابني: "ألا تعرف ماذا يفعل تجار الخضار في سوق الهال ولا سيما تجار الجملة؟ إنهم يجعلون النوع الجيد في مقدمة الصحارة* أي أحسن نوعية في الأعلى وما تحتها النوع الرديء. وأنتم تماماً مثل بائعي سوق الهال؛ عندما وصلتم إلى الحكم انقلبت [الصحارة] وبان ما كان خافياً فيها". وعندما رويت هذه النكتة لأكرم الحوراني في مقهى الهورس شو في بيروت ضحك وقال لي: "كنت أعرف ما في قعر [الصحارة] ولذلك لم أقبل المشاركة في انقلاب ٨ آذار ١٩٦٣.عبد الغني قنوت ومصطفى حمدون لا

---

* الصحّارة تعبير شعبي يعني صندوق الخضار أو الفاكهة.

يقـــبلان المشاركة في انقلاب يقوده صلاح جديد وعبد الكريم الجندي ومحمد عمران. أكـــرم الحوراني يقبل التعاون مع العسكريين الذين يتلقون الأوامر مـــن السياسي لا مع الذين لا يعملون إلاّ من أجل الانقـــلاب والسلطة فقط". خلاصــــة الكـــلام أن انقـــلاب ٨ شباط ١٩٦٣ وقع في العراق وكان بعثيو العـــــراق أسســـوا حرساً قومياً على طريقة الشيوعيين، أي أن الحزب كان مســـلحاً وأفـــراده مدربيـــن عـــلى استخدام الســـلاح، وهم اقتحموا الثكنات بأسلحتهم واعتقلوا الضباط المؤيدين لعبد الكريم قاسم*.

- **تحالف البعثيون والقوميون العرب حينذاك.**

- صـــحيح. لكن الحزب هو الذي قاد العملية الانقلابية لأن أحمد حسن الـــبكر كـــان الأعلى في الرتب العسكرية، بينما عبد السلام عارف كان في الســـجن. وقام البعثيون بإخراجه من السجن وجعلوا منه رئيساً للجمهورية. عـــلي صـــالح السعدي كان في السجن أيضاً، وهو قال لي: "لو كنت خارج الســـجن لمـــا قبلت أن يكون عبد السلام عارف رئيساً للجمهورية". أما في ســـورية فإن ضباط اللجنة العسكرية قاموا بانقلاب ٨ آذار ١٩٦٣ من غير التنســـيق مع الحزب في الأساس. وكانوا يعتقدون أن ميشـــال عفلق سيسير معهـــم ويؤيدهم، وهم يحتاجون إلى العناصر المدنية لتثبيت السلطة الجديدة. لكـــن أكرم الحوراني كان من الصعب التعامل معه، فهو زعيم حقيقي، بينما

---

* يقـــول مـــنيف الرزاز في كتابه "التجربة المرة" إن عدد البعثيين في العراق عشية انقـــلاب ٨ شباط ١٩٦٣ لم يتجاوز ٨٠٠ عضو عامل. ويقول حنا بطاطو أن عدد أعضاء الحزب في العراق في شباط ١٩٦٣ كان ١٥ ألفا منهم ٨٣٠ عضوا عاملا.

عفلق والبيطار يمكن وضعهما في المنزل حين الحاجة. غير أن قيام انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ في العراق أعطى عفلق قوة كبيرة، بينما صار أكرم الحوراني ضعيفاً. في هذا السياق صار الضباط المسرحون واللجنة العسكرية في حاجة إلى رضا ميشال عفلق والتنظيم القومي واضطروا إلى إخفاء رصيدهم في التنظيم القطري حتى إذا اختلفوا مع ميشال عفلق وصلاح البيطار أنهوا دوريهما في ٢٣ شباط ١٩٦٦.

- **لكن حكم البعث في العراق لم يصمد، بل سقط في ١٨ تشرين الأول ١٩٦٣.**

- الانقلاب الذي أطاح البعث في تشرين الأول ١٩٦٣ كان نتيجة لقرار الوحدة العسكرية.عندما اجتمع المؤتمر القومي السادس في دمشق اتخذ قراراً بالوحدة بين سورية والعراق على أن تكون دمشق هي العاصمة ويكون الرئيس عراقياً*. وكان الرأي استقر على السير بخطوات متدرجة نحو الوحدة، على أن يتم الشروع بالوحدة العسكرية أي وحدة الجيشين. وتألف فيلق بقيادة فهد الشاعر للذهاب إلى العراق ومساندة الجيش العراقي في حربه ضد الأكراد. وكان الجيش السوري خلا من الناصريين وصار البعث هو القوة الأساسية فيه أو الوحيدة تقريباً**. هنا تخوف عبد السلام

---

* عقد هذا المؤتمر بين ٥ و٢٣ تشرين الثاني ١٩٦٣.

** الضباط الناصريون الذين سرّحوا تباعاً هم: محمد الصوفي، راشد قطيني، فواز محارب، كمال هلال، درويش الزوني، جاسم علوان، محمد الجراح.

عـــارف مـــن هذه التجربة، وحـــدث انقسام داخل القيادة العراقية بين طالب شـــبيب من جهة ومعه حازم جواد، وبين علي صالح السعدي وأكثرية القيادة القطرية. وقرر ضباط الجيش البعثيون التكارتة وعبد الســـلام عارف معهم أن يعـــزلوا القيادة التي على رأسها علي صالح السعدي، فاقتحموا، بالسلاح، مقـــر المؤتمر القطري الذي كان منعقداً آنـــذاك وأنزلوا أعضاء القيادة عن المنـــبر، ورددوا الشعار الحزبي للبرهان على أنهم حزبيون منضبطون، ثم وضـــعوا هـــؤلاء فـــي طائرة إلى مدريد مباشرة. لكن أنصار المبعدين من عناصر الحرس القومي نزلوا إلى الشوارع وقاموا بهجوم معاكس*.

- **انقلب البعث على البعث.**

---

* كـــان عـــلي صالح السعدي قائدا للحرس القومي وهو خليط من الريفيين الأجلاف، وطالمـــا روع أفراد هذا الحرس الناس والجنود معا، وأثاروا كراهية الضباط. وفي ١٩٦٣/١١/١١ تفاهمت مجموعة من الضباط مع طالب شبيب وزير الخارجية، وتم القـــبض عـــلى علي صالح السعدي ووضع في طائرة بلا جواز سفر وأرسل إلى مدريد. وهنا سارع عفلق إلى بغداد وقام بحل القيادة القطرية ونفى طالب شبيب إلى بيـــروت وأعـــلن أنه سيقوم مع القيادة القومية للحزب بإدارة شؤون العراق. وهذا الأمر أثار غيظ العراقيين ووجدوا فيه إهانة لهم. وفي ١٩٦٣/١١/١٨ انقض ضباط بقيادة عبد السلام عارف على السلطة وأقصي البعثيون عنها.وخلال المؤتمر القومي الســـابع في أواخر شباط ١٩٦٤ طرد السعدي وحمود الشوفي من الحزب وكوفيء صـــدام حســـين بتعيينه عضوا في القيادة القطرية المؤقتة لوقوفه إلى جانب ميشال عفـــلق ضد جناح السعدي – حمود الشوفي – ياسين الحافظ. وكان من بين أعضاء القيادة القطرية الجديدة كل من عبد الكريم الشيخلي وصفاء الفلكي ومحمد محجوب وأحمد حسن البكر.

- عند هذا الحد ذهب وفــد من القيادة القومية برئاسة ميشال عفلق وكان معه صلاح جديد وأمين الحافظ وجبران مجدلاني وحمود الشوفي إلى بغداد لتسوية الأمر. وفي هذه الأثناء كان عبد السلام عارف هيّأ ضربته العسكرية بعد أن خُلع علي صالح السـعدي وضعفت قــوة الحزب في الجيش ولم يبق إلاّ أعضـــاء التنظيم المدني، وهؤلاء مجرد شبان مناضلين يحملون السلاح ويرابطون في الخنادق والأوكار، لكن الثكنات ليست في قبضتهم. وفي ١٨تشرين الأول١٩٦٣ نفذ الجيش انقلاباً كاملاً، وصار البعثيون القادة إما في السجون أو في المنافي. وهنا برز دور صدام حسين الذي كان عضواً في قيادة فرع بغداد. فقد خلت الساحة أمامه لإعادة تنظيم الحزب بالاتفاق مع ميشال عفلق والقيادة القومية. بينما تعرض طالب شبيب وحازم جواد وعلي صالح السعدي لضربة كبيرة، وصارت قوتهم صفراً. وهنا برز دور "التكارتة" وصدام حسين.

- **في أي حال، لم يكن انقلاب تشرين الأول ١٩٦٣ بعيداً عن عبد الناصر.**

- جمال عبد الناصـــر كان محرضاً على الانقلاب لأنه أراد التخلص من البعث بجناحيه*. وقد نقل محسن العيني عن عبد الناصر قوله: "أتعاون

---

* بيـــنما كانت مباحثات الوحدة الثلاثية جارية في القاهرة، كانت اللجنة العسكرية في ســورية تواصـــل تســريح الضباط الناصريين. وفي العراق كانت الاعتقالات ضد الناصـــريين قائمة أيضاً. وهذه الأمور وقعت في أيار وحزيران ١٩٦٣ بينما ميثاق ١٧ نيســـــان ١٩٦٣ لـــم يجف حبره بعد. لهذا استقال الوزراء الناصـــريون من حكومة صـــلاح البيطار، وجـــرت تظاهرات كبيرة في بعض المدن الســـورية في

مع بن غوريون ولا أتعـاون مع البعث". عبد الناصـر لم يكـن شـديد الولع بالوحـدة. كان مهموماً في أن يحكم سـورية ليحكم المنطقة من خلالها. والغريب أن الكثيرين مازالوا يعتقدون أن عبد الناصـر كان لديه مشروع وحدوي. يا أخي ما هذا المشروع الذي يموت بموت صاحبه. "وسابلك إيه يا صبية عبد الناصر لما مات...".

- **المسألة معقدة أكثر من هذا التبسيط.**

- هذا الكلام لم أقله أنا أو البعثيون ولا حتى الانفصاليون ولا أكرم الحوراني، بل ردده المصريون بأنفسهم مع شاعرهم المشـهور. ويقول هيغل: "الحكماء يفرضون آراءهم ببطء لتبقى، والطغاة يفرضون نفوذهم بسرعة البرق ليزول".

- **لكن أنور السادات سوري الأصل.**

- هذه نكتة.

---

٨ و١٩٦٣/٥/٩ قمعهـا أمين الحافظ الذي كان وزيراً للداخلية. وشعر عبد الناصر بأنـه وقع في شرك البعثيين الذين لا يريدون الوحدة على الإطلاق. وقد سقط نحو ٥٠ قـتيلاً خـلال عملية القمع. وفي ١٩٦٣/٧/١٨ حاول الضابط الناصري جاسم علوان القيام بانقلاب لكنه فشل، وكان معه الضابط محمد نبهان الذي كان على صلة سرية بالضباط البعثيين. وقتل في هذه المحاولة نحو ١٧٠ شخصاً، منهم ٢٧ ضابطاً أعدموا على الفور.

- **ليست نكتة. كتبها أنيس منصور في مجلة "المجلة"*.**

– أطلقها أكرم الحوراني في المجلس النيابي السوري. وربما كان أكرم الحوراني أول من قالها عندما جاء أنور السادات إلى دمشق في سنة ١٩٥٧ وكان رئيساً لمجلس الأمة. حينما زار السادات مجلس النواب السوري قبل الوحدة قام أكرم الحوراني وأجلسه في مكانه تكريماً له لأنه كان ممثلاً لعبد الناصر، وكي يعطي موضوع الوحدة صيغة عملية. وتحدث الحوراني إلى السادات قائلاً إن في دمشق حي اسمه حي السادات وشارع اسمه شارع السادات ومستشفى اسمه مستشفى السادات، وهناك عائلة كبيرة هي آل السادات، فيجب أن تلتقي عائلتك!!

- **في سنة ١٩٥٨، نشبت الحرب في لبنان، واندلع الصراع بين القوميين العرب أو أنصار الرئيس عبد الناصر وكميل شمعون والسلطة اللبنانية. ماذا تتحدث عن تلك الفترة؟**

– كنت في ذلك الوقت ضابطاً أخدم في لواء المدرعات الخامس. وحينما نزل المارينز على الشاطئ اللبناني، أي الأسطول السادس الأميركي، حدثت تعبئة عامة واستنفار شامل في الجمهورية العربية المتحدة، وتألفت قوة من خيرة أسلحة المدرعات ومن أفضل الضباط وكنت

---

* أنظر: أنيس منصور في مجلة "المجلة"، العدد ٦٧٩، ١٩٩٣/٢/١٠.

من بينهم، وانطلقنا إلى الجبهة مع إسرائيل تحسباً لتطور الأحداث*. لكنني تابعتُ ما يجري في لبنان بالوسائل المتاحة. وفهمت، حينذاك، أن كميل شمعون استعمل الحزب السوري القومي الاجتماعي والنفوذ العراقي والإنكليزي لتشديد قبضته على لبنان. بينما ذهب لبنانيون آخرون إلى عبد الناصر وإلى سورية وجرّوهما إلى التدخل. وكان عبد الحميد السرّاج هو الذي تولى الشأن اللبناني بأوامر من جمال عبد الناصر.

- **هذه هي العادة اللبنانية: الاستقواء بالخارج على الداخل.**

– تماماً. العنصر الضعيف يستقوي بالخارج أيضاً. فالجميع غير مقتنع بفكرة الوطن المشترك. والجميع يتكاذبون تحت ستار الوطنية والوطن. شعرت في تلك الفترة أن لبنان يشهد حركة طائفية مكشوفة: المسلمون مع عبد الناصر والمسيحيون مع كميل شمعون. وأتذكر أنني ذهبت إلى ميشال عفلق في أول إجازة لي بعد اندلاع الأحداث في لبنان. وفي منزله كان حاضراً خالد العلي، صديقي منذ أيام الجامعة والذي أصبح محامياً وعضواً في قيادة الحزب في لبنان وهو من عكار، وكان آتياً من شمال لبنان لاستلام أسلحة لقتال كميل شمعون. وقلت لميشال عفلق: إنني اشتم رائحة مسلم — مسيحي، ويجب أن نطلب من رفاقنا في لبنان أن يتنبهوا لهذه المسألة، وأن يحددوا مواقعهم بدقة حتى لا ينجروا إلى مواقع طائفية. وفي الخلاصة،

---

* نزل مشاة البحرية الأميركية (المارينز) على الشواطئ اللبنانية في ١٤/٧/١٩٥٨.

أنا أعتقد أن أحداث سنة ١٩٥٨ كانت مقرفة ومضحكة، لعب فيها ما شاؤوا من اللعب كل من عبد الناصر والسراج وكميل شمعون ثم كمال جنبلاط وصائب سلام....الخ. أما حزب البعث في لبنان فلم تكن له قيمة جدية في تلك الفترة، ولا أدري إذا امتلك في أي يوم قيمة مهمة. وأقصد بذلك حزب البعث من دون غازي كنعان، لأنه مع غازي كنعان والمخابرات السورية يصبح شيئاً آخر*.

- **كأنك تنسى الدور الأميركي والانكليزي في تلك الأحداث، وتتناسى أهمية الوحدة السورية ـ المصرية، والسعي الغربي لفرطها.**

– يا أخي، لم تمضِ ستة أشهر على قيام الوحدة حتى وقع انقلاب ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق. سقط حلف بغداد وسقطت الملكية وتحول العراق، نتيجة للسياسة الناصرية، إلى بلد معزول ومعادٍ للوحدة بزعامة عبد الكريم قاسم، ونزلت قوات المارينز على شواطئ بيروت وفرضت فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية اللبنانية.

---

* ولد غازي كنعان في قرية "بحمرا" القريبة من القرداحة سنة ١٩٤٢. رئيس فرع الاستخبارات في حمص سنة ١٩٨٢. عين رئيساً لفرع الأمن والاستطلاع في لبنان في تموز ١٩٨٣، وبهذه الصفة كان له شأن في الأمور السياسية اللبنانية. عين رئيساً لفرع الأمن السياسي في سورية في ٢٠٠٢/١٠/٧، ثم وزيراً للداخلية في ٢٠٠٤/١٠/٤.

- **حصـــل توافـــق عـــلى فؤاد شهاب بين الجمهورية العربية المتحدة والولايات المتحدة.**

- كما توافقوا على الرئيس الياس سركيس؟

- **ربما.**

- روى لي ميشال أبو جودة وكنا أصدقاء جـــداً، إن الياس سركيس تضايق من زيادة حماسة السوريين له، فقال لميشال أبو جودة: ما بال الإخوان في سورية يتصرفون وكأنهم هم الذين سيأتون بي رئيساً؟ أنا قبل ست سنوات سقطت بفارق صوت واحد* وكان سركيس يقصد: أين كان السوريون قبل ست سنوات؟ فأنا لي وجودي المستقل عنهم.

- **لكـــن هـــذا لا يمـــنع أن الـــتوافق حينها كان بين الولايات المتحدة وسورية.**

- الـــرئيس الوحيـــد الذي جاء من خارج اللعبة الدولية في لبنـــان هو سليمان فرنجية. والرئيس الوحيد، الذي جاء باختيار سوري وموافقة أميركية، هو الياس الهراوي. أما بعد الرئيس الهراوي فإن أميركا أصبحت بعيدة وغير معنية بلبنان، وهكذا جاء الرئيس إميل لحود.

---

* سقط بفارق صوت واحد أمام سليمان فرنجية في سنة ١٩٧٠.

- **علـى الأرجـح أن أي رئيـس لبـناني يأتي بالتوافق بين واشنطن ودمشـق، مهما يكن الحاكم في دمشق: عبد الناصر أو حافظ الأسد.**

– أنا أرى أن اتفاقية سنة ١٨٦٤ مازالت سارية.

- **اتفاقية المتصرفية؟**

– نعـم. الـدول العظـمى الست، أي النمسا وإنكلترا وفرنسا والمانيا وإيطاليـا وروسيا هي التي تختار المتصرف في لبنان وتفرضه على الباب العالي العثماني.

- **المتصرف يجب أن يكون مسيحياً ولكن من رعايا الدولة العثمانية.**

– مسيحي من طائفة تابعة للفاتيكان.

- **لكن من غير سكان الجبل اللبناني.**

– الـباب العـالي هـو سـورية اليوم أو من يحكم سـورية. اتفاقية المتصـرفية مـازالت سـارية حتى بعد الاستقلال اللبناني. سـورية تمثل المسلمين بالدرجـة الأولى وهي لم تعترف بلبنان نهائياً بل اعترفت به جزئياً من خلال الجامعة العربية. مات حافظ الأسد ولم يزر القصر الجمهوري في لبنان.

• **لكن الرئيس بشار الأسد زار القصر الجمهوري في ٢٠٠٢/٣/٣.**

– الرئيس بشار الأسد يقوم بأمور جديدة. لكن دمشق لا تقبل بافتتاح سفارة في بيروت وهي لا تبعد عن دمشق أكثر من مئة كلم. في أي حال مازالت دمشق مرجعية للمسلمين في لبنان، وما زال الغرب مرجعية المسيحيين.مع أن آل الجميل وكميل شمعون حاولوا أن يجعلوا إسرائيل مرجعيتهم. لا معنى للتوافق بين الباب العالي والدول الست الكبرى ولا معنى للتوافق بين دمشق وواشنطن، فموازين القوى شديدة الاختلال.

• **هذا صحيح جزئياً، لكن الأميركيين يعرفون تماماً انهم إذا لم ينجزوا توافقاً على الشأن اللبناني مع سورية فكل ما يرتبونه قابل للفشل. بشير الجميل جاء على دبابة إسرائيلية فقتل.**

– صحيح ولا أقول لا. لكننا نتحدث عن عبد الناصر وعن مجيء فؤاد شهاب نتيجة للتوافق مع واشنطن. فؤاد شهاب كان قائداً للجيش اللبناني وأول ضابط مثقف في الشرق العربي، وهو خصم كبير لكميل شمعون، ووارث الاتجاه الدستوري في لبنان، أي أنه معادٍ للاتجاه الانعزالي والكتلوي*. كان ثمة إجماع على فؤاد شهاب من ضباط الجيش السّنة والشيعة والدروز والمسيحيين. فهل من المعقول أن يقول عبد الناصر لا لفؤاد شهاب عندما تختاره أميركا، ولا سيما بعد نزول الأسطول السادس الأميركي على الشواطئ اللبنانية؟ التوافق بين عبد الناصر والولايات

---

* الكتلوي نسبة إلى حزب الكتلة الوطنية التي أسسها الرئيس إميل إدة الموالي لفرنسا.

المتحـــدة يعني في حســـاب موازين القوى ١٠ لعبد الناصر و٩٠ للولايات المتحـــدة. وكانت الولايات المتحـــدة راضية عن السياسية الخارجية لعبد الناصـــر. ماذا يعني اجتماع الخيمة بين فـــؤاد شـــهاب وعبد الناصـــر عند الحـــدود الســـورية اللبنانية؟ هو اتفاق كان ريمون إده مستعد للموت من أجله، لكن حافظ الأسد لم يقبل. الاجتماع كان عبارة عن اتفاق ينص على أن السياسة الخارجية تقررها دمشق بينما بيروت تمارس السيادة على الداخل*.

- **صحيح.**

- ومن يرفع رأسه من أنصار دمشق في لبنان يكسر ولا تتدخل دمشق في ذلك. ولهذا عندما أراد المكتب الثاني اعتقال رشيد شهاب الدين، وهو قائد المقاومة الشعبية، طوق سامي الخطيب منزله وأمهله ثلاث دقائق، وقال له: "إما أن تسلم نفسك أو أنسف البيت بمن فيه"**.

- **لكـــن هل كانت الولايات المتحدة الأميركية راضية حقاً عن السياسة الخارجية لجمال عبد الناصر؟**

- بالتأكيد.

---

* جرى اجتماع الخيمة المشهور في ١٩٥٩/٣/٢٥.

** ولـــد رشيد شهاب الدين في بيروت سنة ١٩٢٨، تأثر بالرئيس جمال عبد الناصر. شـــارك فـــي أحداث ١٩٥٨ في لبنان، ثم أسس "هيئة المقاومة الشعبية" في ســـنة ١٩٥٩، واشتهر بعلاقته بالمخابرات المصرية.

- **عبد الناصر أسقط حلف بغداد وسار في مؤتمر عدم الانحياز في باندونغ مع تيتو ونهرو.**

- أنا أتحدث عن أواخر ١٩٥٨ حينما نزل الأسطول السادس في لبنان. الولايات المتحدة لم تكن معادية لعبد الناصر الذي يقمع الشيوعيين في سورية وينال المساعدات الأميركية ولا يثير المشاكل مع إسرائيل. ماذا تريد أميركا أكثر من ذلك؟

- **قضى على حلف بغداد.**

- نحن نتحدث بعدما قضى عبد الناصر على حلف بغداد. وأساساً حلف بغداد كانت بريطانيا راعيته، وكان وضع الأميركان أشبه بوضع الغني المستغني.

- **ساعد حركات التحرر في شمال إفريقيا وفي قلب إفريقيا، وهذا السبب الرئيسي للعدوان الثلاثي.**

- يا سيدي وأمير الناس. هذا لم يكن يضير الولايات المتحدة. كان يضير الاستعمار القديم الإنكليزي والفرنسي. من الذي حقق الجلاء عن سيناء؟ أليس الرئيس أيزنهاور؟ دول العدوان الثلاثي ماطلت في الانسحاب من تشرين الثاني حتى كانون الأول ١٩٥٦، وظلت تماطل حتى أوائل ١٩٥٧ عندها طرق أيزنهاور على الطاولة وقال: "عليكم الانسحاب فوراً". إسرائيل طالبت بحرية الملاحة في خليج العقبة، فوافق أيزنهاور وفرض ذلك على عبد الناصر.كان أيزنهاور ينظر إلى مصر كركيزة لقيادة المنطقة كلها.

- **وقوة في وجه الشيوعية.**

- ليس ضد الشيوعية وحدها بل من أجل قيادة المنطقة. وفي الحد الأدنى ألا تكون عدوة لواشنطن، وفي الحد الأعلى أن تصبح صديقة لها وتسير في سياستها الخارجية كما تريد. وما بين هذين الحدين لا صراع مع مصر. لكن عندما خرجت مصر على الحد الأدنى وقعت حرب الخامس من حزيران ١٩٦٧. لدى الولايات المتحدة ثلاثة محرمات في ذاك الوقت: البترول والاتحاد السوفياتي وإسرائيل. أي ألاّ يمس أحد البترول، وألاّ يدور أحد في فلك الاتحاد السوفياتي، وألاّ يهدد أحد أمن إسرائيل.

- **النزول المصري في اليمن اعتبر تهديداً للبترول في السعودية حينذاك.**

- لا. لا. لم يكن عبد الناصر قد صار عدواً للولايات المتحدة بل كان يلعب ضمن الدائرة المسموحة له بين الحد الأدنى والحد الأعلى. جاء تدخل عبد الناصر في اليمن نتيجة للانفصال، ووجد في هذا التدخل ما يعوض سمعته بعد الانفصال. ثم راح يتدخل في الجزائر ضد فرنسا وليس ضد أميركا التي كانت ترغب في الجلاء الفرنسي عن الجزائر*. الولايات المتحدة لم تكن إلى جانب الإمام البدر، بل مع ثورة المشير أحمد السلال، ووافقت على دخول الجيش المصري إلى اليمن وشجعت قيام الجمهورية في اليمن.

---

* وقع ممثلو جبهة التحرير الوطني الجزائرية وفرنسا اتفاقية إيفيان في ١٩٦٢/٣/١٨ التي نصت على استقلال الجزائر. وفي ١٩٦٢/٧/٣ انسحبت فرنسا نهائيا من الجزائر.

السعودية هي التي قاتلت لخوفها من امتداد فكرة الثورة وفكرة الجمهورية إليها. وطالما ظل القتال على الحدود فلا مشكلة جدية، وعندما بدأ جيش عبد الناصر يتكبد الخسائر ويهدد البترول جاء الإنذار الأميركي ووقعت حرب الخامس من حزيران ١٩٦٧.

- **كيف تمكنت اللجنة العسكرية من أن تنفذ انقلاب ٨ آذار ١٩٦٣ في سورية؟**

– حينذاك لم يكن اسمها اللجنة العسكرية ولم تكن معروفة على الإطلاق. كان هناك تنظيم الضباط البعثيين في الجيش الذي له صلة بفروع حزب البعث التي لم تُحل في عهد الوحدة، والتي عرفت باسم "التنظيم القطري"، وتوقع مناشيرها باسم "القيادة القطرية". وهذه القيادة كانت ترغب في إعادة تكوين الحزب من غير التخلي عن الحزب القومي بل بالاتفاق معه. وفي ما بعد جرى الكشف عن وجود "لجنة عسكرية" في القاهرة ظلت تعمل طوال عهد الوحدة سراً. وبسبب هلهلة الحكم الانفصالي في سورية، وبسبب غياب زعامة في وزن جمال عبد الناصر ظهر فراغ كبير في الحياة السياسية. وهذا الفراغ ملأه تنظيم الضباط البعثيين أو ما سمي "اللجنة العسكرية". وكان الشرط الضروري للنجاح هو حمل راية الوحدة التي يقدسها الناس ثم التصدي لخصوم عبد الناصر، في الوقت الذي لا يستطيع فيه عبد الناصر الرجوع إلى الحكم في سورية*. وهكذا استطاعت

---

* حاول عبد الناصر تنفيذ خطة للقضاء على الانفصال. كانت الخطة تنص في بعض بنودها على إنزال فرقة مظليين في اللاذقية فضلا عن مشاة البحرية، وفي الوقت نفسه تتحرك مجموعة من لبنان عبر دير العشاير لنسف محطة الإذاعة في

اللجـــنة العســـكرية البعـــثية أن تمســـك زمام القيادة الفعلية للجيش والقوات المسلحة، بينما الحركة الشعبية غير موجودة.

- **حكـــم الوحـــدة امـــتد نحو ثلاث ســـنوات ونصف السنة. وحتى بعد انقضاء أكثر من سنة على الانفصال ظل عبد الناصر معبود الناس.**

- طبعاً.

- **إذن، ليـــس صحيحاً الكلام الذي سار في الأفواه والأشداق عن القمع والتنكيل في عهد الوحدة.**

- لا. لا. انـــتظـــر قـــليلاً. أنا تحدثت عن أن أكثرية الناس أو الذين أسميتهم العامة ظلوا على موقفهم، ولم يســـحبوا البيعة مثلما سحبها أهل الحل والعقد. ولكنني لم أقل أن عبد الناصر بقي معبود الناس كما كان قبل الوحدة. عـــبد الناصر اهتزت صورته فعلاً. ولو جاء إلى سورية حُكم تقدمي وغير مشـــبوه بـــتهمة الانفصال التي لحقت بالشوام، ولو لم تأت إلى الحكم جماعة الاســـتئثار بالسلطة من ماركة مأمون الكزبري المكروهة، ولو لم تهدد هذه الجماعة مصالح الجماهير الفقيرة بقرارات العودة عن التأميم وعن مكتسبات العمـــال والفلاحين، لما بقيت صورة عبد الناصر على بهائها. لا لم يكن عبد

الصـــبورة. وجـــاء شعراوي جمعة إلى بيروت والتقى في منزل رشيد الصلح قائد "المقاومـــة الشعبية اللبنانية" رشيد شهاب الدين وطلب إليه تنفيذ خطة نسف الإذاعة بالتعاون مع شبلي العريان. لكن الخطة فشلت في اللاذقية وفي دير العشاير.

الناصـــر معـــبود الجماهير. كان معبودهم فعلاً في الفترة ما بين تأميم القناة وقيـــام الوحـــدة. أمـــا خلال الوحدة فاهتزت الصورة كثيراً، مع أن الإعلام المصـــري حـــاول أن يصور الأمور السيئة التي حدثت في سورية بأنها من رذالات عبد الحميد السراج وجماعته.

- **بين الانفصال وقيام حركة ٨ آذار ١٩٦٣ ألم يتسنّ لحزب البعث أن يعيـــد تنظيم نفسه؟ ولا سيما أن بعض المصـــادر يذكر أن عدد أعضاء حزب البعث عشية انقلاب ٨ آذار لم يكن يتجاوز ٤٠٠ عضو. ما مدى صحة هذا الكلام؟**

- ٤٠٠ عضو؟ هذا الرقم مبالغ فيه.

- **أقل من ٤٠٠ عضو؟**

- أقل طبعاً*.

- **في جميع أنحاء سورية؟**

- طـــبعاً. وحـــتى وقـــوع الانفصـــال لم يخطـــر في بال البعثيين أن الانفصال يمكن أن يقع. ربما توقعوا أن يحدث نوع من الحركة الاحتجاجية، وحاول البعض، جدّياً، إعادة تنظيم الحزب، لكنه فشل، لأن ميشال عفلق ظل

---

* يقـــول ســـامي الجندي في كتابه "البعث" أن عدد البعثيين في سنة ١٩٥٢ بلغ ٥٠٠ عضـــو، وبعـــد الاندماج بالحزب العربي الاشتراكي في سنة ١٩٥٤ تجاوز الرقم ٢٥٠٠ عضو.

مصـــمماً عـــلى أن يـــبقى مستأثراً بالقيادة القومية للحزب، وصلاح البيطار مصـــمم عـــلى العمل مســـتقلاً، لأنه أصبح غير قادر على العودة إلى العمل المشترك مع ميشـــال عفلق، أي في الموقـــع الثاني. صحيح أنه كان بينهما عداء حقيقي، لكن الاثنين لا يريدان أكرم الحوراني.

- **حزب البعث، في تكوينه، فوق الطائفية والعصبيات العشائرية. هكذا كان، على الأقل، في طوره الأول.**

- عندما انفرط عقـــد حزب البعث عادت العصبيات لتطل بين البعثيين أنفســـهم. لنتحدث بهدوء، فهذه المسألة شديدة الحساسية. سورية سبقت مصر في مسائل، مثلما كانت مصر السباقة في مسائل أخرى. سورية سبقت مصر بالوعي القومي العربي وبالتشديد على الوحدة العربية، وفي إدراك الخطـــر الإســـرائيلي لأن هـــذا الخطر في قلبها. فلسطين تقع في قلب سورية وليس خارجها مثلما هي فلسطين لمصر.

- **فلسطين نقطة الدفاع الأولى عن الأمن القومي المصري.**

- مجـــرد خطـــر عـــلى الأمـــن الوطـــني. خطر خارجي وليس في الأحشـــــاء. ثـــم إن سورية تفوقت على مصر بمفاهيم الوحدة الوطنية وهي أقـــوى مـــن الوحـــدة الوطنية القائمة في مصر. الوحدة الوطنية في مصر صنعها الأقباط بعد ثورة ١٩١٩.

- **سعد زغلول ومكرم عبيد. ثنائية رمزية لا قيمة اجتماعية لها.**

- سار الأقباط مع سعد زغلول والتحقوا بحزب الوفد.

- **لكـــن قبل حزب الوفد وثورة ١٩١٩ لم تكن هناك مشاكل طائفية في مصر.**

- قبل الوفد كان الحكم إسلامياً. أليس كذلك؟

- **صحيح.**

- كان الحكم ينظر إلى المسيحيين على أنهم أهل ذمّة. أقصد قبل محمد علي كان الحكم إسلامياً. محمد علي استمرار للحكم الإسلامي مع محاولة لعصرنة المجتمع. في ثورة ١٩١٩ بدأت مفاهيم الوحدة الوطنية تظهر في مصـــر مثل سورية. لكن ثمة ممنوعات في مصر لا يمكن أن يتجاوزها الأقباط كالوصول إلى مراكز رئيسية في الجيش مثلاً. حتى في الجامعة كانت هناك أعـــراف تحد من أعداد المنتسبين المسيحيين، وكذلك في الوظائف الأساسية التابعة للوزارات السيادية. هذا الأمر كان معدوماً في سورية. ونتيجة للنضال المشترك ضد فرنسا، تقدمت الوحدة الوطنية في سورية أشواطاً عديدة عما هي عليه في مصر. عندما تمت الوحدة كان هناك ثمانية مراكز حساسة، لم يلاحظ أحد أن القائمين عليها مسيحيون. لم يتنبه لها حتى المسيحيون أنفسهم ولا حتى الرجعيون أو المشايخ أو الإخوان المسلمون. لماذا؟ لأن هذه النزعة كانت غير موجودة في سورية. وعندما جاء المصريون مع الوحدة صار الواحد منهم عندما يكتشف المسألة تدور عينيه تعجباً ويتساءل: كيف يحدث هذا؟ كيف يتسلم مسيحي هذا المنصب؟

- **ما هي هذه المراكز الحساسة؟**

- عد على أصابعك: رئيس أركان الجبهة التي توازي ثلثي الجيش كان مسيحياً.

- **ما اسمه؟**

- نوفل شحم. قائد الطيران مسيحي يدعى وديع المقعبري، وهو ماروني أيضاً. الأمين العام لوزارة الداخلية فؤاد شباط. والأمين العام لوزارة العمل والشؤون الاجتماعية مسيحي اسمه موسى شحود. أكبر موظف مدني في وزارة الدفاع مسيحي اسمه يوسف خباز، وقائد الدرك هارنت بك كان مسيحياً وأرمنياً فوق ذلك. أنيس شباط الأمين العام لوزارة المواصلات. حنا مالك الأمين العام لمجلس الوزراء، وأنور حاتم...إلخ *.

---

* فضلاً عن هؤلاء كان يوجد الكثير من الضباط المسيحيين الآخرين أمثال اللواء فيليب صوايا واللواء باصيل صوايا واللواء فؤاد قربة واللواء ميخائيل ورد واللواء ألبير عرنوق والعميد سمير جبور والعميد آرام كرامانوكيان (قائد المدفعية) والعقيد بهيج كلاس والعقيد أنطون بستاني (مدير التموين في الجيش) والعميد جودت جورج والمقدم عبد المسيح الداغوم علاوة على الضباط ألبير كيلاجيان والياس بيطار ولويس دكر وجورج عوض وجوزف بيرميان. أما في الحياة السياسية فاشتهر كل من فارس الخوري وفايز الخوري وسهيل الخوري ورفيق بشور وحنين صحناوي وليون زمريا وجورج شلهوب وروبير الياس وجورج خوري وخليل كلاس وميخائيل اليان ونوفل الياس وغيرهم كثيرون.

- **فارس الخوري طبعاً.**

- أنا أتكلم على الوظائف العليا وليس على السياسيين. الوحدة مع مصر كانت مسؤولة، بطريقة غير مباشرة، عن إثارة النعرات الطائفية. كنا نسمع كلاماً يتردد عن أن العلويين والدروز يجب أن يتحولوا إلى الإسلام. حسناً، كيف يتحولون إلى الإسلام وهم يقولون عن أنفسهم أنهم مسلمون؟ وكان الجواب الساذج هو أن نرسل عدداً من شبانهم في بعثات دراسية إلى جامعة الأزهر في القاهرة، ونعلمهم الشرع. وبالفعل تحمس الدروز والعلويون وذهب عدد من الشبان للدراسة في الأزهر.

- **والاسماعيليون؟**

- والاسماعيليون أيضاً. فهذه المذاهب المعترف بها لدى بعض التيارات الإسلامية، رغبت في أن يُنظر إليها كمسلمين، وهم لا يريدون أن يبقوا خارج الإسلام.

- **في هذا السياق يروى أن الشيخ محمود شلتوت أصدر فتوى في هذا الشأن نصت على جواز التعبد على مذاهب العلويين والإسماعيليين والدروز باعتبارها مذاهب إسلامية*.**

---

* ولد في سنة ١٨٩٣، ونال العالمية سنة ١٩١٨ وفي سنة ١٩٥٨ عين شيخاً للأزهر. وتوفي في سنة ١٩٦٣.

- لا أدري. لكن الخوف والقلق بدأ يتسرب إلى النفوس جراء هذا الكلام الذي راح يتردد في الأفواه والألسنة. وحالة الاسترخاء والاستراحة اللاطائفية التي كانت تسير فيها سورية توقفت وراحت تسلك سلوكاً آخر، ولا سيما أن المتعصبين من المسلمين وجدوها مناسبة لإعادة إحياء تراث من التكفير وكره الآخر. وسأروي لك حكاية أخبرني بها مناضل بعثي اسمه سليم حبي، كان معي في التنظيم السري، وفي ما بعد سافر إلى مصر لمتابعة دراسته، وعمل بجهد كبير لتوسيع الفرقة الحزبية في مصر واستقطاب عناصر جديدة لها. أخبرني سليم حبي أنه في سنة ١٩٥٣ عندما زار أديب الشيشكلي مصر، وكان جمال عبد الناصر معجباً به، التقى صديقي هذا الرئيس عبد الناصر. وفي هذا الاجتماع امتدح عبد الناصر أديب الشيشكلي كثيراً بينما كان البعثيون ينهالون عليه بالذم، وأخبروا عبد الناصر أنهم في سورية يناضلون ضده. ولم يجد عبد الناصر غضاضة في أن يقول للبعثيين: كيف يكون في سورية حزب رئيسه مسيحي؟ كان التعصب بدأ يبهت بالتدريج في سورية ويتجه إلى الزوال، ثم جاءت الوحدة فأعيد إحياؤه.

- **ليلة ٨ آذار ١٩٦٣ أين كنتَ؟ هل وصلتك إشارات أو بعض المعلومات عن أن أمراً يجري تدبيره؟**

- نعم. كانت القصة مكشوفة، ولكن ليس لكل الناس بالطبع. عندما أصبح زياد الحريري رئيساً لأركان الجبهة بات واضحاً أن ثمة كتلتين في الجيش بدأتا تتسابقان إلى القيام بانقلاب عسكري: كتلة ضباط البعث وكتلة الضباط الناصريين. وجاء دخول زياد الحريري إلى جانب البعثيين ليرجح

الكفـــــة لمصلحتهم. ومنذ أن وقع انقـــلاب ٨ شباط ١٩٦٣ في العراق كان الجميـــع في الشـــارع يتناقلون خبر الانقـــلاب المقبل. الحكم صار في حال استسلام وراح ينتظر مصيره.

- **أي أنه فقد سلطته على الجيش.**

- صحيح. هنا اتفق الضباط البعثيون مع الضباط الناصـــريين على تنفيذ الانقلاب في ٩ آذار ١٩٦٣، وفي الوقت نفسه اتفقوا مع زياد الحريري على ٨ آذار، ونفذوا الانقلاب في ٨ آذار، وفاجأوا به الناصريين. صلاح جديد، للحقيقة، كان عقلاً تنظيمياً رفيعاً. فقد أنجز، حينما كان مسرّحاً من الجيش، دراسة عن ضباط الجيش السوري واحداً واحداً. وعندما تولّى الشعبة الأولى، أي الشعبة المسؤولة عن الضباط، اكتشف أن معلوماته كانت أفضل بكثير من المعلومات المحفوظة في الأرشـــيف الرسمي للشعبة الأولى. هذا العقل التنظيمي لمع حقاً عندما أصدر أوامر لجميع الضباط البعثيين الذين عادوا إلى الجيش أنذرهم فيها بأن من يقبل منكم وظيفة مكتبية، بما في ذلك الشـــرطة العسكرية، سيُفصل من الحـــزب. وعلى الجميع أن يلتحق بالقطعات العســـكرية الميدانية وأن يضحي بالامتيازات التي يمكن أن تعـــرض عليه هنا وهناك. في المقابل كان الضباط الناصريون، كلهم بلا استثناء، يتزاحمون على الوجاهة والامتيازات.

- **وهكـــذا ســـيطر الضباط البعثيون، بالتدريج، على مواقع مهمة في الجيش.**

- اعتقد الناصريون أن منصب رئيس المخابرات مثلاً أو رئيس الشرطة العسكرية أو قائد شعبة التنظيم والإدارة شأن مهم جداً. لكن، عندما تندلع الصراعات فإن القطعات العسكرية هي التي تحسم الأمر.

- **هناك مسألة خطيرة ربما تفسر، إلى حدّ كبير، هزيمة الخامس حزيران ١٩٦٧. فهذه الصراعات المتمادية في الجيش منذ حسني الزعيم حتى الانفصال، أدت إلى نزف هائل في صفوف الجيش، وذهب عدد كبير من الضباط المحترفين إلى منازلهم بالتتابع. حتى أن حركة ٨ آذار ١٩٦٣ سرّحت ٧٠٠ ضابط مرة واحدة واستبدلت بهم بعثيين من حملة البكالوريا، أي أنهم لا يفقهون من شؤون القتال إلاّ ما تعلموه في الخدمة العسكرية. وفي ما بعد وقعت حركة ٢٣ شباط ١٩٦٦ لتسرّح نحو ٤٠٠ ضابط أيضاً. وهكذا وصلنا إلى سنة ١٩٦٧ والجيش السوري لا يمتلك ضباطاً محترفين من ذوي الخبرة والمعرفة. وهذا العقل التنظيمي الذي تتكلم عليه كان مرصوداً للصراعات والسيطرة على السلطة لا لمواجهة العدو الصهيوني. كيف تعالج هذا الرأي؟**

- لا توجد فروق جوهرية في الجيش السوري بين الذين ذهبوا إلى القطعات العسكرية، والذين ذهبوا إلى المكاتب. طبعاً الذين ذهبوا إلى القطعات أفضل عسكرياً. أما هزيمة ٥ حزيران ١٩٦٧ فهي هزيمة للجيش السوري بلا شك، ولكنها هزيمة للجيش المصري أولاً وأخيراً. متى احتلت إسرائيل الجولان؟ متى فرض على الجيش السوري التراجع بلا قتال؟ أليس

بعد أن كُسر الجيش المصري، وطلب وقف إطلاق النار؟ من الذي أدار الأزمة في سنة ١٩٦٧؟ من الذي أبعد القوات الدولية عن الحدود المصرية؟

- **إنها، في جميع الأحوال، فضيحة مدوية للجيشين.**

- يا أخي نحن نتحدث للتاريخ. إنها فضيحة لنا، ولأفكارنا عن النهضة العربية أو لما ظننا أنه نهضة. وفي أي حال يجب ألا ندخل عواطفنا في الموضوع. عواطفي ليست مع البعثيين ولكنها ليست مع عبد الناصر إطلاقاً. هذا جوابي وليس لدي جواب آخر.

- **نعود إلى بداية السؤال، ماذا فعلت ليلة ٨ آذار؟**

- كنا واثقين أن قصة الانقلاب منتهية. وكنت انتظر أن يصدر عبر الإذاعة أسماء الضباط الذين سيعودون إلى الجيش. وفي الساعة التاسعة من صباح ٨ آذار صدرت الأسماء التي نعرفها: محمد عمران وعبد الكريم الجندي ومصطفى طلاس وصلاح جديد..الخ.

- **وحافظ الأسد؟**

- حافظ الأسد لم أكن أعرفه، ولم أسمع باسمه من قبل. وعندما صدرت القائمة، وهي تضم أربعين اسماً لضباط أعيد توزيعهم على القطعات العسكرية عرفت أن الانقلاب المنتظر هو انقلاب بعثي خالص.

- **ألم تفرح لانقلاب ٨ آذار ١٩٦٣ كونك بعثياً؟**

- أنا فرحت لانقلاب ٨ شباط في العراق، واعتقدت أن بالإمكان تحويل ذلك الانقلاب إلى حركة شعبية أو إلى ديمقراطية شعبية، وأن تعقب ذلك الوحدة بين سورية والعراق، وأن ينكشف موقف عبد الناصر، فإما أن يتراجع عن عنجهيته ويقبل رئاسة دولة اتحادية ويكون حلم العرب تحقق بوحدة مصر وسورية والعراق، وعندها تكون إسرائيل على وشك النهاية، وإما أن يقول لا، فتصبح الوحدة السورية ـ العراقية هي مركز الثقل في المنطقة، ويصبح عبد الناصر أصغر من مصطفى النحاس بل أصغر من علي ماهر.

- **لكن محادثات الوحدة في سنة ١٩٦٣ لم ينجم منها أي شيء.**

- محادثات الوحدة كانت تجري في العلن، لكن الصراعات كانت محتدمة في السر*. كان البعث يركز على أخطاء السرّاج وأخطاء السوريين من جماعة عبد الناصر. وأول ردة فعل من عبد الناصر كانت قيامه بوضع السوريين من أنصاره الذين كانوا في القاهرة في طائرة وإرسالهم إلى دمشق.

---

* سافر إلى القاهرة من العراق علي صالح السعدي، بينما أرسل انقلابيو سورية كلا من لؤي الأتاسي وزياد الحريري وفهد الشاعر، وهؤلاء ليسوا بعثيين إلا فهد الشاعر. وعندما جرى توقيع ميثاق الوحدة الثلاثية في ١٧ نيسان ١٩٦٣ بادر السوريون إلى تسريح الضباط الناصريين فانهار ميثاق ١٧ نيسان فورا.

- **أمثال جادو عز الدين وأكرم الديري.**

- وجاسم علوان وعبد الحميد السّراج ... الخ.

- **هل اعتقلوا فور وصولهم؟**

- لا. لم يرغب البعثيون في إغضاب عبد الناصر فمنعوهم من الدخول وظلوا عدة ساعات في المطار ثم أعادوهم إلى القاهرة. هنا أطلق ميشال عفلق نكتة لئيمة فراح يردد: "شو هالقصة يا أخي. نقول لعبد الناصر إننا نريد الوحدة بلا أخطاء، فيرسل لنا الأخطاء بلا وحدة". أنا لا أستطيع الخروج من موقفي اللاناصري. أنا انقلبت من إنسان مؤمن بزعامة عبد الناصر مثل جميع الناس في سنة ١٩٥٧ إلى إنسان غير مؤمن بزعامته أبداً منذ أواخر صيف ١٩٥٨ عندما حدثت التسوية في لبنان مع الولايات المتحدة الأميركية، فضلاً عن الأخطاء الفاحشة التي ارتكبت في العراق والتي أدت إلى سيطرة عبد الكريم قاسم والشيوعيين على العراق بدلاً من الوحدويين والبعثيين، وإلى سحل إخواننا في الشوارع.

- **تقصد أحداث الموصل.**

- لا. أحداث الموصل وقعت في سنة ١٩٥٩*. ونتيجة لهذه الأخطاء استقال وزراء البعث، فراح عبد الناصر يهاجمهم في الوقت الذي يسكت

---

* أحداث الموصل وقعت بعد ثورة عبد الوهاب الشواف في ١٩٥٩/٣/٨.

عن أنور السادات الذي هدد الوزراء في قلب سورية بـ "الدوس بالجزم"، وقال:"يا سيادة الرئيس، دوسهم بالجزم".

- **من أسوأ الأمور أن تتحكم جُزَم العسكري بأي مجتمع مدني.**

انتقلت من مؤمن بقيادة عبد الناصر إلى مشكك فيها فإلى مؤمن بأنه غير صالح للقيادة إطلاقاً، ثم فقدت الأمل بقيادته ورأيت أن المخرج هو في الوحدة السورية ـ العراقية. وكنت أنظر بعين الأمل إلى علي صالح السعدي، الذي هو صديق شخصي لي، وراهنت على أن تتفوق عقليته الاشتراكية على نزعته الشعبوية ويتوقف ميشال عفلق عن مناوراته، ويستعيد الحزب وحدته بعودة أكرم الحوراني وغيره وأنا معهم. لكن حينما سقط الحكم في العراق في ١٨/١٠/١٩٦٣ يئست تماماً وسافرت إلى فرنسا.

- **لماذا سافرت؟**

- سافرت في بعثة تدريبية بعدما طلبت تسريحي من الاحتياط. ولهذه البعثة حكاية أرويها لك. أرسل صلاح جديد في طلبي بواسطة سكرتيره رضوان جروس وكان لا يزال برتبة مقدم لكنه يقود الشعبة الأولى في الجيش. واجتمعنا نحن الثلاثة في جو رفاقي، وسألني صلاح جديد: لماذا تريد ترك الجيش؟ فأجبته أنني أرغب في العمل في المجال المدني ولا سيما أنني أحمل الإجازة في القانون من جامعة دمشق، ولا زلت نقابياً أيضاً. فقال

لي إن لديه مشروعاً لتحويل الضباط الاحتياط إلى ضباط عاملين، وسيكون لهم الحق في الأقدمية العسكرية. ولأنني لا أريد الكلام معه في السياسة، ولا أريد أن أفصح له عن أفكاري وأنني ما عدت واثقاً من أي نتيجة سياسية للبعث بعد سقوط الحكم البعثي في العراق، حولت الحديث إلى الشؤون العسكرية وسألته: متى نلتم البكالوريا يا سيدي. فأجابني: في سنة ١٩٥٠. فقلت: والتحقتم فوراً بالكلية العسكرية؟ قال: طبعاً. فقلت له: عندما قبلت في الفحص الصحي والشفهي في الكلية العسكرية كنتَ أنت يا سيدي طالباً مستجداً في الكلية العسكرية، أي أنني لو التحقت بالكلية العسكرية في تلك الفترة لكان الفارق بيني وبينك عاماً واحداً فقط. فأجابني على الفور: ومن قال لك إنك لن تنال رتبتك بحسب الأقدمية؟ ستلتحق بالدورات الملائمة لهذا الغرض.هنا أسقط في يدي ورأيت أن الذرائع الشخصية لن تكفي لإقناعه فقلت له: أنا احترفت الحياة المدنية والعمل النقابي والقانوني والثقافي، وما عدت صالحاً للعمل الحزبي أو للعمل العسكري، وأنا مُصر على السفر إلى باريس. وبعد نحو ساعة من الجدال يئس صلاح جديد من إقناعي وقال لي: "اصطفل. الله معك". وأصدر لي تصريحاً بالسفر وغادرت إلى فرنسا. وأذكر أنه كان يخاطبني أستاذ نبيل وأنا أصر على مخاطبته سيدي لأنه كان يبغي إشاعة جو حميمي في الجلسة وأنا أصر على الشكليات الرسمية للجيش.

- **يروى عن علي صالح السعدي أنه عندما جاء إلى دمشق عقب انقلاب ٨ آذار ١٩٦٣ وزار رئاسة الأركان، وكان يرتدى "جلابية" على ما يبدو، رفع ذيل ثوبه قبل أن يجتاز الباب**

الرئيسي، ثم تلفت يميناً ويساراً وقال: أين الدم؟ فقالوا لـه: لا دماء هنا. أي أن حركة ٨ آذار كانت بلا ضحايا، بل مجرد انقلاب ابيض. فعلق بالقول: "ثورة من غير دماء ليست ثورة". هل أن هذه الحادثة صحيحة؟

- علي صالح السعدي، في ذاك الوقت، كان جدياً جداً. هذا الرجل مظلوم وظلمته الأقدار، وظلم نفسه بنفسه لأن طموحه كان أكبر من إمكاناته، وفرضت عليه الأوضاع أن يتصدى لقيادة ميشال عفلق وهو الزعيم المطلق للحزب. لو كان أكرم الحوراني ما زال في الحزب في تلك الأثناء، ولو كان الحزب ظل موحّداً، فإن مستقبلاً باهراً كان ينتظر علي السعدي. لأن علي السعدي يصلح لأن يكون واحداً من قيادة فاعلة، أما أن يكون رأساً لقيادة ثلاثة أرباع أعضائها أولاد والربع الباقي مشبوه، فلن ينجح على الإطلاق في طموحه. وهذه تشنيعات خصومه من العفالقة والناصريين. وحتى لو كانت صحيحة فهذا هو جو البعث في العراق. بل هذا هو جو العراق منذ الآشوريين مرورا بالحجاج وإلى يوم الناس هذا*.

---

* يروي أحمد عبد الكريم في كتابه "حصاد سنين خصبة وثمار مرة" أن علي صالح السعدي قال لمستقبليه في مطار المزة: "ثورة بلا دماء ليست ثورة". ويروي مصطفى طلاس في مذكراته (الجزء الثاني، ص ٤٥٤) أن علي السعدي حينما كان يصعد درج رئاسة الأركان في دمشق سأل الفريق لؤي الأتاسي: "بابا ماكو دم؟ ماكو مشانق؟".

* **قامت حركة ٨ آذار ١٩٦٣ أخيراً. ولكن في أول يوم بعد قيامها صدر البلاغ رقم ٤ الذي أوقف جميع الصحف عن الصدور، ما عدا "الوحدة العربية" و"بردى" و"الفجر". وفي ١٩٦٣/٣/١٣ ألغيت الامتيازات الصحفية كلها وصودرت المطابع، ووضعت أموال أصحاب الصحف تحت الحراسة القضائية، ومنعت الأحزاب، وفُرض العزل المدني على الكثير من السياسيين. ألم تكتشف في هذه الاشارات كلها مقدمة للدكتاتورية؟**

- كأنك تقصد من هذا السؤال السخرية. هل ثمة شك في أن الانقلاب العسكري، أينما كان، يؤدي إلى الدكتاتورية؟ لم يكن لدي أي شك في هذا الأمر.

* **لكن انقلاب سوار الذهب في السودان لم يؤد إلى الدكتاتورية بل سلم السلطة إلى المدنيين طوعا. وفي أي حال سأعرض عليك بعض الأسماء، وأود أن أقرأ انطباعك الشخصي عنها. ولنبدأ بميخائيل إليان، هذه الشخصية التي تبدو من خلال المصادر قبيحة وعميلة للإنكليز والأميركيين وفاسدة. إلى أي مدى يمكن الركون إلى هذه الصورة؟**

- ميخائيل اليان من زعماء حلب الحقيقيين، وهو من الأثرياء.

* **أهله يمتلكون الأراضي الشاسعة في تركيا.**

- طبعاً. وعندما لجأ إلى تركيا استعاد أملاكه في أنطاكيا ولواء الاسكندرون، وعاش ملكاً بقية عمره. ولأنه ثري لم يكن في حاجة إلى قبض الأموال، وهو، في هذه الحال، ليس فاسداً مثل حسني البرازي الذي يماثله في المواقف السياسية. غير أن ميخائيل اليان من الذين كانت لهم جولات في الحركة الوطنية السورية وفي النضال ضد فرنسا وفي السعي إلى إقامة دولة عصرية وتحويل المجتمع السوري من مجتمع قبلي إلى مجتمع عصري، وإن كان قد أصبح موتورا بعد انتصار صبري العسلي عليه في الحزب الوطني *. ومن أمثال هؤلاء سهيل الخوري.

---

* يذكر خالد العظم في مذكراته أن ميخائيل إليان كان يقبض الأموال من العراق مثله مثل عدنان الأتاسي ومعروف الدواليبي وصبري العسلي ولطفي الحفار. ويذكر سامي جمعة في كتابه "مأساة الكونت لويس دوسان" (دمشق: دار طلاس، ١٩٩٩) أنه حصل على تقرير استخباري نشله أحد عملائه من رجل الاستخبارات ويلبر كرين إيفلاند يتضمن كشفاً بالمبالغ التي سلمها إيفلاند لميخائيل إليان لتوزيعها على بعض الوزراء والنواب، والتي بلغ مجموعها خمسة ملايين ليرة سورية. ويكشف إيفلاند نفسه في كتابه "حبال من رمل" (بيروت: دار المروج، ١٩٨٥) وقائع لقاءاته مع ميخائيل إليان وكيف أن إليان طلب أموالاً ليدفعها إلى صحافيين وزعماء وضباط تمهيداً لانقلاب عسكري في سورية وضع خطته إليان مع آرشي روزفلت. أما الانقلاب الذي كان يجب أن يقع في ١٩٥٦/١٠/٢٥ فقد أُحبط بسبب وقوع العدوان الثلاثي على مصر. وتبين لاحقاً أن الاسم الرمزي لهذه الخطة كان "عملية الرصافة"، وكان يقودها اللواء غازي الداغستاني، ومن رجالها: حسن الأطرش، هايل السرور، فضل الله جربوع، المقدم سعيد الكاتب، الضابط محمد معروف، الضابط غسان جديد، العقيد محمد صفا، فارس دويعر، ميخائيل إليان، أديب الشيشكلي، سامي كبارة.

- **ابن فارس الخوري ووالد الأديبة كوليت الخوري.**

- نعم. اعتقد سهيل الخـــوري انه وارث الزعامة، فهو خلق في بيــت زعامـــة. لكن هذا التفكير كـــان له أثر سلبي عليه، مثلما ترك بعض الآثار السلبية على منصـــور الأطرش، مع أن منصور الأطرش ولــد فـــي بيــت زعامة منذ أربعة أجداد على الأقل، ثم جاء والـــده الوطني الكبيـــر ليطلـــق ثورة وطنية شملت سورية بأسرها. لذلك فهو لديه بعض العذر على الأقـــل. أما سهيل الخوري فالزعامة في بيته لا تمتد أبعد من أبيه وعمه فايز فقـــط. سهيل ظن أنه زعيم فأصبح في أقصى اليمين أي رئيسا لكتلة العشـــائر فـــي المجلس النيابي، وطالما حاول أن يكســـر الموجة التقدمية التـــي اكتســـحت سورية في إحدى الفترات. الأمير حسن الأطرش، وهو الزعيم الكبير، كـــان أحد الذين وقفوا إلى جانب سلطان الأطرش إبّان الصراع بين دولـــة جبـــل الدروز وتيار الوحـــدة السورية. ولولا وقوف حسن الأطرش إلـــى جانـــب سلطان الأطرش لكان سلطان الأطرش اضطر إلى الاشـــتباك مـــع بعـــض عائلته.

- **لعب دوراً وطنياً فعلياً.**

- طبعاً. هو الذي رجّح الكفة، وهو الذي قام بالانقلاب السياسي فـــي جبل الدروز وأنزل العلم الفرنســـي عن السراي ورفع العلم السوري بـــدلاً منه. ولا ريب في أن ثورة السويداء وحماة كانتا مـــن أبرز العوامل التـــي ساهمت في صمود رجال الاستقلال أمثال شكري القوتلي وغيره.

- **ثورة حماة كان يقودها فوزي القاوقجي في تلك الفترة.**

- في الثورة السورية الكبرى شارك فوزي القاوقجي* لكن حماة كلها قاتلت الفرنسيين. وأكرم الحوراني قاتل في دمشق. ميخائيل اليان انتهى اسمه منذ زمن بعيد، لكنه كان جزءاً من رعيل اعتقد أن الغرب هو من يصنع السياسة في المنطقة العربية وفي العالم كله ونحن ننفذها. وهذا الرعيل كان يقول إننا إذا أردنا أن نصنع سياسة مستقلة فحتى تنجح يجب أن يقبل بها الغرب. أما إذا عارضها فعلينا أن نتحول إلى التسوية معه، أي إلى التفاهم. وهؤلاء يمتلكون عقلاً بورقيبياً لكنهم أقل معاصرة من بورقيبة نفسه. ومن هذا الرعيل الملك فيصل الأول؛ فهذا الملك لا يشك أحد في وطنيته وعروبته. وكذلك نوري السعيد والنخبة التي حكمت معه سورية والعراق في ما بعد. أما عبد الرحمن الشهبندر فقد ظل يعارض إلى أن اغتيل.

- **هل يندرج في هذه الفئة واحد مثل صبري العسلي؟**

---

* ولد القاوقجي في طرابلس الشام سنة ١٨٩٠، وتخرج في الكلية الحربية في الأستانة. وفي سنة ١٩١٦ وقف ضد الثورة العربية الكبرى وقاتل إلى جانب الأتراك ضد القوات الإنكليزية في فلسطين. أعلن الثورة في حماه في ١٩٢٥/١٠/٣ ضد الفرنسيين. وفي ما بعد شارك في معارك فلسطين سنة ١٩٣٦، وقاد جيش الإنقاذ سنة ١٩٤٧.

- نعم، لكن صبري العسلي حاذق أكثر*. كان أكرم الحوراني في حاجة إليه، لكن أكرم الحوراني لم يكن يحتاج ميخائيل اليان.

- **ومعروف الدواليبي؟**

- مثل صبري العسلي.

- **وعبد السلام العجيلي؟ ألم يكن انفصالياً؟**

- لا أدري. ما أعرفه أن اثنين فقط من النواب ذهبا إلى الحرب في فلسطين: أكرم الحوراني وعبد السلام العجيلي. ومنذ أن ظهر العجيلي في سورية وهو مناضل ديمقراطي. هل تريد أن توحي بسؤالك أن سلطان الأطرش وشكري القوتلي وفارس الخوري انفصاليون أيضاً؟ ليس صحيحاً هذا الأمر.

- **وخالد العظم؟**

- خالد العظم له شخصية مميزة جداً فهو وارث عائلة برز من بين أبنائها سبع حكام. سبع باشاوات حكموا دمشق وأولاد عمه من آل العظم يعتبرون أهم عائلة إقطاعية في حماة.

---

* ولد صبري العسلي في دمشق سنة ١٩٠٣، وهو أحد مؤسسي "عصبة العمل القومي". وتسلم رئاسة الوزراء في ١٩٥٤/٣/١، لكنه وافق على الانفصال. وفي ١٩٦٣/٣/٨ فرض عليه العزل المدني، واعتقل في ١٩٦٦/٧/١٨.

- **ولهم فرع في تركيا.**

- ولهم أملاك في تركيا حتى الآن. خالد العظم ورث والده في العمل السياسي، وكان مدللاً. وعندما تعرّف إلى شكري القوتلي مشى تحت زعامته فوراً ولم ينافسه في الزعامة على الإطلاق. فلما احتد الصراع بين فرنسا والحركة الوطنية في الثلاثينات، اتخذ خالد العظم موقفاً وطنياً ضد فرنسا، مثل فارس الخوري، وليس مثل حسني البرازي الذي بدأ حياته السياسية مع الوطنيين السوريين وانتهى إلى التعامل مع فرنسا. ولولا ابن عمه نجيب البرازي، وهو رأس العائلة البرازية، لكان جميع أفراد عائلة البرازي أصبحوا خارج الحركة الوطنية. وفي أي حال، فإن خالد العظم رجل دولة بكل ما للكلمة من معنى. صحيح أنه كان يعتقد أن الغرب هو سيد العالم، لكنه عندما تعاون مع أكرم الحوراني والشيوعيين كان يشق عصا الطاعة على الغرب نفسه.

- **لهذا سُميَّ بـ"الباشا الأحمر".**

- صحيح.

- **لكن في عهده تم الانفصال الجمركي بين لبنان وسورية*.**

---

* اتخذ خالد العظم قرار إلغاء الوحدة الجمركية بين لبنان وسورية في ١٩٥٠/٣/١٣. وخالد العظم مولود في ١٩٠٣/١١/٦، وتولى رئاسة الحكومة في ١٩٤٩/١٢/٢٧. وجراء انقلاب ٨ آذار ١٩٦٣ التجأ إلى السفارة التركية في دمشق، وتوفي في بيروت في ١٩٦٥/٢/١٨.

- ليست هذه خطيئته الوحيدة. لكنها واحدة من أخطاء مَن يعمل لا مَن يستنكف عن العمل.

- **في أي حال، كان قرار الانفصال عن لبنان قرار حكومة وليس قرار خالد العظم منفرداً.**

- نعم.

- **أي قرار طبقة اجتماعية واقتصادية بأكملها.**

- قرار الطبقة البرجوازية اللبنانية أولاً ثم الطبقة البرجوازية الحاكمة في سوريا ثانياً.

- **ومع ذلك انتهى في المنفى في لبنان، ودفن في لبنان.**

- طبعاً.

- **حتى شكري القوتلي مات في المنفى ودُفن في لبنان.**

- صحيح.



- **منذ الأيام الأولى لسيطرة حزب البعث على السلطة في سورية ظهرت نغمة تقول إن هذا الحكم هو حكم العدس (ع د س) أي حكم العلويين والدروز والاسماعيليين. إلى أي مدى كانت هذه النغمة صحيحة؟**

- أساس هذا المصطلح هو أن أهم الضباط في الجيش الذين تسلموا مراكز شديدة الحساسية بعد ٨ آذار ١٩٦٣ كانوا من منشأ أقلوي: علويون ودروز واسماعيليون. وبرز من بين هؤلاء الضباط أسماء مشهورة أمثال صلاح جديد وعبد الكريم الجندي وسليم حاطوم وأحمد المير.

- **وحمد عبيد وفهد الشاعر.**

- حمد عبيد نعم. أما فهد الشاعر فلم تكن له أي علاقة بالسياسة، بل كان مجرد ضابط محترف وعضو في حزب البعث يتلقى أوامره من القيادة القومية. وكانت له حركات مضحكة طالما تندر بها أو هزأ منها جمال عبد الناصر. وفي هذا السياق أقول إنه لولا ردّات الفعل التي بدأها أمين الحافظ في داخل الحزب عن سني ـ علوي، وهي في الأساس تشنيع ناصري ـ رجعي، لما تفاقمت هذه الظاهرة وانتشرت. ومهما يكن الأمر فالضباط منحوا الموقع الأول لرجل سني هو أمين الحافظ نفسه. وأمين الحافظ السني تحالف مع صلاح جديد العلوي ضد محمد عمران العلوي، وهزم محمد عمران في ذلك الوقت. القيادة القومية لحزب البعث في ذلك الحين كانت عبارة عن مجموعة من الأفراد على رأسها ميشال عفلق وصلاح

البيطار ومنصور الأطرش وجبران مجدلاني ومنيف الرزاز وشبلي العيسمي. لو بقي الحزب موحدا، ولم يخاصموا جمال عبد الناصر، ولو أقيمت جبهة متحدة من البعث والتقدميين والشيوعيين والمستقلين، لكان في الإمكان إعادة تأسيس برلمان ديمقراطي وسلطة تحكم بالأكثرية. لكن من دون هذا كله، ماذا كانت تمثل القيادة القومية مع أمين الحافظ؟

- **٤٠٠ نفر.**

– أولئك المتهمون بأنهم "عدس" هم أصحاب الشوكة في سورية في ذلك الوقت.

- **أصحاب الجيش.**

– القوة بين أيديهم. وعندما تتكون لديهم عصبية يحكمون. أليس هذا ما تقوله النظرية الخلدونية؟ وعندما يظهر بينهم قائد ذكي وواقعي وعملي يتخلص من الآخرين وينفرد بالسلطة.

- **تقصد الرئيس حافظ الأسد؟**

– نعم. حافظ الأسد عندما تخلص من خصومه أصبح طليقا، واعترف به الناس ومشى الجميع في ركابه كصاحب شوكة وصاحب عصبية معا. هذا هو تاريخنا منذ أن فشلت دولة الخلفاء الراشدين حتى

اليوم. أقول فشلت دولة الراشدين، وأصر على ذلك، وإلاّ لماذا حدثت الفتنة الكبرى؟ ببساطة لأن دولة الراشـــدين فشلت. مهما يكن الأمر، فقد سار الناس خلف القيادة الجديدة للرئيس حافظ الأسد لأن هناك فتاوى تحض علـــى طاعة الحاكم، حتى لو لم يحكم باسم الشرع. أما الذين حاولوا تطبيق فتاوى خاطئة في شأن الحاكم فقد ذبحوا ذبحا.

- **تقصد الإخوان المسلمين؟**

- نعم. أو الفرع المقاتل في الإخـــوان المسلمين. وفي النهاية قبلت سورية وبعض لبنـــان وربع الفلسطينيين وجزء من الأردنيين والعراقيين بقيادة حافظ الأسد. أقول هذا وأنا محكوم بالإعدام في عهد حركة ٢٣ شباط ١٩٦٦ وفي عهد حافظ الأسد. وخفض الحكم إلى المؤبد نظرا لتاريخي النضالي. ثـــم صدر العفو عني حينما صـــرت بلا شوكة أو حيل، وبعدما قلنا إننا مستعدون للعودة إلى السجن. وتلاشـــت قصتنا بعدما استقر حكم حافظ الأسد، ولم يبقَ له معارضون جديون.

- **ما كانت تهمتك؟**

- مقاومة حركة ٢٣ شباط. جوابي عن قصة "عـــدس" هو أنك لو قعدت مقعدهم فسيظهر لك أن الحق إلى جانبهم. ولو قعدت مقعد خصومهم لوجدت أن الحق إلى جانب خصومهم.

- **والحقيقة؟**

- لا يمكنك اتهام هؤلاء بالطائفية من دون أن تتهم خصومهم بها أيضا.

- **هذا يعكس الانحطاط الذي بلغته سورية إذن؟**

- لا تستطيع اتهام جماعة ٢٣ شباط بالطائفية ما لم تتهم المجتمع بأمه وأبيه بالطائفية. سورية كانت تتقدم رويدا رويدا نحو المجتمع الديمقراطي شبه العلماني. لكن حكم جمال عبد الناصر أدى إلى التراجع خطوة إلى الوراء في هذا الشأن. ولن تُحل المشكلة الطائفية إلا بإعادة النظر في التراث.

- **هذا موضوع فكري في الصميم.**

- وفي التاريخ.

- **وفي الدين أيضا.**

- يجب إعادة النظر في طريقة فهمنا للدين. لا يوجد أنبياء اليوم ليعيدوا النظر بالديانات التي جاؤونا بها. خاتم الأنبياء مات في السنة الثالثة عشرة للهجرة. لم يعد هناك أنبياء ليعيدوا النظر بالدين. يجب أن نعيد نحن النظر في طريقة فهمنا للدين. أنا لا أتحدث هنا كمؤمن، لكنني لا أوافق هؤلاء الذين يعتقدون أنهم بإعلان الإلحاد يحلون المشكلة أمثال صاحبك ابن العظم*. قصة "عدس" لا يجوز أن نتناولها بخفة. فإذا كانت

---

* يقصد الدكتور صادق جلال العظم.

هناك شبهة طائفية على جماعة ٢٣ شباط، فثمة شبهة طائفية على خصومهم. لـم يقل العلويون والاسماعيليون والدروز ان هناك تعصبا سنيا، بل إن أمين الحـافظ هو الذي أشاع وجود التعصب الطائفي في الجيش. حسنا، لماذا قبل تسـريح أعـداد كـبيرة من البعثيين بتهمة الانفصالية أو الناصرية، وبعض هؤلاء ليس مسلما بل مسيحي؟

- **أمثال مَن؟**

- سليم إبراهيم مثلاً، وهو من أكـثر ضباط الجيش ثقافة ومعرفة، وكان يساري الميول وأفضل ضابط مدفعية في الجيش. اعتبروه من أنصار أكرم الحوراني وسرحوه. لماذا سكت أمين الحافظ على هـذا الأمر؟ خذ مثلا بدر جمعة الذي أعدم مع سليم حاطوم. كان بدر جمعة يقول إنه لا يشتري أمين الحافظ بقرش. هو قال لي ذلك شخصيا، وكان يعتبر نفسه أهم من أمين الحافظ بمئة مرة. حسين ملحـم أيضا. إن قيادة حزب البعث ظنت أن في إمكانها إمساك العصا من الوسط، فلم تتصدَ للمسألة الطائفية بشكل جدّي، لأنها لا تريد إغضاب هؤلاء أو أولئك، بل تريد دوام الحال على ما هي عليه وأن يكون الحكم لها في نهاية المطاف. أن يظن ميشال عفلق نفسه بأنه زعيم وقادر على قيادة الناس ففي الأمر نوع من المزاح السمج وثقيل الدم، لا أكثر ولا أقل، ولكنه مع الأسف كان مزاحاً مكلفاً.

- **ميشيل عفلق وحده؟**

- ميشال عفلق وصلاح البيطار ومنصور الأطرش... إلخ. لو شاء أكرم الحوراني أن يفعل مثلهم لكان أصبح رئيسا للجمهورية في سنة ١٩٤٩

أو في سنة ١٩٥٢ أو في سنة ١٩٥٧ إبان عصيان قطنا. خلاصة الواقع أن البعثيين السنّة ما كانوا متعصبين للسنّة في الأصل، ولم يكن البعثيون العلويون متعصبين للعلوية. المسألة، باختصار، مسألة صراع على السلطة. علي شريعتي له كتاب مهم جدا عنوانه: "إسلام علوي إسلام صفوي". ولو كان شريعتي حيا بعد الثورة الإيرانية لأعدمه الخميني مع أن شريعتي كان من الثائرين على الشاه. وهذا الكتاب يتحدث عن الصفويين وكيف جعلوا التشيع على مذهب الإمامية تيارا متطرفا كي يتاح لهم مقاومة العثمانيين والانفراد بحكم إيران.

- **إن اختيار إيران المذهب الشيعي هو، في الأساس، مناوءة للمركز السنّي في بغداد.**

– الشيعة ليست مذهبا، إنما هي تعبير عن مناصرة الإمام علي. كان يُقال للمسيحي العربي إذا انتصر لعلي انه شيعي.

- **هذا كان في القديم. لكن الشيعة تحولوا إلى مذهب في النهاية.**

– إنه صراع سياسي في البداية.

- **كل أمر هو صراع سياسي في البداية، لكنه يتحول بالتدريج إلى عقيدة.**

– الدين كله أداة للحكم. في العهد الأول للمسيحية كان الدين معارضا للسلطة. وحينما انتصرت المسيحية صارت أداة للحكم. أنا أربأ بنفسي أن

يُسجل علي أنني انخرطت يومـــا في صـــراع طائفي وأنا المولود في بيت أرثوذكسي. هذا ما قلته مرة لمحمد عمران هنا في بيروت فمد يده بقوة ليصافحني وقال لي: نتعاهد على هــذا. فقلت له: أنا لا ألف لفّة أهل السنة ولا لفّة أهل الشيعة. أنا عربي ولا علاقة لي بالسنة أو الشيعة أو العلويين.

- **اســتتب الحكــم لحزب البعث في سورية بعد صراعات طاحنة. أنت ماذا فعلت بعدما رجعت إلى دمشق؟**

- بناء على معرفتي الشخصية أقول لقــد استتب الحكم لأحد أحزاب البعث وليس لحزب البعث. دان الحكم لذاك الحزب الذي كان يشكل المجموعة الأكثر فاعلية في المؤتمر التأسيسي والتي فرضت الاتجاه الاشتراكي على الحــزب. أما ميشال عفلق وصلاح البيطار ومنصور الأطرش والأسماء الأخرى الطنانة الرنانة فكانوا ملوكا بلا جيوش. إن شخصيات محترمة أمثال شبلي العيسمي ومنصور الأطرش لا يمثلون شيئا في جبل الدروز أو في حـــزب البعث. لماذا؟ لأن جبل الدروز ليس العاصمة، وليس من المراكز الحاسمة في ســورية. ونحن هنا نتكلم على الثقل السياسي في مواجهة القوة العسكرية.

- **هما من الأطراف أي الملحقات.**

- تماما. ثم إن هناك فارقا جديا بين أن يعمل المرء بين الناس في حالـــة الصعود الثوري وبين العمـــل بين الناس وهي يائسة. هؤلاء الذين

ذكرت أسماءهم ما كانوا يستطيعون أن يدقوا على صدورهم ويقولوا لأهل جبل الدروز ان السلطة هي سلطتهم. كانوا يقولون انهم يعارضون لكن من الداخل، ويحاولون تحويل هذه السلطة إلى اتجاه مغاير. لهذا أقول ان حزب البعث الذي كان يرأسه عفلق والبيطار ما كان موجودا في السلطة بتاتا بعد حركة ٨ آذار ١٩٦٣*.

- **العسكر هم من دانت لهم السلطة، وعفلق والبيطـار والآخـرون مجرد واجهات مدنية.**

– نعم.

- **ما دام هؤلاء القادة كانوا ضعفاء جداً، وأقصـد عفلـق والبيطـار ومنصور الأطرش... إلخ، لماذا بقي أكرم الحوراني على الحياد؟**

– كان ضد الانقلاب.

- **ألم يؤيد حركة ٨ آذار ولو تقية؟**

---

* كان البعث قبل الوحدة أربع كتل: كتلة عفلق والبيطار، وكتلة جلال السيد، وكتلة وهيب الغانم وكتلة أكرم الحوراني. وصار أثناء الوحدة ثلاث كتل: جنـاح مـع عبد الناصر، وجناح ضد عبد الناصر، وجناح "اللجنة العسكرية". أما في أثنـاء الانفصال وحتى بعد ٨ آذار ١٩٦٣ فقد صار خمس مجموعات: مجموعة أكرم الحوراني، مجموعة وهيب الغانم، مجموعة عفلق والبيطار، مجموعـة "اللجنـة العسكرية" وجماعة "الوحدويين الاشتراكيين".

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. أكرم الحوراني فر وخشي الإعدام ولجأ إلى مكان آخـر. وعندما سمحوا له بالظهور بعدما استتب الأمر لهم في سنة ١٩٦٤ لم يلبث أن اعتقل أكثر من مرة.

- **ما هـي المشـكلة الجوهـرية إذن بين أكرم الحوراني واللجنة العسـكرية؟ أنـا أفهـم الخصومة مع ميشال عفلق، لكن خصومته مع ضباط اللجنة العسكرية تبدو غامضة.**

- بدأت القضية منذ أن أرادت جماعة اللجـنة العسكرية محاربة خصوم عبد الناصـر كي يتسنى لها الإمساك بالقيادة. وربما اعتقد بعضهم أنهم وحدويون بينما أكرم الحوراني انفصالي. وما دام الحكم صار لهم وحدهم فلماذا يشركون أكرم فيه؟ أكرم الحوراني لا يقبل بأن يكون واجهة مدنية للعسكر. هو يقبل أن يكون شـريكا حقيقيا فقط. في تلك الأثناء كنت في فرنسا وعلمت من خلال جريدة "البعث" أن علي صالح السعدي فصل ومجموعته من الحـزب لأسباب أخلاقية. فغضبت غضبا شديداً، وكتبت رسالة إلى خالـد الحكيم وأرسلتها إلى عنوان اتحاد النقابات لكي تُراقب وتُقرأ، وقلت فيها رأيي وتحدثت بكلام ضد ميشـال عفلق وصلاح البيطار وأعلنت أنني مع علي صالح السعدي مع أنني لم أكن من أنصاره.

- **تضامنت معه إذن؟**

- نعم. ناصرته على الظلم. وعندما رجعت إلى دمشق قال لي خالد الحكيم إن الرسالة وصلته بعد عشرين يوما وهي "معلوكة" لكثرة ما تداولتها

الأيدي. في هذه المرحلة بالتحديد انبعثت فكرة تأسيس حزب جديد بقيادة علي صالح السعدي وياسين الحافظ وحمود الشوفي.

- **حزب يساري إذن؟**

– نعم. وأطلقوا عليه اسم "حزب العمال الثوري العربي"*. لم أنضم إلى هذا الحزب، بل بقيت صديقا له لأنني لم أقتنع أن ثمة مكانا لحزب جديد.

- **هل أمضيت فترة طويلة في باريس؟**

– خمسة أشهر فقط. وعندما عدت كانت الصراعات الحزبية في تصاعد مستمر وبدأنا ننتظر انفجار الصراعات العسكرية. في تلك الأثناء، أي في سنة ١٩٦٥، انصرفت إلى العمل النقابي وخضت انتخابات نقابة المصارف والتأمينات وفزت برئاسة النقابة، وبدأنا مع بعض الأصدقاء، بينهم خالد الحكيم، السعي للسيطرة على اتحاد العمال. خالد الحكيم كان زعيما نقابيا في حزب البعث، ونذير النابلسي كان بدوره زعيما نقابيا أهم من خالد الحكيم.

---

* ظهر هذا الحزب بعد المؤتمر القومي السابع، وكان اسمه في البداية "حزب البعث العربي الاشتراكي اليساري"، وأصبح حمدي عبد المجيد أمينا عاما له. ثم تحول، لاحقا، إلى "حزب العمال الثوري العربي" وبقي عبد المجيد أمينا عاما له. وحمدي عبد المجيد عراقي انتسب إلى حزب البعث في سنة ١٩٥٢، وصار عضوا في القيادة القومية في أيار ١٩٦٢ وترأس المؤتمر القومي السادس في ١٩٦٣/١٠/٥. وتوفي في بغداد في ١٩٩٧/١٢/١٨.

- **وخالد الجندي؟**

– خالد الجندي كان نقابيا مثقفا، لكنه ليس مثل خالد الحكيم أو نذير النابلسي. ثم إنه فُرض فرضا على النقابات بقوة السلطة. أنا أعرفه جيدا منذ الجامعة، ويمتلك ميزة آل الجندي أي كتابة الشعر والعناية بالأدب و"قبضاي".

- **في سنة ١٩٦٤ وقع تمرد في مدينة حماة، وارتفعت الأنغام الطائفية وهي كثيرة. واتهم الضابط حمد عبيد، وهو درزي، بالمسؤولية. ألم يخطئ هؤلاء الضباط في عدم إدراكهم النسيج الاجتماعي والطائفي في سورية؟ ألم يدركوا أن هذه الأعمال من شأنها أن تثير الغرائز الطائفية؟**

– لا يختلف اثنان على أن الحكم في سورية منذ ٨ آذار ١٩٦٣ حتى الحركة التصحيحية في سنة ١٩٧٠ كان مجانبا للحكمة وبعيدا عن العقل السياسي، فأرسلوا حمد عبيد إلى حماة*.

---

* في نيسان ١٩٦٤ بدأ الإخوان المسلمون يقيمون الحواجز في الطرق في مدينة حماة، ويهاجمون الدكاكين التي تبيع الخمور بتحريض من الشيخ محمود الحامد الذي كان يلقي خطبه في جامع السلطان. وفي إحدى المرات قتلوا شابا بعثيا إسماعيليا يدعى منذر الشمالي وقطعوه. هنا طلب حمد عبيد (آمر الحرس القومي) نجدة من الجيش الذي استخدم نيران الدبابات. وعندما اعتصم الإخوان المسلمون بالجامع أمر أمين الحافظ، وكان رئيسا للحكومة آنذاك، بإخراجهم من المسجد بالقوة، فقصف المسجد وانهارت المئذنة التي كان المتمردون يطلقون النار منها.

• **هـل يسلّم عاقـل سلطة لضابط صغير برتبة ملازم أول اسمه سليم حـاطوم؟ سـليم حاطوم نال رتبة رائد بالترفيع العشوائي، لكن مستواه العسـكري متوقف عند رتبة الملازم الأول. ولا أدري كم كان عمره في تـلك الفـترة. إذن، كـان من مفاسـد الأيام تسليم السلطة إلى ضباط صـغـار وريفييـن. فالمديـنة لا تُحكم من الريف بل إن المدينة تَحكُم الريف في العادة.**

- لا أخالفك في هذا.

• **هل تعرفت إلى سليم حاطوم وعبد الكريم الجندي؟**

- عبد الكريم الجندي كان موظفا في التأمينات الاجتماعية، وتعرفت إليه في هذه المصلحة، وكنت أساعده في جمع التبرعات للسجناء من رفاقه أمثال محمد إبراهيم العلي*. ولهذا أصبحنا أصدقاء، أما سليم حاطـوم فلم أتعرف إليه في ذلك الوقت.

وكـان عـبد الحليم خدام محافظا لحماة حينذاك. وفي ما بعد عين مصطفى طلاس رئيسا للمحكمة الميدانية التي حاكمت المتمردين.

* ولـد سنة ١٩٣٤، وانتسب إلى "حزب الشباب" في حماة الذي أصبح لاحقاً "الحزب العربي الاشتراكي". حكم بالإعدام سنة ١٩٦٣ لاشتراكه سنة ١٩٦٢ في تمرد حلب ضد الانفصال. عين قائداً للحرس القومي بعد حركة ٨ آذار ١٩٦٣، وهو مرشدي الانتماء.

- **مـــا تقويمـــك الآن لتلك المرحلة. هل أساء هؤلاء الضباط للسلطة التي تسلموها؟ أم أن تحديات المرحلة كانت تتطلب بعض التشدد لحماية الحكم الجديد؟**

- حماية الحكم الجديد كانت تعني، بحسب دعايتهم، حمـــاية الوحدة والحرية والاشتراكية. فلماذا اضطهد البعثيون الآخرون؟ هناك نكتة قالتها زوجة أكرم الحوراني لأختي هند زوجة منصور الأطرش. كان زوجها أكرم الحوراني في ذلك الوقت مضطهدا وهاربا ومتهما بأنه انفصالي، بينما منصور الأطرش كان عضوا في مجلس قيادة الثورة وفي قيادة الحزب. قالت زوجة الحـــوراني: بذمتك يا هند أنحن انفصاليون وأنتم اتصاليون؟ كانت "مهضومة" زوجة أكـــرم الحوراني فاستخدمت كلمة "اتصاليون" بدلا من كلمة "وحدويون"، لأن عبارة الانفصال والاتصال تعني "الدبرياج" أي فاصل واصل. ولم تستغرب أختي هند الكلام وضحكت، لأنها تعرف أن لا فرق بين زوجها وبين أكرم الحوراني من قضايا الوحـــدة والحرية. فلماذا هذا في القيادة وذاك مطلوب إلى السجن؟

- **هـــل كنت في تلك الفترة مؤيدا لأكرم الحوراني، أم أن هذا التقدير الكبير له جاءك كوعي متأخر؟**

- يروي صديق لي اسمه إسماعيل حمادة على لساني أنني ثرت عليه مرة وكان في أثنائها مع مصطفى الحلاج عضوا في حركة الوحدويين الاشتراكيين، وقلت له: يد أكـــرم الحوراني تعادل الحزب كله. وكلامي هـــذا جرى بعد الانفصال. فهو، إذن، ليس وعيا متأخراً. ثم أن واحداً من

أعز أصدقائي اسمه نايف جربوع، كنا معا في الحزب والجامعة والسجن، وفي النضال اليومي وعلى المستوى الشخصي، هذا الصديق مشى في ركاب أكرم الحوراني في عهد الانفصال، وفاز بالنيابة في الانتخابات التشريعية، ثم أصبح مديرا للتلفزيون، وبهذه الصفة تولى الدعاية ضد جمال عبد الناصر. الآن أتساءل بعد مرور هذه الأيام كلها: لماذا لم أتعاون معه ما دامت قناعاتي هي قناعاته؟ الحقيقة أن السبب ربما يعود إلى أنني لم أكن أمتلك في دمشق قاعدة شعبية مثلما كان نايف جربوع يمتلك في السويداء. ولم يخطر في بالي أن أصنع لي حضورا شعبيا إلا في عام ١٩٦٥. أنا نشأت في حزب ميشال عفلق، وبيتي ليس حزب أكرم الحوراني، بل الحزب الموحد. حسنا، لماذا لم أنصح نايف جربوع بأن يكون موقفه مثل موقفي؟ ببساطة لأن بيت نايف جربوع في السويداء موجود بقوة وأقصد بيته السياسي. أما أنا فعائلتي ليست عائلة سياسية ولو كانت عائلة سياسية فليس لها هذا النفوذ.

- **أقلية أنتم.**

- لكن نايف جربوع أكثرية في السويداء.

- **يعني كان حزب البعث منزلا ببيوت كثيرة بحسب مصطلح كمال الصليبي*.**

---

* "بيت بمنازل كثيرة" هو عنوان أحد الكتب المهمة للمؤرخ الدكتور كمال الصليبي (بيروت: دار نوفل، ١٩٩٠).

- صحيح، فهذا الحزب لم يكن حزبا موحدا ولا مرة. وأود هنا أن أستطرد بالقول، فأضيف أن نور الدين الأتاسي حينما صار وزيرا للداخلية ونائبا للحاكم العرفي، كان قبل ذلك زعيما حقيقيا في الجامعة السورية، أي زعيم حزبي. وعندما تخرج طبيبا توليت بدلا منه المسؤولية الحزبية في الجامعـــة، ولا أزعم أنني أصبحت زعيما مثله، فهو كان خطيبا لامعاً، وأنا لم أمتلك كفاءته. المهم، أن نور الدين الأتاسي عندما تســـلم وزارة الداخلية كان ثمة نقص في المحافظين، فأراد أن يعرض علي منصبا في الدولة. ويبدو أنه لاحـــظ على وجهي تعبيرا قرأه بســـرعة، وبادر إلى القول: أعرف أن المنصب المعروض عليك صغير. لكن، لا تتسرع في الجواب، فبعد عدة شهور تأخذ موقعك. وهو يقصد أن أمشي معه في كتلته ويأتي بي وزيرا كما أتى بيوسف زعين الذي ما كان يصل إلى كتفي في الحزب في تلك الأيام. لكني رفضت العرض طبعاً*.

- **وإبراهيم ماخوس.**

- لا. ماخوس كان متقدما علي، وهذا الكـــلام يدور على أوائل الخمسينات في الجامعة. كان لي بين الطلبة حضور قوي، أما يوسف زعين

---

* ولد يوسف زعين في البوكمال سنة ١٩٢٩، ودرس الطب في جامعة دمشق ثم في إنكلترا، وساهم في الثورة الجزائرية كطبيب متطوع مع إبراهيم ماخوس ونور الدين الأتاســـي. عين وزيراً في حكومة البعث الأولى في ١٩٦٣/٣/١٢، وتولى منصب أمين سر منظمة "الصاعقة" الفدائية، ثم رئاسة الحكومة. اعتقل في ١٩٧١/١١/١٦ وأفرج عنه في سنة ١٩٨٣.

فكان حضوره محدوداً جداً. لم أسعَ إلى الوزارة قط، لأنني طالما تساءلت: ماذا سأحقق في حكـم غير علماني؟ هل أصبح رئيس وزراء مثلاً؟ بالطبع لا، فأنا مسيحي. وحتى لو صـرت فماذا أنجز؟!. ثم انني لم أسعَ فـي حياتي إلى منصب حكومي. كنت أناضل في سبيل هدف؛ في سبيل مجتمع جديد علماني وعصري. عندما يكون طموحك قضية كبيرة هي نهضة عربية حقيقية يصير الطموح الشخصي مسـألة تافهة، إلا إذا أمكن تحقيقه من طريق القضية ومن أجلها، أي من أجـل إنجاز خطوة سياسية في سبيلها، ولا أظن أحداً يستطيع أن يزعم اليوم أننا نسير في اتجاه نهضوي إذا كان حريصاً على ألا تشكك الناس بعقله أو بأخلاقه...!

٧ ـــــــــــــــ حركـــة ٢٣ شـــباط ١٩٦٦ وسليم حاطـوم والتجربة اللبنانية

- **في هذه الأثناء وقعت حركة ٢٣ شباط ١٩٦٦ التي سبقت هزيمة حزيران ١٩٦٧. لنتحدث قليلا عن دورك في مناوءة ٢٣ شباط. كيف تروي تلك الأيام؟**

- كانت حركة ٢٣ شباط ١٩٦٦ معلنة مثلما كانت حركة ٨ آذار ١٩٦٣ معلنة أيضاً. لكنني كنت ضد التعاون مع هذه الحركة. بينما بعض رفاقي كانوا راغبين في التعاون، وعُرض علينا أن نصبح أعضاء في القيادة القطرية المؤقتة. وكنا في مجموعة أبرز من فيها خالد الحكيم وحمود الشوفي ومحمد بصل وأحمد أبو صالح*.

- **أحمد أبو صالح كان معكم؟**

- نعم، لكنه سار مع الإخوان المسلمين في ما بعد. إنه متقلب وشعبوي لا يستقر على موقف. هكذا كان وهكذا بقي. ناصري ثم بعثي ثم يساري ثم طائفي ثم مع الإخوان المسلمين. الخلاصة أنهم عرضوا علينا أن ينضم اثنان منا إلى القيادة القطرية.

- **من الذي قدم هذا العرض؟**

---

* ولد في ١٩٢٦/١٠/٢١ في حلب، وانتسب إلى حزب البعث في ١٩٥٧/١١/٢٨. عين وزيراً للأشغال العامة في حكومة البعث الأولى سنة ١٩٦٣، وتحول، في ما بعد، إلى المعارضة في الخارج.

- صلاح جديد ونور الدين الأتاسي وجميل شيّا وإبراهيم ماخوس. أنا شخصيا لم يعرض أحد علي أي شأن. رفاقي حاولوا إقناعي بأن نتعاون مع الحكم الجديد وأن نسعى للإصلاح من الداخل. فقلت لهم: لا، لن يخرج أي شيء إيجابي من هذه الحركة. حركة ٨ آذار لم يخرج منها شيء فهل سيخرج من هذا الانقسام شيء مختلف؟ واكتشفت لاحقا أن البعض كان موافقا على التعاون من خلف ظهرنا مثل خالد الحكيم. وأذكر أن محمود الحكيم، وهو شقيق خالد الحكيم، وكان طبيبا مهما، أرسل شقيقه الصغير خليل الحكيم، وهو صيدلاني، إليّ في النقابة ليحذرني من التعاون مع الحكم الجديد ويطلب مني التشديد على خالد الحكيم بألاّ يتورط، فالناس تقول إن هذا الانقلاب هو انقلاب العدس، فابتعدوا عنه. أحمد أبو صالح حاول أن "يطلع علي بالعالي فأكلته". كان يريد أن يأكلني بالصوت العالي فأكلته بصوت أعلى. هو ليس من قماشتي لكنني لا أنكر عليه شجاعته وكرمه وفصاحته في الحديث وخفة دمه حتى أنه يحبب إليك اللهجة الحلبية البلدية عندما يبدأ بالسخرية والتنكيت. في أي حال بقينا في سورية وفي وظائفنا في الاتحاد والنقابات. لا نحن قاومنا الحكم الجديد ولا هم تعرضوا لنا. بين ٢٣ شباط ١٩٦٦ و٩ آذار ١٩٦٦ حدثت "مؤامرة" عسكرية كان على رأسها حمد عبيد الذي كان وزيرا للدفاع، وظن أن من حقه أن يبقى وزيرا للدفاع لا أن يأتي حافظ الأسد بدلاً منه.

- **كان حمد عبيد وزيرا للدفاع قبل ٢٣ شباط؟**

- نعم، وتبين أنه كان مؤيداً لانقلاب ١٩٦٦. هنا تثار الشكوك في كيف أن أقرب الناس إليه، أي جميل شيّا، كان عضوا في القيادة القطرية

الموقتة، لم ينصحه باتخاذ الموقف الصائب. أنا أعتقد أنهم استخدموا حمد عبيد ليكشفوا موقع سليم حاطوم وموقع بدر جمعة في حلب الذي كان مسؤولا عن المخابرات، وكان محسوبا على أمين الحافظ وهرب إلى الخارج. هذه المؤامرة هي مؤامرة من الحكم الجديد ضد عسكريين معارضين، ومؤامرة من عسكريين معارضين ضد الحكم. فجأة تلقيت مكالمة هاتفية في ٨ آذار ١٩٦٦ تطلب مني التوجه إلى منزل خالد الحكيم لأمر مهم. ذهبت إلى منزل خالد الحكيم في دوما لأجد أحمد أبو صالح قادما من حلب. وفي هذا الاجتماع أخبرنا أحمد أبو صالح بحضور خالد الحكيم أن بدر جمعة التقى في حمص حمد عبيد وأنهما يقودان قوات عسكرية مستعدة للتحرك ضد السلطة الجديدة، وأن قيادة المنطقة الوسطى، التي كان مصطفى طلاس على رأسها ومعه اللواء الخامس المدرع، مستعدون للسير نحو دمشق. عندما سمعت هذا "طق عقلي" وقلت: غير معقول هذا الكلام ومستحيل. لكن رفاقي أكدوا صحته. فطلبت منهم فرصة لامتحان الوضع. وكنت ومصطفى طلاس أصدقاء قدامى وهو لا يغشني في أسوأ الأحوال. فطلبت أن أذهب إليه وأتأكد هل هو معارض للحكم الجديد أم لا؛ فقد شعرت أن هذه الرواية كاذبة. قصارى القول إنني ذهبت برفقة نذير النابلسي إلى حمص بحجة تفقد النقابات. وحين وصولنا إلى حمص عرجت على مصطفى طلاس في الثكنة. وفي أثناء اجتماعي معه فهمت من نظراته أنه مطلع على مؤامرة حمد عبيد وأنه يريد مني، إذا كنت عالقاً بهذا الفخ، أن أخرج منها. فهو يعرف أنني على صلة بجماعة حمد عبيد، وأنني ضد ٢٣ شباط، ولذلك لم يستقبلني إلا بحضور ضابط لا أعرفه، وشرع يمدح أعضاء القيادة الجديدة فرداً فرداً ليفهمني أن موقعه الحقيقي مع ٢٣ شباط.

- **هل تعتقد أنه أبلغ عن مؤامرة حمد عبيد؟**

- طبعا. أنا أقـول لك إنها مؤامرة لكشف جماعة حمد عبيد، وهؤلاء اعتقدوا أنهم يهيئون لمؤامرة وهم واقعون في جب المؤامرة. بعد خروجي من الثكنة اتصلت برفاقي وأخبرتهم أن القصة كلها كاذبة. وفي تلك الليلة أوصلني نذير النابلسي بسيارته إلى منزلي وذهب إلى بيته، واعتقدنا أن القصة انتهت عند هـذا الحد. لكن، في الرابعـة صباحا قرع رجال الأمن باب بيتي واقتادوني إلى المعتقل بتهمة مقاومـة حركة ٢٣ شباط ١٩٦٦. وللحقيقة فإن بدر جمعة كان ضالعا في هذه الحركة. لكن حمد عبيد، ولأنه صديق جميل شيّا، كان مشكوكا فـي ضلوعه فيها. أحمد أبو صالح وخالد الحكيم كانا متآمرين فعلا. أنا نبهت رفاقي وأخرجتهم من اللعبة. وفي النهايـة حوكمنا بتهمة كتم معلومات. أي كتم للمعلومات هـذا، ولم تمـر ساعات الليل على لقائنا مصطفى طلاس؟ أي كتم للمعلومات والمؤامرة غير واقعية إلا في رأس بدر جمعة؟

- **لو تتحدث بالتفصيل عن هذه الحادثة؟**

- عند الفجـر جاء ضابط واقتادني من البيت إلى مقر الشرطة في وزارة الداخلية، ووضعوا القيود في يدي، وعوملت كمجرم وقاتل وهارب ومتآمر. لم أكن أعلم أي شيء بالفعل. وبعد نحو ربع الساعة أدخلوني على محمد عيد عشاوي* وزير الداخلية، وكان هـذا الوزير زميلي في كلية

---

* ولد في دير الزور سنة ١٩٣٠، وأصبح عضواً في القيادة القطرية لحـزب البعـث سنة ١٩٦٥. عين وزيراً للداخلية في حكومة يوسف زعين سنة ١٩٦٥، واعتقل مع

الحقوق ورفيقي في الحــزب. وكالعادة، تظاهر بالغضب على تقييــدهم إياي، وأمرهم بفك القيود وقام مــن خلف مكتبه وصافحني، ووضع لي الكرسي لأجلس عليها. لم أقم بأي ردة فعــل هازئة أو غاضبة. لكنني، في أعماقي، احتقرته. وأثبت بسلوكه، في ما بعــد، أنه ليس من أصحاب المبادئ. وهذا الوزير تربى في بيت جلال السيد وهو من عشيرة جلال السيد. قعدت، وأحضروا لي القهوة، فلم أشربها. ولأنه بدوي وابن عشيرة فهو يعرف ما معنى عدم شرب القهوة التي يقدمها لضيفه. سألني عن منيف الرزاز ومنصور الأطرش وميشال عفلق. وهؤلاء اختفوا بعد ساعات مــن قيام انقلاب ٢٣ شباط. وكنت أعرف أين يختفي منصور الأطرش. وعلى الرغم من ذلك قلت لوزير الداخلية: أنا لا أعرف أين هو الآن ميشال عفلق لأنني لم أره منذ سنوات. أمــا منصور الأطرش فأعرف أين هو، وأستطيع أن أذهب لأحضره إليك، وعليك الآن إمــا أن تعيدني إلى بيتي أو أن ترسلني إلى السجن، فأرسلني إلى الشــرطة العســكرية. وبعد عــدة ســاعات جاءني عبد الكريم الجندي خجلا، ووضع بين يدي مجموعة من الأوراق وقلماً وقال: أكتب الموضوع برمته. فجاوبته بصوت عــال: عيب عليكم الذي تفعلونه بي. أنا اعتقلت في بيتي في الرابعة فجرا وأهلي لا يعرفون ما القصة، والشرطة تحاصــر البيت. لا معلومات لديّ، ولست ضالعا في أي أمر. دعني أتصل بأهلي على الأقل. فأجابني عبد الكريم الجندي: لا تلمني. المســألة فــي يد أبو سليمان أكنت تريد الكتابة أو لا تريد، "اصطفل". وأبو سليمان كما هو معروف يعني حافظ الأســد الذي تم

قيام الحركة التصحيحية في ١٩٧٠/١١/١٦، وأطلق سراحه في ١٩٩٥/١/٢، ثــم توفي في ١٩٩٨/٨/١٦.

تعيينه وزيرا للدفاع وقائدا للجيش. وعندما هم بالخروج قلت له: خذ الورق فلا حاجة لي به واستعمله لأغراض أخرى. فضحك وانصرف.

- **هل كنت تعرف حافظ الأسد قبل ذلك؟**

- لم أكن أعرفه. لكنني التقيته مرة واحدة بعد ٨ آذار ١٩٦٣. جئته طالبا خدمة شخصية. كان هناك قريب لإحدى صديقات أختي، وهو ضابط في الطيران. وطلبت مني صديقة أختي السعي لتسوية أمره لأنه ملاحـق بإحدى التهم ومختبئ في أحد الأمكنة. كان حافظ الأسد يومها قائدا للطيران برتبة رائد. ولما طلبت مقابلته حدد لي موعدا وقابلته خمس دقائق فقط. وقد استقبلني في مكتبه واقفا، ويبدو أن وقتـه كان ضيقا ولا يريد إضاعته. رويت له قصـة هذا الضابط بعدما قدمت نفسي إليه، فقال لي: قل لي من هو هـذا الضابط؟ فقلت: أريد منك وعدا بأن هذا الضابط لن يمسسه أذى، فقال: يا سيدي وعدناك. فذكرت له اسم الضابط. وعند ذلك هز رأسه وقال لي: اتق شـر من أحسنت إليه. كان ضابطا مسرحا أتينا به وسلمناه وظيفة في الطيران المدني، فعاد ليتآمر علينا، ومع ذلك لن نسوّد وجهك مع من وعدتهم بتسوية أمره. وهكذا حُلّت مشكلة قريب صديقة أختي. أعود إلى البداية. اعتقلوني في استراحة الضباط في مدرسة الشرطة العسكرية في بلـدة القابون. كانوا يسمحون لنا باستعمال الهاتف، وفي الصباح يأتي إلينا أحد الرقباء ومعه ورقة وقلم ويسأل كل واحد منا عما يريد أن يتناول في وجبة الغداء.

- **كأنك في فندق رخيص.**

- كنا نطلب الطعام من أي مطعـــم حتى إن ابن أختي الصغير الذي كان يسكن معنا في بيتنا بعد وفـــاة أبيه، وكان مولعا بي جدا وله نحو تسع سنوات، أتى به جـــده، أي والدي، إلى السجن في إحدى الزيارات، فأصر على البقاء معي، وبالفعل نام عندي. فندق ولكن ممنوع الخروج منه، والغرف مفتوحة بعضها على بعض. وكان في هذا السجن صلاح البيطار وحمد عبيد وسليمان العلي وجميل حـــداد وأحمد أبو صالح وخالد الحكيم (الذي سلم نفسه بواسطة حافظ الأسد) وصـــلاح الضللي ونذير النابلسي. وفي ما بعد جاءنا فهمي العاشـــوري الذي كان وزيرا للداخلية في عهد صلاح البيطار. وبعد ثلاثة أشهر زارنا وزير الداخلية محمد عيد عشاوي ومعه قائد الشرطة العسكرية. فقد كانوا يعاملوننا على أســـاس أننا رفاق وربما نعود إلى التفاهم معا. وعندما عاد حافظ الأسد من مفاوضات سد الفرات في موسكو، جاء إلى السجن واستدعاني أنا وخالد الحكيم وأحمد أبو صالح، وكان معه سليم حاطوم وشريف الشاقي وهو ضابط يساري وبعثي وناجي جميل. فوجئنا بوجود سليم حاطوم وشريف الشاقي. وفي هذا اللقاء ظل ناجي جميل واقفا ومستعدا طوال الوقت مع أنه برتبة مقدم، بينما يحمل شريف الشاقي وسليم حاطوم رتبة رائد. كان سليم حاطوم وشريف الشاقي مرَحين متضاحكين، أما حافظ الأســـد فجلس بكل وقار بعدمـــا سلم علينا وحدثنا بلباقة، وحكى لنا تفصيلات عن مفاوضات سد الفرات وعن الكسب الوطني الكبير الذي تم إنجازه مع الاتحاد الســـوفياتي. فجأة قاطع خالـــد الحكيم حديث حافظ الأسد قائلا لـــه: أبو سليمان، سد الفرات على عيني ورأسي، لكن السد الـــذي بينكم وبين الشعب كيف ستزيلونه؟ لـــم تعجب النكتة حافظ الأســـد، لكنه أجابه: ماذا تريد؟ حكم العمال والفلاحين؟ الاتحاد السوفياتي دولة العمال والفلاحين ولكن عندما يُضرِب العمال في المصانع يقمعهم الجيش. والحقيقة أن حافظ الأسد اشتهر بعقله العملي وحركته التصحيحية. حافظ الأسد حزبي قديم جدا ومناضل في الحزب منذ أن كان طالبا حتى أصبح ضابطا. فهو ابن الحـــزب وتربى في الحزب. وأنا أعتقد

أنه لاحظ مبكـــرا أن الواقع لا يتغير بالكلام، بل لكي يتغير الواقع، لا يكفي أن يغير المرء كلامه فقط ويقول أنا صرت تقدمياً، بل يجب أن يكون تقدميا فعلا، وعليه أن يتثقف ويتعلم. المهم أن حافظ الأسد سار في تجربة انقلاب ٢٣ شباط ١٩٦٦ حتى سنة ١٩٧٠، وهذه المرحلة كانت مجرد خطابات وعنتريات وإغـــراق الأسطول السادس بالبحـــر وطرد المستعمر بالكلام وقمع الناس بطريقة مروعة، على طريقة عبد الكريم الجندي والحرس العمالي الذي اخترعوه والذي صار يقتحم أعضاؤه المكاتب لإخراج من فيها من البرجوازيين، تماما كالثورة الثقافية التي حصلت في الصين في عهد ماوتسي تونغ. هذا السلوك ما كان يرضي حافظ الأســـد الذي كان يمتعض منه باستمرار ويوحي للناس بأنه ضد هذه التصرفات. نور الدين الأتاسي لم يكن ميالا إلى هذه الممارسات وكذلك صلاح جديد وإبراهيم ماخوس. هذه التصرفات كانت تأتي من أناس أمثال محمد عيد عشاوي ويوسف زعين وعبد الكريم الجندي.

- **وسليم حاطوم؟**

– سليم حاطوم لم يحكم. لكنه كان مشاركا في حركة ٢٣ شباط* ومنذ ٨ آذار ١٩٦٣ حتى اغتياله فإن نصف عدد السفالات التي حدثت فـــي دمشق إما ارتكبها أو كان مشاركا فيها. وفي أي حـــال فإن سليم حاطوم شارك في حركة ٢٣ شباط ثم ندم لأنه كان يأمل في أن يكون جزءا من الحكم، لكنه اكتشف أن الأحداث راحت تتخذ منحى طائفيا، فتضايق كما

* قاد حركة ٢٣ شباط ١٩٦٦ تنفيذياً كل من سليم حاطوم وعزت جديد وسهيل حسن وأحمد سويداني، وأذاع بيانها الأول محمد عيد عشاوي. وفي الهجوم علـــى منـــزل أمين الحافظ أصيب ابنه بشار في كتفه وابنته شذى في عينها.

تضايق إبراهيم ماخوس الذي ذهب إلى صلاح البيطار قبيل ٢٣ شباط وقال له: دعنا نتخلص من أمين الحافظ والطرح الطائفي الذي يطرحه وتفضل أنت للحلول محل أمين الحافظ ونضعك على رأسنا ونتخلص من قصة سني ـ علوي. لكن صلاح البيطار لم يقبل العرض. نعود إلى حافظ الأسد: عندما يئس من أن يتغير البعثيون ليغيروا الواقع، عاد هو إلى الواقع. أي إذا لم نستطع تغيير الواقع فلنكن واقعيين. الحركة التصحيحية هي عودة إلى الواقع وحكم سورية بالطريقة القديمة المعروفة مع بقاء حزب البعث واجهة من الشعارات والكلام، وكذلك الجبهة الوطنية وأحزابها. على أن ما أقوله إنما هو تحليل أو مطالعة أو رأي يحتمل الخطأ ولكنه مبني على مراقبة ومعرفة بالظروف وتطوراتها وبالشخص وبتاريخه. الخلاصة، أننا في ذلك اللقاء في السجن، وبعد أن تحدث حافظ الأسد وخالد الحكيم تحدث أحمد أبو صالح قائلا له: يا أبو سليمان نحن متفقون على أننا ضد أمين الحافظ وصلاح جديد معا، فلماذا أبعدتم أمين الحافظ وأبقيتم على صلاح جديد. فانتفض حافظ الأسد فورا وقال له: صلاح جديد ليس عسكريا وليس معه عسكري واحد.

- **معقول؟**

- بالفعل. صلاح جديد كان ترك الجيش لحافظ الأسد وانصرف إلى الحزب*.

---

* يقول سامي الجندي إن صلاح جديد لم ينتسب إلى حزب البعث قط، ولم يقسم اليمين الحزبية، بل انضم إلى حلقات الأنصار فحسب.

- **كان أميناً عاماً مساعداً.**

- نعـــم، هنا سكت أحمد أبو صالح. وكان فحوى كلام حافظ الأســـد انك يا أحمد أبو صالح، إذا كنت تقصد أن أمين الحافظ سني وصلاح جديد علوي فقـــد وضعنا أمين الحافظ خارجاً لأنه قام بتحريض طائفي داخل الجيش وكانت له جماعة تناصره. أمـــا صلاح جديد فلم يرتكب خطأ عسكريا وهو ليس عسكريا في أي حال، لأنه أصبح شبه مدني وليست لديه جماعة تؤيده. وفـــي نهاية اللقاء عاد الأسد إلى هدوئه وقال: يا إخوان لنتحدث بصراحة. أنتم لا تريدون العودة إلى الحـــزب. فإذا أردتم العودة أهلا وسهلا، وإذا لـــم ترغبوا في ذلك لنبق أصدقاء، وسنعقد لكم محكمة مؤلفة من خمسة قضاة أكثريتها من جماعتكم مثل سليم حاطوم وشريف الشاقي (ودلّ عليهم باليـــد) إلاّ إذا كانت لكم شكوك فيهما، وضحك. ثم أضاف اسم عز الدين إدريس المحسوب على اليسار وأحمد المير، على أن يكون رئيس المحكمة مصطفى طـــلاس. أي أن ٣ من ٥ أعضاء لـــن يحكموا عليكم. إنها محكمة شكلية وستخرجون، قبل ذلك، بكفالة. أي أن المحاكمة ستجري وأنتم طلقاء، وتنتهي القصة بشرط وحيد هو ألا تتسربوا من خلف ظهرنا إلى الثكنات العسكرية. في هذا اللقاء لم أتكلم قط لأنني رفضت مهزلة خالد الحكيم وردات الفعل الطائفية لأحمد أبـــو صالح. وفي هذه المرة الثانية التي التقي فيها حافظ الأســـد وجدته راجح العقل ولا يستطيع الواحد منا التحدث إليه بخفة.

- **اتهمت بتأييد المحاولة الانقلابية التي قادها سليم حاطوم؟**

- نعم، وسأروي لك قصة سليم حاطوم. كنت من أصحاب العقل البدوي، أي أنني لا أتخلى عن رفاقي حتى مع عدم قناعتي بأفكارهم أو بتصرفاتهم. وعندما وقعت المحاولة الانقلابية التي خطط لها سليم حاطوم اعتبر حافظ الأسد أننا غدرنا به بعدما أخرجنا بكفالة عشرة آلاف ليرة سورية من السجن، ولم تعقد المحكمة أصلا. وكان مضى علينا خارج السجن أربعة شهور.

- **كان منصور الأطرش في هذه الأثناء معتقلا؟**

- الجميع اعتقلوا. ولكن نحن كنا في القابون وهم في استراحة قائد الجيش.

- **قصدت أن منصور الأطرش اعتقل بناء على اعترافاتك.**

- بناءً على المعلومات التي أدليت بها عن المكان الذي يختبئ فيه.

- **هل ترك هذا الشيء نوعا من القطيعة بينكما لاحقا؟**

- استغرب منصور الأطرش أن أكون اعترفت بسرعة. ولاحقا حينما خرج من السجن والتقينا لم يعاتبني لكنه أخبرني أنهم قالوا له: "ابن عمك وصاحبك فرط فورا". فأجابهم: "شو هوي لوح شوكولاته يفرط بعد ساعة أو نصف الساعة من اعتقاله؟". فقلت له إن حافظ الأسد وجبران مجدلاني

جاءا إلى بيته وطلبا من زوجته، أختي، أن تدلهما على مكان وجوده لأنهما يريدان التحدث إليه، وأن الوضع كله "أهلية بمحلية" بينكم وبين الانقلابيين، لا هو وضع نضالي ولا هم يحزنون ولا معنى أصلاً للاختفاء!

- **كم أمضيتم في السجن؟**

– أربعة أشهر وخرجنا في ١٠ تموز ١٩٦٦. وعندما خرجنا علمنا أن الأمور كانت تغلي في داخل الجيش لأن انشقاقاً حقيقياً حدث بين سليم حاطوم والآخرين. كان بدر جمعة ذكياً ونشيطاً ورئيساً لمخابرات الجيش في حلب، فاختفى وراح يدبر مع سليم حاطوم مؤامرة. وفي الوقت نفسه كانت القيادة القومية برئاسة منيف الرزاز ومعه فهد الشاعر تتصل بالضباط الذين لم يرتاحوا لحركة ٢٣ شباط والذين رغبوا في إعادة أمين الحافظ إلى موقعه لأسباب طائفية مغطاة بغلالة واهية من شرعية القيادة القومية للحزب. حصل اجتماع بين فهد الشاعر وسليم حاطوم، وراح كل واحد منهما يتحدث عن انقلاب عسكري. وكان وضعهما مكشوفا. فالمخابرات، وعلى رأسها عبد الكريم الجندي، وضعت يدها على هذا الأمر وبدأت باعتقال الأشخاص واحداً واحداً. حافظ الأسد لم يكن يرغب في الصدام مع سليم حاطوم، فأظهر له أن أمره مكشوف. وأنا بنفسي طلبت الاجتماع إلى سليم حاطوم مع خالد الحكيم لنحذره من الثرثرة. فذهبنا إلى حرستا حيث كانت كتيبة المغاوير التي يرئسها سليم حاطوم وهناك قلت له: يا أخي، الانقلاب نصف نجاحه هو السرية وأنتم الآن مكشوفون. ثم هل لديك قوة تستطيع أن تنفذ بها الانقلاب بعدما كشفت قصتكم؟ ألا ترى غضبهم وكيف

يتصرفون وماذا حصل مع ناصر سابا* في التحقيق؟ إن عبد الكريم الجندي يعذب بالكهـــرباء. وأضفت: أتينا إليك لنقدم لك اقتراحا مضمونه التالي: إذا كنت لا تريد التوصل إلى تسوية مع جماعة ٢٣ شـــباط بإمكانك القيام بعصيان فقط. الانقلاب فشل، لكن العصيان ربما يصل إلى نتيجة ولا سيما أننا قادرون على إسنادكم شعبيا، فلدينا عمال النقل ونحن مستعدون لدفع العمال إلى التظاهر في الشوارع ما يزودكم بقوة للتفاوض وتعديل ميزان السلطة. وأجابني سليم حاطوم بالحرف الواحد: سوف أحمل كتيبتي على كتفي وأذهب بها إلى السويداء وأقاتل من هناك ولست مستعدا للتفاوض مع جماعة ٢٣ شباط. لم يخطـــر في بالي أن هناك خطة في رأسه. وتبين، لاحقا، أنه وضع خطة العصيان مع فـــرع الحزب في السويداء، وكانوا يتوقعون مجيء صــــلاح جديد ونور الدين الأتاسي إلى السويداء للزيارة، وعند ذلك يعتقلونهما كرهائن ويتفاوضون مع حافظ الأسد. والمؤسف أنني كنت وخالد الحكـــيم ونذير النابلسي خارجين للتو من الســـجن، ونقابات العمال تقيم لنا الحفلات في الغوطـــة. رفيقنا محمد بصل لم يكن فـــي السجن، لكنه كان يحضر هذه الحفلات في بعض الأوقات، ومع هذا لم يفكر أي واحد من جماعة سليم حاطوم بأن يحذرنا من تبعات ما يخططون له فنختبئ على الأقل. كنا نعيش حياتنا اليومية، ونخرج وندخل باعتياد، بينما كان الإخـــوان يحضرون لحركة ٨ أيلول ١٩٦٦. لهذا اتهمتنا الســـلطة

---

* ناصر سابا حقوقي وبعثي كان من أنصار ميشـــال عفلق. وقد وقع عليـــه تعـــذيب مروّع في المخابرات العامة زمن عبد الكريم الجندي. وفي ما بعد غادر إلى باريس وعاش فيها.

بإخفاء المعلومات، فقالوا: لماذا لم تخبروننا بما كـــان يجري التخطيط له؟ فهل نحن مخابرات لهم؟ وهذه هي قصة كتم المعلومات التي حكموا بها عليّ.

- **ثم ماذا جرى لك في ما بعد؟**

- لو لم يخبرني معارفي في الحي أن الجيش نزل إلى الشوارع وهو في حال الاستنفار لما عرفت بحركة ٨ أيلول ١٩٦٦.عند ذلك لم أعد إلى المنزل، وتمكنت من تجهيز بعض الملابس وحاولت السفر إلى بيروت في مهمة للمجلس الملي الارثوذكسي. لكن الطريق إلى بيروت أغلقت على الفـــور. فعدت إلى دمشـــق واختبأت فـــي أحد المنازل غير المراقبة. في هذه الأثناء فشل العصيان بالطبع، وفـــر سليم حاطوم إلى الأردن عبر السويداء، وهرب خالد الحكيم ونذير النابلسي إلى الأردن أيضا ولكن عبر البادية. وبقيت أكثر من أسبوعين مختبئا في دمشق، ووصلتني معلومات عن أن هناك أوامر بألاّ أصل حياً إلى السجن في حال اعتقالي.

- **كيف خرجت من مخبئك وغادرت إلى لبنان؟**

- أحد معارفي من رجال الجمارك أخذني بسيارته إلى جديدة يـــابوس، وأنزلني في مكان يتسلل منه المهربون. وبعد مســـيرة ثلاث ســـاعات فـــي الجبال وصلت إلى قرية بيادر العدس في لبنان وهناك اعتقلتني دورية مـــن الجيش اللبناني.

- **حظك كان جيدا لأنهم لم يسلموك إلى السلطات السورية.**

- كانوا سيسلمونني، لكنني استنجدت بأديب الفرزلي وكان، حينذاك، نائباً لرئيس المجلس النيابي وله دالة على رجال المكتب الثاني. المهم، أن الدورية اقتادتني إلى ثكنة أبلح، وكان نعيم فرح مسؤولا في المكتب الثاني في هذه الثكنة، وهو الذي حقق معي، فسألني: هل أنت هارب من الاعتقال في سورية؟ فقلت له: أنا قادم إلى أديب الفرزلي. قال: أديب الفرزلي مرة واحدة؟ ما علاقتك بأديب الفرزلي؟ فأجبته: إنه صديق عمي وعاش عندنا في دمشق وأنا قادم إليه لأتفاوض معه في شأن المجلس الملّي. فنظر إلي ثم صاح: يا أجيدان (أي المساعد) خذه إلى مكتبك واسقه فنجانا من القهوة. ولم تمض خمس دقائق حتى استدعاني ثانية إلى مكتبه وقد تغيرت لهجته تجاهي. ويبدو أنه تحدث إلى أديب الفرزلي الذي قال له: إياك أن تسيء إليه فهو ابن أخي. ومع ذلك اقتادوني إلى ثكنة الحلو في كورنيش المزرعة ببيروت وأمضيت فيها خمسة أيام ريثما صدر قرار الإفراج عني. لكن ضباط المكتب الثاني رفضوا منحي إقامة شرعية، وطلبوا مني أن أتعاون معهم فرفضت وبقيت بلا إقامة، حتى حصلت على إقامة في ما بعد، في أيام حكم فرنجية.

- **هل كان أديب الفرزلي متعاونا مع المكتب الثاني؟**

- نعم.

- **هل كان بعثيا؟**

- لا.

- **الياس الفرزلي هو مَن كان بعثياً.**

- أديب هو الزعيم وقتها.

- **المهم أنهم لم يعيدوك إلى سورية.**

- ليس فقط لم يعيدونني بل إنني طلبت منهم أن يعيدوا الدليل الذي كان يرافقني إلى المنطقة الفاصلة بين لبنان وسورية. وكنت خرجت بهوية لأحد أقاربي ولا أريد أن يتأذى صاحبها. فأعطوني الهوية وأعادها الدليل معه إلى قريبي في الشام. وبعد ذلك أقمت في المنفى.

- **بدأت مرحلة المنفى إذن؟**

- لنكمل قصة التآمر. أنا حتى قيام حركة ٨ أيلول ١٩٦٦ لم أتآمر قط. لكن في المنفى الجديد في بيروت بدأت أتآمر فعلا.

- **كيف تآمرت ومع من وعلى مَن؟**

- في البداية طلبت من خالد الحكيم ونذير النابلسي مغادرة الأردن، وهددتهم بقولي إنكم إذا بقيتم في الأردن فسأصدر بيانا أقطع فيه علاقتي بكم

واتهمكم اتهامات شــتى، وعليكم أن تأتوا إلى بيروت لنتحدث. جــاء المســكينان إلى بــيروت وأخبراني أنهما هــربا إلى الأردن لأنهما لم يجدا من يهرِّبهما إلى لبنــان، بل وجدا مــن يهرِّبهما إلى الأردن فقط. وكنت تأكدت أن أوامر صــدرت للحرس العمالي تقــول إنه إذا ألقي القبض على المطلوبين تحضروهم إلى السجن. ما عدا ثلاثة يجب ألا يصلوا إلى السجن أحياء هم: سليم حاطوم وخالد الحكيم ونبيل الشويري.

- **من أصدر هذه الأوامر؟**

- لا أدري.

- **ومن هو مصدر معلوماتك؟**

- عبد العزيز حرويل الذي كان نائبا عن البعث وصديقاً لجلال السيد. وهذا يعني أنه استقى المعلومات من أوساط محمد عيد عشاوي.

- **فر سليم حاطوم إلى الأردن ومعه بدر جمعة ومصطفى الحاج علي أليس كذلك؟**

- وطلال أبو عسلي*.

---

* مجموعة سليم حاطوم تألفت من التالية أســماؤهم: طــلال أبــو عســلي، فــارس المحيثاوي، عبد الرحيم بطحيش، ابراهيم نور الدين، علي المقداد، مصطفى الحــاج علي، فواز أبو الفضل، جميل عفور، بدر جمعة، الوليد طالب، خالد الحكيم، نــذير

- **حسنا، هل تبين لك أن حـركة ٨ أيلـول ١٩٦٦ كانـت مجـرد عصيان بقيادة سليم حاطوم أم أن تحريضا خارجيا كان وراء هـذا العصيان؟**

- كان هناك خط مع الأردن، رصدته في ما بعـد، له صلة ببعض الأشخاص من آل الأطرش، وكان همزة الوصل مع سليم حاطوم شخص يدعى صابر المعّاز. وبعد فشل العصيان أقيم معسكر في الأردن لتجميع المتطوعين من جبل العرب.

- **أين أصبح صابر المعّاز هذا؟**

- لا أعرف عنه شيئا.

- **ألم يعد إلى سورية؟**

- أظن أنه عاد، لأن القصة انتهت بعد حرب ١٩٦٧.

- **بعد سنة ١٩٦٧ قُتِل سليم حاطوم.**

النابلسي، محمود نوفل، نايف عبيد، ابراهيم حمزة، مسلط أبـو عاصـي، محمـد الأطرش، صابر المعاز، فؤاد منذر، مجلي القائد، طالب الضماد.

- نعم. بعد مقتل سليم حاطوم ما عاد هناك خطر على السلطة الجديدة. عبد الله الأطرش سجن، ثم جعلوا منه نائبا، وهو حتى الآن يفوز بالنيابة في كل دورة.

- **أحد رجال آل الأطرش خُطف من عمان في تلك الفترة؟**

- هذا موضوع مختلف. المخطوف كان الأمير حسن الأطرش. والمسألة مختلفة تماما.

- **في تلك الفترة كان منيف الرزاز لا يزال في دمشق. وقيل أنه حاول من مخبئه أن يعيد تنظيم الحزب. ما صحة هذا الكلام؟**

- منيف الرزاز كان مشاركاً في عصيان سليم حاطوم مع فهد الشاعر*.

---

* بدأت مقدمات عصيان سليم حاطوم في المؤتمر القطري الاستثنائي الذي عُقد في آذار ١٩٦٦. ففي هذا المؤتمر سقط سليم حاطوم في انتخابات القيادة القطرية الجديدة وسقط معه حميد عبيد. وكان عبيد دعم صلاح جديد ضد أمين الحافظ، وتوقع أن يستمر في منصبه وزيراً للدفاع. لكن القيادة الجديدة عينت حافظ الأسد وزيراً للدفاع بدلاً منه، ما أثار نقمته. وفي ١٩٦٦/٨/٢٠ انهار الضابط محمد النعيمي خلال التحقيق الذي كان يجريه معه عبد الكريم الجندي فاعترف بأن ثمة خطة للانقضاض على السلطة سينفذها حمد عبيد ومنيف الرزاز. وبين ٨/٢٥ و١٩٦٦/٩/٣ اعتقل نحو ٢٠٠ ضابط بينهم عدد كبير من الدروز، واضطر صلاح البيطار إلى الهرب نحو لبنان من مكان احتجازه في دار الضيافة في حي القصور، وكذلك تسلل منيف الرزاز من مخبئه في دمشق إلى لبنان أيضاً، واعتقل، في ما بعد، حمد عبيد. هنا تحول سليم حاطوم نحو حمود الشوفي الذي كان سقط في انتخابات القيادة القطرية في سنة ١٩٦٤، ونحو القيادة القومية التي كانت شكلت

- **مَن مِن القيادة السابقة للحزب كان في دمشق في تلك الأثناء؟**

- صلاح البيطار كان في السجن معنا. بعد ذلك نقلوه إلى استراحة قائد الجيش، ثم هرب بعد ذلك هو وشبلي العيسمي.

- **هل اعتقل أكرم الحوراني؟**

- لا. أكرم الحوراني لم يستطيعوا اعتقاله.

- **ميشال عفلق كان خارج سورية؟**

- بقي فترة في دمشق ثم هرب إلى الساحل السوري لدى أقرباء زوجته، ثم إلى طرابلس في لبنان وبعد ذلك اختفى في بيروت، ثم غادر إلى البرازيل.

- **لنتابع قصة تآمرك الذي بدأ من لبنان.**

مكتباً عسكرياً بقيادة فهد الشاعر وعضوية صلاح نمور ومجلي القائد وعلي سلطان وشريف سعود وعلي الضماد واسماعيل هلال. وكان واضحاً أن خطة منيف الرزاز ـ فهد الشاعر باتت مكشوفة. لذلك بادر سليم حاطوم في ١٩٦٦/٩/٨ إلى اعتقال نور الدين الأتاسي وصلاح جديد وجميل شيا حينما ذهب هؤلاء الثلاثة إلى السويداء لمناقشة أزمة الحزب مع الفرع الحزبي في المحافظة.

- بدأت قصة التآمر بالفعل بعد مجيء خالد الحكيم ونذير النابلسي إلى بيروت من الأردن. تحدثنا مع صلاح البيطار الذي كان وصل قبلنا إلى بيروت. وأخبرنا خالد الحكيم ونذير النابلسي إن في الإمكان تجهيز كتيبة في الأردن تكون مهمتها إثارة العصيان وشن حرب العصابات ضد السلطة الجديدة في سورية، وأن سليم حاطوم وبدر جمعة يعتقدان أن بعض القوى في الجيش من الممكن الاتفاق معها. أنا، بصراحة، لم أصدق هذا الحديث كثيرا، كان بدر جمعة ووليد طالب وصلا إلى بيروت. وللعلم فإن وليد طالب كان صديقي جداً وهو الذي عرفني إلى بدر جمعة، فظننت أن هناك بالفعل قوى في الجيش تؤيد هذا المسعى، فأقنعت نفسي بالمحاولة. المهم أننا اتفقنا على أن نذهب أنا وخالد الحكيم إلى الأردن، ونقنع سليم حاطوم بالسفر إلى باريس على أن يلحق بنا بدر جمعة ووليد طالب، وهناك نتركهم لينفتح كل واحد منهم على الآخر ويعرضوا ما لديهم من قوى عسكرية.

- **هل كان لديك جواز سفر في تلك الفترة؟**

- أحضر خالد الحكيم لي جواز سفر أردنياً. سافرت إلى باريس بجواز سفر أردني، وأنجزنا لقاء تمهيدياً بين بدر جمعة وسليم حاطوم وخرجنا بعد أن تركناهما يتفاهمان. وتجولنا في باريس قرابة اليومين، ولم نذهب معهما إلى عمان بطريق العودة لأن مهمتنا انتهت، فذهبت أنا وخالد الحكيم إلى جنيف ليومين أو ثلاثة، عاد بعدها خالد الحكيم إلى عمان ليلملم أغراضه هو ونذير النابلسي على أن يأتيا إلى بيروت نهائيا. وتوصلنا إلى

قناعة أن سليم حاطوم ومجموعته يجب أن يتابعوا التحضير للأعمال المقبلة من الأردن. رجعت إلى بيروت بالفعل، وبعد فترة جاء إليها خالد الحكيم، ثم عاد إلى عمان. لكن، في نيسان ١٩٦٧ تغيرت الحكومة في الأردن وأصبح عبد المنعم الرفاعي رئيساً للوزراء، وهو قريب من سورية، وبدأت الحكومة الجديدة في مضايقة جماعة سليم حاطوم وقطعت عنها المعاشات. فراح البعض يحاول العودة إلى سورية سرا، فكانوا يتسللون اثنين اثنين أو عشرة عشرة. وقد سجن البعض منهم ثم خرج لاحقاً.

- **أنت درست القانون وأنت محام أيضا. لو وضعت أمام عينيك الوقائع التالية فبماذا تحكم؟ تقول الوقائع: إنك التقيت سليم حاطوم في حرستا وكان على وشك القيام بعمل عسكري فنصحته بعدم القيام بانقلاب عسكري، بل بعصيان عسكري، ووعدته بأن تدعمه بالمظاهرات الشعبية والإضرابات العمالية. ثم حدث أن قام سليم حاطوم بحركته التي لا تعرف عن تفصيلاتها شيئا. إن أي قاضٍ سيقتنع بأنك كنت ضالعا في هذا العصيان وسيحكم عليك بعدم البراءة، أنت كيف تُحاكم نفسك الآن؟**

- الموضوع سياسي وليس قانونيا، وأنا أقول الحقيقة الآن بعد مضي هذه السنوات كلها. وأعود لتذكيرك أن أخباراً كانت تصلني بعد حركة ٢٣ شباط ١٩٦٦ فحواها أن اتفاقاً عقد بين الضباط المؤيدين للقيادة القومية برئاسة منيف الرزاز والضباط المؤيدين لسليم حاطوم وبعض اليساريين. وانتظرنا وقوع حركة ما، إلا أن جميع المعلومات أشارت إلى أن القصة كانت مكشوفة تماما. فقررت تحذير سليم حاطوم من مغبة ما

يخطط له، لأنني لم أكن واثقا من أن رفاقي يحدثونه بطريقة واضحة وصريحة. فذهبت أنا وخالد الحكيم لنقول له: يا أخي إن انقلابك فاشل، وإذا كنت وصلت إلى طريق مسدود فأعلن العصيان فقط ونحن مستعدون للنزول إلى الشارع دعما لك. ففي هذه المسائل إذا فشلت فأنت متآمر، أما إذا نجحت فأنت بطل. هكذا هي المؤامرات دائما. فهل أنا أدين موقفي ذاك قانونيا؟ لو كنا نعيش في نظام مستقر وديمقراطي وفيه قانون ومحاكم وقضاء مستقل، فكلامك يصبح صحيحا. لكن الحكاية، من أولها إلى آخرها، سياسية.

- **هي حكاية صراع على السلطة إذن؟**

- أنا نصحت سليم حاطوم إما أن يتراجع عن الانقلاب ويذهب إلى مصالحة حافظ الأسد، أو، إذا كانت المصالحة مستحيلة، أن يتبع طريق الاحتجاج، ففي ذلك بعض الأمل بالنجاح. أما الطريق الذي يسير فيه فلا أمل له بالنجاح بتاتاً. ومن طريق الاحتجاج والعصيان وتأييد العمال، يفسح في المجال لدور الشعب الذي صادره العسكر.

- **أعطيته بديلا أو خيارا آخر.**

- كنت سمعت أن حافظ الأسد عرض على سليم حاطوم التراجع وفتح له باب الرجعة. لكن سليم حاطوم كان ركب رأسه وقرر الإمعان في مغامرته التي دفع حياته ثمنا لها.

* **ألاحظ تناقضا في رواياتك، فأنت بقيت متخفيا في دمشق ورفضت الذهاب إلى الأردن لأنك ترفض أن تكون منفيا في نظام لا تقبله سياسيا. وتحملت عبء هذا التخفي إلى أن تمكنت من التسلل إلى لبنان. لكنني لاحظت أنك بعد استقرارك في لبنان ذهبت إلى الأردن، فكيف تفسر هذا التناقض؟**

- أشكرك كثيرا على هذا السؤال لأنني طالما تساءلت عن هذا الأمر، وأنا راجعت مواقفي مراجعة حقيقية، وحاكمت نفسي منذ زمن طويل. وأود أن أقول انه عندما صدرت مذكرات مصطفى طلاس* الذي يتكلم فيها على هذه المرحلة استند إلى أضابير المخابرات والمحاكمة الغيابية ونشرها كما هي في مذكراته. وطالما أشرت إلى أنني محام وقانوني، فإن المحكوم غيابيا يسقط حكمه حينما يعود وتعاد المحاكمة من جديد. وبما أنني عدت إلى سورية فكان من الأجدى عدم الاستناد إلى الأضابير بل إلى واقع الحال. أنا عرضت على حافظ الأسد بالوساطة أن نسلم أنفسنا ونقيم في سجن المزّة، ولم أطلب إلا شرطين هما: أن تبقى كرامتنا الإنسانية محفوظة، وأن نبقى مدة محددة في السجن. ولم أطلب منه إعادة محاكمتنا، لأنني كنت على يقين بأن المحكمة ستديننا. لكن حتى لا نترك الأمور ملتبسة أقول الآن باختصار: كنت حتى ذلك الحين وربما حتى حرب ١٩٧٣ وحوادث لبنان أظن انني أناضل ضد حكم عسكري مغتصب، مثله مثل الحكومات الديكتاتورية التي تعاقبت على سوريا وكنت ضدها بلا هوادة. ثم

---

* "مرآة حياتي" (أربعة أجزاء)، دمشق: دار طلاس، ١٩٩٠ ـ ٢٠٠٣.

تبين لي أن الأمر مختلف جذرياً هذه المرة. فالصراع على السلطة هذه المرة، صراع اجتماعي – اقتصادي تمتد جذوره في أعماق تاريخنا حتى تصل إلى ما قبل الفتنة الكبرى، وقد أخذ عبر القرون أشكالا متعددة، تداخل فيها الشخصي بالقبلي، والديني بالمصلحي، والإنساني بالعنصري. صراع لم تقدر دولة الراشدين على حله، فجاء الملك العضوض ليفاقمه ويرسخه. ولم يترك المتصارعون سلاحا لم يستعملوه: من وضع الأحاديث على ألسنة الأنبياء، إلى تفسير النصوص المقدسة بحسب الأهواء، إلى قتل سبط الرسول وآل بيته، إلى تزييف التاريخ المكتوب لمصلحة هذه الجهة أو تلك، إلى اللجوء إلى التاريخ الشفهي المتناقل بين الأجيال، وكل جيل يبالغ في الرواية ويضيف إليها الخرافات، حتى تخلفنا وتقدم غيرنا، وما نزال نمعن في الغي ونبتعد عن الرشاد. وصار الصراع "كبة" حرير على شوك، بعضنا يتكلم في الاشتراكية ويتصرف عكسها، وبعضنا يتكلم في الديمقراطية ويقصد غيرها، وأكثرية الفاعلين لا يعرفون من الاشتراكية أو الديمقراطية إلا العنوان، وأكثرنا لا يعرف من الاشتراكية أو الديمقراطية إلا أنها بضاعة مستوردة لا تلائمنا، وان لدينا ما يلائمنا لو عدنا إلى سيرة السلف الصالح.

إن هذه الأفكار لم تصبح واضحة عندي وتصل إلى مرتبة القناعة إلا في أواسط السبعينات. وها قد مرت عليها ثلاثون سنة. وشواهد الأحداث ما فتئت تصدقها وترسخها، بحسب قراءتي لها وبحسب مطالعاتي في الكتب وتجاربي مع الناس.

وأعود إلى سـؤالك عن التناقض الذي اكتشفته في روايتي أو بالأحرى التناقض في مواقفي، أي بين رفض اللجوء إلى الأردن متحملا خطر الموت، وبين قبول السعي لتسهيل التآمر الذي كان يتم تحت جناح الأردن بالذات. فأقول انني أنا نفسي اكتشفته حتى قبل حرب حزيران ١٩٦٧، وقد رفضت الذهاب إلى الأردن بادئ الأمر على الرغم من قناعتي بالمهمة التي كانت مهمة وطنية غير تآمرية، وهي إقناع اللاجئين السوريين هناك بالتحول من موقف الصراع بين معارضين وحكام، أي صراع على السلطة، إلى موقف الاصطفاف القومي والوطني خلف الحكام لأن حالة الحرب الوشيكة تقتضي الوحـدة الوطنية بصرف النظر عن المواقع السياسية. وقد ذهب بدلا مني الحاج نذير النابلسي وكان رحمه الله فاقدا للإحساس بالزمن مثل البدو، فذهب ولم يعد ولم نسمع منه أي رد. فعاد صلاح البيطار يلح علي بالذهاب، فذهبت وبعد يومين أو ثلاثة بدأت الحرب فعلقت هناك... إلى آخر الرواية المعروفة. وكنت ذكرت لك أنني راجعت نفسي بل حاكمتها منذ صيف ١٩٦٧ أي بعد الحرب مباشرة فلم أجد تبريرا لموقفي المتناقض ذاك. ولم أجـد له تفسيرا مقنعاً، إلا أنني كنت أتصرف مثل أي إنسان موتور وحاقد. وهذه حالة نفسية تناقض الحكمة والعقل وتتساوى مع الجهل والرعونة والحمق، ولا يبررها حتى الظلم الشديد الذي وقع علي منذ فجر ٩ آذار ١٩٦٦، بما في ذلك السجن والاقتلاع من البيت ومن البلد واللجوء إلى بلد آخر، وأنت مطـارد بخطر الموت غدرا وغيلة...! ولذلك رفضت جميع العروض والإغراءات التي جاءتنا بعـد عودة البعث الآخر إلى السـلطة في العراق لأبقى متصالحا مع نفسي وراضيا عنها. وأنا عندما أستعرض الوقائع المهمة التي حدثت لي طيلة

حياتي، الخاصة والعامة، أشعر بالندم على الكثير من الأخطاء التي وقعت فيها، فأنا إنسان عادي يخطئ ويصيب، وأقول في سري: هذه المسألة لو عادت وحدثت لي مرة أخرى فلن أخطئ في موقفي منها، ولكني لا أشعر بيني وبين نفسي بالخجل من أي خطأ، ما عدا هذا الذي أشرت إليه بسؤالك أيها العزيز صقر الذي أتاح لي الفرصة للبوح ليس لأن "الاعتراف يهدم الاقتراف" فحسب، ولكن من أجل تعميم الفائدة من التجربة الإنسانية.

- **هذا العرض قُدِّم للرئيس الأسد وأنت مقيم في بيروت؟**

- هذا الكلام في أوائل السبعينات بعدما قام الأسد بحركته التصحيحية. وعندما التقيت مصطفى طلاس في دمشق بعد عودتي عاتبته وقلت له: إن نصف الكلام المنشور في المذكرات غلط، وها أنا الآن أصحح الغلط. قال لي مصطفى طلاس يومذاك: ما رأيك أن نلتقي منصور الأطرش إذا أردت، وتصحح لي الأغلاط، وفي الطبعة الثانية تصدر التصحيحات كما ترغب. قلت له: لا، أنا سأكتب هذه المرة. وخلاصة الموضوع أن حرب حزيران ١٩٦٧ هي التي أثرت في تفكيري، وأرغمتني على إعادة محاكمة نفسي ومعتقداتي وأفكاري.حتى قبل هزيمة الخامس من حزيران، حينما أغلق جمال عبد الناصر خليج العقبة وظهرت نذر الحرب سافرت ثانية إلى الأردن بتكليف من صلاح البيطار لإقناع سليم حاطوم بأن القصة ما عادت قصة معارضة وحكم بل صارت قصة عرب ويهود كما ذكرت آنفا. فبعدما حصلت كارثة حزيران ١٩٦٧ قمت بعملية نقد ذاتي، وأزعم أ**هذا العرض قُدِّم للرئيس الأسد وأنت مقيم في بيروت؟**

- هذا الكلام في أوائل السبعينات بعدما قام الأسد بحركته التصحيحية. وعندما التقيت مصطفى طلاس في دمشق بعد عودتي عاتبته وقلت له: إن نصف الكلام المنشور في المذكرات غلط، وها أنا الآن أصحح الغلط. قال لي مصطفى طلاس يومذاك: ما رأيك أن نلتقي منصور الأطرش إذا أردت، وتصحح لي الأغلاط، وفي الطبعة الثانية تصدر التصحيحات كما ترغب. قلت له: لا، أنا سأكتب هذه المرة. وخلاصة الموضوع أن حرب حزيران ١٩٦٧ هي التي أثرت في تفكيري، وأرغمتني على إعادة محاكمة نفسي ومعتقداتي وأفكاري.حتى قبل هزيمة الخامس من حزيران، حينما أغلق جمال عبد الناصر خليج العقبة وظهرت نذر الحرب سافرت ثانية إلى الأردن بتكليف من صلاح البيطار لإقناع سليم حاطوم بأن القصة ما عادت قصة معارضة وحكم بل صارت قصة عرب ويهود كما ذكرت آنفا. فبعدما حصلت كارثة حزيران ١٩٦٧ قمت بعملية نقد ذاتي، وأزعم أنني توصلت إلى القناعة التالية: إن السبب الأكبر الذي أوصلنا إلى هذا الوضع في سورية هو انقسامات الحزب. نني توصلت إلى القناعة التالية: إن السبب الأكبر الذي أوصلنا إلى هذا الوضع في سورية هو انقسامات الحزب. والمسؤول الأول عن هذا الأمر هو ميشال عفلق. ولولا انعقاد المؤتمر القومي الخامس بالطريقة المعروفة، أي لو قبل ميشال عفلق وصلاح البيطار إعادة توحيد الحزب ما كان لهذه الأحوال أن تحدث، أو على الأقل لما حدثت على هذه الشاكلة. وكان من المحال أن يغلط رفاقنا في العراق تلك الأغلاط القاتلة التي أسقطتهم بأيدي ضابط "مفقوع".

- **تقصد عبد السلام عارف؟**

- عبد السلام عارف لا يساوي دينارين عراقيين في ذروة الغلاء. بالمختصر المفيد، جئت إلى بيروت التي كنا نعتبر أجواءها يمينية. وليد طالب وبدر جمعة رفضا الإقامة في الأردن، لكن سليم حاطوم كان يقول "أنا لا أستطيع الإقامة في لبنان مع أنني أتمنى ذلك لأن الأمن الشخصي غير متوافر فيها". حتى جواز السفر الأردني استعملته مرتين ثم أرجعته إلى الجهات المعنية. في المرة الثانية ذهبت إلى الأردن بالاتفاق مع صلاح البيطار، لسحب جماعتنا من الأردن، وفقط في الأولى كي يجتمع بدر جمعة وسليم حاطوم ويتناقشوا في أمور سورية من غير أن يكون للأردن تأثير في القرارات، ولذلك طلبنا أن يكون الاجتماع في باريس لتعذر مجيء سليم إلى بيروت لأننا لا نقبل بأن يكون للأردن ضلع في حركة ضد سورية كما كان له في الانفصال.

- **حيدر الكزبري مثلا***.

- لست متأكدا من أن حيدر الكزبري كان رجل الأردن، ولكن هذا ما عُرف عنه.

---

* حيدر الكزبري أحد ضباط الانفصال إلى جانب عبد الكريم النحلاوي ومهيب الهندي وبسام العسلي وموفق عصاصة وصفوان جبري وفايز الرفاعي، وهو الذي طوّق منزل عبد الحكيم عامر بقوات الهجانة. وفي ١٩٦١/١١/٢٠ ألقي القبض عليه بتهمة تلقي أموال من الملك حسين. ولعل النحلاوي أراد التخلص منه بهذه التهمة (أنظر: محمد حسنين هيكل، "ما الذي جرى في سوريا؟"، القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٢).

- **ربما هايل السرور*.**

- نعم، نعم. لكن دخول القاهرة على خط الحكم في سورية خلق لـــدي ردّات فعل جديدة. فقد اكتشفت أن القاهــرة كانت تدعم الحكم الجديد، حتـــى أنها سحبت ضباطها الذين التفوا حول سليم حاطوم أمثال طلال أبو عســـلي ومعه ثلاثة آخرون، وهؤلاء غادروا الأردن إلى القـــاهرة وأعلنـــوا نـــدمهم وصحوة ضميرهم. لم أكن أعرف، فـــي البداية، مدى عمق المصالحة بـــين الحكم السوري والقاهرة، أو مدى العلاقة مع الاتحاد السوفياتي. وفاجـــأتني الأحداث اللاحقة كثيرا وغيرت قناعاتي. وبدأت أصحو من خيالات وأوهـــام كثيرة. وكانت حرب حزيران ١٩٦٧ مثل حكاية الضبع والفريســـة التـــي يرددها الفلاحون، فيقولون ان للضبع أسلوبا في الســـيطرة على فريستها ثم استدراجه إلى المغارة.

- **يقولون "ضبعه". وفي الفصحى "ضبعته"، لأن الضبع مؤنث.**

- عندما يصطدم رأس المضبوع بجدران المغارة يســـتيقظ ويحـــاول الهرب، ولا تستطيع الضبع أن تتغلب عليه إلا إذا رمته علـــى الأرض. مـــا أصابني بعد حرب حزيران ١٩٦٧ تماما مثل اصطدام رأســـي بجـــــدران المغارة، فاستيقظت على أمور كثيرة. لهذا رفضت تسليم نفسي لأن الكثيرين

---

* هايل سرور زعيم عشيرة المساعيد في جبل الدروز ورئيس كتلـــة العشـــائر فـــي البرلمان السوري في إحدى الدورات. وابنه سعد هايل السرور صار رئيسا للبرلمان الأردني في تسعينات القرن العشرين.

جاهروا برغبتهم في تسليم أنفسهم إلى السلطة في سورية لأنهم اعتقدوا أن الحكم انهار، وربما تمكنوا بعد عودتهم من السيطرة على مقدرات السلطة. بينما تخليت أنا عن مسألة الحكم والمعارضة وصار الموضوع الأهم هو العرب واليهود والصراع العربي ــ الصهيوني. واستغرقت هذه المراجعة نحو سنتين من الزمن. عندما بدأت تظهر مقدمات الحرب العربية ــ الإسرائيلية قبيل إقفال خليج العقبة أمام الملاحة الإسرائيلية، وقعت عدة حوادث منها قصف الطائرات الإسرائيلية دمشق، وتزايد العمليات العسكرية في منطقة الجولان، وقبل ذلك قصف قرية السموع في الأردن*. وفي هذه الأجواء سعى النظام الأردني إلى التقارب مع سورية. وعلمنا، في ما بعد، أن إحدى الجهات السورية مدت خطوطا سياسية مع الأردن في تلك الفترة من خلال شخص من آل الجابري يقيم في الأردن.

- **زوجة العماد الأول مصطفى طلاس من آل الجابري وتدعى لمياء، وزوجة وصفي التل جابرية أيضا، وتدعى سعدية. أليس كذلك؟**

- لا أعرف على وجه الدقة. ولكنني متأكد من أمر واحد هو أن جهات سورية أُرسلت إلى عمان في مهمة لفتح خط مع الحكم الأردني. وقد تنبه إلى هذا الأمر سليم حاطوم وحاول قطع الطريق عليها. لكن الأوان كان قد فات، فاستخدموه ثم ذهب إلى حتفه. وأنا أدين نفسي بصراحة ووضوح لمواقفي في تلك الفترة؛ فقد رفضت الإقامة في الأردن ورفضت اللجوء السياسي فيه، ورفضت جواز السفر الأردني، إلا لمرتين فقط ولمهمة

---

* قصفت الطائرات الإسرائيلية هذه القرية التي تقع في الضفة الغربية لنهر الأردن في ١٩٦٦/١١/١٣، وسقط جراء ذلك ١٨ قتيلاً.

بعينها، وبقيت لاجئا في لبنان. ومع هذا انزلقت إلى التآمر مع بعض رفاقي الذين كانوا في الأردن. فالأمور كانت تتدحرج بسرعة فاقت توقعاتنا بالكامل. وأذكر أنني التقيت أكرم الحوراني في أحد مقاهي بيروت، وإذا به يقول لي إن جمال عبد الناصر حيسوب* ومن غير الممكن ألا يكون الجيش المصري استوعب سلاحه وصار قادرا على الحرب، ولهذا فإن الآن هو الوقت الملائم لتحرك الفدائيين الفلسطينيين.

- **متى جرى هذا الكلام بينكما؟**

- قبيل الحرب بشهر واحد. ربما في أوائل أيار ١٩٦٧. ثم ذهبت إلى صلاح البيطار لأستطلع رأيه في الوضع العربي العام، وفهمت منه أنه يتوقع حربا. لأن سحب القوات الدولية من شرم الشيخ وإحلال الجيش المصري مكانها وإغلاق الملاحة في المضائق، ذلك كله يعني حربا مؤكدة. ولذلك طلب مني صلاح البيطار أن أذهب إلى الأردن كما ذكرنا آنفا. وكان معسكر التدريب الذي وصل عدد أفراده إلى ما بين ٥٠٠ و٦٠٠ متطوع بدأ بالتناقص التدريجي، بل غادره نحو ثلاثة أرباع هؤلاء المتطوعين إلى سورية إما فرادى أو بالتنسيق مع المخابرات السورية التي هيأت عودتهم وأصدرت عفواً عنهم. وفي هذه الحال صار سليم حاطوم ضعيفا، وما عاد قادراً على القيام بأي شيء لأن الدولة الأردنية رفعت يدها عن الموضوع. فكانت النتيجة أننا بتنا ننتظر وقوع الحرب أو عدم وقوعها. وكانت أكثرية

---

* أي أنه يحسب الأمور بدقة.

رفاقنا تتوقع عدم حدوثها، ولا سيما عندما قرر عبد الناصر إرسال زكريا محي الدين إلى واشنطن ليلة الخامس من حزيران. واندلعت الحرب بينما كنت في عمان وقطعت الطرقات. فتخابرنا مع صلاح البيطار الذي أخبرنا أنه سيذهب إلى الحدود السورية ــ اللبنانية لتسليم نفسه إلى السلطات السورية. من جهتي تابعت الحوار مع رفاقنا حتى بعد وقف النار، وكنت أكرر أننا ما دمنا خسرنا الحرب فدعونا نفكر بما جرى. بينما بعض رفاقنا كانوا يقولون إن العمل السياسي انتهى الآن وحان الوقت للالتفات إلى الشؤون الداخلية والوطنية. لكنني لم أقتنع تماما بهذا الرأي، لأننا لو عدنا إلى دمشق ووضعنا أنفسنا تحت تصرف السلطات السورية فماذا سنفيد سورية؟ فقررت العودة إلى بيروت وإعطاء عقلي فرصة للتفكير، بينما كان بدر جمعة يصر على العودة إلى سورية. وكان يردد على مسامع الجميع أن على كل واحد منا أن يتخذ الموقف الذي يلائمه. فإذا وجد أحدنا أن أمنه الشخصي مهدد، فليس عليه أن يذهب إلى سورية وليبقَ أينما يريد، أما نحن فسنذهب. وهنا ظهر نوع من التحدي لي، فقلت: يا بدر، هل تعتقد أنكم حينما أضفتم نجوما إلى النجوم الموجودة على أكتافكم أصبحتم أبطالا؟ حسنا، أنا ذاهب معكم إلى الشام كي نرى من هو الرجل فينا. وكانت ثلاث سيارات جاهزة للانتقال بنا إلى دمشق، ولم نلبث أن أقلتنا السيارات باتجاه الأراضي السورية. وفي الطريق كنت أفكر مليا في ما نحن مقدمون عليه وفي المخاطر التي ستواجهنا بالتأكيد. وقلت لنفسي إننا إذا مررنا بمنزل سلطان الأطرش في القريّة، فربما يتمكن سلطان الأطرش من إقناع سليم حاطوم ومحمد الأطرش وعبد الله الأطرش وبدر جمعة بعدم الذهاب إلى دمشق. كنت أريد إنقاذهم جميعا، ولا أرغب في ذهابهم إلى دمشق. في أي

حال مررنا بمنزل سلطان الأطرش عند الفجر، وأيقظناه من نومه، فرحب بنا. وعلى الفور جهز لنا القهوة العربية ودعانا إلى تناول الفطور، لكننا اعتذرنا بأننا على وشك المغادرة. المهم أنه جلس إلينا، وراح يتحدث بمرارة شديدة عن سقوط القنيطرة. ولا أنسى تعابير صوته وهيئته؛ كان حزينا ومتألما وغاضبا بسبب سقوط القنيطرة والجولان. فهو يعرف الجولان حجرا حجرا، لأنه حارب فيه أيام الثورة السورية الكبرى. وأهل الجولان الذين يتصدون للاحتلال الإسرائيلي اليوم، قاتل آباؤهم معه بكل اندفاع وتضحية. وهو يعرف تماما جغرافية الجولان وتضاريس المنطقة. ومع هذا راح يوجه أسئلته إلى العسكريين الحاضرين ويحاول أن يعرف كيف ومن أين دخل اليهود. فلم تعجبه أجوبتهم، ولم يصغ كثيرا إليهم، بل تبرم وقال: "نحن ركاك ركاك". أي نحن شديدو الوهن والضعف. وكلمة ركيك فيها شيء من الاحتقار. وسلطان الأطرش، بهذه العبارة، لم يكن يريد أن يستنكر هذه الكارثة التي حلت بالعرب فحسب، بل أن يعلن غضبه أيضا على الجيشين المصري والسوري، لأن الجيش المصري انسحب من سيناء في أول الحرب، بينما الجيش السوري انسحب من الجولان في أواخرها.

- **من دون قتال تقريبا.**

- يا سيدي الآن أنا أجيبك. الجيش المصري في سيناء لم يقاتل إلا في بعض الأماكن المعزولة. والجيش السوري لم يقاتل أيضا، بل اعلن الانسحاب من القنيطرة قبل سقوطها. كانوا يريدون تأمين الجيش

والمحافظة على الحكم. وهم أعلنوا ذلك بأنفسهم حينما روجوا أن إسرائيل فشلت في الحرب لأنها لم تستطع إسقاط النظام.

- **سأعود إلى منزل سلطان الأطرش. ماذا حدث لكم بعد ذلك؟**

- سألنا سلطان الأطرش بتعجب: "شو اللي آخذكم إلى الشام؟". فأجابه بدر جمعة أن الأوان قد آن لطرح الخلافات جانبا والانصراف إلى حماية الوطن. فلم يقتنع سلطان الأطرش بهذه الإجابة وعلم أنها مجرد كلام. فالتفت صوب ابن أخيه محمد الأطرش وعبد الله الأطرش وقال: حسناً الإخوان ذاهبون إلى بلداتهم لأنهم يريدون ذلك، أما أنتم فماذا تريدون أن تفعلوا؟ اقعدوا هنا، هنا بلدكم. ثم التفت إلي قائلا وأنت ما الذي يدفعك للذهاب إلى دمشق؟ أقعد هنا، هنا بيتك وفي دمشق بيتك. كان يحبني مثلما يحب والدي. لكن ابن أخيه محمد أجاب على الفور: نحن لا نتخلى عن رفاقنا، بل نريد الذهاب لتسليم أنفسنا إلى السلطة. فإذا أرسلونا إلى قطعات الجيش نقاتل. فسكت سلطان الأطرش وتحرج من الكلام ما دام ابن أخيه يجيب عمه بالقول إن النخوة تقتضي الذهاب إلى الشام. وما عاد في إمكان سلطان أن يزيد في القول لأنه كان دائماً شهماً وصاحب نخوة، واكتفى بأن قال لهم: مع السلامة. لكنه سارع إلى الاتصال بمحافظ السويداء وبابنه منصور الأطرش، وكان خرج من السجن، لإبلاغ المسؤولين أن الشباب ذاهبون لتسليم أنفسهم، فليفهم أصحاب الشأن أن هؤلاء ما عادوا أعداء. وأذكر أنني بعد أربع سنوات عندما دخلت إلى غرفته في مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت لعيادته، بادرني فوراً بالقول: "لو بقيت عندنا كنا

خبّيناك وحميناك وهربناك. شو أخذك للشام حتى تشغل بال أبوك!". وكان يعاني من آلام ديسك في العمود الفقري وجاء لإجراء عملية جراحية.

- **أي أنه كان يريد إنقاذكم من التهور.**

- نعم. قصارى القول إننا وصلنا أخيرا إلى محلة الشيخ رسلان في دمشق، وكان ضوء الصباح بدأ ينتشر. في تلك اللحظة طلبت من السائق أن يتوقف، وتوقفت بقية السيارات، فتوجهت إلى بدر جمعة قائلاً: "ها نحن وصلنا إلى الشام، وهذه هي الشام. أنظر. هذا هو الشيخ رسلان". قال: "طيب". فقلت له: "اذهبوا أنتم وسلموا أنفسكم، أما أنا فلن أسلم نفسي قط. أنا أعرف طريقي في الشام ولست مستعدا لتسليم نفسي في هذه الظروف. لن أقاتل السلطة، والحرب انتهت. اذهبوا، مع السلامة". وعند ذلك انسللت إلى الحارات الداخلية في دمشق، وذهب الآخرون إلى الشرطة العسكرية. وفي أحياء دمشق التي أعرفها حارة حارة وزاروباً زاروباً لو جاء عبد الكريم الجندي ومخابراته كلها، فلن يتمكنوا من العثور عليّ. وبالفعل اختبأت في تلك الحارات لمدة أسبوعين ثم تسللت مجددا إلى لبنان.

- **ورفاقك ذهبوا إلى الإعدام؟**

- ذهبوا أولاً إلى الشرطة العسكرية في منطقة البرامكة مقابل جامعة دمشق. لكن قائد الشرطة لم يرغب في اعتقالهم، وقال لهم: ليست لدي أوامر باستلامكم، فاذهبوا إلى بيوتكم. فذهبوا إلى منصور الأطرش الذي

قال لهم: ما الذي أتى بكم إلى دمشق؟ الأجواء ليست أجواء مصالحة سياسية ووطنية كما تظنون. عودوا إلى جبل العرب على الأقل. ففي الجبل هناك من يحميكم حتى يصبح الجو مواتياً للمصالحة فيعفى عنكم وتعودون إلى مهماتكم. وبناء على كلام منصور الأطرش عادوا أدراجهم باتجاه السويداء. لكن عبد الكريم الجندي كان علم بقدومنا من محافظ السويداء، والشرطة العسكرية أبلغت المسؤولين بحضور هؤلاء من الأردن، فبادر إلى نصب كمين على طريق السويداء، وما إن وصلوا إلى مكان الكمين حتى أطبق عليهم رجال المخابرات فاعتقلوهم جميعا واقتادوهم إلى السجن.

- **أعدم بعضهم من دون الخضوع لأي محاكمة.**

- المدنيون الذين لا يشكلون خطرا أهينوا كثيرا وأودعوا السجون. أما بدر جمعة وسليم حاطوم فأعدما على الفور. كيف جرى ذلك؟ لا أدري حقا. وما أعرفه هو أن سليم حاطوم وصل إلى الإعدام شبه محطّم ومكسر الأضلاع، بينما بدر جمعة أعدم من غير أن يعذب. وكان حافظ الأسد أرسل إلى سلطان الأطرش يخبره بضرورة التوسّط لسليم حاطوم ورفاقه، لأن القيادة القطرية قررت إعدامهم. ولفت حافظ الأسد إلى أنه لا يستطيع القيام بشيء وهو بريء من دمهم.

- **هذا يعني أن صلاح جديد هو الذي اتخذ قرار الإعدام.**

- ليس صلاح جديد وحده، بل أغلبية أعضاء القيادة. وهؤلاء كان لهم موقفان مختلفان: كان البعض يعتبر سليم حاطوم خائنا لأنه كان عضوا

في اللجنة العسكرية وانقلب عليهم. بينما بدر جمعة كان من خارج اللجنة العسكرية وليس من التنظيم السري، ولهذا لم يحقدوا عليه كما حقدوا على سليم حاطوم، فأعدموه إعداما عسكريا أي رميا بالرصاص، ونفذوا الإعدام بسليم حاطوم بعد تعذيبه*.

- **ما قصة الشيك الذي ظهر في المحاكمات وتردد أنكم تلقيتم رشوة من السلطات الأردنية؟**

- قصة هذا الشيك رافقتها بعض الملابسات. نعم كان ثمة شيك قيمته ٤٠ ألف دينار أردني دفع لمساعدتنا على العودة إلى سورية أو للسفر والتخفّي، ومساعدة الآخرين الذين تركوا معسكر التدريب في الأردن. وتسلم هذا الشيك الحاج نذير النابلسي ووضعه معه. وفي أحد الأيام قلت له: "يا حاج لماذا تضع الشيك في جيبك؟ إما أن تعيده أو أن تدفعه إلى الذين لا يريدون تسليم أنفسهم إلى السلطات السورية". فأجابني بالرفض، لأنه كان مقتنعا مثل بدر جمعة أننا سندخل إلى دمشق، وحينذاك سيتم استخدامه. فقلت له: "اسطفل". وفي ما بعد وقع الشيك في أيدي رجال الشرطة عندما ألقي القبض على نذير النابلسي وأصبح عنصراً من عناصر المحاكمة، وروجوا أننا كنا نتلقى الرشاوى من الأردن.

---

* أعدم في ١٩٦٧/٦/٢٤.

- **لكن منطق الأمور يقول إن الذين أقاموا في الأردن كانت الدولة الأردنية تنفق عليهم.**

- نعم، لكن أنا ونذير النابلسي لم نتلق شيئا من الدولة الأردنية.

- **لأنكم كنتم في بيروت.**

- وليد طالب وبدر جمعة لم تصرف عليهما الدولة الأردنية أي قرش.

- **ماذا جرى بعد اختبائك في حارات دمشق؟**

- بقيت في مخبئي نحو ١٥ يوما. ثم علمت بإعدام سليم حاطوم وبدر جمعة. طبعا البيت الذي اختبأت فيه هذه المرة غير البيت الذي اختبأت فيه أول مرة. وعلمت أيضا أن المخابرات لم تداهم بيتنا أو بيت جدي أو بيوت أعمامي وأخوالي. مع أن عبد الكريم الجندي كان يسأل المعتقلين: "أين هو نبيل الشويري؟ ألم يأت معكم؟". ومع هذا لم يبحث عني بشكل جدي، ولا أعرف السبب.

- **وحتى اليوم، ألا تعرف الجواب؟**

- لا. ربما كان للماضي الحزبي شفاعة عنده، وربما كانت لي في قلبه محبة. ولكنني لا أدري فعلا.

- **عبد الكريم الجندي وسليم حاطوم كانا صديقين ومناضلين في الحزب نفسه ولم يشفع له ذلك.**

- أنا موقفي مختلف، وهم يعرفون هذا الأمر. ولهذا ربما لم يتشدد عبد الكريم الجندي في ملاحقتي. ثم علمت أن منصور الأطرش فر إلى لبنان ولجأ إلى بيت صهره من آل الداود في قرية "حلوى" القريبة من قرية دير العشاير، وكان اعتقل في ١٩٦٦/٣/٩ وأطلق في ١٩٦٧/٦/١٠. وقد أرسل إليّ منصور الأطرش في مخبئي يلح عليّ بضرورة اللحاق به إلى لبنان لأن وضعي غير آمن.

- **لماذا يهرب منصور الأطرش إلى لبنان ما دامت السلطة أخرجته من السجن؟**

- جاءه نبأ من حافظ الأسد شخصيا يخبره فيه أن من الأفضل له أن يتوارى. وهذا يعني أنهم كانوا سيعيدونه إلى السجن.

- **هل أعادوا آخرين إلى السجن؟**

- نعم.

- **بعدما أطلقوا سراحهم؟**

- نعم، وكذلك هرب أمين الحافظ إلى لبنان ومحمد عمران أيضاً.

- **أمين الحافظ خرج من السجن أيضا في تلك الفترة؟**

- كلهم خرجوا من السجن في ١٠ حزيران ١٩٦٧، علما أن السلطة كانت لا تريدهم في سجونها.

- **لنتابع القصة. ماذا بعد هرب منصور الأطرش إلى لبنان؟**

- عندما جاءني تحذير منصور الأطرش رتبت عملية هروبي في أواخر حزيران ١٩٦٧ وكنت مختبئا، بالطبع، في أحد المنازل الآمنة. وعند الفجر تحركت بي السيارة نحو لبنان. فجهزت مسدسي واتخذت قراراً ذاتياً، بأنني إذا ما تعرضت للاعتقال فسأكون إما قاتلا أو مقتولاً، ولن أستسلم قط. فقد سمعت عما جرى لسليم حاطوم. خرجنا من دمشق واجتزنا منطقة الربوة وسلكنا طريق بيروت. والغريب أنني لم أشاهد، ليس أي إنسان البتة، بل ولا حتى كلباً في الطريق، أو زبالاً ينظف الأمكنة. وعندما وصلنا إلى المكان الذي يجب أن أبدأ منه عملية اجتياز الحدود ظل صاحب السيارة واقفا يرصد الوضع حتى يطمئن عني، وكي يطمئن والدي عند عودته إلى دمشق. وقد تأكدت أنني أصبحت آمنا حينما رأيت ثلاثة أشخاص بانتظاري ومعهم البغال التي ستقلنا إلى قرية "حلوى" في الجهة المقابلة من الحدود. وقد أقمت فترة وجيزة في "حلوى" مع منصور الأطرش ثم غادرناها إلى برمانا وأقمنا فيها حتى نهاية الصيف، ثم هبطنا إلى بيروت. وبدأت الرحلة الجديدة في المنفى، ولكنه منفى من دون نشاط سياسي هذه المرة. على أني بقيت أكثر من سنة في حالة استنفار دائم بسلاح مجهز ليل

نهار في بيروت نفسها تحسباً لعملية خطف، إذ كنت أفضل أن أُقتل أو حتى أن أقتل في حالة دفاع مشـروع عن النفس. وكنت أقول في نفسي: الويـل لمن سيحاول خطفي، والويل لي إن اضطررت لاستعمال السـلاح. وفـي صبيحة يوم لم أعد أذكر تاريخه، قرأت مع قهوة الصباح خبر مقتـل ابـن الكيال - عنصر المخابرات السـورية - عندما حاول خطف مالك الأمين*، وكنت قد سمعت قبلها بأنه مكلف بخطفي، فتأملت صورة القتيل ملقاة علـى الدرج، وقلت سبحان الذي أبعد عني هذه الكأس...!

---

* لبناني. عضو في القيادة القومية لحزب البعث، ومن أنصار صلاح جديد. عاد إلـى لبنان من دمشـق بعد الحركة التصحيحية في ١٣/١٠/١٩٧٠، وراح يكتـب فـي مجلة "الراية". تعرض لمحاولة اختطاف في بيروت فغادر إلى الجزائر، ثم عاد إلى لبنان في التسعينات ولزم منزله.

٨ ـــــــــــــــــــــــ المنفـــــى



- **كانت حرب الخامس من حزيران ١٩٦٧ كارثة مروعة، لا على الشعوب العربية وحدها، بل على النظم العربية أيضاً. فإذا كان ميشال عفلق يتحمل بعض المسؤولية عن الأوضاع السورية بعد ٨ آذار ١٩٦٣، ألا يتحمل أكرم الحوراني مسؤولية أكبر عندما شجع الجيش على الخروج من ثكناته؟ وحتى لو كان أكرم الحوراني يستخدم الجيش لمصلحة الحكم المدني، بحسب رأيك، فإن هذا الاستخدام كان، في نهاية المطاف، تدريباً لهذا الجيش على الخروج من الثكنات والتدخل في السياسة. أليست هذه الأمور كلها وغيرها مسؤولة عن هزيمة حزيران ١٩٦٧؟**

- أول مَن استخدم الجيش في سورية بعد الاستقلال كان وزير الدفاع يومذاك أحمد الشراباتي ومعه رئيس الجمهورية شكري القوتلي، وقاما بتزوير الانتخابات النيابية في سنة ١٩٤٧ مستعملين العسكريين الذين ألبسوهم لباس الدرك، وتدخلوا في فرز الأصوات في صناديق الاقتراع. ومنذ ذلك الزمن وهناك مَن يخطط لقطع رأس الجيش السوري – كجيش محارب – وتحويله إلى مهمات الأمن الداخلي. ففي حرب ١٩٤٨ أرسلوا الجيش السوري إلى فلسطين عند مضيق الحمّة وطبرية الشديد الخطورة. ولولا صمود ضباطه وبطولة جنوده والتحاق المقاتلين المسرّحين الذين كانوا في الجيش الفرنسي في شمال إفريقيا به لكان قضي على هذا الجيش. وهؤلاء المقاتلون هم أنفسهم أبطال معركة بيرحكيم، وهي المعركة الوحيدة التي انتصر فيها شارل ديغول في الحرب العالمية الأولى.هؤلاء أبطال بيرحكيم السوريين الذين عادوا ليقاتلوا، هذه المرة، عند مستعمرة مشمار

هيردن*، وسقط منهم الكثير من الشهداء. وعندما لم تتمكن السلطة من قمع التظاهرات بالشرطة، سلّموا أمر الجيش إلى حسني الزعيم الذي نشر الوحدات العسكرية في المدن، وكانت تلك هي البداية في القضاء على الحياة المدنية في سورية. ولهذا غادر جميل مردم سورية إلى الإسكندرية وانصرف عن السياسة ما إن نفذ حسني الزعيم انقلابه المشهور.

- **جميل مردم الذي هجاه عمر أبو ريشة بقصيدة مشهورة**.**

- نعم. لكن جميل مردم كان أذكى رجل سياسي في سورية. كان شكري القوتلي يحكم بالاسم، أما الحاكم الفعلي فهو جميل مردم. أما أكرم الحوراني فهو من قماشة مختلفة، وتدخله في شؤون الجيش كان الهدف منه توعية الضباط بمخاطر الرجعية، وغايته منع استخدام الجيش ضد الناس. لم يكن يستخدم الجيش ضد الحكم، بل كان يقاتل، فكرياً وسياسياً، لحث الضباط الوطنيين، ولا سيما الذين يعتبرونه زعيماً مبجلاً، على ألا يشتغلوا

---

* يقع موشاف مشمار هيردن جنوب بحيرة الحولة بالقرب من جسر بنات يعقوب. دمره الجيش السوري سنة ١٩٤٨، واستعاده الإسرائيليون بموجب اتفاق الهدنة سنة ١٩٤٩.

** يقول عمر أبو ريشة في هذه القصيدة:

أمتي هل لكِ بين الأممِ — منبر للسيف أو للقلمِ
أمتي كم صنم مجدتهِ — لم يكن يحمل طهر الصنمِ
إن أرحام السبايا لم تلد — مجرماً مثل هذا المجرمِ

(وأشار بيده إلى جميل مردم).

بالسياسة كمحترفين، لأن دورهم الوحيد هو منع تحويل الجيش إلى أداة للتآمر.

- **لكن مصطفى حمدون وعبد الغني قنوت، وهما من الأنصار الخلص لأكرم الحوراني، ساهما في الانقلاب العسكري؟**

- الانقلاب الذي ظهر فيه اسم مصطفى حمدون ليس انقلاباً خالصاً بل عصياناً في مدينة حلب. وهذا العصيان تمكن من إعادة الحياة الدستورية إلى سورية*.

- **انتهى هذا العصيان بعد سقوط الشيشكلي مباشرة؟**

- أكيد. وعاد الجيش إلى ثكناته. أما عبد الغني قنوت فلم يقم بأي انقلاب، وبرز اسمه في عصيان قطنا. وهذا العصيان جاء رداً على تدخل شكري القوتلي في شؤون الجيش وتبديل القيادات الأساسية فيه والإتيان بقيادات طيعة له. ليس أكرم الحوراني مسؤولاً عن تسييس الجيش بل شكري القوتلي وأديب الشيشكلي وأمثالهما. عصيان حلب سببه قمع الجيش لجبل الدروز وللأحزاب في عهد أديب الشيشكلي. وكان لمحمد عمران

---

* ولد في حماة سنة ١٩٢٥، والتحق بالكلية العسكرية في حمص وتخرج فيها سنة ١٩٤٨. في ١٩٥٤/٢/٢٥ أذاع بياناً من إذاعة حلب، باسم قيادة المنطقة الشمالية، أعلن فيه التمرد على قيادة أديب الشيشكلي. انتخب أميناً عاماً لحزب الاشتراكيين العرب في سنة ٢٠٠١ خلفاً لعبد الغني قنوت.

الشأن الكبير في عصيان حلب. أما مصطفى حمدون فقد قامر برأسه وأعلن العصيان من إذاعة حلب، وكان برتبه نقيب، وأيده أمين الحافظ الذي لم يكن بعثياً. لكن الجيش تجاوب مع هذه الحركة ووقف ضد الشيشكلي؛ لم يكن الجيش إلى جانب مصطفى حمدون أو إلى جانب أكرم الحوراني إنما ضد الشيشكلي، وكانت الغاية العودة إلى الثكنات وإعادة الديمقراطية، وهذا ما كان يريده البعث في ذلك الزمان. إن الذي أفرغ الجيش من ضباطه المحترفين قبل هزيمة سنة ١٩٦٧ سلسلة من الحوادث السياسية راحت تكبر مثل كرة الثلج. وتقول لي: أليس البعثيون هم الذين سرحوا أعداداً متتالية من الضباط بعد حركة ٨ آذار ١٩٦٣؟ وأجيبك: إن هذا صحيح حقاً. فكل ضابط كانت لديه ميول سياسية يومذاك، ومَن لم يكن إلى جانب البعث سرحوه إما بذريعة أنه "انفصالي" أو بحجة انه "ناصري". وفي ٢٣ شباط ١٩٦٦ سرِّح جميع من أيد أمين الحافظ والقيادة القومية أو من وقف إلى جانب سليم حاطوم. وهذه التصفيات تشبه ما فعله ستالين بالجيش الأحمر، وهذا ما يحصل دائماً حينما ينخرط الجيش في السياسة. وهذا ما جرى في مصر، ولكن بدرجة أقل، لأن عبد الناصر والضباط الأحرار ساروا بخطة أكثر حكمة واعتدالاً. لكن بعدما حلّ الأحزاب وأخرج بعض المدنيين من السياسة صارت مفاصل الدولة كلها بأيدي العسكريين* حتى خرجت النكتة المشهورة التي تقول انه عندما مات البابا القبطي (قبل البابا شنودة) جاء أهل الحل والعقد إلى عبد الناصر وقالوا له: نريد تعيين بابا جديد فبماذا تشير علينا؟ فقال لهم: طوّلوا بالكم. وانتظروا فترة ولم يتلقوا أي جواب

* طلب عبد الناصر من جميع الضباط الذين تسلموا مهمات مدنية أن يستقيلوا من الجيش، ومن رغب في البقاء في الجيش لم يتسلم أي منصب مدني.

من عبد الناصر. وعندما راجعوه بالأمر قال لهم: لقد تأخرت في إجابتكم لأنني كنت أنتظر أن تطول لحية الضابط الذي سنعيّنه في منصب البابا.

- **البابا شنودة كان ضابط احتياط في الجيش المصري.**

- حتى بابا الأقباط يريدونه ضابطاً. طبعا هذه نكتة نشرها أحد المصريين من أنصار عبد الناصر. ربما أنور عبد الملك.

- **صاحب كتاب مهم عن الجيش في المجتمع المصري*.**

- كم من الضباط الأكفاء سرّحهم المشير عبد الحكيم عامر وأرسلهم إلى وظائف مدنية في الخارج لأنهم ليسوا من الذين يدورون في فلكه، في الوقت الذي احتفظ فيه بضباط لا يساوون، في عز الغلاء، لفافة حشيش؟ أقول هذا لأن عبد الحكيم عامر كان حشاشاً، وأمثال هؤلاء ظلوا في المراكز العسكرية العليا حتى كارثة ١٩٥٦؛ هذه الكارثة التي تحولت إلى نصر سياسي. وكذلك ظلوا في مراكزهم بعد كارثة ١٩٦٧ التي كانت كارثة عسكرية وسياسية معاً. لنتذكر ما رواه أشرف مروان وهو صهر عبد الناصر لقناة "الجزيرة" عن المشادّة التي وقعت بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر بعد هزيمة ١٩٦٧ عندما ألح عبد الناصر على عبد الحكيم عامر بضرورة الاستقالة من قيادة الجيش المصري، وأشار إلى تآمر عبد

---

* أنظر كتابه: "المجتمع المصري والجيش"، بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٤.

الحكيم عامر عليه، فما كان من عامـــر إلاّ أن أجاب عبد الناصر بـــالقول: "قطع لسانك يا بربري يا ابن الكلب".

- **عبد الحكيم عامر قال لعبد الناصر مثل هذا الكلام؟**

- نعم.

- **وأمام مجموعة من الضباط؟**

- أمام مجموعة من الأشخاص من بينهم صهر عبـــد الناصـــــر، أي أشرف مروان الذي كان مديراً لمكتب عبد الناصر.

- **إنه اليوم سوبر ملياردير، واتهم بالاتصال بإسرائيل*.**

- هذه الواقعة، إذا صحت، ربما تفسّر انتحار المشير أو قتلـــه. فهـــل تصدق أن يقول شخص ما لعبد الناصر مثل هذا الكلام؟

- **مع العلم أن عبد الحكيم عامر كان مهزوماً في ذلك الوقـــت ولـــيس منتصراً بالطبع كي يتنمر على جمال عبد الناصر.**

---

* زوج منى جمال عبد الناصر. وقصة علاقته بالموساد الإسرائيلي غامضـــة جـــداً، والأرجح أنه ساهم في خداع الإسرائيليين، وكانت علاقته بالموساد بدأت في ســـنة ١٩٦٩ بتكليف من القيادة المصرية، واستمرت حتى حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣.

- لاحظ العبارة: "قطع لسانك يا بربري يا ابن الكلـب". بربري تعني أن عبد الناصر ليس عربياً.

- **لكنه من عشائر بني مرة، فهو عربي أصيل.**

- يبدو أنها نوع من الشتائم المصرية. في أي حال، هل تعرف، عندما اكتشف الملك فيصل مؤامرة الطيارين عليه، كيف أعدمهم؟

- **كيف؟**

- وضع الطيارين في الطائرات ورماهم أحياء من الجو. ألم يحصـل الأمر نفسه في المغرب؟

- **العالم الثالث كله مبتلى بهذا العسف.**

- نقطة على السطر.

- **عدت إلى لبنان متسللاً للمرة الثانية. في المـرة الأولـى اعتقلـت وأُطلق سراحك. وفي المرة الثانية لم تعتقل، وعشت منفياً في بيروت. ماذا كنت تفعل في تلك الأثناء؟**

- في أواخر حزيران ١٩٦٧ وصلنا إلى قرية "حلـوي" وأقمنـا فيهـا مكرّمين معزّزين. وجاء إلينا الأمير مجيد أرسلان ليسلّم علـى منصـور

الأطرش. وأمضينا عدة أيام في تلك المنطقة إلى أن جهز لنا النائب سليم الداوود إقامات شرعية ثم انتقلنا إلى برمانا التي أمضينا فيها الصيف ريثما أمكن تجهيز منزل لنا في الروشة. وهذا المنزل تبرع لنا به حسن حلاوي وهو أحد أبناء جبل العرب الذين حازوا الجنسية اللبنانية، وكان يمتلك بناية كبيرة في منطقة الروشة أفرد منها الروف لمنصور الأطرش، لأنه من الذين يكنّون مكانة عالية جداً لسلطان الأطرش، ربما أدنى من الله بإصبعين. وهو، في أي حال، رجل محترم جداً. وقد منح منصور الأطرش، فضلاً عن ذلك، شيكاً قيمته خمسة آلاف ليرة لبنانية، وهو مبلغ مهم في ذلك الوقت. فسكنت أنا ومنصور الأطرش في هذا البيت مجّاناً. لكن منصور الأطرش أعاد الشيك إلى صاحبه، ولم يستخدمه لأن أهلنا بدأوا بإرسال القليل من النقود لنعتاش بها. وبقيت أنا ومنصور الأطرش مقيمين في هذا المنزل أكثر من سنة، إلى أن جاءه خبر من حافظ الأسد يعرض عليه العودة إلى دمشق وكان بين الاثنين وسيط.

- **من هو؟**

- أعتقد أنه صياح عامر، وكان نائباً مع منصور الأطرش في عام ١٩٥٤، وهو رجل نزيه ومحترم ونظيف الكف. والمعروف أن صلة محترمة نشأت بين منصور الأطرش وحافظ الأسد منذ أيام القيادة القومية. ففي تلك الفترة رقّي حافظ الأسد من مقدم إلى لواء بشكل استثنائي. وقد عارض هذه الترقية كثيرون، لكن منصور الأطرش وجبران مجدلاني وافقا بحماسة.

- **هل كانت الترقيات العسكرية من اختصاص القيادة القومية؟**

- الترقيات كانت تتم في مجلس قيادة الثورة.

- **لكن جبران مجدلاني لم يكن عضواً في مجلس قيادة الثورة.**

- لا. كان عضواً في القيادة القومية. والترقيات يقترحها مجلس قيادة الثورة ثم تعرض على القيادة القومية. وكان حافظ الأسد عضواً، بدوره، في القيادة القومية. وكانت بين الاثنين علائق شخصية إيجابية. وبنتيجة ذلك عرض الأسد على منصور الأطرش إمكانية العودة، بشرط أن يعود كما خرج، أي ليس بطريقة شرعية. فقط عُد وابقَ في بيتك. وهكذا عاد منصور الأطرش إلى سورية وبقيت أنا في المنزل. وفي ما بعد حينما جاء حسن حلاوي إلى منزله في بيروت، وأردت أن أدفع إيجار الفترة المنصرمة. رفض حسن حلاوي ذلك وقال لي: أنت تبقى في المنزل كما لو أن منصور الأطرش باق هنا. فقلت له: "إذا أصررت على عدم قبول الإيجار مني فسأترك المنزل". فأصر على الرفض قائلاً: "إبقَ بقدر ما تشاء". في ما بعد علمت أن ابنه يريد أن يتزوج وأن يسكن في المنزل، فاستأجرت غرفة مفروشة. وقبل أن أغادر المنزل جاء والدي من دمشق ومعه عباءة أهديناها إلى حسن حلاوي. وغادرت هذا المنزل في ربيع سنة ١٩٦٩ بعدما أقمت مجاناً طوال هذه الفترة. وكان خالد الحكيم استأجر القسم الثاني من الروف ببدل مالي، لذلك عندما غادرت المنزل بقي خالد الحكيم لأنه مستأجر، أما أنا فلم يقبل حسن حلاوي أن أتحول إلى مستأجر فغادرت.

- **من حزيــران ١٩٦٧ حتى ربيع ١٩٦٩ ماذا فعلت في بيروت؟ ألم تمارس نشاطاً سياسياً؟ ألم تقم باتصالات من هذا القبيل؟**

- عرض علينا التحــاور مع أمين الحافظ فلم نقبل. واقترح الــبعض إعادة التفاهم مع القيادة القومية فلم نقبل لا أنا ولا خالد الحكيم.

- **من أين كانت الأموال تصلك؟**

- كان أهلنا ، أنا ومنصور الأطــرش، يرسلون إلينا نفقاتنا. والمنــزل قُدم إلينا مجاناً، وتصلنا بعض التبرعات من رفاقنا وأصدقائنا. وفــي هــذه الأثناء كنا نلتقي صلاح البيطار باستمرار، وكان يحاول أن يؤســس حركــة سياسية جديدة.

- **أعلن صلاح البيطار استقالته من الحزب في ١٩٦٧/١١/١٠.**

- نعم. وأنا حرضته على الاستقالة، لأنني اقتنعت أن لا أمل من هــذا الحزب بجميع أجنحته. صــلاح البيطار أعلن استقالته من الحزب يومــذاك لأنه يريد أن يعمل وحده في السياسة، وفي الوقت نفسه يظن أن ثمة حركــة تناصره. وهو، في العمق، لا يرغب في أي عمل جماعي حزبي. وهكــذا أصبح منصور الأطرش بدوره. كلهم هكذا إلاّ واحد مثل أكــرم الحــوراني الذي صار ظاهرة تستند إلى الزعامة المدعومة من الناس، وإلى مجموعــة متماسكة من الحزبيين، بحيث أصبح هو والحزب والقيــادة شيئاً واحــداً لا

تتعارض مصالح الجميع في هذا التكوين الجماعي. وهــذا عكس مــا كـــان يفعله ميشال عفلق الذي لا يستنكف عن القيام بمناورات يطرد فيها القيـــادة ويشكل قيادة جديدة حتى يبقى هو وحده الزعيم الأوحد.

- **للتذكير فقط؛ كان صلاح الدين البيطار في بيروت وقتذاك. أما أكــرم الحوراني فأين كان؟**

- في بيروت أيضاً.

- **وميشال عفلق؟**

- في البرازيل.

- **كانت بيروت في أوج نشاطها الفكري والثقافي.**

- بهرتني بيروت. عالم متقدم كثيراً على العالم الذي كنت أعيش فيــه. اكتشفت أهمية النهضة الثقافية والعلمية إلى جانب الحــرية، ورأيــت قيمــة حرية الصحافة وحرية الكتابة وحرية الرأي وحرية الفكر. أما الديمقراطيــة اللبنانيــة البرلمانية، فلا تؤاخذني إذا قلت لك انني لست مقتنعاً بهــا. هــذه ليست ديمقراطية بل مجرد توازن قوى.

- **لكن هذا التوازن يتيح التعدد والحريات.**

- الديمقراطية كعقلية سياسية ليست راسخة في لبنان.

- **لبنان فيه حريات، لكن لا توجد فيه ديمقراطية بالمعنى الشامل للكلمة.**

- التقدم في لبنان بدأ في العهد العثماني، وجبل لبنان امتد إلى بيروت التي أُسست فيها جامعتان علميتان كبيرتان. جامعة تقدم خلاصة الثقافة اللاتينية، بالفرنسية، هي الجامعة اليسوعية. وجامعة تقدم خلاصة الثقافة الانكلو ـ ساكسونية هي الجامعة الأميركية*، وهكذا صارت منطقة رأس بيروت. رأس بيروت هي الجامعة الأميركية والمصارف. وهذه المنطقة هبطت إليها النخب الفلسطينية بعد نكبة ١٩٤٨ والنخب السورية بعد التأميمات. وهذه النخب عندما جاءت إلى لبنان أين ستسكن؟ في الأحياء الشعبية؟ بالطبع لا. بل في الأحياء الراقية. رأس بيروت هو الحي الوحيد الذي نما نمواً غير طائفي وحتى غير وطني، بل كوزموبوليتي. أنا سكنت في رأس بيروت وبهرت بهذا الجو الذي لا فرق فيه بين مسيحي أو مسلم أو درزي. حتى الأجنبي يعيش فيه بحرية، والعربي يعيش فيه بحرية والفلسطيني الذي يعيش في رأس بيروت يُعامل غير معاملة الفلسطيني في المخيمات. يوسف بيدس فلسطيني صار ملك المصارف، وربما أفلسوه لهذا السبب؛ فهو فلسطيني وأرثوذكسي معاً. صار أكبر من العائلات المصرفية

* كان اسمها، لدى تأسيسها في سنة ١٨٦٤، الكلية الإنجيلية السورية.

اللبنانية وراح ينافسها بقوة المؤسسة لا بقوة العائلة*. كان لي أقارب وأصدقاء حتى قبل قدومي إلى لبنان، وهؤلاء اعتنوا بي كثيراً. أقارب وأصدقاء من آل دبغي والدباس وندّا وأيوب، وهذه الصلة فتحت لي عالماً لم يفتح لخالد الحكيم أو صلاح البيطار أو منصور الأطرش. منصور الأطرش حين استقر في لبنان لم يتصل بكمال جنبلاط.

- **كيف تفسر هذا الأمر؟**

- لأن المير مجيد أرسلان هو الذي بادر إلى السلام عليه ودعاه إلى منزله. ثم أن شخصاً من أنصار المير مجيد أرسلان ومن الذين قاتلوا في الثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥ إلى جانب سلطان الأطرش أقام لمنصور الأطرش حفلاً كبيراً في الشوف. وهذا الرجل هو قاتل والد كمال جنبلاط.

- **غريب.**

- وهذا الرجل هرب إلى جبل الدروز إبان الثورة السورية سنة ١٩٢٥ وقاتل بشجاعة. ولهذا عتب كمال جنبلاط على منصور الأطرش وقال عنه إنه لا يفهم في تقدير هذه الأمور. وفي ما بعد حينما اختُطف

---

* ولد في القدس سنة ١٩١٢، ولجأ إلى لبنان سنة ١٩٤٨. بدأ أعماله المالية بخمسة آلاف دولار، ولم يلبث أن أسس أكبر مصرف في لبنان. توفي في سويسرا في ١٩٦٨/٢/١.

حسن الأطرش من الأردن إلى سورية جاءت بنات حسن الأطرش إلى بيروت ليطلبن من منصور الذهاب إلى كمال جنبلاط لحثه على التدخل لدى السلطات السورية.

- **حسن الأطرش تزوج ليندا جنبلاط أخت كمال جنبلاط.**

– نعم. فذهب منصور الأطرش مكرهاً إلى كمال جنبلاط، وعاتبه جنبلاط قليلاً ثم قال له: هنا بيتك، فلماذا لم تأتِ إلى المختارة منذ البداية؟ المهم أنني انفتحت على أجواء رأس بيروت وصرت من رواد مقهى "الهورس شو"*.

- **والدولتشي فيتا؟****

---

* الهورس شو هو أول مقهى رصيف في بيروت. افتتحه منح دبغي في ١٩٥٩/١١/٢٢ ليصبح، خلال فترة قصيرة، مقصداً لرواد منتصف الليل أمثال أنسي الحاج ومنح الصلح وغادة السمان ونضال الأشقر وبول غيراغوسيان. وقد أقفل في سنة ١٩٧٨، وتحول لاحقاً إلى مطعم، وبقيت فيه زاوية كمقهى.

** الدولتشي فيتا يعني بالايطالية "الحياة الجميلة"، وهو اسم فيلم للمخرج الايطالي بازوليني. افتتحه السوريان سيف الدين الخجا وعبد المعطي شاهين. وكان من رواده أكرم الحوراني وعلي صالح السعدي ومحمد أحمد المحجوب وزهير السعداوي، وكان مكاناً للمخابرات المصرية واللبنانية والسورية لكثرة أعداد اللاجئين السياسيين العرب في بيروت آنذاك.

- كنت أتردد إلى هذا المقهى مرات قليلة لأبقى على صلة بالأجواء الحزبية القديمة.

- **كان البيطار من رواد الدولتشي فيتا.**

- لم يكن من الرواد الدائمين. وهو في الفترة الأولى من لجوئه إلى لبنان لم يكن يرتاد المقاهي أبداً. حتى أن أكرم الحوراني قال لي مرة: ما باله صاحبك لا نراه؟ هل لأنه أصبح رئيساً للوزارة لا يجلس في المقهى؟ ليأتِ ويجلس معنا. أكرم الحوراني كان وهو نائب لرئيس الجمهورية يذهب إلى المقهى ويجلس بين الناس. منصور الأطرش لم يكن يغادر بيته البتة. ثمة أشخاص يظنون أنهم كبروا بالمنصب الذي وصلوا إليه. وثمة أناس مهما كبرت مناصبهم يبقون أكبر من المناصب. قصارى القول أن هزيمة ١٩٦٧ سببت لي هزة عنيفة، وجدانية وسياسية، ورحت أتساءل: من هم هؤلاء اليهود الذين هزموا العرب في ستة أيام؟ وعدت إلى التوراة، ولم أكن قرأت التوراة حينذاك. وتعرفت إلى يوسف ايبش، وهو بدوره عرفني إلى أساتذة الجامعات في لبنان، وصرنا نذهب إلى ميشال أبو جودة في مكتبه المشهور في جريدة "النهار". وعلى مدى سنتين، انصرفت إلى القراءة، وقمت بمراجعة فكرية شاملة، واكتشفت أن العلم الذي تعلمته في دمشق والليسانس في الحقوق التي نلتها من الجامعة السورية والمطالعات التي نهلت منها في تاريخ العرب والإسلام، والأفكار التي اطلعت عليها من غاندي إلى ماركس ليست كما كنت أعتقد. فليس المهم ما تقرأ بل المهم كيف تقرأ. أنا لم أمارس شهوة المعرفة من أجل المعرفة إلاّ في بيروت،

بعدما اكتشفت أنني شبه أمّي. كنا ننظر إلى التوراة على أنها كتاب ديني وهو كتاب سياسي بامتياز. بعد ذلك شرعت في قراءة القرآن والسيرة النبوية ومكيافيلي. وكنت أعتقد أن كتاب "الأمير" كتاب لا أخلاقي، فإذا به أساس علم السياسة. ولم أكن أعلم أن السياسة علم. كنت أعتقد أن السياسة ممارسة من أجل المبادئ، أو من أجل الوصول إلى المناصب. فالذين يعملون في السياسة من أجل المبادئ هم عقائديون، والذين يعملون فيها من أجل المناصب انتهازيون. وخلاصة الأمر أنني توصلت إلى قناعة راسخة وهي أن المهم والملحّ والجوهري هو التقدم. فالمعركة في بلادنا العربية هي معركة التقدم والتخلف قبل أن تكون معركة الوطني والأجنبي، وقبل أن تكون معركة اليهود والعرب، وقبل أن تكون معركة الاستقلال والاستعمار. المعارك الأخرى دونكشوتية إذا لم تستند إلى النهضة.

- **هل كان الأمن الشخصي لكم في بيروت مضموناً؟**

- عندما هربت إلى لبنان أول مرة كنت أنام ومسدّسي إلى جانب وسادتي جاهزاً للإطلاق. كنت أمشي والمسدس مخبأ عند خاصرتي، فقد كنت خائفاً من اختطافي حياً. عشت باسم مستعار وبهوية مزورة مكتوب فيها أن مكان ولادتي هو النبك لا دمشق. وعلى هذا الغرار بقيت نحو السنة بعد هروبي الثاني على الرغم من إرتخاء الأجواء.

- **في هذه الحال عشتَ بلا إقامة شرعية بالطبع.**

- طلب مني المكتب الثاني اللبناني التعاون معه إذا كنت أرغب في الحصول على إقامة شرعية، وبالطبع رفضت وبقيت من دون إقامة.

- **كان سامي الخطيب حينذاك مسؤولاً عن المخابرات في بيروت أليس كذلك؟**

- نعم. ولي مع المكتب الثاني قصة طريفة. فلدى فراري إلى لبنان بعد أيلول ١٩٦٦ كانت الدولة اللبنانية على علاقة غير ودية مع الدولة السورية الجديدة. لكن، عندما استقرت دولة ٢٣ شباط وقويت شوكة مخابرات عبد الكريم الجندي صارت الدولة اللبنانية تساير السوريين ولا سيما بعد مصالحة سورية ونظام عبد الناصر، فكان الخطر يزداد علينا ويزداد معه الحذر، إلى أن وقعت حرب ١٩٦٧ فتغيّرت الأجواء تماماً. فلا السوريون تابعوا ملاحقتنا ولا المخابرات المصرية عادت لرصدنا، ولا المخابرات الأردنية استمرت في التعاطي مع مشكلتنا، ولا المخابرات اللبنانية تابعت مراقبتنا، وهي التي لا أعرف لحساب من كانت تعمل حينذاك غير الدولة اللبنانية، ولعلها كانت تعمل لحساب المخابرات المصرية. ما عاد أحد يهتم بنا حتى وقع انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ في العراق.

- **حتى ذلك الوقت كنت لا تزال تتجول بهوية مستعارة؟**

- عرض المكتب الثاني عليّ إقامة شرعية ورخصة سلاح إذا تعاونت معه، فرفضت وقلت لأحد الضباط: لدي سلاح ولن أتخلى عنه.

فحذروني أنه إذا ألقي القبض عليّ سأعاقب بتهمة حيازة سلاح غير مرخص. وإلاّ فاذهب إلى الأمن العام لتسوية وضعك كلاجىء سياسي. فذهبت، بالفعل، إلى الأمن العام واستخرجت بطاقة حمراء كأي سوري، وكانوا يعرفون أن اسمي في البطاقة ليس هو اسمي الصحيح. حتى أنني استأجرت منزلاً بموجب هذه البطاقة، فلو جاء أحد وسأل ناطور المبنى عن نبيل الشويري فسيقول له: ليس لدينا هذا الاسم، وسيكون صادقاً بالفعل لأنه لا يعرف أن نبيل الشويري هو أنا بالذات.

- **ماذا حدث بعد انقلاب ١٧ تموز في العراق؟**

- في تلك الفترة كنت في بيروت أنا وخالد الحكيم ثم لحق بنا نسيم سفرجلاني. وكان ميشال عفلق عاد إلى بيروت. وفي هذه الأثناء زاره منصور الأطرش ثم جاء يطلب من صلاح البيطار ومنا أن نتصالح مع ميشال عفلق. فكان جواب صلاح البيطار أن لا شيء شخصياً بينهما. أما أنا فرفضت المصالحة السياسية والشخصية معاً، وقلت له: "أنا لي صلة بالأستاذ صلاح البيطار وبك أنت يا منصور الأطرش. وسوف أُبقي على صلتي بكما وأرى ما يعجبني فأسير فيه وما لا يعجبني لا أسير فيه. أما مع ميشال عفلق فلا صلة سياسة ولا صلة شخصية ولا أريد أن أراه". إذن، كان عفلق عاد إلى بيروت وذهب منصور الأطرش ونسيم سفرجلاني للسلام عليه. وكان جلال السيد ذهب قبلهما وقال له: يا أستاذ أقرب الناس إليك ابتعد عنك. هل كان هناك من هو أقرب إليك من نبيل الشويري وخالد الحكيم؟ لماذا حصل هذا، وأين أصبح هؤلاء؟ وبدأ جلال السيد

يحرّضه على العودة إلى السياسة. لكن عفلق أصر على ترك العمل السياسي ظاهرياً والانصراف إلى تربية أولاده. فما كان من جلال السيد إلاّ أن قال له: أنت الذي كنت رائد الجيل العربي الجديد تصبح رائداً لأربعة أولاد فقط؟ وذهب إليه منصور الأطرش ونسيم سفرجلاني للغاية ذاتها وعادا بالنتيجة نفسها. وهكذا انتهت القصة، ورجع منصور الأطرش إلى دمشق. لكن قبل ذلك كانت المفاجأة في انقلاب ١٧ تموز في العراق.

- **الانقلاب الذي قاده عبد الرزاق النايف لمدة اثني عشر يوماً.**

- صحيح. المهم جاء عبد الكريم الشيخلي إلى بيروت وكان عُيِّن للتو وزيراً للخارجية. لم أتحمس لهذا الانقلاب قط مع كرهي لعبد الرحمن عارف ولشقيقه عبد السلام عارف. كنت أعرف من علي صالح السعدي الكثير عن أهل تكريت، وأعرف انه لم يبقَ من الحزب في العراق إلاّ التنظيم العسكري. لكنني لم أكن أعلم شيئاً عن منظمة "حنين" التي أنشأها صدام حسين، وسيطر بها على الحزب كمدني، ولكنه كان أشرس من العسكريين، والعسكر أكثر مدنية منه. في ذلك الوقت كتب ميشال أبو جودة مقالة رائعة في جريدة "النهار" عن انقلاب العراق وعن العسكر والانقلابات العسكرية فأرسلت إليه باقة من الورد من دون أن أذكر أسمي عليها. وعندما اكتشف أن الورد مني، قال لي: هل أنا "آرتيست" أحسنت الأداء في الكاباريه لترسل إليّ ورداً؟ فقلت له: لذلك لم أضع بطاقة على باقة الورد. مختصر الكلام أن عبد الكريم الشيخلي جاء إلى بيروت والتقى فوراً جبران مجدلاني، وكان محامياً بارزاً وعضواً في القيادة القومية

للحزب، وقال له: "أبلغ رفاقك وبالتحديد صلاح البيطار ومنصور الأطرش وخالد الحكيم ونبيل الشويري ونسيم سفرجلاني أن العراق يدعوهم إلى بغداد، وستصرف لهم على الفور بطاقات السفر وجوازات السفر، وكل من يأتي إلى بغداد سينال راتباً وبيتاً وسيارة. المهم أن يرجعوا إلى الحزب وأهلاً وسهلاً بهم. ومن لا يرغب في العودة إلى الحزب سنتحدث لاحقاً في أمره. كفاهم ما لاقوا من الاضطهاد". وجاء جبران مجدلاني إلينا وهو يعتقد أنه أتى لنا برأس الزير سالم. فقلنا له: يدنا بزنّارك فقط في مسألة جواز السفر. وإذا كانوا يعتبروننا لاجئين سياسيين ليرسلوا لنا راتب اللاجئ السياسي من وزارة الداخلية العراقية كما كنا نعامل اللاجئين العراقيين في دمشق تبعاً لأصول التعامل الدولي في هذه المسألة، لأن لبنان لا ينفق علينا البتة، والمكتب الثاني يريد منا أن نتعاون معه ليصرف لنا معاشات دورية، وأحوالنا "زفت"، حتى أنني بدأت أبيع بعض المصوغات "الأنتيكا" التي كان والدي يرسلها إليّ من دمشق في محاولة لكسب بعض النقود.

- **ألم يساعدكم أحد في لبنان أمثال جبران مجدلاني مثلاً؟**

- لا. لم نقبل المساعدة من أحد. أما جبران مجدلاني فكان خارجاً للتو من السجن ويريد إعادة تنشيط مكتبه. ثم أن جبران مجدلاني لم يحترف السياسة أو النضال الحزبي مطلقاً. جبران يريد أن يكسب مالاً. والمحاماة مهنة تدر عليه الأموال. أما الدعوة الحزبية فلا تفيده في هذا المضمار. والحزب في لبنان كان مع ميشال عفلق، أما البعثيون الذين تركوا عفلق فلم يشكلوا تنظيماً جديداً ولا يمتلكون أموالاً لهذه الغاية. في أي حال أعاد

جبران مجدلاني بطاقات السفر لعبد الكريم الشيخلي، لكنهم أرسلوا لنا جوازات السفر ووضعونا على قائمة اللجوء وصاروا يرسلون إلينا في كل شهر معاش اللجوء السياسي، وكان يعادل ٩٥٠ ليرة لبنانية. وهذا مبلغ جيد، فإيجار شقتي لم يتجاوز ٤٠٠ ليرة شهرياً، وهي شقة تقع في آخر شارع الحمراء، وبالتحديد في إحدى مباني نزلة أبو طالب. وكان أصحاب المبنى من الشوام الذين ظلوا يتقاضون مني المبلغ نفسه مع أن إيجارها ارتفع إلى ١٥٠٠ ليرة. إذن، رفضت الذهاب إلى العراق ورفضت العودة إلى الحزب. ولأسباب عملية كنت احتاج في كل سنة إلى الذهاب إلى بغداد لتجديد جواز السفر. فصرت أذهب في كل سنة مرة وأبقى أسبوعين فقط، ولا أزور المكتب السوري قط. كنت أزور اثنين فقط من رجال الحُكم: طارق عزيز بسبب صلة شخصية به، فنحن زوّجناه في دمشق.

- **هل زوجته سورية؟**

– زوجته هي ابنة خاله*. ولكنه كان لاجئاً في سورية. وكان أخي إميل رئيس تحرير جريدة "البعث" في دمشق وكان طارق عزيز يعمل معاوناً له. وعندما قرر الزواج أتت أمه من العراق ومعها ابنة أخيها، وأعجب بها طارق عزيز وقرر الزواج. وكان لا يعرف أين تقع كنيسة طائفته من أجل الإكليل. فجاء إلى أخي إميل وقال له: أريد الزواج ولا

* ولد طارق عزيز سنة ١٩٣٦ في قرية "بعشيقة". زوجته تدعى "فيوليت" ولهما: زياد، صدام، زينب، مايسة، سجى. وقد سلّم نفسه إلى القوات الأميركية في ٢٠٠٣/٤/٢٤ عقب سقوط بغداد.

أعرف أحداً ليساعدني. فقال له إميل: بسيطة. ابحث عن شيخ يعقد قرانك. فأجابه طارق عزيز: طز، ألا تعلم أنني مسيحي؟ وهكذا اكتشفنا أن طارق عزيز مسيحي. فسأله أخي: ما هي طائفتك؟ فقال له: كلدان كاثوليك.

- **يقال أنه أثوري.**

- لا، إنه كلداني. الكلدان عرب هذه البلاد بينما الأثوريون قومية لا طائفة*. المهم، أننا ساعدناه على الزواج، ومنذ ذلك اليوم انعقدت معه أواصر شخصية. فكنت عند وصولي إلى بغداد يرحب بي كثيراً، وكان يشغل، في تلك الفترة، منصب نائب رئيس تحرير جريدة "الثورة" ثم صار

---

* الشائع ان الكلدان يتحدرون من القبائل العربية التي هاجرت إلى جنوب العراق في الألف الرابع قبل الميلاد. لكن هذه القبائل انصهرت، تدريجاً، بالسومريين والأكاديين، واندمجت بالثقافة البابلية القديمة قبل ان تتمكن، لاحقاً، من السيطرة على مدينة بابل نفسها. واشتهر من ملوك الكلدان نبوخذ نصر الذي سحق القبائل العبرانية في فلسطين وسباهم إلى بابل سنة ٥٨٦ ق.م.
أسهم الكلدان، إسهاماً كبيراً، في علمي الفلك والحسابات، فكانوا أول مَن جزّأ الواحد إلى ٦٠ جزءاً، وأول مَن قسّم اليوم إلى ساعات والساعات إلى دقائق والدقائق إلى ثوانٍ، وقسموا الأسبوع إلى سبعة أيام، وتوصلوا إلى أن السنة تتألف من ٣٦٥ يوماً وربع اليوم. وساهم الكلدان أيضاً في نشر المسيحية في ايران والهند والشرق الأقصى، وبلغ عددهم في العصور الذهبية نحو ٨٠ مليوناً، لكنهم باتوا اليوم نحو ٣ ملايين فقط، يعيش نحو ٧٠% منهم في الهند. ومن أبرز أعلام الكلدان المعاصرين جبران خليل جبران وميشال شيحا.

رئيساً للتحرير وأصبح لاحقاً وزيراً وعضواً في القيادة؛ فهو بدأ السلم من أوله، وكان أحمد حسن البكر لا يحبه.

- **ما أسباب ذلك!**

- احمد حسن البكر لم يكن يحب الشيعي والمسيحي. صدام حسين هو الذي أحبه وساعده.

- **كيف أحب أحمد حسن البكر ميشال عفلق إذن؟**

- فرض عليه فرضاً.

- **شبلي العيسمي أيضاً أحد كبار الحزبين في العراق لم يكن مسلماً سنياً بل كان درزياً؟**

- هذان فُرضا على أحمد حسن البكر. طارق عزيز عراقي أولاً، وشرعيته في الحزب قوية. أما صدام حسين فهو الذي أصر على وضع ميشال عفلق في الواجهة إلى أن مات، وروّج أنه أشهر إسلامه حتى لا يقال عن صدام حسين أنه كان يسير خلف مسيحي.

- **من هو الشخص الآخر الذي كنت تلتقيه في بغداد؟**

- شبلي العيسمي، وهو رفيق النضال القديم. وكان يستقبلني ويدعوني إلى منزله، ويرسل إلى الفندق يخبره أنني ضيف على القيادة القومية. وكنت أنزل في فندق أشور بانيبال وأصحابه من الأشوريين الذين كانوا يهتمون بي كثيراً لأنني مسيحي أولاً، ولأنني ضيف على الحزب ثانياً. وهو فندق من فنادق الدرجة الثانية.

- **ومَن كنت تلتقي غير طارق عزيز وشبلي العيسمي؟**

- أصحابي في العراق كانوا في المعارضة أمثال علي صالح السعدي وفاتك الصافي*.

- **أكان علي صالح السعدي في تلك الفترة موجوداً في العراق؟**

- بالتأكيد. وكان فور معرفته بأنني في بغداد يأتي ليسلّم علي، ثم يدعوني إلى بيته، ونحن أكرمناه كثيراً عندما أقام في دمشق. علي السعدي، كنيته أبو فارس، وهو بالفعل، فارس، وأخلاقه أخلاق فوارس، وسلوكه سلوك فرسان. قصارى الكلام أنني كنت أذهب إلى العراق لمدة ١٥ يوماً

---

* اشتهر عنه انه انقذ صدام حسين وهرّبه إلى سورية بعد محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم. وهو من الجيل المؤسس للحزب في العراق. أبوه محمد رضا من الوجوه البارزة في ثورة العشرين في النجف وعمه الشاعر المشهور احمد الصافي النجفي، واخوه علي كان وزيرا في العهد الملكي.

في كل سنة. وهناك كنت أحاول أن أسبر أعماق الأوضاع الحزبية والحكومية والشعبية، وأوضاع المعارضة، ثم أعود لأخبر صلاح البيطار أن لا فائدة يا أستاذ. طارق عزيز لا يغشني، فهو قال لي بصراحة: إذا كنتم تريدون العمل في السياسة عليكم العودة إلى الحزب، أي أن تعملوا من الداخل. وإذا كنتم تريدون العمل في التجارة عليكم التعاون مع المخابرات. لذلك لم أعمل لا في السياسة ولا في التجارة، لأنني لا أريد العودة إلى الحزب ولا أريد التعاون مع المخابرات.

- **ماذا كنت تفعل في هذه الأثناء؟**

– بقيت في بيروت إلى أن فاز سليمان فرنجية برئاسة الجمهورية في سنة ١٩٧٠، ووقعت أحداث أيلول الأسود في الأردن.

- **في هذه الأثناء ألم تلتقِ البعثيين الفلسطينيين أمثال عبد المحسن أبو ميزر وكمال ناصر وفاروق القدومي؟ ألم تكن لك صلة بمنظمات المقاومة الفلسطينية كحركة فتح مثلاً؟**

– كنت ألتقي كمال ناصر دائماً. لكن لم تكن لي أي صلة بالمنظمات الفدائية، وأنا لم أكن مهتماً بالعمل الفدائي، والنضال الفلسطيني له أربابه.

• **علماً ان أحمد سويداني وحافظ الأسد كانت لهما صلات قوية بحركة فتح منذ سنة ١٩٦٦***.

– عرفت ذلك في ما بعد. أما عن المنظمات الفدائية فبدأت أتعرف إليها من بعيد.

• **ألم تقترب حتى من المنظمات الفدائية البعثية مثل "الصاعقة" أو "جبهة التحرير العربية"؟**

– على الاطلاق، وخصوصاً المنظمات البعثية. وفي أي حال لو كنت مخيراً بين ياسر عرفات من جهة وزهير محسن أو عبد الوهاب الكيالي من جهة أخرى، ولا سبيل لي إلى خيار ثالث، فأنا أختار الأول ١٥ مرة ولا أختار مرة واحدة الأخيرين.

• **لكن عبد الوهاب الكيالي كان يمتلك عقلاً جيداً، وهو مؤرخ فلسطيني لامع.**

– هذا رأيك. لكني أتكلم على الخيارات السياسية.

---

* أعفي أحمد سويداني من مهماته كرئيس لأركان الجيش في ١٩٦٨/٢/١٤ فغادر سورية. وأُلقي القبض عليه في تموز ١٩٦٩ حينما توقفت الطائرة التي كانت تقله في مطار دمشق، وبقي في السجن حتى شباط ١٩٩٤.

- **أكنتَ تعرفه جيداً؟**

– لا. بل معرفة بسيطة. التقيته في مطعم فيصل أكثر من مرة. وفي إحدى المرات نقل عني كلاماً خاطئاً.

- **أنا أنظر إلى عبد الوهاب الكيالي على أنه مؤرخ فلسطيني لامع أسس داراً مهمة للنشر وأصدر موسوعات فائقة الأهمية، واستشهد بصورة مروعة في ١٩٨١/١٢/٧. أما كونه أميناً عاماً لجبهة التحرير العربية وعضواً في القيادة القومية لحزب البعث، فهذا شأن آخر.**

– ما تقوله صحيح. لكنني أتكلم من موقع حزبي وانطلاقاً من رؤيتي الحزبية. ثم دعني أسألك: ما كانت مهمة منظمة "الصاعقة" أو جبهة التحرير العربية؟

- **أداة سياسية لسورية وللعراق للتأثير في الحركة الوطنية الفلسطينية المسلحة، أو لرصد اتجاهات هذه الحركة.**

– أين هاتان المنظمتان الآن؟

- **جبهة التحرير العربية اندثرت تقريباً، والصاعقة فقدت فاعليتها.**

– أين حركة فتح؟

- **تقود النضال الفلسطيني.**

- ليست موجودة فقط بل هي الحاكمة الآن في الأرض الفلسطينية. وهذا هو الفارق بين الطرازين.

- **ماذا فعلت بك بيروت في مرحلة المنفى؟**

- اكتشفت أن في بيروت سبع عشرة جامعة وأكاديمية. ودهشت للحركة المسرحية الصاعدة وللحركة التشكيلية المتعددة الاتجاهات، فضلاً عن الموسيقى والشعر والمجلات. وفي بيروت تأكدت أنني أمّي فعلاً. لكن هذه الحركة الإبداعية والنقدية كانت موجودة في دمشق في الثلاثينات وفي أوائل الأربعينات، ولمع في هذه الفترة أعلام كبار أمثال جميل صليبا الذي كان في حركة أنصار السلم مع كامل عياد واتهمناه بالتعامل مع الفرنسيين، وبشير العظمة ومنير العجلاني المتهم بالتعاون مع الإنكليز*.

- **وهناك القانوني الكبير أسعد محاسن.**

---

* ولد منير العجلاني في دمشق سنة ١٩١١، وحاز الدكتوراه في الحقوق من جامعة السوربون. انتخب نائباً في سنة ١٩٣٦، فكان أصغر نائب في البرلمان، ثم عين وزيراً في سنة ١٩٤١، فكان أصغر وزير أيضاً. كان من مؤيدي مشروع سورية الكبرى، واضطر إلى اللجوء إلى السعودية في سنة ١٩٦٢، وبقي فيها حتى وفاته في ٢٠/٦/٢٠٠٤.

- نعم. لكن "البعث" محا سيرتهم كلها، بعدما سيطر اتجاه ساطع الحصري علينا وأقنعنا أن الكلام بالفرنسية أو حتى قراءة كتاب بالفرنسية خيانة*. هذه الحركات الثقافية كانت أضعف من الإخوان المسلمين ومن الأحزاب التقليدية معاً. وهؤلاء ما كانوا معنيين بالنهضة والتطور والتقدم بل بالاستقلال فقط، ويفهمون الاستقلال على أنه خروج فرنسا من سورية ليحكموها هم بأنفسهم. اثنان فقط كانت لديهما نظرات عصرية، الأول لديه مشروع تقدمي..

- **تقصد عبد الرحمن الشهبندر.**

- بالضبط. ولذلك قتلوه بتهمة التقدمية ودعوته إلى السفور وحرية المرأة والمساواة. والثاني جميل مردم وإن كان طلب الحكم إلاّ أنه لم يكن يمتلك العقل الرجعي لشكري القوتلي. هذا الرعيل الأول لم تكن النهضة تعنيه، بل جل ما يعنيه هو الاستقلال فقط. وعندما نالت سورية الاستقلال تبين أن أصحاب هذا الاتجاه يريدون الحكم ولا شيء غير الحكم. أما حزب البعث الذي كان من الممكن أن يصبح على يدي ميشال عفلق لوناً من ألوان هذه النهضة فقد خيب أمل شباب تلك المرحلة الذين وقعوا بين خيارين: إما أن يكونوا إخواناً مسلمين أو أن يصبحوا شيوعيين. هؤلاء الشباب اعتقدوا أن فكرة الإخوان المسلمين متخلفة عن العصر، وهم في الوقت نفسه

---

* يروي بشير العظمة في كتابه "جيل الهزيمة" انه شاهد في سنة ١٩٤٦، أمام دار البلدية في دمشق، جماهير المتعلمين يرقصون الدبكة حول نار وقودها كتب أجنبية تعبيراً عن رفض كل ما يتصل بالغرب.

مسلمون يريدون إسلاماً عصرياً. ولهذا ساروا في ركاب ميشال عفلق وحزب البعث. أحد الرفاق قال لي إنه لولا البعث لكنا أصبحنا إخواناً مسلمين. ومع الأسف عاد هؤلاء ليصبحوا إخواناً مسلمين بعدما انتهى حزب البعث.

- **لكن هؤلاء قلائل، وأبناء مدن. فمعظم أعضاء حزب البعث هم من الفلاحين العلويين والدروز والمسيحيين.**

- كنت أقصد من كلامي أن الحركة الثقافية التي بدأت في دمشق لو لم يقمعها البعث فكرياً لكانت سورية سلكت مسلكاً مختلفاً. وحتى لا نظلم البعث كثيراً فالحقيقة أن النكبة الفلسطينية في سنة ١٩٤٨ ثم الانقلابات العسكرية المتتابعة قطعت هذه النهضة.

- **لكن نكبة ١٩٤٨ كانت عاملاً أساسياً من عوامل الازدهار اللبناني فكيف تفسر هذه المفارقة؟**

- الدولة اللبنانية لم تستعمل القضية الفلسطينية في السياسة، والجيش اللبناني لم يحكم الدولة.

- **المكتب الثاني حكم لبنان من سنة ١٩٥٨ إلى سنة ١٩٧٠.**

- لكن لم يظهر في لبنان خطاب "إخواني" أو خطاب عفلقي بما هو الوجه الآخر للإخوان المسلمين، ولم تكن فيه حكومات تقمع الفكر، بل

كانت هناك جامعات لها صلة وثيقة بالعالم الغربي كالجامعة اليسوعية وعلاقتها المعروفة بجامعة ليون التي هي أحد مراكز الإشعاع في فرنسا بعد باريس، وكذلك الجامعة الأميركية وصلتها المشهورة بجامعة نيويورك.

- **ألا تعتقد أن المدينة السورية، ودمشق بالتحديد، تختلف اختلافاً ظاهراً عن بيروت؟ فهي مدينة محافظة ومدينة للتجارة والسياسة فقط، أي مدينة الملاّكين ورجال الدين والتجّار. أما بيروت فهي مدينة التجارة والثقافة، وتكوينها البشري، كمدينة ساحلية، يختلف أيضاً.**

– أنا أوافق على هذا التحليل. لكن دعني أعود إلى بيروت التي بدأنا نشعر فيها بمخاطر جمة، ولا سيما منذ تظاهرات ٢٣ نيسان ١٩٦٩ واستقالة حكومة رشيد كرامي.

- **تظاهرات ٢٣ نيسان ١٩٦٩ دفاعاً عن العمل الفدائي واستنكاراً للاشتباكات التي فجرها الجيش اللبناني آنذاك ضد قواعد الفدائيين في جنوب لبنان.**

– كنت على صلة بالأخ كمال ناصر وعبد المحسن أبو ميزر. لكنني لم أكن قريباً من الحركة الوطنية الفلسطينية لا من قريب ولا من بعيد، بل كنت أراقب الحال الفلسطينية عن بعد. فرحت جداً بمعركة الكرامة التي جعلت قامة ياسر عرفات تصبح بحجم قامة جمال عبد الناصر الذي دعاه إلى مرافقته إلى موسكو. لكن ياسر عرفات غرق في شبر ماء، وسكر من زبيبة واحدة. لذلك أنا يائس حتى من الانتفاضة لأنني أرى فيها مجرد

مشاريع انتحارية ولا أجد مشروعاً للعقلانية والنهضة والتقدم. من هنا عندما نشأت المنظمات الفدائية ظهرت أنها أقرب إلى "العراضة" منها إلى مشروع للتحرر الوطني. وقد حكمت هذه المنظمات لبنان من صبرا وشاتيلا، فما كانت النتيجة؟ حاصروا تل الزعتر، وكان من الواضح أن تل الزعتر سيسقط، فلماذا كان الإصرار على القتال الخاسر؟ ألكي تسقط هذه الضحايا كلها ويزداد الكره اللبناني – الفلسطيني والمسيحي – المسلم؟ وهذا الكلام لا يوجه إلى ياسر عرفات فقط بل إلى كمال جنبلاط أيضاً. لأنه لو كان لعرفات مبرر فليس لكمال جنبلاط أي مبرر؛ فهو كان يريد إعادة الإمارة الدرزية إلى لبنان في عملية أكبر منه بمئة مرة، ولا يستطيع القيام بها وتحتاج إلى خطة دولية في هذا الشأن.

- **هل تعتقد جاداً أن كمال جنبلاط كان يرغب في إعادة الإمارة؟**

– طبعاً.

- **إمارة على نصف الشوف وهو كان يحكم نصف لبنان؟**

– لا، كان يرغب في إعادة الحكم إلى الدروز في لبنان، وهو الذي قال لمشايخ البياضة الذين أتوا إليه طالبين ألاّ يزج الدروز في المعارك: "أنتم في الدين نقبّل أياديكم، لكن في قضايا السياسة اتركوها لي فهي شغلتي. أنا ألعب لعبة إذا ربحت فيها تربحون جميعاً وتربح الطائفة، وإذا خسرت أخسر وحدي".

- **هذا الكلام غير مؤكد، بل مجـرد خرافة. وحتى لو كان صحيحاً فهو لا يعني أنه كان يريد إعادة الحكم إلى الدروز. كمال جنبلاط كان يريـد تغيير النظام وإقصاء الموارنة عن امتيازاتهم. وهـذا هـو البرنـامج السياسي للحركة الوطنية. أما خرافة إعادة حكم الـدروز إلـى لبنـان فليست مستحيلة فحسب، بل إنها دعاية كتائبية وربما سـورية فـي إحدى مراحل الحرب اللبنانية.**

– عندما جاء كمال جنبلاط إلى دمشق لمقابلة حافظ الأسد قال: "جئـت آخذ السيف العباسي الذي امتلكه أجدادي".

- **هذا كلام شعري وبلا سند ولا يعول على مفرداته. ما يعول عليه هو ما قاله فعلاً للرئيس الأسـد في اللقاء المشهور بينهما فهو قـال لـه: "أعطني فرصة إسقاط بلدة بكفيا، ولا تتدخلوا في سير المعارك، فهـذه فرصـة تاريخية لجعل لبنان وطناً ديمقراطياً لجميـع أبنائـه وإلغـاء الامتيازات غير العادلة".**

– كمال جنبلاط قال لحافظ الأسـد أفضل من هذا، وأنا هنا أدافع عـن كمال جنبلاط. قال: ليس من الضرورة أن نصل إلى جونية، لكن دعنا نصل إلى بكفيا ونضربهم كفاً، لأن هؤلاء لم يعد بالمقدور التعامل معهم إلاّ بالكف. ويقصد بـ "هؤلاء" جماعة "الجبهة اللبنانية" أي الكتائـب وأنصـار كميـل شمعون واليمين المسيحي.

- **صحيح.**

- هذا كلام حق يُراد به باطل. لماذا؟ إن جماعة اليمين المسيحي ما كان في الإمكان التعامل معها إلاّ بعد ضربة كف. هذا حق، أما الباطل فهو أن طريق القهر لا يقود إلى أي نتيجة. وهذا ما قاله حافظ الأسد لكمال جنبلاط. كان حافظ الأسد يتمنى أن يتفاهم مع اليمين المسيحي. وليد جنبلاط حاول أن يتفاهم مع سورية ومع الجميع وعاد إلى التفاهم مع المسيحيين. لكن المسيحيين يريدون من جنبلاط إما أن يمشي معهم كما يريدون أو يشتمونه. ربما ما زالوا يستحقون ضربة كف ليفيقوا.غير أن وليد جنبلاط لا يضربهم الكف وسورية لا تضربهم الكف، والطوائف الأخرى كلها لا تضربهم الكف، لأنهم يريدون إقامة تعايش مشترك.

- **وليد جنبلاط هو الذي ضربهم الكف في حرب الجبل وفي بيروت، ثم ضربهم كفاً آخر في اتفاق الطائف، فتغير الدستور اللبناني.**

- اتفاق الطائف وافق عليه النواب المسيحيون ووافقت عليه بكركي. الكف المقصودة شيء آخر. أي أن تضرب الخصم كفاً فتنزع منه سلاحه وتقول له إما أن تفعل كذا أو أن تعود ذمّياً.

- **هذا ليس مطروحاً بتاتاً ولم يكن مطروحاً في أي يوم في لبنان، أي إعادة المسيحيين أهل ذمة. هذا مجرد وهم أو خرافة مثل قصة الامارة الدرزية.**

- كمال جنبلاط كان يقول عن الموارنة "يا عمي هؤلاء فلاحين لا يستحقون السياسة. السياسة والإمارة لنا". ولكن دعني أروي لك القصة

التالية: بعد استشهاد كمال جنبلاط – وكنت قد عدت إلى دمشق – زار وفد من قيادة الحزب الحاكم في سورية سلطان الأطرش، وسمعنا في دمشق أن أحد أعضاء الوفد تهجم على كمال جنبلاط وعلى أصله الكردي. وهذا أمر لا يقبله سلطان في مضافته، فأسمع المتكلم كلاماً قاسياً ومهيناً. وقيل يومها أن مصطفى طلاس تلافى الأمر ببراعته ولمعرفته بأصول وتقاليد الكلام في مضافة سلطان. وفي أول زيارة قمت بها إلى سلطان الأطرش، سألت سلطان باشا عن رأيه في مأساة اغتيال كمال جنبلاط، فأجابني ووجهه وإشارة يده ينطقان بالأسف والحزن والأسى: "الله يرحمه، لعب لعبة أكبر منه، وخبص برات الصحن". وأنا هنا أروي كلماته بالحرف. وبالطبع فإن هذا الرأي لا يناقض التقدير الكبير الذي يكنه لكمال جنبلاط والذي يدفعه لزجر أي كان من التهجم عليه في مجلسه.

- **هذا عن الموارنة. فماذا عن المسيحيين الارثوذكس والكاثوليك؟ فهؤلاء ليسوا فلاحين بل تجار وملاّكين وسكان مدن. ثم أن الموارنة ما عادوا فلاحين منذ زمن طويل بعدما هبطوا من الجبل إلى بيروت وأصابوا الكثير من الثروات وغنموا معظم الوكالات التجارية في لبنان. دعنا نعود إلى تجربتك في بيروت.**

– دعنا نعود إلى تل الزعتر.

- **كما تريد.**

– لنحاول تفهم وجهة نظر الآخر – أي المسيحي ابن المتن الشمالي – والحقائق المقتنع بها هو والتي بنى عليها موقفه: تل الزعتر

حتى العام ١٩٤٨، هو تلـة من الأرض المهملة ينبت فيها الزعتر البـري، تقع في خراج بلـدة المنصورية على الطريق التي تربط بيـروت بقـرى قضاء المتن وبلداته التي تبدأ من الدكـوانة وتنتهي في بتغرين، ثـم تهـبط المقلب الآخر من جبل صنين إلى زحلة. وأهم البلدات التي يمر بها الطريق هي: بيت مري، برمانا، بعبدات، بكفيا، ضـهور الشـوير...إلـخ. الأرض المهملة التي اسمها تل الزعتر ملك لوقف الطائفة المارونية. أُجّرت بقروش معدودة في العام ١٩٤٨ ليقام عليها مخيم للاجئين الذين تدفقوا على لبنـان، بعد نكبة فلسطين على أمل العودة. وخلال ربع قرن لـم يقـع أي احتكـاك مزعج حتى في أثناء حـوادث سنة ١٩٥٨. ويبدو أن قسـماً مـن أولئـك اللاجئين ولا سيما في مخيم ضبيّة، كانوا من الفلسطينيين المسيحيين. وعندما صارت بيروت مركز الثورة الفلسطينية، ودخل السلاح إلى المخيمات سـراً بدأت الاحتكاكات التي تطورت إلى حوادث، ثم إلى معارك، وصار مسـلحو تل الزعتر يقطعون الطريق ويطلبون إبراز الهويات من الناس العاديين.هـل كان ذلك مزايدات يسـارية من الجبهتين الشعبية والديمقراطية والرئيس في كل منهما مسيحي؟! هـذا ما سمعته يومذاك. وهذا ما عبأ بالحقـد الأسـود سكان تلك المناطق. فكيف تمتص الكره والحقد؟ أبالجدل المنطقـي وشـرح الحقائق بعد أن تخندقت الناس خلف المتاريس؟ أم بسحب المسلحين ووقـف المزايدات والتجاوزات؟ ثم إذا سألتك: عندما يكـون المخيم سـاقطاً أيهمـا أفضل الانسحاب أم سقوط الضحايا؟

- **الأفضل هو التوصل إلى مخرج.**

– حسناً، خمسة وخمسون يوماً والكتائب تطالب بخروج المسلحين فلـم يخرجوا. لماذا؟

• **ليس صحيحاً تماماً هذا الكلام. كـان مسـلحو الكتائـب يطـالبون المقاتلين الفلسطينيين في المخيم بتسليم أنفسهم ثم يخرج المدنيون بعد ذلك.**

– كيف تفهم عبارة "يسلّموا أنفسهم"؟

• **أي أن يستسلموا لمقاتلي الكتائب.**

– لو كنت في مكان كمال جنبلاط والقيـادة الفلسطينية لوافقـت علـى جلاء الفلسطينيين عن تل الزعتر وإسكانهم في مكان آخر. وأعتقد أن أحـداً من الكتائب أو الوطنيين الأحرار ما كان ليعترض المسلحين الفلسطينيين.

• **لا أحد يقول منذ اليوم الأول للحصار أنه سيستسلم. هذه مسألة لـم تحصل في جميع تواريخ الحصارات في العالم. وتل الزعتر كان جـزءاً من منطقة يسكنها شيعة وسنة ومسيحيون فلسـطينيون مثـل النبعـة وبرج حمود وجسر الباشا والدكوانة. منطقة بكاملها لا يمكن أن تقـول في اليـوم الأول أنها ستستسلم. سيكون ذلك فضـيحة. الصـحيح أن تقاتل إلى أن تصبح غير قادر على القتـال فتعـرض علـى خصـمك التسوية. وفي تلك الفترة كان يجري إعداد خطة عسـكرية لاختـراق المنطقة الشرقية من جهتين: من الشياح عبر عين الرمانة باتجاه رأس الدكوانة، والنزول من الجبل عبر منطقة المـونتيفردي. هكـذا كانـت الخطة العسكرية. وكان هناك استعداد للوصول إلى تل الزعتـر عبـر البحر من جهة الكرنتينا. وقد ذهب ضحية هذا التصـور شخص مثقف**

اسمه حنا ميخائيل (أبو عمر) الذي اختفى في البحر. أما الاختراق من الشياح فقد فشل لأن المكلف بتنفيذه جاءته الأوامر بالتراجع عن هذه الخطة. أما الاختراق من الجبل فقد أبيد جزء من القافلة الأولى فور نزولها من الجبل. عند ذلك صار واضحاً أن العوامل الإقليمية ستجعل تل الزعتر يسقط عاجلاً أم آجلاً.

- مأخذي على الثورة الفلسطينية هو أنها اتبعت استراتيجية على "قد" لبنان، وانتقلت من السرية إلى العلنية. لكن الخطيئة الأصلية للثورة الفلسطينية هي أنها تحولت إلى المواقع الطائفية في لبنان. والطائفية المارونية، وربما المسيحية، جرّتهم إلى هذا الموقع وما كان يجوز لهم أن ينجروا إليه.

- **المقاومة الفلسطينية عندما جاءت إلى لبنان في سنة ١٩٧٠ كان لديها هاجس التصفية على الطريقة الأردنية، فسعت إلى اكتساب الحماية ممن أعلن استعداده لحمايتها. ثم أن من غير الصحيح القول أن المقاومة الفلسطينية كانت ضد المسيحيين، فقد كان جزء من المسيحيين اللبنانيين مع المقاومة، وقاتلوا معها. وأعود إلى التأكيد ان المقاومة في لبنان كانت تخشى التصفية على غرار أيلول الأسود، وكان جهدها الأساسي منصباً على تأمين حماية لبنانية، وهذا ما قدمته إليها الحركة الوطنية اللبنانية بعدما قدم جمال عبد الناصر إليها اتفاق القاهرة في سنة ١٩٦٩.**

- اسمعني. إن انقلاباً بسيطاً في أي دولة يحتاج إلى السرية التامة والعمل في الخفاء، وإلى التخطيط المكتوم. أما الثورة الفلسطينية فكانت علنية ولم يظهر قط أي تنظيم سري لا في عمان ولا في بيروت. حركة فتح أُسست سراً، ولكن بعد معركة الكرامة قفز ياسر عرفات إلى جانب جمال عبد الناصر. ربما كان القادة مستعجلين على ظهور صورهم في الجرائد وعلى الزعامة والسجادة الحمراء في الاستقبالات. إن هذه العقلية التي ظهرت بعد اتفاق أوسلو هي نفسها التي مورست من البداية. أنا إذا ظللت تجادلني خمسين ساعة فلا تستطيع زحزحة قناعتي قيد شعرة لأنني مقتنع بأن العرب عامة والفلسطينيين خصوصاً، لا يستطيعون مقاومة إسرائيل من هذه المنطلقات. لأنك إذا أردت مقاومة إسرائيل، عليك أن تبدأ بالنهضة وبالعقل وبالثقافة وبالعمل السري تحت الأرض، لا بركوب الدرجة الأولى في الطائرات والنزول في فنادق الخمس نجوم في عواصم العالم والتبختر بأموال فوائض البترول. النضال الجدي هو الذي بدأ من داخل فلسطين بعد الخروج من بيروت.

- **إذن أنت تعرض على الفلسطينيين الانتظار حتى تكتمل مقومات النهضة. المسألة لا يمكن أن تكون على هذا النحو، لأن ثمة جدلاً في المجتمع؛ أناس تعمل على الفكر وأناس تعمل في المجتمع، وآخرون يمتهنون السياسة. وتفاعل هذه العناصر كلها يحدد حركة المجتمع. ولا يوجد شعب في العالم انتظر حتى تبدأ "النهضة". وفي فلسطين بالتحديد فإن السعي إلى الحرية هو أحد عناصر النهوض العربي. أما الانتظار حتى يتم النهوض الشامل ثم تبدأ المقاومة ضد إسرائيل فهذه نتيجة فاسدة في معيار التاريخ وصنع التاريخ.**

- في تلك الأيام وصلتني معلومات سرية من قلب القصر الجمهوري في عهد الرئيس سليمان فرنجية من أحد أصدقائي وكان ناصري من اللاذقية اسمه فايز بولس. وهذا الصديق تربى مع لوسيان دحداح وزير الخارجية في عهد الرئيس فرنجية، ومع انطوان دحداح مدير الأمن العام. وعلاقة فايز بولس مع الرئيس فرنجية بدأت منذ أن لجأ سليمان فرنجية إلى اللاذقية بعد مجزرة مزيارة. وصديقي فايز بولس كان بعثياً في البداية، لكنه ترك البعث ولم ينخرط في العمل السياسي. وقد جاءني في أحد الأيام، قبل حصار تل الزعتر، وأمسك ورقة ورسم لي خريطة المناطق التي تضم مخيمات ضبية وجسر الباشا وتل الزعتر وقال لي: لا تصدّق أي هدنة، والقتال لن يتوقف إلا بعد سقوط هذه المخيمات بأيدي المسيحيين. لا تصدّق أن القصة ستنتهي لبنانية – لبنانية أو لبنانية – فلسطينية، بل سنصل إلى زمن ستتدخل إسرائيل لإخراج منظمة التحرير الفلسطينية من هذا البلد*. وثمة حادثة أخرى؛ ففي صيف سنة ١٩٨٠، على الأرجح، كنت في لندن ودعاني الياس الفرزلي إلى الغداء مع تقي الدين الصلح. وضرب لي موعداً في فندق "دورشستر" حيث كان ينزل تقي الدين بك. كنت أحب تقي بك، وأحب حديثه وتعليقاته وأحترم نزاهته ووطنيته منذ أن كنت ألتقيه في

---

* يقول ولبر كرين إيفلاند: "في الثلاثين من نيسان ١٩٧٥ أعلن الرئيس جيرالد فورد انسحاب الولايات المتحدة الأميركية من فيتنام. إنها سياسة كيسنجر لإلهاء العالم عن مشاكل أميركا الأخرى. وبدافع من الرغبة في السيطرة على الأزمات الاقتصادية وعلى أزمة الطاقة التي خلفتها حرب ١٩٧٣ بدأ كيسنجر ينفذ سياسة جديدة آملاً انها ستؤدي إلى تبخر الفلسطينيين". ويضيف إيفلاند: "إن محطتي CIA في روما وفي إسرائيل ساعدتا الميليشيات المسيحية" في تفجير الوضع في لبنان في ١٣/٤/١٩٧٥.

مكتب ميشال أبو جودة، في جريدة النهار، وازدادت محبتي له ولحضـوره اللطيف وشخصيته الجذابة عندمـا صرت ألتقيه في سهرات عائليـة عنـد صديقه رجا شبشب الذي حكى لي نبذة عن نضال تقي بك وأخيه كاظم مـن أجل الوحدة الوطنية في لبنان، التي ما كان الحصول على الاستقلال ممكنـا من دونها، فقد كان المسـلمون مجمعـين علـى الوحـدة مـع سـوريا، والمسيحيون، وخصوصا الموارنة، يخشون العودة إلـى طغيـان الأكثريـة الإسـلامية بعد أن عانوا منه لأجيـال طويلة أيـام العثمـانيين، وقـبلهم المماليك ... إلخ. ولذلك فهم كانوا يتمسكون بالحماية الفرنسـية. كان ذلـك في العشرينيات وأواسط الثلاثينيات من القرن الماضي حينما تمكن الأخـوان كاظم وتقي في العـام ١٩٣٦ من إيجاد صيغة يتوافـق عليهـا الطرفـان المسيحي والمسلم. حينذاك كان رياض الصلح زعيم الشارع بين المسـلمين. وعندما عرضت عليه الصيغة قال لهما: أنا لا أتبناها. حاولا عرضها علـى المسلمين وسوف نرى. فطبعت في كراس ووزعت على الشباب المتعلم بين المسلمين فلاقت قبولا حسنا. فتبناها رياض الصلح وأصبحت ميثاقا وطنيـا. وقد أعطاني رجا شبشب ذلك الكراس قائلا: هذا هو الميثاق الـوطني الـذي توافق عليه رياض الصلح وبشـارة الخوري في العام ١٩٤٣، وتـم علـى أساسه الاستقلال عن فرنسا. وأنا – أي شبشـب – ممـن عاصـروا تلـك الأحـداث وتحمسوا للميثاق، وشاركت في نشـره والدعوة إليه وهو مؤرخ في العام ١٩٣٦.

نعود إلى قصتنا في صيف ١٩٨٠. ذهبت إلى الفندق الذي يقيم فيـه تقي بك قبل الموعد بقليل لأتمتع وأستفيد من مجالسته قدر الإمكان، فرحـب

بي وبقي واقفا وقال: الياس سيتأخر نصف ساعة، تعال نتمشى في حديقة "الهايدبارك" ريثما يحين الوقت. ووضع عليه عباءته المغربية "القفطان" وذهبنا نتمشى في الحديقة المشهورة. وطبيعي أن يكون الحديث في السياسة والأحداث اللبنانية، وفجأة توقف عن السير وتوجه إلي قائلا بشيء من الانفعال: لقد ناضلنا ربع قرن حتى استخلصنا الموارنة من فرنسا، فجئتم أيها التقدميون ودفعتموهم إلى أحضان إسرائيل. كم من الوقت نحتاج لاستعادتهم؟! نصف قرن أم قرن كامل؟!!

اسمع يا أخي صقر لأروي لك قصة أخرى ذات مغزى أكثر أهمية: عندما فشل أمين الحافظ في تأليف الحكومة بعد أن أتم عقد اتفاقيات "مِلكارت" المكمِلة والمفصِلة والمُفسِرة لاتفاقية القاهرة مع الفلسطينيين، جاء يوما إلى مقهى "الهورس شو" وجلس معي ثم قال: قم لنجلس هناك، وأشار إلى الزاوية في آخر المقهى حيث لا يسمع حديثنا أحد وقال: عندما كلفت تأليف الحكومة قالوا لي في القصر (لم يقل رئيس الجمهورية بل قال: في القصر): إن لبنان قام على جناحين متعادلين. فإذا كان المسلمون يشعرون بالغبن تعالوا نتبادل المواقع، خذوا ما عندنا وأعطونا ما عندكم. وإذا كنتم تريدون وتحرصون على الوجود الفلسطيني المسلح، وهو وجود يرجح كفة المسلمين، فلا مانع لدينا، ونحن أيضا مع الثورة الفلسطينية. أما رفع الغبن عن المسلمين والثورة الفلسطينية معا، فذلك معناه أن صيغة لبنان بجناحيه اختلت، وصرنا ثلثين وثلثا، وعليكم أن تختاروا. وأردف أمين الحافظ قائلا: أنا اخترت الثورة الفلسطينية. فهناك إحدى وعشرون دولة عربية مسلمة. وقضية العروبة والإسلام اليوم هي قضية فلسطين لا قضية المسلمين في

لبنان. ولذلك أجلت تأليف الحكومة ريثما اتفقت مع منظمة التحرير الفلسطينية، وأبرمت اتفاقيات "ملكارت". وأضاف أمين الحافظ: لكن "الببّاظات" رفضوا الخيار. وهو يعني بـ"الببّاظات" زعماء المسلمين أو نادي رؤساء الوزارات. ومعروف أن أمين الحافظ جاء من خارج ذلك النادي.

بعد ذلك كلف تقي الدين الصلح، فأصر على تأليف حكومة موسعة تمثل جميع الأطراف، وتعيد إلى البلد وحدته الوطنية. وتعسرت مهمته، ومضت الأيام وهو يحاول بحنكته وطول أناته ومرونته ومقدرته الفائقة على إيجاد الصيغ التوفيقية. وأذكر يوما من تلك الأيام، كان يمشي وحده على رصيف المقهى، فتوقف وحيانا، خرجت لأسلم عليه وأدعوه إلى الدخول فرفض لضيق الوقت، وسألته عن سبب تعسر "الولادة" فقال: إما أن أشكل حكومة تمثل الجميع فأعيد إلى البلد وحدته، وإما أن أعتذر ولن أقبل بحل ثالث. وبالفعل شكلها كما أراد. لكن "السيف كان قد سبق العذل"، ولبنان أصبح حقل ألغام والخريطة بيد من لغّمه، ولم تستطع وزارة تقي بك أن تحصل على الخريطة لتنزع الألغام فاستقال وجاء بعده من جاء، وقال الكريم خذ وتخندقت الناس!!! ومنذ ذلك التاريخ، منذ أواسط السبعينات من القرن الماضي، إلى يومنا هذا ونحن في العام الرابع من القرن الجديد، أي سحابة ثلث قرن، ونحن نفكر ونتكلم كل من خندقه.

يقول محمد بصل، وهو مناضل فلسطيني، ومثقف تقدمي حقيقي، لا متسلق وظائف ولا هاوي شهرة أو مال، وأمضى حياته في التعلم والتعليم

والنضال منذ أن خرج مع أهله في قافلة أهل صفد بالرتل الأحادي تحت حراب الصهيونيين العام ١٩٤٨، وكان في الثانية عشرة إلى أن توفي في أوائل العام ١٩٩٩، يقول في رسالة مؤرخة في ١٩٨٣/٩/١١: "لا تغرّنك الشعارات والتعاويذ، لقد طرحت "فتح" شعار العلمانية... ولكن للعلمانية شروطا لا تصلح بدونها، ومع عدم تحقق هذه الشروط أو السعي لتحقيقها، ردت إسرائيل الشعار علينا حروبا طائفية في لبنان وغير لبنان. وانكشفت التركيبة، وبقيت العلمانية لافتة، مبكية مضحكة، ملطخة بدماء الأبرياء".

أنا تتبعت أحداث ١٩٥٨. ثم بعد أن جئت إلى لبنان عرفت تفصيلاتها وخلفياتها ممن عايشوها. وقرأت مجلدات عن حوادث ١٨٤٠ – ١٨٦٠ في لبنان وكيف انتهت بمأساة ما دعي "بالطوشة" في دمشق. ثم أني سمعت ما هو أهم من التاريخ المكتوب، وهو التاريخ المتداول بين الأجيال. وأصلا تاريخنا منذ الفتنة الكبرى، بين علي ومعاوية، تاريخان: رسمي وشفهي. والشفهي هو الأخطر عند الطرفين لأن الناس – العامة – تصدقه أكثر وتعتمده، وهو ما يبقيها في خنادقها ويبقي جمر الفتنة تحت الرماد، ولا يعود أحد يهتم بالحقيقة. وإلى الآن لم نراجع تاريخنا في ضوء العلم، ولم نكتبه بصورة علمية، بدءا من السيرة النبوية، مرورا باجتماع السقيفة واجتماع التحكيم، إلى جميع العهود حتى يومنا هذا. وقد عشت الحوادث اللبنانية منذ العام ١٩٦٩ بكل جوارحي، وما زلت أتتبع خلفيات ما يجري، ولا أعتمد على الصحف والأقوال المعلنة! ... فاستمع إلي يا عزيزي، وليس المهم أن تقتنع بل المهم أن تكون ويكون قارئ هذا الكلام في حال يصفوها بالفرنسية "Receptive"، أي حالة الإنسان المستعد لاستقبال الرأي

الآخر. في العام ١٩٦٩ قلق زعماء المسيحيين، وأكثرهم قلقا كان رئيس الجمهورية شارل الحلو، لأنه المسؤول، لأن عامة المسيحيين استقبلوا قادة الثورة الفلسطينية – في ما بعد – على الرحب والسعة. وأنا كنت على صلة بجو الأشرفية بسبب قرابات وصداقات لي فيها، وكذلك ببعض الناس في البقاع وزحلة والشوير وبرمانا وحتى كسروان وصيدا. وأنا أقصد الأجواء المسيحية في تلك الأماكن. وحتى في رأس بيروت حيث الجو الأكثر انفتاحا واختلاطا، وحيث كنت أسكن وأعيش، كان أصدقائي من المسيحيين اللبنانيين ما يزالون على صلة بمنابت عائلاتهم في بيروت وشتى أنحاء لبنان، فلم ألمس قلقا بل ترحيبا. وأذكر أن سيدات الصالونات في الأشرفية اللواتي كنّ يرتحن للتعبير بالفرنسية أكثر من العربية، بدأن يأخذن دروسا في اللغة العربية، ويحاولن التعود على التعبير بها. وللتاريخ فقد لعب كمال ناصر دورا أساسيا في إظهار الوجه المشرق والمحبب للثورة الفلسطينية. وإني لعلى يقين بأن ذلك كان أحد أسباب اغتياله إلى جانب ما كان يكتبه وإلى جانب قصائده وأشعاره الوطنية والسياسية. وللتاريخ أيضا فأنا كنت من القلقين لا من المرحبين، ولكن من منطلق قومي، لا لبناني ولا ديني. وخوفي على الفلسطينيين لا يقل عن خوفي على لبنان. وعندما كنت أقول لكمال ناصر: يا أخي (وين رايحين)؟! خرجتم من عمان لأنها لم تتحمل وجودكم فهل بيروت قادرة؟! انزلوا تحت الأرض. وإذا كان لا بد من "هانوي" فدمشق وليس بيروت. وكان – سامحه الله – يتهمني بأنني أصبحت قطريا لأنني أريدهم أن يصطدموا بالحكم في دمشق، وأنه لم يعد لي قضية إلا إسقاط ذلك الحكم. فقد كان لا يزال يمارس الإرهاب الفكري العفلقي بتصنيفاته السطحية السخيفة: هذا قومي وهذا قطري وهذا وحدوي وهذا

انفصالي... إلخ. قلت يومذاك وأقولها اليوم: لقد استسهلوا العمل واستمرأوا حياة الرخاء. وأنا هنا أتكلم على القادة من الصفوف الأولى والثانية وربما الثالثة أيضا، وليس عن جمهور المناضلين الذين كانوا يذهبون في مهمات قتالية واضعين دماءهم على أكفهم ليجودوا بها في سبيل العودة إلى فلسطين.ثم إن جو الاختلاط الديني والطائفي بدأ يزدهر في لبنان منذ الخمسينات، وتزداد معه الزيجات المختلطة. وفي الستينات وأوائل السبعينات بدا كأن ذلك سوف يتسارع بمتوالية هندسية. وبدأ الكلام على قانون مدني للزواج، إذ كانوا يذهبون إلى قبرص أو أوروبا فيعقدون زواجا مدنيا تسجله دوائر النفوس في لبنان. وبدأ ذلك يشكل نقطة جذب حتى إلى سورية. هذا إلى جانب الازدهار الثقافي والحياتي والاقتصادي والفني والأدبي والصحافي والمصرفي والصناعي والتجاري والزراعي ... إلخ، وإسرائيل كانت ترصد ذلك بكل تأكيد، ودهاتها (وكوهيناتها أو كواهينها) يعرفون بالضبط ماذا يعني ذلك. فنجاح صيغة التعايش في لبنان بين الأديان والطوائف، وازدهار المجتمع المختلط على حدودها يشكل خطرا مزدوجا عليها، فهو من جهة يسفه منطقها القائم على أن يهودية دولتها هي مسألة دفاعية ضد الاضطهاد الذي لاقاه اليهود، وأن إسرائيل هي الملجأ الآمن لهم، وهذا هو المنطق الذي أقنعت به مثقفي الغرب وقادة الرأي فيه، ومن جهة أخرى يؤثر في مجتمعها بالذات حينما يجد العلمانيون من اليهود (وهم ليسوا قلة، بل ما زالوا إلى اليوم أصحاب نفوذ في الدولة والمجتمع) إمكانية التعايش في هذه المنطقة العربية الإسلامية، فيتحمسون للحلول السلمية العادلة، أو أقل للتسويات المقبولة من الطرفين. ذلك كله ونحن لا نزال، بالنسبة إلى لبنان الجار المباشر لإسرائيل، في حالة التعايش

والاختلاط الواقعي. فكيف إذا تحول ذلك إلى تعايش واختلاط قانوني عن طريق قانون مدني للأحوال الشخصية وهو ركن أساسي من أركان العلمانية؟

من هنا جاء مقصدي في الاستشهاد بأقوال محمد بصل عن انتقاد الخفة في الكلام على دولة علمانية في فلسطين تضم العرب (مسلمين ومسيحيين) واليهود. هذا أمر يقطع حبل الخلاص الممتد بين إسرائيل وبين الغرب. فالحركة الصهيونية أقنعت الغرب الأوروبي ثم الأميركي بأن اليهود، ولا سيما الإسرائيليون، يشتركون مع الغرب في مدنية واحدة، وهم متمدنون مثله بينما أهل المنطقة أي العرب، بما في ذلك المسيحيون، همج وغير متمدنين ولا يمكن التعايش معهم إلا إذا بقيت إسرائيل يهودية. بمعنى أن من الضروري التساهل والمرونة في موضوع الديمقراطية والمساواة التامة أمام القانون لجميع مواطنيها مع بقائها قوية، وأن قوتها يجب أن تتفوق على العرب مجتمعين ومعهم المسلمون... فكيف تستطيع الجواب على طرح الدولة العلمانية التي تكذب ما قالوه ويقولونه عن الفلسطينيين والعرب؟! المسألة معقدة وخطيرة، وتشكل خطرا حقيقيا على مبرر مساندة الغرب ولا سيما مساندة المثقفين لها، وخطرا على ذريعتها في التعسف باعتباره دفاع عن النفس، وبحجة أن العرب سيرموننا في البحر، أي أننا سنواجه محرقة نازية جديدة. ومن هنا جاء القبول الضمني للغرب، بل والمساعدة في تملك إسرائيل السلاح النووي.

بدأ الحق الفلسطيني يجد له مكانا في أوروبا والغرب عموما، وعلى الأخص في فرنسا، يوم أن طرحت الدولة العلمانية. وبدأ المكان يتسع لذلك

الحق عندما ظهرت بوادر القبول الفلسطيني بالوجود الإسرائيلي في فلسطين. مع أن الوجود اليهودي في أوروبا وخصوصا في فرنسا يعتمد في دعمه الباطل الإسرائيلي على الثقافة والفكر اليهوديين بالدرجة الأولى، بخلاف قوة العدد والمال والإعلام المرئي والمسموع والمقروء عند الجالية اليهودية في الولايات المتحدة الأميركية. ففي فرنسا مثلا لا يتجاوز عدد اليهود ثلاثة أرباع المليون من أصل ٥٢ مليونا من الفرنسيين بينهم خمسة ملايين مسلم أكثرهم من أصول عربية. ولكن اليهود موجودون في أهم المراكز الثقافية والفكرية والفنية، ويكفي أن نعلم أن من بين كل مئة كتاب يطبع وينشر في فرنسا ثمة ثلاثون منها لمؤلفين يهود في شتى العلوم والفنون والآداب. هذا يعني أنهم بثقافتهم وجدهم واجتهادهم يرفعون نسبتهم كأقلية من ١,٥% إلى ٣٠%. فتأمل ذلك وتفكر كم يخسرون إذا تبين للمثقفين الغربيين أنهم على باطل، وأن الفلسطينيين والعرب المجاورين لهم يدعونهم إلى موقف ديمقراطي مساواتي حقيقي وعادل وهم يرفضون. أقعد مقعدهم. ضع نفسك مكانهم. بماذا يجيبون عن الدعوة إلى دولة علمانية؟ هل يقولون إن العرب يكذبون؟ سيقال لهم تعالوا "تلحق الكذاب إلى باب الدار". هل يقولون ديننا يمنع ذلك؟ سيقال لهم فأين الديمقراطية إذن؟ إنهم أي اليهود أذكى من ذلك. إن إثارة الحرب الطائفية والدينية في لبنان، وهو مجتمع التعايش الذي استضاف الثورة الفلسطينية، برهان عملي كاف واف ليقولوا للغرب: انظروا إلى هؤلاء الذين يدعوننا إلى دولة علمانية واحكموا بأنفسكم لنا أو علينا. وكأن لسان حالهم يقول لفتح: أعلى هامان يا فرعون؟ تفضل طبق علمانيتك حيث أنت بعدما امتلكتَ نفوذا أقوى من نفوذ أصحاب البلد الأصليين. وهكذا استطاع اليهود ضرب أعدائهم جميعا: الثورة الفلسطينية

والوجود المسيحي الذي ينافسهم بصلته مع الغرب والقادر على مد الجسور بين المنطقة والغرب، والذي لو ترك حرا لتابع ما بدأه رئيس لبنان سليمان فرنجية من على منبر الأمم المتحدة سنة ١٩٧٤. ولنتذكر أن النفوذ الصهيوني في نيويورك حينذاك استطاع، بل تجرأ على إطلاق الكلاب البوليسية لتفتيش حقائب الرئيس فرنجية! ولنتذكر أيضا أن أول من نبه إلى خطر الحركة الصهيونية على لبنان والعرب منذ مطلع القرن العشرين كان رجلا لبنانيا مارونيا اسمه نجيب العازوري، وبعده في الثلاثينيات ميشال شيحا. واسمح لي أن أثقل عليك بمزيد من الشرح الذي قد يتخلله بعض الكلام الذاتي، وما أثقل الكلام عن الذات.

في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات، عندما اشتدت الموجة الظلامية في سوريا، التي سُمِّي دعاتها و"مجاهدوها" بالأصوليين، وهم أقرب بأصوليتهم إلى أسوأ عصور المماليك والسلاجقة والعثمانيين منهم إلى إسلام النبي العربي والسلف الصالح، أقول:عندما اشتدت تلك الموجة الظلامية وعمت، وكان الوضع في لبنان يزداد سوءا على سوء، إلى أن جرى حصار بيروت وقصفها بتلك الوتيرة الهمجية البربرية التي لا يتقن أحد ممارستها في العصور الحديثة إلا شارون، ثم انسحبت منظمة التحرير وجرت مجزرة صبرا وشاتيلا المخزية، وبدأت المقاومة اللبنانية البطولية من بيروت، فانسحب الإسرائيليون منها على عجل فيما ظلوا متمركزين في قلب الجبل وبعبدا والشوف وعلى طول الساحل جنوبي بيروت، ظهر جليا حينذاك الخطر المحدق بلبنان، نتيجة للممارسات الملغومة من الميليشيات المسيحية في شرق صيدا والشوف والجبل، وبدأت ردات الأفعال الدرزية

التي ما لبثت أن وصلت إلى عقلية الغزو البدوية بحسب تعبير وليد جنبلاط عندما قال: "هم غزوا ونحن غزونا"، وكان كلامه طبعا في معرض الإدانة لتلك العقلية، وبروح من النقد الذاتي المترفعة عن الصغائر. عندما وصلت الأمور إلى هذا الحد، بلغ قلقنا على لبنان وعلى سورية حدا دفعني إلى الكتابة في أكثر من مناسبة في مجلة "المستقبل" التي كان يصدرها صديقنا الصحافي الكبير والأديب الراحل نبيل خوري*. ومنها مقالة في صيغة خطاب صريح ومباشر للموارنة بعنوان "هدف مستحيل ومقامرة بمصائر الآخرين". ولما ظهر أن الكارثة مقبلة في قلب جبل لبنان برعاية الجيش الإسرائيلي المباشرة، اتفقنا أنا ومحمد بصل مع منصور الأطرش على أن يكتب مقالة تتضمن مناشدة ودية للموارنة، وبلهجة من هو مستعد للقيام بمسعى تصالحي، وساهم محمد بصل في صوغها، ونشرت في "النهار العربي والدولي". وأذكر عندما قرأها أحد محازبي جنبلاط من الشوف، وكان يعرفني ويعرف الصلة التي تربطني بمنصور الأطرش علق على المقالة قائلا: "هذا قرايبك نحن نقبل يده لشدة احترامنا له ولذكرى أبيه، ولكن ماذا وراء كتابته هذه المقالة؟ هل يريد أن يستقبلنا لاجئين عنده في سورية؟ الجماعة ناويين يهجرونا". من هذا التعليق تستطيع أن تتصور الجو الذي كان يعبق بالفتنة في المتن الجنوبي والشوف، ومع ذلك لم يسمع منصور الأطرش من المسيحيين أو الموارنة أي نَأمَةٍ أو تعليق، مع أن

---

* ولد في القدس سنة ١٩٣٤، وجاء إلى لبنان في سنة ١٩٥٨، ونال الجنسية اللبنانية، ثم عين مديرا للبرامج في إذاعة لبنان الرسمية. أصبح رئيسا لتحرير مجلة "الحوادث" اللبنانية، ولاحقا أصدر مجلة "الحسناء" ثم مجلة "المستقبل" في باريس. توفي في بيروت في ٢٠٠٢/٩/١٣.

إسرائيل أعلنت موعد انسحابها من جبل لبنان. ومن المعروف أن الانسحاب سيؤدي إلى اختلال ميزان القوى لمصلحة الدروز والفلسطينيين، فهل من شك في أن سياسة قادة المسيحيين آنذاك كانت تجانب الحكمة والعقل، بل أن المرء مرغم على التساؤل: هل كان عندهم سياسة مستقلة أم أنهم كانوا ينفذون سياسة غيرهم؟!

بقي أن أضيف أن تمركز الثورة الفلسطينية في بيروت بشكلها العلني، واستعمال قوتها وهيبتها الكفاحية المحققة وسمعتها القومية، من جهات لبنانية مسلمة تقدمية أو تقليدية أو رجعية، من أجل تبديل أو تعديل صيغة التعايش في لبنان، لم يكن خطأ بل خطيئة. والنتائج كانت كارثية على الجميع. وما زلت على قناعتي التي أبديتها لكمال ناصر قبل أن تبدأ الفتنة، وجاءت الحوادث والنتائج التي أسفرت عنها لترسخ تلك القناعة. ولكننا ما زلنا نفضل المكابرة على الاعتراف بأخطائنا والتعلم منها. وخطة إنقاذ تل الزعتر بحساب القوى المحلية والإقليمية والدولية وبحساب النتائج – وهي المعول عليها في علم السياسية – لا تستحق أكثر من الترحم على شهدائها...!. وأذكر أن إميل حبيبي قال لمحمود درويش في باريس، وكنت حاضرا: لو صمدتم أسبوعا آخر في بيروت لكان ميناحيم بيغن سقط، لأن حزب العمل الإسرائيلي كان ضد الوصول إلى بيروت واحتلالها، فهو أيد خطة الوصول إلى عمق ٤٠ كلم فقط.

- **ألكسندر هيغ وزير الخارجية الأميركية آنذاك، لا شمعون بيريز ولا اسحق رابين، هو مَن منح موافقته على خطة حصار بيروت.**

- لكنه "طار" من الخارجية، وقد يكون "طار" لهذا السبب.

- **أما الخطة فنفذت بحذافيرها.**

- ما كانت إسرائيل قادرة على أن تتحمل سقوط القتلى. وإميل حبيبي كان مصراً على القول إنه لو صمدت بيروت عدة أيام لسقط بيغن.

- **كلام إميل حبيبي ساذج في هذا المقام. فقد صمد المقاتلون ٨٨ يوماً، ولو صمدوا ٩٨ يوماً فلا اعتقد أن المعادلة كانت تغيرت.**

- أنا صدقت إميل حبيبي. ودليلي أن إسرائيل حينما بدأت تشعر باليأس بادر فيليب حبيب إلى التدخل ليستعمل أرصدته الأخرى، أي الزعماء العرب وزعماء بيروت وعلى رأسهم صائب سلام، للضغط على ياسر عرفات للخروج من بيروت.

- **الاتحاد السوفياتي أيضاً أراد خروج منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت. فهل الاتحاد السوفياتي أحد الأرصدة الأميركية؟**

- القائد الذي يقود شعبه إلى معركة ويخسرها ثم يخسر ثانية وثالثة من المفروض أن يراجع خطته. وياسر عرفات مثله مثل الحكام العرب لا يهمه إلاّ البقاء.

- **تقدير الموقف قبل اتفاقية الخروج من لبنان كان على النحو التالي: سورية أوقفت الحرب في ١١حزيران ١٩٨٢ ولم تطلق منذ ١٩٨٢/٦/١١ أي طلقة. نحن الآن في آب ١٩٨٢: الملك خالد مات في ١٩٨٢/٦/١٣ وتولى الملك فهد بعده، والسعودية منهمكة بأوضاعها الداخلية. بريجينيف في غيبوبة والسفير الروسي يبلغ أبو عمار مباشرة ألا يتوقعوا أي نجدة أو أي تدخل من الاتحاد السوفياتي. وفي هذا السياق يمكن أن نفهم سر الرسالة المشهورة التي أرسلها نمر صالح (أبو صالح) إلى القيادة السوفياتية في ذلك الوقت وهاجم فيها السوفيات هجوماً قاسياً مع أنه اشتهر بيساريته وصلته القوية بالاتحاد السوفياتي.**

- أنت تحاول تعليمي أموراً أنا مقتنع بها سلفاً.

- **أنا أنقض كلام إميل حبيبي الذي تستشهد به والذي يقول "لو صمدتم أسبوعاً لسقط بيغن". ليس صحيحاً هذا الكلام. وعليك التعلم من الوقائع لا من كلام إميل حبيبي.**

- هناك استراتيجيتان لا ثالث لهما في فلسطين: إما جورج حبش أو إميل حبيبي. وأنا هنا أتكلم على نظريتين في العمل الذي بدأ منذ ١٩٤٨، والآن هناك حماس وجماعة أوسلو: إما أن تقاتل تحت الأرض وتبقى تقاتل حتى تتأكد إسرائيل أن مشروعها فاشل، عند ذلك ترغم على القبول بتسوية ما، أو تخرج اليهود من التعصب اليهودي وهذا مثل أمل إبليس في

الجنة. وفي النهاية فإن صراعنا مع إسرائيل هو صراع حضاري سيستمر ليس عشرات السنين فقط بل مئات السنين أيضاً. لكن مع الأسف وقع الفلسطينيون اتفاقية أوسلو التي أيدها إميل حبيبي. لكن إميل حبيبي صادق وهم كاذبون. أعني أن إميل حبيبي ينظر إلى الصراع نظرة تاريخية حضارية وعلمية ماركسية، أما الآخرون فمنطلقاتهم تكتيكية سياسية وقناعاتهم الراسخة دينية.

- **مَن تقصد بكلمة "كاذبون"؟**

- أقصد الفلسطينيين الذين قبلوا اتفاق أوسلو. أما قال ياسر عرفات في أحد مساجد جنوب أفريقيا عن اتفاق أوسلو انه مثل صلح الحديبية.

- **يسميه صلح الكريهة.**

- تُرجمت أقوال ياسر عرفات هذه فوراً في إسرائيل، وقالوا له: أتضحك منا؟

- **لا تكترث للتصريحات المجانية. عليك أن تناقش الاتفاقية كنص. إنها اتفاقية دولية. أما أبو عمار فستجده يصرح في كل يوم أن الصراع لن يتوقف مع إسرائيل حتى تتم إقامة دولة فلسطينية مستقلة وعاصمتها مدينة القدس.**

- اتفاقية أوسلو تنص على قيام حكم ذاتي.

- **الحكم الذاتي في المرحلة الأولى، أما الدولة المستقلة فستكون خاتمة المرحلة النهائية. في أي حال، سقطت اتفاقية أوسلو مع اندلاع انتفاضة الأقصى. ففي سنة ١٩٩٩ كان المتوقع إعلان قيام الدولة الفلسطينية أو السير نحو هذه الدولة. وكان يجب الانتقال إلى قضايا المرحلة الأخيرة مثل قضية اللاجئين والحدود والقدس والسيادة. لكن إسرائيل نفسها أنجزت انقلاباً سياسياً حينما أصبح بنيامين نتنياهو رئيساً للوزراء، وأقفلت أبواب التسوية السياسية. وهنا بدأ ياسر عرفات يتحول، بالتدريج، إلى القتال وبدأ يطبق القاعدة الذهبية أي "فاوض وقاتل".**

- على من ستمر هذه الازدواجية؟

- **هذه قاعدة صراع الإرادات بين الأقوى والأضعف، وليست تمريراً هنا وتمريكا هناك. التمرير والتمريك هي سياسات محلية عربية منحطة، ولا تصلح للقضايا الكبرى مثل القضية الفلسطينية. والسياسة في نهاية المطاف هي فن ابتداع الخيارات واجتراح البدائل وليست تآمراً أو تخطيطاً سرياً لانقلاب عسكري من الطراز السوري القديم.**

- صحيح، ولأنه صحيح أتغافل عما تقصده من تعريض. ولننتظر النتائج معا ففيها القول الفصل.

٩ ـــــــــــــــ العودة إلى دمشـــق

- **لنعـد إلى بيروت. كيف تطـورت أوضـاعك فـي تلـك الأحـوال المضطربة في لبنان؟**

- بدأنا نتخوف من أخطار الأجواء الطائفية في لبنان منذ العام ١٩٦٩، وتخوفنا فعلاً من إمكان نشوب صـراع مسيحي ـ مسلم وهذا ما حدث مع الأسف. أنا لم أكن مقتنعاً بقيادة ياسر عرفات، ولم أنجذب إلى اعتباره قائـداً تاريخياً للقضية الفلسطينية، ولم أعثر على قائد عربي واحد لأسير خلفه بمـا في ذلك جمال عبد الناصر. ولهذا بدأت في بيروت، في نهاية الستينات مـن القـرن العشرين، اعتني بالثقافة، في الوقت الذي كنتُ أعـيش فيـه لاجئـاً سياسياً، وأتلقى معاشاً من الدولة العراقية. وحاول اليـاس فـرح أن يجعـل مصدر معاشي من القيادة القومية لحزب البعث، لكنني رفضت وقلت لشـبلي العيسمي: إما أن يعطوني المعاش من وزارة الداخلية مثل أي لاجئ سياسي رسمي وإما أن أعود إلى وضعي السابق في بيـروت. فقـال لـي شـبلي العيسمي: "معك حق"، فقد كان يحبني ولا يحبهم. ولم يتمكن الياس فرح من أن يستدرجني إلى مقابلة ميشال عفلق في بغـداد. وفي تلك الفترة عـرض علي الصديق غسـان معروف الارناؤوط اللجوء إلى جنيف، فقد كان يعمل في الصليب الأحمر الدولي. لكنني رفضت العرض لأنني لم أكن محتاجـاً؛ فالأموال تأتيني من طريق المتاجرة بالأنتيكا التي يرسلها إليّ والـدي مـن دمشـق. وخلال نحو خمس سنوات تمكنت من شراء قطعة أرض في بلـدة بلونة بالاشتراك مع أصدقاء من آل الدباس. وبعد ست سنوات بعناها بعـدما تضاعف سعرها ٢٢ مرة. في تلك الأثناء حاولـت السـلطات السـورية الضغط على الحكـومة اللبنانية لإخراجنا من لبنان، واسـتجابت الأجهـزة

اللبنانية لهذا الضغط، وأرادت إقناعنا بالخروج إلى العراق مادام العراق صار مرجعيتكم السياسية والحزبية. في تلك الفترة كان سليمان فرنجية وزيراً للاقتصاد، فزاره صلاح البيطار وشكى إليه الأمر، وذهب منصور الأطرش إلى الأمير مجيد أرسلان للغاية نفسها، فكان جواب الاثنين: تبقون في لبنان ولا يستطيع أحد أن يخرجكم منه. والغريب أن صلاح البيطار ومنصور الأطرش ألحا علينا بضرورة السفر إلى بغداد. ولهذا اقتنع خالد الحكيم ونسيم سفرجلاني فغادرا إلى العراق، أما أنا فبقيت في لبنان بعدما استنفرت أقاربي من آل صوايا في ضهور الشوير، فضلاً عن جبران حايك وأصدقائي من آل الدباس. وتوسط لي فؤاد بطرس لدى المكتب الثاني اللبناني ومع جوزف سلامة مدير الأمن العام في ذلك الحين. وجاءني الجواب بأن أبقى في برمانا ولا أعود إلى الظهور في شارع الحمراء. وجاءني منصور الأطرش في برمانا ومعه خالد الحكيم وسألني: ألا تريد السفر إلى بغداد؟ فقلت له: جماعتك يا أستاذ منصور قالوا لك: إبقَ في لبنان، وأنا لي جماعة قالت لي أن أبقى، لذلك سأبقى. وعندما أصبح سليمان فرنجية رئيساً للجمهورية اللبنانية تذكر صلاح البيطار فأرسل يعرض عليه اللجوء رسمياً إلى لبنان. لكن صلاح البيطار قال له: شكراً. لا نريد طلب اللجوء رسمياً إلى لبنان. لكن رفاقنا ما زالوا يقيمون في لبنان بأسماء مستعارة، ويجب إنهاء هذه المسألة. فقال له الرئيس فرنجية: راجعوا المدير العام للأمن العام أنطوان دحداح. فرافقني فايز بولس إلى أنطوان دحداح الذي استقبلني استقبال الصديق وقال: ما هذه الإقامة التي تطلبها؟ أنا أعطيك إقامة لثلاث سنوات. لكن أنا أعلم أن عفواً سيصدر عنكم قريباً. ثم أمر بإعطائنا "بطاقة حمراء" شرعية وبأسمائنا الحقيقية، وعرض علينا المساعدة

المالية فشكرناه على اهتمامه ورفضنا عرضه بلباقة. حتى أن صلاح البيطار لم يكن راغباً في استخدام جواز السفر العراقي لأنه جواز سفر عادي وليس دبلوماسيا. فتكلمت إلى محمد النعمان - الذي اغتيل في ما بعد في بيروت - عن هذا الموضوع. وفي أول رحلة له إلى اليمن جلب معه جواز سفر دبلوماسياً يمنياً لصلاح البيطار. ثم بدأ الجو يتغيّر لمصلحتنا بعد أن أصبح صلاح جديد* وجماعته في السجن في سنة ١٩٧٠. وكان محمد عمران يؤلف كتاباً في تلك الفترة بعنوان "تجربتي في الثورة"، فجاء إلى جبران مجدلاني الذي كان اتخذ قراره بعدم الاشتغال في السياسة وانصرف إلى إدارة مكتب للمحاماة، وكان على صلة بياسر عرفات وحركة فتح، ولعله استفاد مالياً من هذه الصلة، بينما محمد عمران " أندبوري" لا يمتلك فلساً**. المهم أن جبران مجدلاني نصح محمد عمران قائلاً: ابحث عن نبيل الشويري ليراجع الكتاب ثم يعطيك رأيه، وأنا ونبيل شويري لنا الرأي ذاته. فجاءني محمد عمران، وقرأت مخطوطة الكتاب وأبديت له ملاحظاتي، وأصبحنا أصدقاء منذ ذلك الوقت. لم يعجبني الكتاب كثيراً. وفي ما بعد اكتشفت أن من صاغه هو مطاع صفدي، لذلك جاء الكتاب "مجعلكاً".

- **أنت ومحمد عمران ألم يكن لكم حديث عن الأوضاع السورية في تلك الفترة؟ ألم تشترك معه في أي نشاط سياسي.**

---

* ولد في دوير بعبدا سنة ١٩٢٦ وتوفي في سجن المزة في ١٩٩٣/٨/١٩.

** ولد محمد عمران في قرية المخرم الفوقاني قرب حمص، تخرج في الكلية العسكرية سنة ١٩٥٠، وأصبح وزيرا للدفاع سنة ١٩٦٦. اعتقل بعد ٢٣ شباط ١٩٦٦ وأطلق سراحه في ١٩٦٧/٦/٩ ثم اغتيل في طرابلس - لبنان في ١٩٧٢/٤/٣.

- لا. لأنني لم أكن أرغب في التعاون مع العسكريين، وانتهت من رأسي فكرة الانقلابات، مع أنني تمنيت أن يقع انقلاب في سورية وأتمكن من العودة إلى بلدي بلا تنازلات. وفي أحد الأيام قال لي محمد عمران، بينما كنت معه في سيارته الفورد السوداء: أنت غير شكل عن بقية مجموعتك، لذلك نريدك معنا. أما نسيم سفرجلاني فهو طائفي لا نريده، وخالد الحكيم تعاون مع الأردن. فأجبته على الفور: يا أبو ناجح. أنا رجل ولدت لأب وأم من العرب الارثوذكس، والتحقت بحزب البعث على أسس قومية عربية، ولا صلة لي بقصص الطوائف والطائفية. وأنا أعرف نسيم سفرجلاني منذ كنا في الحزب، فهو ليس طائفياً. أما خالد الحكيم فقد ذهب إلى الأردن لأنه لم يكن لديه مخبأ آمن في دمشق. وموقف خالد الحكيم وموقفي متطابقان. ثم إنني في الأصل لست سنّياً أو علويّاً. أنا أنتمي إلى القومية العربية التي لا طوائف فيها ولا أديان ولا تعترف بالطوائف أبداً، بل بمواطنين أحرار ومتساوين. فمدّ يده إليّ وقال لي: لنتعاهد على هذا الأمر. وسألته: متى تريد أن نزور خالد الحكيم ونسيم سفرجلاني في صيدا؟ فقال لي: أذهب معك إلى صيداً لنزورهما ونتعاهد على حركة قومية عربية بلا طائفية بل مساواة تامة للمواطنين. وبالطبع فقد صدقته، فهو لا يطلب إلا أن يكون الجميع متساوين في سورية.

- **كعلوي له الحق في ذلك، فطالما ظُلم العلويون وبقية الأقليات كالدروز والاسماعيليين.**

- لذلك أقول أن حلم المسلم الدرزي أو العلوي أو الإسماعيلي أن يقال عنه أنه مسلم.

- **أي أن يتم الاعتراف به كمواطن متساوٍ مع الآخر فلا يقال عنه كافر أو مرتد أو رافضي*.**

– عندما تتغير الفتاوى الدينية ويتغير فهمنا للدين يمكن، عند ذلك، تطبيق المساواة أمام القانون. أما في العقل الديني السائد في مجتمعنا فلا شيء إلا الأقلية والأكثرية. الديمقراطية ليست حكم الأكثرية فقط، بل الديمقراطية هي أن تسمح للأقلية بأن تصبح أكثرية. أما قصة الأكثرية والأقلية في مجتمعنا الآن فتعني أن الأكثرية سنّة فالحكم يجب أن يكون للسنّة. والحقيقة ان ٩٠% من المثقفين الذين يطالبون بالديمقراطية في سورية ليس في ذهنهم غير ذلك. والبعض يرى أن شعار الديمقراطية هو حصان طروادة للانقضاض على السلطة.

- **إلى أين وصلت علاقتك بمحمد عمران؟**

– عرض علينا محمد عمران أن ننشئ تنظيماً سياسياً. أنا رفضت أن التحق بأي تنظيم. وقلت لرفاقي ما بالكم تجادلونه في التفصيلات؟ إذا تمكن محمد عمران من القيام بانقلاب فسنرجع إلى سورية، والمحادثات ستكون هناك. أما الآن فلا فائدة من المجادلة.غير أن محمد عمران اغتيل في طرابلس، والقاتل المنفذ فلسطيني. ويقال أن المهمة في الأساس كانت اختطافه لا قتله. لكنه قتل حينما قاوم خاطفيه. لم يتم أي تحقيق جنائي أو سياسي وأقفلت القضية. وما أعرفه أنه قُتل قتلاً سياسياً، وليست المافيا هي

* عندما صدر الدستور العثماني الأول في ١٨٧٦/١٢/٢٣ جرى تعميم نصه على جميع الولايات العثمانية، وطُلب من الولاة إبلاغ الناس بمضمونه عبر المناداة في الأحياء كما جرت العادة في ذلك الزمان. وكان المنادي في دمشق يردد: "ما عاد مسموحاً أبداً، منذ الآن فصاعداً، أن يقال للكافر كافر"!

التي قتلته. في هذه الأثناء عاد من العراق فهمي العاشوري بعدما اتضح له أن ما يجري في العراق "علاك مصدي"، وقرر العودة إلى سورية. وكنا اتخذنا نحن أيضاً قراراً بأن الذي يستطيع العودة إلى سورية بكرامة ومن غير تنازلات مهينة ولو إلى السجن ثم يخرج لاحقاً، فلا ضير في ذلك. وأرسلنا في أواخر سنة ١٩٦٩ إلى حافظ الأسد نخبره برغبتنا في العودة وعليه ألا يخشى منا، فنحن لا نمتلك أي قوة ولا نشكل أي خطر عليه. لكن حافظ الأسد كان يستعد لأمر آخر. فسعى إلى عقد مؤتمر حزبي وتمكن في نهايته من أن يضم إليه أبرز الحزبيين أمثال عبد الحليم خدّام وأن يستولي على السلطة*.

- **ومصطفى طلاس.**

- مصطفى طلاس عسكري.

- **لكنه حزبي أيضاً.**

* في ١٩٦٩/٢/٢٧ أصدر حافظ الأسد أوامره باعتقال عادل نعيسة أمين فرع حزب البعث في اللاذقية وقيادة الفرع وتعيين أنصاره بدلا منهم. ثم احتلت القوات الموالية لحافظ الأسد مبنى الإذاعة في حلب ودمشق ومكاتب جريدتي "البعث" و"الثورة" وفرضت الرقابة العسكرية على نشرات الأخبار. وفي هذه الظروف عُقد مؤتمر قطري استثنائي في آذار ١٩٦٩ لم يتوصل إلى أي نتيجة. وفي تشرين الأول ١٩٧٠ عقد المؤتمر القومي الاستثنائي العاشر واتخذ قرارا بإعفاء حافظ الأسد ومصطفى طلاس من مناصبهما. فبادر حافظ الأسد في ١٩٧٠/١١/١٣ إلى احتلال مكاتب الحزب وإلقاء القبض على نور الدين الأتاسي وصلاح جديد ويوسف زعين وغيرهم، وأعلن قيام "الحركة التصحيحية" في ١٩٧٠/١١/١٦.

- مصطفى طلاس كان منذ البداية مع حافظ الأسد. الجيش كله كان معه فهو قال لأحمد أبو صالح في سنة ١٩٦٦ أن صلاح جديد ليس لديه من يؤيده في الجيش. أنصار محمد عمران انضموا إلى حافظ الأسد بعدما قتل عمران، وحينذاك بات حافظ الأسد بلا أخصام تقريباً. على أنني أظن أن أكثر أنصار عمران قبلوا زعامة حافظ الأسد قبل أن يقتل عمران.

- **لكن القيادة القطرية وهي في معظمها من المدنيين كانت تؤيد صلاح جديد.**

- نعم. بعض الضباط أيضاً. لكنهم أصبحوا في السجن.

- **أمثال أحمد سويداني؟**

- عزت جديد وأحمد سويداني وكاسر محمود وغيرهم. المهم أن حافظ الأسد نفذ الحركة التصحيحية في ١٩٧٠/١٠/١٦ وأنشأ حكماً جديداً ليس هو حكم الحزب، بل صار الحزب حزب الرئيس، والدولة دولة الرئيس، والحاكم هو الرئيس وحده. ولم يلبث هذا الرئيس أن أسس "الجبهة الوطنية التقدمية" التي انضم إليها الحزب الشيوعي بزعامة خالد بكداش، والاتحاد الاشتراكي العربي بزعامة جمال الأتاسي والاشتراكيون العرب الذي انشقوا قسمين: قسم بزعامة عبد الغني قنوت صاروا أعضاء في الجبهة، وقسم معارض بقيادة رياض المالكي. والتحق بهذه الجبهة أهم

العناصر في حـــركة الوحدويين الاشتراكيين أمثال مصطفى الحلاج وسامي صوفان وفايز إسماعيل.

- **ما كان جواب حافظ الأسد على رسالتكم؟**

– كان في جوابه، مع الأســف، انتقاص من شأننا. قال للرسول: لـم أكن أعلم أن وضعهم بائس إلى هــذه الدرجة، فقد كنــت أعتقـــد أن لهـم صلات بتركيا وأن وضعهم جيد، ولم أعرف أنك ترسل إلــيهم جــزءاً مــن راتبك.

- **من هو هذا الرسول؟**

– حمود الشوفي. ثم أضاف الأســد: إذا أرادوا العودة فأنا غير قــادر على إعادتهم لأن الأكثرية في القيادة القطــرية ضدهم. ليتصــلوا بــالأمن ويتحدثوا معهم حتى تتدفق التقارير الجيدة عنهم فيتغير الجو المعادي لهــم، وحينذاك أعرض أسمهم على القيادة وأسمح لهم بالعودة إلى السجن أولاً ثــم يصدر العفو عنهم فيعودون إلى بيوتهم. وفي ما بعد التقيت رئــيس الــدائرة السياسية وهو صديقي وأسمه يحيى أبو عسلي من الســويداء وأخبرنـــي أن عفــواً عنا سيصدر قريباً جــداً. فقلت له: اسمع يا يحيى. بلّغ عن لساني ما يلي: أمضينا في هذا البلــد خمس سنوات ونحن هاربون. وها هــو حــافظ الأسد ينتخب لسبع سنين مقبلة، وهذه السبع سنين المقبلة سأقفها على رجــل واحدة هنا على هذا الرصيف ولا أعود إلى سورية بهذه الشــروط (وكــان اللقاء على رصيف شارع الحمراء في بيروت قرب مقهى "الهورس شــو").

وانقطع الحوار بيننا لكن عندما اشتدت الحرب الأهلية في لبنان عدنا نتحرش به.

- **ما مصير رفاقك الآخرين؟**

- فهمي العاشوري عاد إلى سورية، وبقي نسيم سفرجلاني معنا في بيروت، أنا وخالد الحكيم.

- **وعدت إلى البطالة السياسية؟**

- في أوائل أيام الحرب الأهلية فاجأنا صلاح البيطار في المقهى بخبر يقول إن مرسوماً بالعفو عنه صدر في دمشق. لكن مع اشتداد الحرب بدأ البيطار يتخذ الموقف الأقرب إلى الفلسطينيين والحركة الوطنية اللبنانية وكمال جنبلاط، وطالما أبدى عدم رغبته في العودة إلى سورية. يا عمّي كنا متفقين على أن من يصدر في حقه عفو يعود فوراً. إذا قال حافظ الأسد لك "مرحبا" فقل له "مرحبا" حتى يُكمل معروفه معنا ويخرج من هم في السجن. حمود الشوفي كان مطلوباً للخدمة العسكرية ومحمد بصل في السجن.

- **ألم يكن حمود الشوفي قد أنهى خدمته العسكرية؟**

- كان مطلوباً للخدمة، وفي ما بعد أُعفي منها*. وكان هذا الأمر سيفاً مسلطاً فوق رأسه، أي أنهم متى أرادوا استدعاءه إلى الخدمة يستطيعون ذلك. الخلاصة، أننا قررنا متابعة السعي من دون صلاح البيطار. وفي بيروت تعرفت إلى السيد حسين الحسيني وألبير منصور في المقهى، وصرنا أصدقاء. وانضم إلينا صديق عراقي كان من كبار البعثيين في العراق.

- **ما اسمه؟**

- فاتك الصافي، وهو الذي حمل صدام حسين حينما أصيب في محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم ووضعه على ظهر فرس هربت به إلى سورية**. وبعد أن ازدادت الصداقة مع حسين الحسيني متانة عرفني الى الإمام موسى الصدر وأصبحنا أصدقاء لموسى الصدر. اعتقدنا أنه مادام السيد موسى الصدر قريباً من حافظ الأسد فلنحاول أن نعيد التفاوض مع سورية من هذا الباب. وتحدثنا في هذا الشأن مع حسين الحسيني الذي نقل الأمر إلى موسى الصدر فقبل المهمة بل رحب بها. ولما زرنا السيد الصدر طلبنا إليه أن يتدخل لدى الرئيس حافظ الأسد للسماح لجبران مجدلاني بزيارة سورية في البداية، أي أن يذهب في مهمة استطلاعية أولاً، وبناء على ما سيعود به جبران مجدلاني نقرر خطواتنا اللاحقة. لماذا؟ لأن

---

* كان آخر منصب له مندوب سورية في الأمم المتحدة، لكنه قدم استقالته في مؤتمر صحافي عقده في باريس في ١٩٧٩/١٢/٢٧.

** شارك في هذه المحاولة، فضلاً عن صدام حسين، كل من حميد مرعي (سوري كان يدرس في بغداد) وسمير النجم (أصيب برصاصة في كتفه) وعبد الوهاب الغُريري الذي قتل في الاشتباك.

بعض القياديين في سورية آنذاك لا يطيقون ذكر أسمائنا. وأكثر من شخص نزل الغضب عليه حينما ذكر اسم نبيل الشويري. ذهب السيد موسى الصدر إلى دمشق والتقى الرئيس الأسد، وقال له: في لبنان رفاق لـك يحترمونـك ويقدّرونك فلماذا هذا الجفاء بينك وبينهم؟ فسأله الأسد: أمثال من؟ فقال لـه: جبران مجدلاني على سبيل المثال. فرحب الرئيس الأسد جداً وقـال: مـن يمنع جبران مجدلاني من زيارة دمشق؟ ولماذا لا يعود إلى السياسة؟ ولمـاذا لا يعود إلى الحزب؟ وإذا كان لا يريد العودة إلى الحزب فليأت إلى دمشـق وأهلاً وسهلاً به، وسأكون مسروراً بلقائه. وبناء على هذا الأمر تابع موسى الصدر كلامـه قائلاً ان هناك غير جبـران مجدلاني من رفـاقكم. وسـأله الأسد ثانية: مثل مَن؟ فقال الصدر: رجل مسيحي محترم يسكن في المنطقـة الغربية من بيروت، وهو لاجئ سياسي سوري ولا يستطيع القدوم إلى بلـده ويرفض الانتقال إلى المنطقة الشرقية مع أن له أقارب فيها، وهو قومـي عربي لا يريد أن يلتجيء إلى إحدى الطوائف اللبنانية مع انه معرض للقتـل على الهوية باعتباره مسيحي، وأنت تعلم ماذا يجري في بيروت. هنا تحمّس الرئيس حافظ الأسـد للموضوع، ولم يخطر في باله إطلاقاً أن هذا الكـلام يتعلق بي، وقال: من هو؟ فأجابه الصدر: نبيل الشويري. حدق الأسـد فـي الأرض وسكت أكثر من نصف دقيقة. بعدها رفع رأسـه وقـال: إذا كـان وضعه الذاتي كما وصفته لي، إذن دعنا نتكلم بصراحة: الماضي يجـب أن ننساه، وأنا مستعد منذ الآن لنسيان الماضي. لكن دعني أدرس الموضـوع بإسـهاب، فإذا كان نبيل الشويري ما زال يتآمر علينا فلن أعفو عنه. أما إذا كان الأمر متعلقاً بما جرى في الماضي فقط فأنا أعدك بالعفو عنه. بعد ذلك ذهب جبران مجدلاني وحسين الحسيني إلى دمشـق وباشـرا الاتصـال بالأجهزة الأمنية ليسرعوا في إنهاء التحقيقات. وهذه التحقيقات امتدت حتـى

أوائل سنة ١٩٧٧. لكن في سنة ١٩٧٦ دخل الجيش السوري إلى لبنان ولم يكن العفو عني قد صدر بعد. فذهبت إلى موسى الصدر وقلت له: أنا ذاهب إلى العراق، فأرجو أن تبلغ أصدقاءك في سورية ذلك، وإذا سألك الرئيس حافظ الأسد أخبره أنني ذاهب إلى العراق لأن الجيش السوري صار في لبنان، وأنا لا أستطيع البقاء هنا في هذه الحال. فأجابني الإمام الصدر: يمكننا أن نأتي لك بجواز سفر سوري وباسم مستعار أيضاً فتبقى في لبنان. فأجبته: لا. بل أنا ذاهب إلى العراق لا لأقيم هناك بل لتوديع الأصدقاء وشكرهم على ما قدموه لي، وسأخبرهم أن العفو عني في طريقه إلى الصدور، وعندما يصدر العفو سأرسل إليهم جواز السفر العراقي. وفي أي حال لن أبقى في بغداد بل سأغادرها إلى باريس. وهكذا كان. ذهبت إلى بغداد ثم غادرت سريعاً إلى باريس.

- **ألم يصدر العفو؟**

- لم يصدر العفو إلاّ بعد تسعة أشهر. وسمعت أن أحد المسؤولين العراقيين قال: العمى. جميع السوريين الذين جاؤوا إلى بغداد لاجئين لم يودعنا أحد منهم حينما يقرر العودة إلى سورية إلاّ نبيل الشويري. وبقيت في باريس من أيار ١٩٧٦ حتى كانون الثاني ١٩٧٧، فجاءتني الأخبار من الشام أن اللواء محمد الخولي قائد مخابرات الطيران واللواء عدنان الدّباغ مدير المخابرات العامة الذي صار وزيرا للداخلية، يرحبان بي في دمشق وهما مستعدان لإرسال من يستقبلني في المطار فوراً على الرغم من عدم صدور مرسوم العفو. أي أن مندوباً أمنياً سيستقبلني ويأخذني إلى بيتي مباشرة. وعندما يوقع الرئيس مرسوم العفو أخرج من البيت إلى الحياة

العادية. فأجبتهما: أنا محكوم قضائياً والعفو لا يصدر إلا عن رئيس الجمهورية. كلامكم على رأسي وعيني لكن، من الناحية القانونية، فإن توقيع الرئيس هو الذي يتكلم. في تلك الفترة كان هناك من التقى منصور الأطرش وقال له: يا أخي أطلب موعداً مع الرئيس الأسد وراجعه في هذا الموضوع. وبالفعل طلب منصور الأطرش موعداً مع حافظ الأسد، وتحدث إليه بهذا الأمر. فما كان من الرئيس الأسد إلا أن ضغط الجرس فجاءه "أبو سليم"*، فقال له: هات لي مرسوم العفو عن نبيل الشويري لأوقعه. وصدر مرسوم العفو وانتهت قصة المنفى.

- **لماذا لم يتحرك منصور الأطرش مبكراً لهذه الغاية.**

- ربما للتحفظ.

- **وماذا عن رفاقك الآخرين؟ ما كان مصيرهم؟**

- خالد الحكيم ونسيم سفرجلاني انتقلا إلى القاهرة. أما أنا، حينما قرأت نص المرسوم في الجريدة الرسمية، عدت إلى بيروت وأمضيت فيها شهراً حتى بعت سيارتي وأنهيت أموري الخاصة وتأكدت من أن أسمي سحب من نقاط الأمن العام في الحدود السورية، فغادرت مع حقائبي وكتبي إلى دمشق وبقيت في البيت أحد عشر يوماً لا أخرج أبداً، وصرفتها في

---

* اسمه محمد سليم دعبول من بلدة دير عطية في منطقة القلمون.

استقبال الأصدقاء والأحباب، أي يوم عن كل سنة غبتها. ولم يلبث صلاح البيطار أن عاد بعدي ببضعة أشهر.

- **عدت إلى العمل في المحاماة؟**

- أسست شركة مع بعض أصدقائي اللبنانيين ودفعت رأسمالاً كنت حققته من بيع قطعة أرض في بلدة "بلونة" اللبنانية. واستطعنا أن نصيب بعض النجاح، وبهذا تمكنت من هدم بيت جدي في الميدان، وشيدت مكانه مبنى جديداً أسكنت فيه جميع من كان يسكن في البيت القديم، وحصلت على شقتين صغيرتين ومحلين تجاريين. ومع هذا لا أقول أنني أصبحت ميسوراً بل "مستوراً" بلغة العامة. وأنا الآن لا أعمل بتاتاً، بل منصرف إلى القراءة والكتابة وصحبة الأصدقاء.

- **ماذا تتذكر من وقائع تلك الفترة؟**

- يروق لي أن أروي تفاصيل بعض الوقائع التي حدثت لي في لبنان لأنها ذات مغزى ولعلها لصيقة بي وجدانياً. فمن المعروف تاريخياً أن لبنان – وجباله على الأخص – كان ملجأ للأحرار والمضطهدين في بلاد الشام والهلال الخصيب. لكن بعد أن تأسس كمتصرفية ذات حكم ذاتي داخل السلطنة العثمانية في العام ١٨٦٤، ثم أصبح دولة لبنان الكبير في العام ١٩٢٠، صار بين طوائفه نوع من المحاصصة حتى في حرية اللجوء إليه، التي هي كمبدأ مكفولة عموماً للجميع. وخصوصاً عند المسيحيين أولاً

والدروز ثانياً، الذين يحرصون أشد الحرص على أن يبقى لبنان ملاذاً آمناً للحرية يقيهم العسف المحيط بهم منذ مئات السنين في "شرق المتوسط" بحسب تعبير الروائي الكبير عبد الرحمن منيف.

في أواخر العام ١٩٦٦، أو أوائل العام ١٩٦٧ على الأرجح، استدعاني المكتب الثاني اللبناني، فذهبت في الموعد المحدد، واستقبلني ضابط برتبة نقيب اسمه سامي الشيخة، وبدأ يكلمني بطريقة لم أرتح لها، وشعرت بأنه يمارس عليّ ضغطاً معنوياً أو (تهبيط حيطان) بحسب التعبير العامي الشائع. وفهمت أنه يريد مني أن أتعاون معهم. وعندما أبديت الرفض الحاسم، متجاهلاً ضغوطه أو متغافلاً عنها، وقف فجأة بطريقة مسرحية قائلاً: "انتهت المقابلة، وعليك أن تحضر يوم الثلاثاء المقبل، ساعة كذا". فوقفت، وبكل هدوء استدرت للخروج. فنبر بحدة: "ماذا تحمل بيدك؟" (كان معي جريدتي الأهرام والنهار). وعندما مددت يدي ليرى ما معي قال: ضعها على الطاولة. فلبّيت، واستدرت ثانية، فنبر مرة أخرى: "ماذا تحمل في جيبك؟" فمددت يدي وأخرجت مفكرة. فقال ضعها أيضاً على الطاولة. فوضعتها، وقلت له بشيء من الإنفعال: اسمع من فضلك، إن حافظ الأسد وزير دفاع سورية، وهو من هو، لا يكلمني بهذه اللهجة. أنا لاجيء سياسي في هذا البلد وأمام حكومتك واحد من أمرين: إما أن تستمر في معاملتي بحسب القوانين والأعراف المعمول بها دولياً، أو أن تطلب مني المغادرة إلى البلد الذي أختار ضمن مهلة تحددها، ولن أقبل بأمر ثالث. فأجابني: "يوم الثلاثاء ستكون جلسة للتحقيق في ما تفعله في هذا البلد". ذهبت فوراً إلى مستشفى الروم حيث كان البطريرك أبو رجيلي* يعالج من أمراض

* تيودوسيوس أبو رجيلي. وقد انتخب بطريركاً في سنة ١٩٥٨.

الشيخوخة. كان يحب أبي ويثق به منذ أن سلمه تنظيم حسـابات الأوقـاف البطريركية. وكنت في حينها عضواً في المجلس الملّي لأبرشـية دمشـق، وعضواً في المجلس الملّي العام للطائفة الأرثوذكسية الـذي يشـرف علـى مدارس الطائفة والميانم ودور العجزة والجمعيات الخيرية...إلخ، أي على كل ما هو مدني علماني غير ديني. وكانت المجالس الملية تنتخب مـن النـاس مباشرة ولا يجري تعيينها من البطرك كما هي الحال اليوم. وقـد انتخبـت قائمتنا في العام ١٩٦٥ كاملة، ونلتُ أكثر الأصوات، وآخر ناجح في قائمتنا كان يسبق أول الفاشلين بمئات الأصوات.

حكيت للبطريرك ما جرى معي، فتبرع فـوراً بالتـدخل لحمـايتي، وقال: "هو ذا الأسقف صليبا (وكان أمين السر البطريركي يومـذاك، وهـو مطران حمـاة اليوم) يذهب معك إلى فؤاد بطرس (وكان وزيراً للخارجيـة وله كلمة مسموعة في أجهزة الأمن أيضاً). أطلبا منه على لساني أن يتدخل في الأمر". وهكذا كان. وبعد أن استمع فؤاد بطرس إلينا التفت إلي وقـال: "اذهب بحسب الموعد المعطى لك يوم الثلاثاء، وستجد أن الجوّ تغيّر".

ذهبت إلى الموعد، فلم أجد النقيب الشيخة، وإنما قابلني مسـاعد أول اسمه فيليب كنعان مرحباً، وقال لي سـأعرّفك إلى ضابط آخر "بيعجبـك". قلت: من هو؟ قال: سامي الخطيب. فتعوذت في سرّي، لأن سـمعة سـامي الخطيب كانت راعبة. فقلت له: "ليش أنت من شـو بتشكي؟". قل لي مـاذا يريد مني سامي الخطيب؟ قـال: إذا تعاونت معنا نحميك ونخصـص لـك مورداً يعزز مقامك. لا أقول نعمّر لك بناية، ولكن نجعل حياتـك مريحـة. فاعتذرت بلطف، وقلت: يكفيني أن تسمحوا لي بحماية نفسي. قـال: نحـن

نضع لك حماية، أما رخصة سلاح فلا إلا إذا تعاونت معنا. واعلم أن سلاحك إذا وقع بيد دورية تفتيش فسوف تحال على القضاء ونحن لا نتدخل. وسألني: هل أن مخاوفي الأمنية جدية؟ فأعطيته اسم المكلف بخطفي كما وردني من رفاقي في دمشق. فغادر فيليب كنعان الغرفة وعاد بعد دقائق ليقول: هذا الاسم موضوع على اللائحة السوداء على الحدود في المصنع. ولكن يبدو أنه دخل من طريق المطار، ونحن نهتم بالأمر. وأضاف: هذا رقم هاتفي اطلبني وقتما تشاء. وانصرفت من عنده مكرّماً ولم أعد. لكنه مر بالمقهى الذي أرتاده وشرب القهوة معي في أحد الأيام، وسألني عن أحوالي بلهجة ودّية.

بعد أكثر من عشرين سنة، تعرّفت إلى سامي الخطيب في بيت الصديق رجا صيداوي في باريس، وكان قد أصبح نائباً ووزيراً للداخلية، فرأيت من دماثته وفطنته ما أدهشني. فرويت له القصة ومازحته قائلاً: "إني نادم على أني رفضت التعرف إليك يومذاك...!"

في صيف العام ١٩٦٩، عندما بدأ المكتب الثاني يضايقنا كي نغادر إلى بغداد، وتدخل المير مجيد أرسلان لحماية منصور الأطرش، وسليمان فرنجية لحماية صلاح البيطار، ضايقني أكثر موقف البيطار والأطرش اللذين كانا يلحّان علينا لمغادرة بيروت إلى بغداد. وقلت عندها لمنصور الأطرش: أنا ذاهب إلى ضهور الشوير والذي يريد تسفيري فليحمل معه مذكرة جلب أو اعتقال وليسفّروني بالقوة إن وجدوني. وذهبت فعلاً إلى بيت جبران الحايك وكان يصطاف في الضهور، وكنا على مودة مع اختلاف في الرأي، فهو سوري قومي ويصدر جريدة "لسان الحال"، وكان

عضواً في المجلس الملّي الأرثوذكسي. شكوت له همي، فانتخى بغضب وقال: "ليش نحن ما إلنا حصة بهذا البلد؟". اسمع: بيتي وجريدتي تحت تصرفك. وأنا مستعد حتى لشنّ حملة على الحكومة (قال: "شانتاج"). أنت تكتب افتتاحية الجريدة وأنا أوقعها. لكن المسألة قد تكون أهون بكثير، لأن فؤاد بطرس لا يرد طلباً لبيت الدباس، وهم أصحابك وأنسباؤك، فجرّب معهم.

اتصلت بأنطون دباس (أبو قيصر)، وكان يصطاف في بحمدون، فلبى طلبي بلا تلكّؤ؛ نزل صباحاً من مصيفه ليقابل فؤاد بطرس في بيته قبل أن يبدأ دوام الوزارة. وانتهى المشكل بأن وصلني طلب شفهي من مدير الأمن العام جوزيف سلامة بأن أبقى في الجبل فترة من الزمن لا تزيد على الشهر، وأن أتوقف عن التبختر في شارع الحمراء وارتياد المقاهي. أي ألا يصدر مني أي تحدٍّ علني ريثما تهدأ الأمور. وهكذا كان. وقد استنفرت أيضاً مختار الشوير وهو من آل صوايا عرّفني إليه والدي على أنه من أقاربنا. وقال لي حينذاك: لماذا لا نعمل لك معاملة جنسية؟ فرفضت.

اللافت أن الذي تضامن مع صلاح البيطار عندما نسفوا له سيارته في العام ١٩٦٦ كان بيار الجميّل زعيم حزب الكتائب: زاره وطيّب خاطره وأبدى استعداده لحمايته، وقال له صراحة: إن موقفه هذا نابع من موقفه الوطني اللبناني الذي يعتبر حرية اللجوء حقاً مقدساً، وهو المبرر الأول لوجود لبنان كوطن وككيان مستقل. وفي المرة الثانية في صيف ١٩٦٩ كان سليمان فرنجية هو مَن حمى حقه في اللجوء. وفي المرتين لم يهتم للأمر أي زعيم مسلم.

١٠ ـــــــــــــــ عصارة التجربة

- **ما هي خلاصة تفكيرك في مفاهيم التقدم والديمقراطية والنهضة؟**

- التفكير العصري أساس التقدم. وحتى الآن لم يضع العرب أساساً فكرياً للتقدم. أنا أتطرق دائماً إلى التراث والدين، بينما المثقفون التقدميون في بلادنا يقفزون جميعهم عن هذه المسألة. إن شعبنا مفتاحه الإسلام، أي أن مفتاح عقله الإسلام، ولا يوجد شعب في العالم مربوط بالله مثل شعبنا؛ يصلي خمس مرات في اليوم وتزيد صلواته في الأعياد. الناس جميعهم يستمعون إلى الآذان الذي لا ينفك يردد "حي على الصلاة حي على الفلاح". والناس جميعهم يذهبون إلى الصلاة وينسون "حي على الفلاح"، أي النجاح والتقدم. يجب أن نبدأ من هذا الباب. لتكن لدى المثقفين الشجاعة في أن يجابهوا الطقوس الدينية ويدافعوا عن الفكر الحر. الفكر الحر هو الذي يصنع الديمقراطية. الديمقراطية لا يمكن أن تأتي جراء مطالبة الحاكم بها. لم يوجد مثل هذا الحاكم قط. والأنكى أن بعض المعارضة أسوأ بكثير من الحاكم في مجال الحريات. فمن البديهي أن يرتكب الحاكم القمع والعسف، بينما هؤلاء لا يتورعون عن الذبح على الهوية.

- **إن تجربة سورية واضحة في هذا المجال. ونحن لم ننسَ ما فعل الإخوان المسلمون بالناس في الشوارع*.**

---

* بدأ الإخوان المسلمون أعمال الاغتيال في ١٩٧٦/٢/٨ حينما اغتال تنظيم "المجاهدون" الرائد محمد غرة مدير الأمن في حماة. وبين ١٩٧٧ و١٩٨٠ اغتالوا الكثيرين من بينهم: الدكتور محمد الفاضل رئيس جامعة دمشق (شباط ١٩٧٧)، علي بن عبد العلي الأستاذ في جامعة حلب (تشرين الثاني ١٩٧٧)، الدكتور إبراهيم

- إن دعوتنا إلى حرية الفكر تجعل المعادين للحرية يتهموننا بالإلحاد. أنا لا أدعو إلى الإلحاد بل إلى حــرية الفكر على قاعدة "من شـــاء فليــؤمن ومن شاء فليكفر".

- **هناك آيات أخرى في هذا المجال مثل "واقتلــوهم حيث ثقفتمــوهم". وستجد، في مجال آخر، الحديث ونقيضه معاً. المشكلة تكمن في الفكر الديني وفي الثقافة الدينية وليس في النص الديني وحده.**

- هذا قــرآن وليس حديث. والآية التي استشهدتُ بها هي من ســـورة الكهف (الآية ٢٩). أما "اقتلوهم حيث ثقفتموهم" فمن ســورة النساء (الآيــة ٩١) وفي سياق آخر. ثم قبل أن تتصادم مع الفكر الديني عليــك أن تهــيء فكراً جديداً.

- **مفهوم. لكن الفكر الديني هو الذي سيتصادم معك.**

نعامة نقيب أطباء الأسنان (آذار ١٩٧٨)، عادل مينا المدعي العام في محكمة أمــن الدولة (نيسان ١٩٧٩)، الدكتور محمد شحادة الطبيب الخاص للرئيس الأســد (آب ١٩٧٩)، الدكتور يوسف الصايغ وهو طبيب أمراض قلبية (كانون الأول ١٩٨٠)، درويش الزوني أحد أعضاء الجبهة الوطنية (كانون الأول ١٩٨٠). ومن العسكريين العميد عبد الحميد رزوق آمر فيلق الصواريخ (حزيران ١٩٧٧) والعقيد علي حيدر آمر حامية حماة (تشرين الأول ١٩٧٦) فضلا عن مجزرة مدرسة المدفعية في حلب التي فتكت باثنين وثلاثين طالب ضابط (١٩٧٩/٦/١٦).

- نصر حامد أبو زيد يقول: ما أسهل الكلام من خارج دائرة الإيمان كما يفعل صادق جلال العظم. يجب أن تدل الناس على مفاتيح جديدة للتفكير الجديد.

- **لدينا ركام ١٤٠٠ سنة من الكلام التكفيري والفتاوى القاتلة، وهو يحتاج إلى إزالة. ثم من يحمي نصر حامد أبو زيد حتى لو عمد إلى التفكير من داخل دائرة الإيمان؟**

- النهضة العربية بدأت بنزول نابليون بونابرت على البر المصري وصدامه مع المماليك. أي أن عمرها الآن نحو ٢٠٠ سنة. لماذا، إذن، ما زلنا مثل الدولاب العالق في الطين لا نستطيع التقدم؟ الفارق بين الإنسان والحيوان أن الإنسان يسأل بينما الحيوان يسير بغريزته. الإنسان يسأل فيحرض عقله على المعرفة ويحصل على أجوبة. هل تعرف ما جواب السلفيين على فكرة "السؤال"؟ جوابهم أن إبليس هو أول من سأل وناقش واعترض.

- **في الدين ممنوع استعمال العقل. المسموح هو التسليم فقط. وفي أي حال، فحتى السلفيون والأصوليون يقولون: علينا أن نستخدم العقل، لأن الله منحنا العقل، وجميع اختراعات العصر الحديث هذه جرت بإرادة من الله. ثم يتوصلون إلى فتاوى عن مباشرة الأكل باليمين والاستنجاء باليسار، وهل فرشاة الأسنان أفضل أم المسواك ... الخ. وكان شكيب أرسلان سأل منذ زمن طويل: لماذا تأخر المسلمون وتقدّم غيرهم؟ وحتى اللحظة لا يوجد جواب قاطع وحاسم، مع أن هناك**

إجابات كثيرة. هذا هو الفكر والاختلاف. الفكر ملاعب والإجابات متعددة ومختلفة في آن.

- ما قيمة نصر حامد أبو زيد ومحمد أركون ومحمد شحرور وهشام جعيط ومحمد عابد الجابري وهشام شرابي وأدونيس؟ قيمتهم أنهم يرجعون إلى الينابيع ويحاولون الاستنباط منها. أي أنهم يحاولون أن يجعلوا الفكر العربي يستأنف مسيرته التقدمية التي توقفت منذ نحو ألف سنة.

- **الأساس هو المجتمع والحضارة. أما الفكر فهو جانب من المجتمع والتحضر. وسأضرب مثلاً بسيطاً على ذلك: فمنذ نحو ١٠٠ سنة احتدم نقاش كبير في جدوى تعليم البنات، وهل يجوز تعليم البنات أساساً. البعض، كما هو معروف، رفض تعليم البنات رفضاً قاطعاً، أما البعض الآخر فقبل تعليمهن واشترط لذلك الاقتصار على العلم النافع، أي الخياطة وقراءة القرآن وبعض الحساب. بالطبع لم ينتصر أي فريق على الآخر حينذاك. الذي انتصر في النهاية هو المجتمع وسيرورته. اليوم لا يناقش أحد هذه المسألة، لأن الحياة العصرية أرغمت الجميع، بمن في ذلك المتعصبون السلفيون، على تعليم البنات. والأمر نفسه ينطبق على السفور. وكان النقاش في السفور أكثر حدة من النقاش في تعليم البنات. وقد إنبرى المتعصبون إلى تكفير الذين يطالبون بالسفور. ولكن ماذا حصل لاحقاً؟ اليوم تخرج المرأة العربية سافرة من غير أن يتجرأ أحد عليها، لأن تحديات العصر أرغمت العقل السلفي على الانصياع. اليوم إذا لم تستخدم الكمبيوتر فمعنى ذلك أنك خارج**

العصر. لكن الكمبيوتر ليس شيئاً تأكله وترميه؛ فعندما تستورد السلعة تستورد ثقافتها معها. أنت مضطر، حين استخدام الكمبيوتر، إلى أن تشترك في الإنترنت، وأن تتعلم الإنكليزية وتتقن تنضيد الحروف وتجيد كتابة الرسائل الصحيحة بالإنكليزية، وأن تتصل بالآخرين على الشبكة، وأن يكون لك موقعك الإلكتروني ... وهكذا. إذن العصر يفرض أن تتغير كي تظل قادراً على الاستمرار، وإلا تخرج إلى العراء.

- ربما لديك الحق في هذا. وأنا أعرف الكلام الذي تقوله هنا، وكنت مقتنعاً به في مرحلة سابقة. لكن تجربتي على مدى ربع قرن ترغمني على القول إن أكثر ما أخشاه أن تصبح مثل التقدميين اليساريين، غير راغب في مواجهة الموضوع. غريب أمرنا حقاً نريد أن نخترع البارود ونكتشف أميركا. والبارود اخترعه الصينيون منذ آلاف السنين وأميركا اكتشفها كولومبس منذ خمسمئة سنة. لماذا لا نأخذ تجربة أوروبا وكيف نهضت وخرجت من ظلام العصور الوسطى*؟!

- **أنت تعرف أنني خضت مواجهات قاسية مع التيار الديني، وأنني أكثر ما أرغب فيه هو السجالات الرفيعة في موضوع الدين والتاريخ والتقدم والتخلف وقضايا العصر الراهن. وللتذكير فقط، كان ماركس**

---

* احتاجت أوروبا لنهضتها ثلاث ثورات اقتصادية حاسمة: توحيد السوق عقب اكتشاف أميركا ورأس الرجاء الصالح، وثورة المانيفاتورة، والثورة الصناعية الأولى. واحتاجت أيضا ثورتين ثقافيتين: عصر النهضة في القرن السادس عشر وعصر الأنوار في القرن الثامن عشر.

يقول: إن مدفعية السلعة قادرة على دك أقوى الأسوار الصينية. السلعة غيرت في خمسين عاماً طراز القرية الهندية المتوارث منذ ثلاثة آلاف سنة. إن تحديات عصر العلم والتكنولوجيا تفرض علينا أننا حينما نستورد السلعة نستورد ثقافتها معها. لأن التكنولوجيا وحدها ليست إلا سلعة فقط، ومن يمتلك المال يشتريها. لا معنى للتكنولوجيا وحدها، فهي سلعة. لكن الثقافة الغربية ليست مجرد مائدة نأخذ منها ما نريد ونهمل ما لا نريد. إنها ليست "بوفيه" مفتوحة فأحمل صحني وأجول بين صنوفها وأختار ما يلائم معدتي وذوقي. اليوم لا يجري الكلام على التكنولوجيا وحدها. وكي تتقدم عليك بالعلم الذي أنتج التكنولوجيا، وبالتفكير الذي أدى إلى هذا العلم. ومثلما أيقظ نابليون بونابرت فينا أسئلة التقدم والتأخر، ها هي إسرائيل توقظ فينا الكثير من الأسئلة الأخرى. وفي عالمنا العربي تبدو تحديات الخارج هي التي تفرض علينا طراز التغير، بينما الداخل هو المعيق للتطور وهو الذي يعتقل الفكر والحرية معاً.

- الجميع يتجنب الإجابة عن سؤال حيوي هو: كيف هزمتنا إسرائيل؟

- **في أي حال، في أثناء مراجعتك الفكرية، ألم تتأثر بالماركسية؟**

- لا، لأن ذلك حصل سابقاً.

- **الكثير من البعثيين تحوّلوا إلى الماركسية أمثال فواز طرابلسي في لبنان. وثمة عدد من القوميين العرب فعلوا الأمر نفسه أمثال محسن إبراهيم ونايف حواتمة.**

- كنت بين سنتي ١٩٦١ و١٩٦٢ وحتى عقد المؤتمر القومي السادس للحزب في ١٩٦٣/١٠/٥ أدعو إلى الانتفاع بالماركسية ولا سيما في منهج التفكير. وطالما كنت أعول على النظرية أكثر من الشعارات. ومنذ تعرفت إلى ياسين الحافظ في عهد الوحدة صرت واحداً من أربعة أشخاص يجتمعون في كل ليلة تقريباً في عيادة الدكتور جمال الأتاسي، وننتظر حتى ينهي معالجة آخر مريض، لتبدأ جلستنا نحن الأربعة: جمال الأتاسي وعبد الكريم زهور وياسين الحافظ وأنا.

- **حسناً. كيف تنظر إلى النشاط المحموم في سورية اليوم في ما يسمّى هيئات المجتمع المدني والمطالبة بالحريات الديمقراطية والدستور وحقوق الإنسان؟ وهل ترى مستقبلاً لهذه الحركة في ظل نظام حزب البعث؟**

- سيزعجك رأيي بالتأكيد. أنا أعرف هذا النوع من السياسيين ومن العمل السياسي. إنه مجرد "موضة". أقول هذا لأنني أعرف بعض المنخرطين في هذا التيار، حتى أنني أعرف أسرارهم. وما أخشاه أن ينطبق عليهم تعليق أحد ظرفاء بيروت* على إحدى المجموعات السياسية؛ فقد قال: "إن ثقافتهم شهادة، وطموحهم وظيفة، وفضائلهم رذائل مؤجلة". مع الأسف الشديد أقول ان تجربتي في حزب البعث جعلتني أتوجس من العقائديين أمثال ميشال عفلق الذين كانوا يكيلون الاتهام لأكرم الحوراني وأنصاره بأنهم انتهازيون ووصوليون. لنتذكر كم هي نسبة الذين صمدوا من

---

* المقصود إليه منح الصلح.

أنصار أكرم الحوراني، وكم هي نسبة الذين انبطحوا أمام الإغـراءات مـن الصف الآخر الذي كان يقوده ميشـال عفلق. لـذلك أنظـر بعـين الريبـة والاستخفاف إلى بعض هذه الهيئات. وفي أي حال إذا نجحوا فلا مانع لـدي وأقول عند ذلك "أنا غلطان".

- **لعل بعضهم تغيّر كثيراً. فلا تستطيع أن تحكم على الناس بناء علـى ما جرى منذ أربعين سنة فقط. ثم أن من بين هؤلاء الناشطين أسـماء لامعة لا غبار على تجربتها الفكرية.**

– بين الأسماء اللامعة هناك شخص واحـد لا أستطيع إلاّ أن أحترمه هو رياض الترك مع تحفظي عن آرائه ومواقفه*. إذا كان هؤلاء يطـالبون الحكم السوري بالانفتاح أكثر على الديمقراطية وبالسماح بتأسـيس مجتمـع مدني فجوابي من شقّين: أولاً، المجتمع المدني يصنع ولا يُطالب به. ومـن المحال أن يوجد حكم يمنحه أو يقدر على منع قيامه. ثانيـاً، المـدخل إلـى الديمقراطية هـو النقاش مع السلطة. أي أن تمسك خطاب القَسَـم للـرئيس بشار الأسـد وتقرأ الفقرة التي تحدثت عن هذا الموضوع ثم تفتتح النقـاش معه ومع السلطة في هذا الشأن. ولعل الأمور تبدأ بعلاقات بسـيطة ضـمن البيت، ثم بالمراسلة المباشرة قبل أن يخرج هذا النقاش إلـى العلـن وإلـى الجرائد.

---

* الأمين العام السابق للحزب الشيوعي السوري – المكتب السياسي. وهـذا الحـزب غير اسمه إلى "حزب الشعب الديمقراطي" وانتخب عبد الله هوشة أمينا عامـا فـي المؤتمر السادس للحزب الذي عقد سرا في أيار ٢٠٠٥.

وإذا رفضت السلطة النقاش في هذه الموضوعات؟

- أنت تريد الديمقراطية أو إسقاط الحكم؟ إذا أردت إسقاطه فلحساب من؟ وما هو البديل؟ هل البديل هو الكتابة في جريدة "النهار" وفي ملحق "النهار" فقط؟

- **لو كانت الصحف الأخرى تفسح في المجال للمعارضة للتعبير عن آرائها لما كتب أحد في "النهار". هؤلاء لم يجدوا أمامهم أي منبر للكتابة غير "النهار".**

- ليؤسسوا جريدة حائط، أو يصدروا جريدة لهم. زكي الأرسوزي في الاسكندرون بدأ بجريدة مخطوطة. ليعملوا مثل جريدة "الكلب" التي اصدرها صدقي إسماعيل.

- **هل سيسمح لهم بإصدار جريدة؟ ومع ذلك أصدروا نشرة عن الحياة الديمقراطية؟**

- لا.

- **كيف لا؟ لقد أصدروا أكثر من نشرة*.**

---

* أصدرت جمعية حقوق الانسان في سورية نشرة "تيارات" في سنة ٢٠٠٢، واصدرت لجان المجتمع المدني نشرة "مواطن" في سنة ٢٠٠٢، واصدرت لجان حقوق الانسان نشرة "أمارجي" في سنة ٢٠٠٢ أيضاً.

- أنا اشتهي أن أرى واحداً منهم متفرغاً للعمل السياسي، ومستعداً لدخول السجن غير رياض الترك.

- **دعنا ننعطف إلى موضوع مختلف. ما خطابك للأقليات القومية في عالمنا العربي؟ والدافع إلى سؤالي هذا هو أن الحركة القومية العربية أغفلت إلى فترة طويلة مشكلة الأقليات. اليسار والشيوعيون أيضاً أغفلوا مشكلة الأقليات إلى حدٍّ ما. الخطاب القومي العربي كان يرى أن المشكلة تكمن في الاستعمار والتجزئة فقط. فإذا رحل الاستعمار وتوحدت بلادنا حلّت المشاكل جميعها. أما الشيوعيون فرأوا أن المشكلة تكمن في السيطرة الطبقية للبرجوازية أو الإقطاع، فإذا انتصرت البروليتاريا حلت المشكلة تلقائياً. لكن، في معمعان هذه المجادلات، كان ثمة ما هو مخفي، فلا أحد يتكلم عليه أو يتحدث عنه وهذا الشأن اللامرئي هو الطوائف والقوميات والشعور بالغبن والاضطهاد. انه الأكراد والتركمان والشركس وبقية الأقوام التي لم ينجح النسيج الثقافي العربي في دمج هؤلاء في بنيته الاجتماعية والعمرانية. فظلت هذه الأقوام مقيمة على الأرض العربية لكنها ليست منتمية تماما إلى هذه الأوطان.**

- كل من حاول أن يحل مشاكل المجتمع المعقّدة بمعادلة ذات مجهول واحد دق رأسه في الحائط. جوابي عن هذه المشكلة هو العودة إلى العقل تماماً مثلما حصل في حزب البعث حينما كان البعث بقيادة علي صالح السعدي. فقد أنجز عدد من الحزبيين دراسة عن الأكراد، وانتهوا بعد

المناقشة إلى ضرورة منح الأكراد الحكم الذاتي وحقوقهم الثقافية واللغوية. وأبعد من ذلك، فإذا وجد شخص واحد مضطهد في دولة ما بسبب أصوله العرقية أو الدينية أو أي سبب موروث فهذا يعني أن ثمة خللاً خطيراً.

- **مضطهد بسبب انتمائه إلى هذه الأقلية أو تلك.**

- بعض رفاقي من البعثيين القدامى أخذهم التيار السلفي معه من غير أن يصبحوا سلفيين، لكن عواطفهم وأفكارهم صارت سلفية، مع أن بعضهم كان يدّعي الإلحاد، وكان يرفض الصلاة أو الصوم في رمضان. وقد صار اليوم لا يقبل صلاة الجمعة إلاّ في الجامع ويدور من جامع إلى جامع ليتعرف إلى شيوخ الجوامع. وفي إحدى المناقشات مع هؤلاء قلت لهم إنني ولدت، مصادفة، في عائلة وطنية مسيحية، فكيف تعتبرونني من الأقلية وأنتم تزعمون أن جميع المواطنين متساوون أمام القانون؟ يا أخي حكم الشرع الإسلامي أفضل من الادعاء التقدمي الكاذب. لأن المسلم يعرض عليك أحكام الشرع. والشرع أحكامه معروفة في شأن الذمي الذي أمامه ثلاثة خيارات: إما الإسلام أو الجزية أو الرحيل. أنا كمسيحي أختار بملء إرادتي واحداً من هذه الخيارات الثلاثة. أما أن تقول نحن متساوون بينما في وعيك الباطن تؤمن أن ليس لي الحق في المساواة معك لأنني مسيحي فهذا خطير جداً. أما القومية العربية كما أفهمها فهي جامع للمواطنين وضد التفرقة. فإذا كانت هناك أقلية عرقية مستعدّة لاحترام قوانين البلد العربي، ولديها، في الوقت نفسه، مطالب ثقافية، ولا ترغب في الانفصال فهذا أمر جيد. إن دستور حزب البعث الذي وضع في سنة ١٩٤٧ ينص على ما

يلي: "يُجلى عن الوطـــن العربي كل من دعا إلى الانفصال". ويعتبر عربيـــاً كل إنسان أقام فوق الأرض العربية ويتكلم العربية. ومَن يرغب في الكـــلام بلغته القومية ويريد الحفاظ عليها فلماذا أمنعه؟

- **ماذا تفعل بجنوب السودان في مثل هذه الحال؟ فأهل الجنـــوب فـــي السـودان يقولون: يا أخي نحن لسنا عرباً، نحن أفارقة. أنظـــر إلـــى سحنتنا وإلى لغتنا وإلى دياناتنا. نحن أخوة مع العرب لكننا لسنا عرباً. ونتيجة لذلك صاروا يعتقدون أن العرب هم استعمار أمعن فـــي فـــرض لغته ودينه عليهم. هم يقولون أيضاً: يا أخي نحن لنا مصالح مشتركة، لكننا نريد حق الانفصال. وبالطبع ثمة من يقول: لا، نريد أن نبقى فـــي السودان الموحّد الديمقراطي لا الســـودان الإســـلامي. والأمـــر نفســـه موجود لدى الأكراد؛ بينما بعض القوى تطالب بالانفصال وإقامة دولـــة كردستان التاريخية. أنت كيف تعالج مشكلة الانفصال؟**

- لا يقوم الوطن الحر إلاّ على المواطنين الأحرار. أما القمـــع فكـــان دائماً مولّداً للقهر، والقهر يولّد الانفصال. علينا إيجاد حل لمشكلة الأقليـــات. فإذا لم نجد حلاًّ يجب النظر إلى المصلحة. هل مصـــلحتنا الاســـتمرار فـــي الحروب أم نعقد صلحاً يفسح في المجال للآخر أن ينال بعض حقه حتى لـــو وصل الأمر إلى الانفصال؟

- **أنا أرى أن على الأكثرية أن تعرض الديمقراطية والمساواة التامـــة على الأقلية. وعلى سبيل المثال سورية، وهي البلد الذي فيه الـــبعض**

القليل من التسامح والمساواة، أرفض أن لا يكون من حق المسيحي أن يصبح رئيساً للجمهورية. عندما أقول مساواة أعني الحق التام لجميع المواطنين في تسلم جميع المناصب المتاحة.

– عندما تصل إلى هذه النقطة يصبح القمع قمع الأكثرية. ثم ما قيمة رئاسة الوزارة وحتى رئاسة الجمهورية إذا كانت بدل من ضائع؟ لا بد من العلمانية في سبيل المساواة، ولا بد من قانون مدني في الأحوال الشخصية.

- **طبعاً هناك ديكتاتورية الأكثرية. لكنني أقصد الأكثرية لا بالمعنى العددي بل بالمعنى الديمقراطي. لنأخذ السودان مثلاً؛ فإذا اعتبرنا العرب هم الأكثرية فعليهم أن يعرضوا حلاً ديمقراطياً يتيح المساواة التامة لجميع السودانيين، أو أن تقرر الأقلية، عند ذلك، ماذا تريد حتى لو كان قرارها الانفصال. كيف أطالب بعربستان إذن؟ لماذا أطالب بحق العرب في الانفصال في عربستان أو في الاسكندرون وكيليكيا ولا أمنح أهل جنوب السودان الحق نفسه؟**

– تماماً. لماذا أقول إعادة النظر في طريقة التفكير وإعادة النظر في فهمنا للدين. إنني أريد الوصول إلى هذا العقل التقدمي. لأنه إذا ساد هذا العقل التقدمي في تفكيرنا وفي إدارتنا للمجتمع، فإسرائيل كلها "خذها من هذا الشارب* ".

---

* تعبير مجازي يقصد منه أن إسرائيل ستهزم إذا وصلنا إلى هذا المقام.

- **إسرائيل متفوقة علينا لأننا منقسمون ومتفسخون.**

- القومية العربية عندما تصبح عند هذا المستوى من التفكير تستوعب إسرائيل وتحصرها في أضيق حيز. وتحوّل من يريد البقاء فيها من أداة لإعاقة النهضة العربية إلى أداة لتسريع هذه النهضة.

- **أود أن استطرد قليلاً في هذه المسألة. فأنا أعرف إيران إلى حد ما، لأنني زرتها أكثر من ثماني مرات، وفي كل مرة ألتقي نخباً من أهل عربستان، وهم عرب أقحاح، ولهجتهم عراقية خالصة، وهم أبناء عشائر الخفاجيين والتميميين والطائيين...الخ.**

- مثل سكان جنوب غرب تركيا، من ديار بكر إلى أضنة.

- **أهل عربستان شديدو التمسك بعروبتهم وشديدو التعصّب القومي معاً، ويكرهون الفرس أيضاً. لكن عندما أسألهم: هل تريدون الانفصال عن إيران والالتحاق بالعراق، تكون الأجوبة كلها بالرفض. هم يقولون: نحن عرب لكننا مواطنون إيرانيون. وعندما كنت أسألهم لماذا لا ترغبون في الانفصال، يكون الجواب الفوري أن لا وجود للديمقراطية في العراق، مع أن الديمقراطية في إيران غير موجودة أيضاً.**

- ربما كان الأصل في هذه المسألة الانتماء المذهبي لأهل عربستان. وربما أن حكم القرآن هو حكم القانون مهما تعسف "الملالي". أما الحكم

التقدمي المزيف فعندما يصبح الحاكم هو القانون وهو الدولـــة، فهـــات يـــا كوارث...!

- **معظمهم من الشيعة وفيهم بعض السنّة. لكن لو انضم هــؤلاء إلـــى العراق يصبحون أكثرية. فالأكثرية في العراق الآن مـــن الشـــيعة.فـــي الأمس كانوا متعلقين بالبعث وبالوحـــدة العربية، وتلقوا المساعدات من العراق. لكنهم بعد الحرب، وبالتحديد منذ سنة ١٩٨٠ فصاعداً، أعادوا النظر في الكثير من الأمور.**

- صدام حسين والفكر العفلقي الموجود على رأس القيادة القومية دمر فكرة الانتماء القومي ومفهوم الوحـــدة العربية. بدأت القصـــة ســـنة ١٩٧٤ حينما راح النظام يمنع بعض التقاليد الشيعية. وافق على الاحتفـــال بـــذكرى عاشوراء لكنه مَنَعَ الاحتفال بأربعين الإمام الحسين. لمـــاذا؟ لمـــاذا تتـــدخل السلطة في شأن من شؤون المجتمع؟ وعندما انتصرت ثورة الخمينـــي فـــي إيران وشعر الحكم العراقي بالتهديد المفاجئ نبش عن جنسية نحو ٥٠ ألـــف مواطن من أصول فارسية، وأرغمهم على الرحيل إلى إيران.

- **الرقم هو ٢٠٠ ألف مواطن.**

- زعموا أن أصولهم فارسية، فعليهم إذن الرحيل إلى فارس.

- **لكن هؤلاء مواطنون عراقيون مهما تكن أصولهم القديمة.**

- لديهم أملاك وبيوت. وضعوهم في شاحنات ورموهم خلف الحدود.

- **ثمة سؤال يتردد كثيراً في الولايات المتحدة الأميركية هو: لماذا يكرهنا المسلمون؟ وعلى هذا الغرار أقول: لماذا يحبنا الأكراد الذين أبدناهم في عملية الأنفال، وضربنا حلبجة بالكيماوي؟ وفوق ذلك، لماذا سيحبنا الغرب الذي لا يعرف من وجهنا إلاّ أبو قتادة الفلسطيني وأبو حمزة المصري وأبو بكري السوري وأبو مصعب الزرقاوي، وهؤلاء من مشتقات "طالبان" ومخلوقاتها العجيبة؟**

- دعني أعود إلى العراق لأن هناك ما هو أسوأ بكثير من قصة الاضطهاد والقتل والتهجير والكيماوي. هناك القانون والتمييز بموجب القانون. كان صدام حسين يزعم أنه يريد أن يعيد بغداد إلى ما كانت عليه قبل عهد عبد الكريم قاسم، أي مدينة ذات أكثرية سنية. فأصدر قوانين سرّية لا أحد يعرف عنها شيئاً، لكن بدأ تطبيقها في الدوائر العقارية. وعلى سبيل المثال، إذا كنت شيعياً فممنوع عليك التملّك في بغداد. وهذه هي أولى الدرجات. أما إذا كنت شيعياً ومالكاً أحد العقارات وأردت البيع فيجب أن تبيع سنياً بالتحديد.

- **في لبنان صدر قانون يمنع الفلسطيني من أن يتملك منزلا. والأسوأ أن من كان مالكا لأحد العقارات فلا يستطيع أن يورث أبناءه بعد موته.**

- لا تفتح هذه السيرة، ولا تشكو لي كي لا أبكي لك. فالمشكلة موجودة في عائلتي، لأن أختي كانت متزوجة فلسطيني، وقد توفي، وابنها

هو الأقرب إلي في العائلة، وأمه هي أختي الكبيرة التي ربّتني، فلا تــدخلني في أمور موجعة.

- **هل يحدث مثل هذا الأمر للأكراد في سورية؟**

- لا.

- **يروج الأكراد أن السلطات السورية منعت الجنسية عن نحــو ٢٠٠ ألف كردي.**

- قصة الأكراد في سورية تخضع للمد والجزر. لأن هناك الكثير من الأكراد دخلوا إلى سورية تسللاً واستولوا على أراضي المسيحيين كالسريان وحتــى علــى أراضي المسلمين. ومع أن هناك ظلما على بعض الأكراد، لكن لا وجود لأي تمييــز عنصري في سورية ضدهم. أنا شبه متأكد من وجود تمييز طائفي في العراق. نعم، يوجد تمييز في القوانين والقرارات. العراق كان دائما يُحكم من الوسط. هكذا هو منذ تأسيسه، وحتى منذ زمن السلاجقة. أي منذ ما يقارب ٨٠٠ سنة، والحكم في يد السنة العرب ثم انتقل إلى السنة الأتراك، وفي زمن الإنكليز عاد إلى السنة العــرب. لــدى الشيعة أمر اسمه رفض الدولة، فهم لا يقبلون وظيفة في الدولــة لأنهــم يعتبرونهــا حراما.

- **وظيفة في دولة ناصبة.**

- لهذا برعوا في التجــارة وأقل من ذلك فــي الزراعــة، وأصــبحوا أغنياء. لكن صــدّام حسين نقل الأمر إلى مرتبة جديدة فأراد أن يغيــر مــا

حصل في عهد عبد الكريم قاسم، أي أن يمنع تدفق الشيعة بكثافة إلى بغـداد وجعل إقامتهم في مدينة الثورة*. عندما خاض صدّام حسين مغامرة الحـرب ضد إيران اكتشـف أن الأميركيين يريدون منــه الكثيـر ولا يعطونـــه إلاّ القليل. وفي تلك الأثناء اكتشف مدى تأثير الإسـلام في الجمهـور، الأمـر الذي لم يعايشه البعث مباشرة، ولم تعالجه النهضة العربية منذ نشأتها حتـى الآن. صدّام مجرد شخص لا يعرف أبعد من العادات البدوية والقليـل مـن الكتب.

• **صار كاتب روايات في أواخر عهده في السلطة**.**

– في أواخر عهده تفاقم لديه مرض جنون العظمة فـأعمى بصـيرته. ومن أسباب ذلك المدائح التي كانت تكال له بلا حسـاب ولا سـيما مـدائح الكتاب والشعراء والفنانين وأكثرهم مرتزقة، ومدائح القادة الحزبيين وعلـى رأسهم ميشال عفلق الذي لو كان نزيها لكان فتح له ذهنه، لكن عفلق لم يهتم إلا بنفسه. صدّام رأى أن الخطر يأتي من إيران، ورأى مدى تأثير الإسـلام في الشبان الذين يهجمون على المـوت وكأنهم ذاهبون إلى الجنّـة. وهنـا

---

* صار اسمها بعد سقوط نظام صدام حسين "مدينة الصدر". ومدينة الصدر هذه كانت في سنة ١٩٥٨ مجرد حي يدعى "خلف السدة" أي خلف المكان الذي يمنع فيضـان دجلة. وكانوا يسمونها أيضا "الجوادر" أي المخيمات، وكانت مبنية مـن الصـفيح وسعف النخيل. وفي سنة ١٩٥٨ صار اسمها "مدينة الثورة" ومدَّ عبد الكريم قاسـم إليها الكهرباء.

** أصدر أربع روايات هي: "زبيبة والملك" و"القلعـة الحصـينة" و"رجـال ومدينـة" و"اخرج منها يا ملعون". لكنه لم يوقعها باسمه الصريح بل بعبارة "رواية لكاتبها".

في الشبان الذين يهجمون على المـــوت وكأنهم ذاهبون إلى الجنّـــة. وهنـــا ركزت الدعاية الخمينية على مسيحية ميشـــال عفلق، وعلـــى كفـــر الحكـــم البعثي. في تلك المرحلة أصبح صدّام حسين مؤمنا فعـــلا وصـــار يصـــلي ويصوم. أي أنه اقتنع بالإسلام وإن ظل يتكلم على عصرنة الإسلام. وكـــي يواجه الدعاية الخمينية وضع أهم كلمتين جاء بهما الإسلام "الله أكبر" علـــى العلم العـــراقي، لكنه لم يفهم معناهما البتة. ثم انتظر حتى مات عفلق ليعلن أن عفلق اعتنق الاسلام ديناً له. وكان يريد بهذا أن يقول لمن يأخذ عليه أنه تبع أحد النصارى، ان هذا النصراني اعتنق الإسلام ومات مسلما، فـــانظروا كيف دفن على الطريقة الإسلامية. وأذكر نكتة رواها لـــي صـــديق اشـــتهر بظرفه قال: إن صدام وضع على العلم "الله أكبر" ولكن كتب تحتها بحروف صغيرة: "وبعده صدام".

- **صدام حسين جعل لنفسه نسباً علوياً.**

- نعم. أحضر شجرة عائلته وعلّقها على قبر الجندي المجهول، وفيهـــا ترتيب يعود إلى أربعة عشـــر جيلا إلى الوراء حتى وصـــل إلـــى الامـــام الحسين بن علي بن أبي طالب. فكيف يصح أن يُشهر ميشال عفلق إســـلامه من دون شهود ومحكمة؟ على الأقل لينطق بالشهادتين أمام الناس. ترى هل نطق بالشهادتين أمام صدّام حسين وأحمد حسن البكر فقط؟ متى كان الإسلام يتم سرّاً لا جهراً. هذه انتهت منذ أن أسلم عمر بن الخطاب وحمزة. الشـــائع أن يقال للواحد تنصر أو تهود أو صبأ أو تزندق. لكن لا يقال أسلم بل يقـــال أشـــهر إسلامه، أي أن إعلان الإسلام يحتاج إلى إشهار. أما قصـــة إســـلام ميشال عفلق فهي ملفقة لأسباب سياسية. ما هذا الإسلام لرجل لديـــه أربعـــة أبناء وزوجة ولم يقتنع أحد منهم بإسلام والدهم وظلوا مسيحيين؟

- **انتمى أبناء ميشال عفلق إلى حزب البعث؟**

- لا أدري.

- **قلت إنك تعتقد أن من الضروري العودة إلى الإسلام بأصوله، أي العودة إلى أساس الإسلام وأصله. المشكلة هي أن الأصوليين الإسلاميين أنفسهم يقولون هذا الكلام، ويفهمون فكرة العودة إلى الأصول على أنها العودة إلى قتل المرتد مثلا، والعودة إلى أحكام أهل الذمة. وسيجد السلفي الكاره لمواطنيه سندا لكراهيته، وسيجد فيه الأصولي الطامح إلى السلطة، ما يعينه على تكفير السلطة الحاكمة ليحل محلها باسم الإسلام.**

- لا تستطيع تجاوز الإسلام، كل من تجاوزه فشل. وكل من هرب منه فشل أيضاً.

- **والذين تمسكوا بالفقه الاسلامي حرفياً دمّروا مجتمعاتهم.**

- الذين تمسكوا به أم الذين تمسكوا بأفكار عصور الانحطاط؟ أنا أدعو إلى إحياء التراث العقلاني في الإسلام منذ المعتزلة وحتى ابن رشد.

- **الجميع يستند إلى الفكر الديني، حتى أسامة بن لادن والإخوان المسلمون يستندون إليه، والاحياء عملية وهمية.**

- بدأت النهضة العربيـــة منذ ظهور الرســـالة المحمدية، وهـــي ذروة لنهوض سابق بدأ قبل الإسلام. وجاء محمد، هذا الرجـــل العظـــيم، ليحمـــل الرسالة ويقود العرب ويوحدهم. وظلت الحال في صعود نحو ثلاثة قـــرون ونصف القرن. ثم أغلق باب العقل، واستقرت الحال على أربعـــة مـــذاهب، علاوة على مذهب خامس.

- **المذهب الجعفري.**

- نعم. أما المذاهب الأخرى فهي ممنوعة.

- **تقصد بعض طوائف الباطنية.**

- لا، لا، إنها مذاهب إسلامية.

- **مثل الإسماعيلية والدروز والعلويين.**

- هي مذاهب وليست ديانات.

- **لكن هذه المذاهـــب تحولت، بالتدريج، إلى طوائف، وما عادت مجـــرد مذاهب كالشافعية والحنبلية والمالكية والحنفية.**

- أنت تقول هذا الكلام. أما هم فيقولون إنهم مجرد مـــذهب إســـلامي وليسوا طائفة جديدة.

- **هذا من باب التقية، وليس من باب الواقع. وهنا تكمن أهمية السؤال: لماذا اضطرت بعض الطوائف إلى اتباع التقية؟ أليس لأن معتقداتها تؤدي إلى اتهامها بالردة؟**

– منذ إغلاق باب الاجتهاد وحتى الآن لم نستطع النهوض أبداً. وأنا أعتقد أن باب النهضة يبدأ من هنا؛ أي من الفهم العصري للإسلام.

- **أما أنا فأقول أن هذا الأمر يبدأ بنقد الفكر الديني.**

– سأضرب لك مثلا. الكثيرون كتبوا عن إسلام ميشال عفلق، والكثيرون صدّقوا القصة وامتدحوا صاحبها. الناس تريد الشكل ولا تريد الفكر. الوحيد الذي قال كلاما مختصرا مفيدا في هذا الأمر هو نصر حامد أبو زيد الذي تساءل عن مضمون إسلام ميشال عفلق، وهاجم "عقل" الناس ولم يهاجم صدّام حسين. ورأى أن صدّام حسين أراد أن يقول للمسيحيين العرب إنه إذا أردتم الانخراط في السياسة فعليكم أن تصبحوا مسلمين، أي أنكم كمسيحيين ليس لكم الحق في السياسة، أي أنكم مواطنون من الدرجة الثانية. ومعنى ذلك أن الخمسة عشر مليون مسيحي الموجودين في الهلال الخصيب ومصر لا قيمة لهم. يا سيدي الناس في المغرب من ليبيا إلى مراكش على دين واحد ومذهب واحد. فأين التقدم؟ وفي الماضي وقف علي الطنطاوي خطيبا في الجامع الأموي وقال إن أبعد مسلم في باكستان أو إندونيسيا أقرب إلي من فارس الخوري – وكان يومها رئيساً للوزراء – ومع ذلك لم يستهجن أحد هذه الخطبة. ثم من قال ان نقد الفكر الديني يتعارض أو لا يتماشى مع الفهم العصري للإسلام؟ أنا أقول إنه لا بد من

جلب الإسلام إلى القرن الحادي والعشرين حتى لا يعود بك إلى القرن السابع.

- **رابطة الدين أقوى من رابطة القومية. هذه مسألة معروفة في الأدبيات الدينية. والقومية معادية للفكر الديني. وعلى سبيل المثال قرأنا على حيطان مدينة بيروت إبّان الحرب الأهلية شعارات تقول: "لا للصهيونية، لا للقومية العربية، نعم للإسلام".**

- القومية معادية للدين، والديمقراطية معادية له أيضا. الفكر الإسلامي هو الذي يعادي الديمقراطية والقومية والعلمانية. لا بد أن ينبثق فكر من قلب دائرة الإيمان، ومن قلب الإسلام بالذات، ليفتح دربا عقليا وفكريا جديدا، ويبرهن أن في الإمكان الحفاظ على الدين والإيمان وفي الوقت نفسه اكتساب العصر ومنجزاته.

- **في أي حال ربما يقدم لنا الإسلام الأميركي والأوروبي إسهاما معرفيا في هذا المجال. الآن هناك ٣٠ مليون مسلم في أوروبا وأميركا يعيشون في دول علمانية. وبدأت تظهر منذ فترة الدعوة إلى قيام فقه الأقليات لمعالجة هذا الوضع وللإجابة عن تساؤلات معاصرة تتعلق بإمكان أن يتعايش الإسلام مع العلمانية.**

- لن يخرج من هذه الظاهرة أي أمر نافع. الأساس هنا في بلادنا، ومن مصر بالتحديد. وأي تفكير جديد لا يخرج من مصر لن ينجح في العالم العربي إلا إذا تبنته مصر.

• **مصر كانت دائما محور هذه المنطقة. وكل ما يصدر في مصر ينتشر في العالم العربي كله بالتدريج. لكن، بما أن مصر هي الآن في دور الانحطاط، فالانحطاط يعم العالم العربي بدوره. الأصولية بدأت في مصر، والسلفية بدأت من هناك. والانحلال في الفكر والفن والأدب والسياسة بدأ في عهد السادات ثم شمل العالم العربي.**

- المهم أن تبدأ النهضة من مصر. أما من الخارج فلا أمل فيها. هذا رأيي ولكنه يحتمل الخطأ.

• **أحد مشايخ المساجد الكبرى في إحدى المدن الأميركية طلب نقل صلاة الجمعة إلى يوم الأحد لأن لا أحد يأتي إلى المسجد يوم الجمعة. فالناس هناك تعمل أيام الجمع، ولا يمكنها ترك أعمالها والذهاب إلى الصلاة. أضرب لك هذا المثل لأشير إلى أن العصر سيجبرنا على التغير. الفكر وحده لن يفعل شيئا. إن العلم والاكتشافات العلمية والتطور المذهل في هذا المجال، ذلك كله سيرغمنا على الخضوع لمنطق التغير.**

- لكن بينما سيجبرنا هذا الأمر الذي تتحدث عنه على التغير ستنهبنا أميركا وإسرائيل. ثم أنا لا أقول الفكر وحده، ولكن أخاطب المثقفين، فما هي مهمة المثقف الحقيقي في المجتمع غير التعاطي الفكري أولاً؟

• **هذا هو الاحتمال الثاني، أي أن ننهب ونخرج من هذا العصر نهائيا. إذا لم نستطع الانخراط في العصر فسنخرج منه. وفي أي حال فإن أميركا واسرائيل تنهباننا الآن، بل تسترسلان في نهبنا وقتلنا.**

- كلما استعجلنا دخول العصـــر، واستعجلنا النهضة لا نكسب الوقـــت فقط بل الثروة.

- **الأمر ليس استعجالاً أومسألة إرادية، فالمجتمع لا يسير بالإرادة وحدها. ثمة عوامل بشرية واجتماعية وفكرية متفاعلة ومتصـــادمة فـــي آن. باكستان التي تضم خمسة من حائزي جائزة نوبل في العلـــوم متخلفـــة حضارياً. لماذا؟ إن أحد أسباب هذا التخلف هو الفكر الديني. لاحـــظ أن عبد السلام حائز جائزة نوبل في الفيزياء، وهو مشهور جـــداً، أســـس مختبرا لتوليد الطاقة من الجن، لأنه مؤمن بأن الجن موجـــود. الفكـــر الديني معيق للتقدم، ونقطة الانطلاق تبدأ من نقد الفكر الديني.**

- أنت مثل جميع اليساريين. أنا لم أكن هكذا طوال عمري.

- **لك تجربتك ولي تجربتي. وتجربتي تقول إن الدين ما دام عبـــــادة، أي صلة بين الفرد وربه فهو شأن فردي تماما، وأنا أحترم خيارات الناس كلها. أما أن يتحكم الفكر الديني، ولا أقصد الفكـــر الـــديني الاســـلامي وحده، بل الدين بشكل عـــام، بالمجتمع، فهذه مســـألة لا أقبلهـــا. أنـــا أعرض العلمانية كحل اجتماعي، أي فصل الدين عن الدولة.**

- الصعوبة في هذه الفكرة هي أن المسلم لديه شريعة بينما النصـــراني ليست لديه شريعة. لذلك يقبل المسيحي القانون المدني، لكن المســـلم من الصعب أن يقبل القوانين الوضعية. لكـــن المســـلم لـــيس لديـــه أكليروس، على عكس المسيحي. ولكن أحب أن أذكرك بأن تجربتي

أطول من تجربتك بكثير، بسبب فارق العمر. وقد تكـــــون أعمـــق وأكثر تنوعاً بسبب طول المعاناة، وقد يكون بسبب فارق الدين.

- **لا، الأكليروس صار موجودا لدى المسلمين أيضا.**

- ثمة فارق بين الحالتين. لدى المسيحيين الأكليروس مكـــرس، بينمـــا لدى المسلمين يفرض رجال الدين أنفسهم بالقوة والتسلط.

- **لدى الشيعة كهنوت كامل ونظرية كاملة لولاية الفقيـــه. ودور مراجـــع التقليد هائل جداً، وهؤلاء يستندون إلى مؤسسات إكليركيـــة واضـــحة وثرية جداً. أما عند السنة فرجل الدين موظف في الدولة، يقبض راتبه مثله مثل غيره من الموظفين.**

- أنت تريد صادق جلال العظم إذن؟

- **وجهة نظري تقول إن الدين ظاهرة تاريخية سوسيولوجية. لذلك يجـــب دراسة الدين بمناهج العلم الحديث، أي بمناهج الدراســـات المقارنـــة. الدين ظاهرة سوسيو - تاريخية وصلت إلى مرتبة القداســـة. فإذا طبقنا العلوم الحديثة على الدين باعتباره ظاهرة سوسيو - تاريخية فسنصـــل إلى نتائج مذهلة من المعرفة التاريخية والاجتماعية، وستنزع القداســـة الطوطمية عن الدين والفكر الديني ورجال الدين أيضا. وعلـــى ســـبيل المثال لو تناولت شخصية المسيح وأمه العذراء، الذي ولـــد فـــي ٢٥ ديسمبر وصلب ومات وقام من بين الأموات ستجد أن الشعوب المائيـــة**

- ليس القصد، أن تخون قناعتك أو أراعي أنا الناس. لكنني أزعم أن تجربتي في الحياة أوصلتني إلى هذه القناعة ولم توصلني إلى قناعة أخرى ولم تقنعني أنت بأفكارك.

- **الفارق بيني وبينك هو أنك تنظر إلى جماهير والجماهير لا تنظر إليك، لأن تفكيرك سياسي. أما أنا فلا أعول على الجماهير في هذا الميدان بل على الفكر النقدي، أي على النخب الفكرية والسياسية. وأنا أميل إلى قول عبد الرحمن الكواكبي: "العوام سلاح الاستبداد".**

- تجربتي هي استمرار لتجربة النهضة العربية، أو لمرحلة من مراحل النهضة العربية التي مضى عليها نحو ٢٠٠ سنة ولم نتمكن مع ذلك من الإقلاع*. لنجرب هذه الطريقة، أي البدء من دائرة الإيمان نفسها. في

---

* لم تكن هناك نهضة عربية أو مشروع نهضوي عربي بقدر ما كانت هناك نهضة جزئية اقتصرت على الأفكار وعلى نخبة درست في الغرب وتأثرت بعلومه وفنونه ونظمه وأخلاقه. وللمقارنة، فإن النهضة في أوروبا كانت، في أحد وجوهها، تمردا على المسيحية وقطيعة مع الدين، وهي في عودتها إلى التراث الإغريقي كانت تريد أن تجد لها جذورا في حضارة ماتت إلى حد بعيد وما عادت قادرة، جديا، على التأثير في الحاضر. بينما "النهضة" في العالم العربي لم تكن قطيعة مع الدين البتة. وهي، في محاولتها العودة إلى التاريخ الإسلامي القديم وإلى التراث، تريد أن تتكئ على ثقافة ما زالت حاضرة وذات تأثير كبير. ولهذا فليس من المستغرب أن يتبنى محمد عبده نظرية "المستنير العادل" ويرفض مبدأ الانتخاب لأن التمثيل النيابي، في رأيه خرافة. ومحمد عبده أحد أعلام الإصلاح الديني الذي نال رضا الإنكليز وصار مفتيا وراح يهاجم محمد علي باشا بناء على رغبة اللورد كرومر ولم يشتهر عنه إلا

الربع الأخير من القرن العشرين بدأت تظهر أسماء فكرية لامعة لتعالج هذه المسألة.

- **هل أنت مقتنع حقاً بأن تجربتك في البعث هي استمرار للنهضة العربية؟ في أي حال، أنا كلامي استمرار لشبلي الشميّل وفرح أنطون وطه حسين لويس عوض وسلامة موسى وأدونيس وأمثالهم من عيار إسماعيل أدهم وعصام الدين حفني ناصف*.**

- أنا أعرف شبلي الشميّل ولي اعتراض على رأيك. شبلي الشميّل مسيحي، وهو كتب من موقع العلماني الملحد لا من موقع علماني متدين. أما حفني ناصف فهو انطلق من موقع إسلامي، وإسماعيل أدهم من موقع رياضي، أي من العلم المحض.

- **هذا ما قصدت إليه عندما كنت أقول لك أن التقدم له أبواب كثيرة ولا يقتصر على باب واحد.**

تحليل اعتمار القبعة وبعض الفتاوى الجريئة مثل تحليل الفائدة وعدم تعدد الزوجات إلا بشروط.

* ولد اسماعيل أدهم في الاسكندرية سنة ١٩٠٥. برع في الرياضيات والعلوم الطبيعية، وكتب كتاباً خطيراً بعنوان "لماذا أنا ملحد؟". عاش ملعوناً وبائساً وشقياً حتى انتحر بإلقاء نفسه في البحر في تموز ١٩٤٠. أما عصام الدين حفني ناصف فله مجموعة من الكتب المثيرة مثل: "المسيح في مفهوم معاصر" و"موسى وفرعون بين الأسطورية والتاريخية" و"الأسطورة والوعي".

- عال. وأنا أقول معك بذلك ولكن عمل المثقف الحقيقي هو تعــاطي الفكر لا المطالبة بالديمقراطية وعينـــه على وظيفـــة أو وزارة...! تعــاطي الفكر لتنوير الناس واتباع مقولة: "إصـــلاح الرعيـــة خيـــر مـــن اصـــلاح الراعي"، فأنا مقتنع بأنه: "كما تكونوا يولّى عليكم".

١١ ـــــــــــــــــــ بين دمشق وبيروت وبـــاريس

- **عشت بين ثلاث مدن هي: دمشق وبيروت وباريس. أي المدائن أقرب إلى مزاجك؛ ولا سيما أن دمشق مدينة مقصورة على السياسة والتجارة، وبيروت اشتهرت كمدينة للثقافة والتجارة والحرية، أما باريس فهي مدينة العلم والثقافة والسياسة معا؟**

- أحب المدن الثلاث للأسباب التي ذكرتها. ولكن دمشق تتميز بأمر فائق الأهمية هو أنها منبتي ومكان نشأتي. وأنا أتذكر دمشق عندما كانت أصغر وأجمل وأنظف. وكان بردى لا يزال يسري في المدينة والغوطة. فإذا نظرت إلى جواز سفري سيتضح أنني أمضي نحو تسعة أشهر في دمشق، ويكاد لا يمضي شهران إلاّ وأكون في بيروت لألتقي أصدقائي. ثم لا تمضي ثلاثة أشهر إلاّ وأذهب إلى باريس لأقيم فيها عدة أسابيع. فأنا موزّع العاطفة والإقامة بين هذه المدن الثلاث. باريس، خلق الذوق فيها، وهي مدينة فريدة بين مدن العالم. الجلوس في مقاهيها ثقافة ومتعة. ولي في بيروت أصدقاء نشأت بيننا علاقات متينة تفوقت على صداقاتي في دمشق. وقد اكتشفت، بعدما أمضيت نحو أكثر من عشر سنوات خارج دمشق، أنني أصبحت مثل النبتة التي اقتلعت من جذورها وغير قادرة على العودة إلى ما كانت عليه. فأنا غادرت دمشق وهي تعد ٦٠٠ ألف نسمة، وها هي الآن يقطنها أكثر من أربعة ملايين نسمة. وثلاثة أرباع النخب الدمشقية في ستينات القرن العشرين إما في الخارج أو ماتوا. وأقرب الرفاق إلى قلبي مات أكثرهم أو يعيشون في المنافي، فضلا عن والدي ووالدتي. لذلك أشعر بأنني ما عدت قادراً على أن أطلق جذوراً جديدة لي في دمشق ولا سيما أنني لم أتزوج ولم أنجب، كأنني أعيش في صقيع من الوحدة.

- **لكن هذه المدن الثلاث التي أحببتها تغيّرت كثيرا؛ ودمشق ما عادت دمشق التي تعرفها.**

- دمشق وبيروت تغيّرتا بطريقة انقلابية.

- **بيروت دمرتها الحرب الأهلية المتمادية.**

- أما باريس فلم تتغيّر.

- **باريس تعاند الزحف الأميركي في الذوق والاستهلاك وفي اللغة والثقافة، وهي بهذا المعنى، تتغيّر أيضا.**

- من هذه الناحية لم تتغيّر باريس فقط بل تغيرت وانتهت.

- **لعل هذا ما يزيد الشعور بالوحدة والاغتراب حتى وأنت في لجة هذه المدن.**

- صحيح.

- **يقول أدونيس أن دمشق مدينة مغلقة مكتفية بذاتها لا تنتج إلا السياسة والتجارة وقليلا من الثقافة. لهذا لم يظهر فيها مثقفون كبار إلاّ نادراً. أما بيروت فهي مدينة مفتوحة ومشروع للتجريب في الثقافة والسياسة والتجارة. وهذا سبب تألقها، فضلاً عن وجود الحريات فيها بشكل واسع. هل ترى هذا الفارق بين المدينتين الآن؟**

- طبعا. أنا أعتقد أن دمشق كانت مهيأة في الأربعينات لانتزاع دور ثقافي مهم لها في العالم العربي، لكن الدروب سُدّت أمامها. ومَن سد هذه الدروب هو حزب البعث بالدرجة الأولى، علاوة على بعض الظروف الموضوعية الخارجة على الإرادة.

- **تقصد حزب البعث الذي جعل العسكر بديلا من المؤسسات الديمقراطية.**

- لا، حزب البعث بحد ذاته لا بممارسته السياسية التي جاءت فيما بعد، بل الصيغ اللفظية المتقنة والبليغة التي برع بها ميشال عفلق هي التي سدت أذهان الكثيرين عندما ظنوا أنها فكر حديث (ظننا بها خيراً فظنت بنا شرا).

- **حسنا، هل يستطيع حزب ما إجهاض مدينة بأهمية دمشق؟**

- لا أقصد المدينة، بل المثقفين الذين خدعوا واعتقدوا أن مشروع البعث هو مشروع نهضوي.

- **لكن كان هناك مثقفون غير بعثيين؛ مثقفون مستقلون وشيوعيون وليبراليون وإسلاميون وغير ذلك.**

- التقدميون قطع عليهم الدرب عندما اتّهموا بالشعوبية. حتى اللغة الأجنبية باتت محرمة، واختلط العلم بالوطنية وبالعروبة وبالإسلام حتى صار الأمر كالشوربا كما تقول العامة.

- **عدت إلى دمشق بعد نفي دام أكثر من عشر سنوات، فوجدت دمشق وقد تغيرت إلى حد كبير. لكن كيف وجدت سورية بعد هذه التغيرات كلها؟**

- مرت على سورية ثماني وخمسون سنة منذ الاستقلال. وسورية بلد موارده أكبر بكثير من عدد سكانه. كان عدد سكان سورية عند الاستقلال ثلاثة ملايين ونصف المليون نسمة، والعاصمة دمشق لم تزد على ثلاثمئة وخمسين ألف نسمة من أذكى وأنشط شعوب العرب*. ثم ظهر البترول. وتتمتع سورية بنخبة متعلمة تعليما عصريا. وسورية هي أول دولة عربية تستقل استقلالاً تاماً بلا معاهدات أو روابط من أي نوع. لبنان حقق هذا الطراز من الاستقلال أيضا بسبب النضال الوطني في سورية. عندما يتأمل الإنسان أين أصبح العالم وأين أمسينا نحن يتحسر. ولا يختلف اثنان على أن إسرائيل كانت إحدى معوقات التقدم في بلادنا. إن نكبة فلسطين حمّلت سورية ما لا تستطيع احتماله. وحينما أتطلع إلى ثمانٍ وخمسين سنة من عمر سورية المستقلة، يتضح أن الديمقراطية لم تعش إلاّ سنوات متفرقة، وبلا استمرارية. أي أقل من عشر سنوات أهمها ما بين ١٩٥٤ و١٩٥٨. وأنا عندما خرجت من دمشق في سنة ١٩٦٦ كانت هجرة الريف إلى المدينة قد بدأت، لكنها لم تكن بهذا التدفق. وحتى الآن ليس هناك سياسة جدية إزاء الزراعة والتنمية الزراعية. قانون الإصلاح الزراعي وقانون العمل الزراعي مكسبان من مكاسب الفلاحين حققهما حزب البعث قبل عبد الناصر. وعندما جاء مأمون الكزبري وعهد الانفصال حاول الانقضاض على هذين المكسبين، لكنه فشل. والحقيقة أن إنجاز الإصلاح الزراعي لا يكفي وحده،

* كان متوسط الدخل الفردي في سورية عند الاستقلال في سنة ١٩٤٦ من أعلى الدخول في قارة آسيا. وفي مطلع القرن الحادي والعشرين بلغ متوسط الدخل الفردي أقل من المتوسط في بنغلادش.

لأن ما الفائدة إذا كان الفلاح يحصل على الأرض بموجب الإصلاح الزراعي ثم يهجرها إلى المدينة بحثا عن وظيفة؟ وبهذا المعنى تبدو سورية إذا قارنتها بدول العالم، كأنها تسير إلى الوراء.

- **لو قارنتها بالدول المحيطة مثل لبنان والأردن لظهر الفارق كبيرا أيضاً وضد مصلحة سورية.**

- لا أعرف شيئاً عن الأردن.

- **الميزانية الأردنية تعادل الميزانية السورية تقريبا.**

- لا أعرف. لكن أريد أن ألفت نظرك إلى أن التقدم في الأردن ليس بعيدا أن يكون مصطنعا، أي أنه ليس كالتقدم في لبنان الذي أعاقته الحرب الأهلية. أما في سورية فالأمور أشبه بالكوارث. فالقطاع العام الذي يساوي أكثر من نصف الاقتصاد الكلي أصبح عبارة عن تأمين بطالة. والفساد في داخله مستشرٍ بطريقة تفوق التصور. ونوعية التعليم الجامعي وما قبل الجامعي متدهورة إلى حد خطير. أما القضاء فهو علة العلل. لقد كانت سورية تتمتع بقضاء ذي سمعة حسنة إلى حد كبير مثل القضاء اللبناني أو القضاء المصري. وكمثال على ذلك أن أحد أعمامي، وهو من أوائل المحامين في سورية، وظل عميدا لسلك المحاماة سنوات طويلة، لخص الوضع بالتالي: سابقا كان الموكل حينما يكلفني بإحدى الدعاوى القضائية يرغب في معرفة هل تنجح الدعوى أم لا. وكنت بعد دراستها ملياً أخبره باحتمالات النجاح أو الفشل والتكلفة أيضا. لكن اليوم، يأتي الموكّل إلي فلا أستطيع أن أخبره إن كانت دعواه ستكون رابحة أم خاسرة. لأن من الممكن أن يكون تقديري القانوني أن الدعوى

رابحة لكنها ربما تخسر نتيجة لاستخدام الخصم أساليب ملتوية ووساطات. ويمكن أن تكون الدعوى خاسرة وتربح للسبب نفسه. القضاء ركن أساسي من أركان الدولة العصرية. فعدم وجود قضاء نزيه وعادل يعني عدم وجود دولة عصرية. وقِسْ على ذلك الأمور كلها، من شرطي السير إلى الوزير مرورا بمديري المؤسسات. إنها دولة يعتل فيها الاقتصاد والقضاء والعلم وجميع عناصر المجتمع.

- **لماذا وصلنا إلى هذه الحال؟**

- لا وجود لخطة تنموية. ونحن لا نعرف العالم وماذا يجري في العالم. والذين يتولون أمورنا قابعون عند ثقافتهم التراثية.

- **ثقافة تراثية أم ثقافة دينية؟ ثمة فارق منهجي بين الدين والتراث.**

- دائما يتكلمون على التاريخ العربي. ولكن كيف نسترجعه؟!..

- **التراث لا يمكن استرجاعه ولا فائدة من استرجاعه.**

- أقصد كيف سنسترجع مكانتنا، وكيف سندخل إلى العصر. خذ اليابان مثلا، هؤلاء اكتشفوا أن من دون لغة أجنبية لا يستطيعون التقدم. ففرضوا اللغة الإنكليزية من الصف الأول الابتدائي فما فوق. واليوم تجد أن كل ياباني متعلم يعرف الإنكليزية كما يعرف اليابانية. بينما في سنة ١٩٤٦ بدأ نهج ساطع الحصري الذي تفاقم في عهد سليمان الخش عندما تسلم وزارة التربية يروِّج أن من علامات الوطنية إلغاء تعليم

اللغة الأجنبية وإقفال المدارس الأجنبية. الآن في سورية بـدأت محـاولات لإنشـاء مدارس جديدة وجامعات جديدة تركز على استعمال اللغـات الأجنبية. كأننا أضـعنا أكثر من نصف قرن هباء. خذ مثلا الكهرباء، فهي مازالت تقطع عن بعض ضواحي دمشق يوميا، وقبل ذلك كانت تقطع حتى في دمشق. إن صورة الوضع في سـورية سوداء سوداء والمستقبل قاتم قاتم، إلاّ إذا حدثت معجزة. سورية الآن تعد ١٧ مليوناً من السكان، ولديها موارد لا بأس بها، وهي قادرة، لو توافرت لها إدارة حكيمة، ليس على تجنب الكارثة فحسب، بل على الإقلاع مجددا. وهي على عكس مصـر التـي تتآكلها الزيادة السكانية. ومنذ أن كان عدد سكانها ثلاثة ملايين، كانت سورية قـادرة على أن تعيل أكثر من ٢٠ مليونا. وحتى الآن لم يصبح عديدها ٢٠ مليونـا، بينمـا أضيف البترول إلى مواردها. وهناك صناعة واسعة تعمل في الخفاء بعيدا عن أنظار الدولة، مثل صناعة القمصان والجرابات وربطات العنق التي تجري في البيوت ثـم تصدر إلى الخارج وتحقق أرباحا طائلة.

- **هذه صناعة حرفية تجري في المشاغل المنزليـة وليسـت صـناعة بالمفهوم العصـري لهذه الكلمة. ولا يمكن الاعتماد علـى مثـل هـذا الطراز من الصناعات لبناء اقتصاد متكامل. وهذه المشاغل الحرفية هي نوع من الاحتيال على العيش وتدبير الأمـور، وهـي تعكـس مأزقـا اقتصاديا قاسيا، ولهذا يلجأ الأفراد إلى إيجاد منافذ لمعيشـتهم فيفتـتح الواحد معملاً للتريكو في المنزل أو مصنعاً صغيراً للألبسـة فـي قبـو البيت. لكن هذه الحرف مجرد منافذ لزيـادة الـدخل العـائلي وليسـت صناعة.**

- قصدت بكلامي أن هذه الإمكانات الكامنة عندما تندرج في سياق تنمية عصرية فربما تحقق قفزة سريعة ونوعية في الاقتصاد.

- **مستحيل ذلك. القفزة النوعية تتطلب إعادة هيكلة الاقتصاد السوري كخطوة لا بد منها كي تتدفق الاستثمارات الخارجية. وهذه مسألة يلزمها ما لا يقل عن خمسين مليار دولار، وهو مبلغ هائل مقارنة بميزانية لا تتخطى الثمانية مليارات دولار سنويا.**

- أعتقد أن من الضروري والعاجل تعديل القوانين ولا سيما قوانين المصارف والنقد، وعند ذلك تأتي الاستثمارات، وفوق ذلك المطلوب قضاء مستقل. ثم لا تنسى أن الميزانية العسكرية تستهلك معظم الميزانية العامة.

- **لو كانت العلة في الميزانية العسكرية فلماذا تمكنت إسرائيل إذن، على الرغم من ميزانيتها العسكرية الكبيرة، من الوصول إلى ناتج كلي يتجاوز المئة مليار دولار؟ أي ما يفوق الناتج الكلي لمصر وسورية ولبنان والأردن وفلسطين معا. المعضلة ليست في الميزانية العسكرية بل في نموذج التنمية الذي فشل فشلا ذريعا، وأقصد نموذج رأسمالية الدولة، وسطوة العسكر على السلطة بقوانين الطوارئ. والآن بات من المحال إصلاح القطاع العام وتطويره، لأن هذه العملية لن تكون، في أحسن الأحوال، إلا ترقيعا. بينما إنهاء القطاع العام سيعني نهاية سلطة الجيش والأجهزة الأمنية وقوانين الطوارئ. ولهذا من الصعب أن تقدم أي سلطة على مثل هذا الإجراء بخيارها الحر، بل عنوة. أي إما بالضغط الخارجي، أي بضغط السوق العالمية وشروطها، أو بالانهيار الداخلي.**

- عقدتها عليّ كثيراً. وأنا لا أخوض في مسائل لست مؤهلاً لها لا بالثقافة ولا بالتجربة. فدعنا نتوقف هنا.

قائمة المراجع

ـ أحمد الجندي، "لهو الأيام"، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩١.

ـ أحمد سامي السراج، "من بقية السيوف" (إعداد: خيرية قاسمية)، دمشق: دار الأهالي، ٢٠٠٣.

ـ أحمد شومان، "أيام مضت"، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠١.

ـ أحمد عبد الكريم، "أضواء على تجربة الوحدة"، دمشق: مكتبة أطلس، ١٩٦٢.

ـ أحمد عبد الكريم، "حصاد سنين خصبة وثمار مرة"، بيروت: بيسان للنشر والتوزيع، ١٩٩٤.

ـ أحمد نهاد السياف، "شعاع قبل الفجر" (مذكرات)، إصدار خاص، ٢٠٠٥ (تقديم وتحقيق: محمد جمال باروت).

ـ أسعد الكوراني، "ذكريات وخواطر"، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٠.

ـ أكرم الحوراني، "مذكرات أكرم الحوراني"، القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٠.

ـ أمجد ذيب غنما، "جمعية العروة الوثقى"، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٢.

ـ أمين أبو عساف، "ذكرياتي"، د. م.، د. ن.، د. ت.

ـ الجنرال أندريا، "ثورة الدروز وتمرد دمشق"، بيروت: المكتبة الحديثة، ١٩٧١ (ترجمة: حافظ أبو مصلح).

ـ أنور عبد الملك، "المجتمع المصري والجيش"، بيـروت: دار الطليعـة، ١٩٧٤.
ـ إيغور تيموفييف، "كمال جنبلاط الرجل والأسطورة"، بيروت: دار النهار، ٢٠٠٠ (ترجمة: خيري الضامن).
ـ باتريـك سـيل، "الأسـد: الصراع علـى الشـرق الأوسـط"، بيروت: د. ن.، د. ت.
ـ باتريك سيل، "الصراع على سـورية"، بيـروت: دار الأنـوار، ١٩٦٨ (ترجمة: سمير عبده ومحمود فلاحة).
ـ برجيت شيبلر، "انتفاضات جبل الدروز ـ حوران"، بيروت: دار النهار، ٢٠٠٤.
ـ برناديت شينك، "كمال جنبلاط"، بيروت: دار النهـار، ١٩٩٩ (ترجمـة: كامل اسماعيل).
ـ بشير العظمة، "جيل الهزيمة" (مذكرات)، بيروت: رياض الريس للكتـب والنشر، ١٩٩١.
ـ بهجت أبو غربية، "مذكرات المناضل بهجـت أبـو غربيـة"، بيـروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤.
ـ جبرائيل جبور، "من أيام العمر"، بيروت: جمعية أصدقاء الكاتب والكتاب، ١٩٩١.
ـ جلال السيد، "حزب البعث العربي"، بيروت: دار النهار، ١٩٧٣.
ـ جواد هاشم، "مذكرات وزير عراقي مع البكـر وصـدام"، بيـروت: دار الساقي، ٢٠٠٣.

ـ جورج طرابيشي، "في ثقافة الديمقراطية"، بيروت: دار الطليعة، ١٩٩٨.
ـ جوردون تـوري، "السياسـة السـورية والعسـكريون"، دمشـق: دار الجماهير، ١٩٦٩ (ترجمة: محمود فلاحة).
ـ جوزيف أبو خليل، "قصة الموارنـة فـي الحـرب"، بيـروت: شـركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٩٠.
ـ جولييت المير سعادة، "مذكرات الأمينة الأولى"، بيروت: كتب، ٢٠٠٤.
ـ حازم صاغية، "قوميو المشرق العربي"، بيروت: رياض الـريس للكتـب والنشر، ٢٠٠٠.
ـ حازم صاغية، "بعث العراق"، بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٣.
ـ حسن أمين البعيني، "جبل العرب"، بيروت: دار النهار، ١٩٨٥.
ـ حنا بطاطو، "العراق"، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٩٢ (ثلاثـة أجزاء).
ـ Hanna Patato, "Syria's Peasantary",Princeton,1999.
ـ خالد العظم، "مذكرات خالد العظم"، بيروت: الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٣ (ثلاثة أجزاء).
ـ خالد علي الصالح، "على طريق النوايا الطيبة"، بيروت: رياض الـريس للكتب والنشر، ٢٠٠٠.
ـ خطار بوسعيد، "عصبة العمل القومي ودورهـا فـي لبنـان وسـورية"، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤.

ـ خيرية قاسمية، "الرعيل العربي الأول: حياة وأوراق نبيه وعادل العظمة"، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩١.

ـ ذوقان قرقوط، "ميشال عفلق: الكتابات الأولى"، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٣.

ـ رفعت السعيد، "ثلاثة لبنانيين في القاهرة"، بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٣.

ـ زهير المارديني، "الأستاذ: قصة حياة ميشيل عفلق"، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٨٨.

ـ سامي جمعة، "مأساة الكونت لويس دوسان"، دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٩٩.

ـ سامي جمعة، "أوراق من دفتر الوطن ١٩٤٦ ـ ١٩٦١"، دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ٢٠٠٠.

ـ سامي الجندي، "البعث"، بيروت: دار النهار، ١٩٦٩.

ـ سعد جمعة، "مجتمع الكراهية"، عمان: الدار الأهلية، ٢٠٠١.

ـ سلمى الحفار الكزبري، "لطفي الحفار"، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩٧.

ـ سليمان موسى، "الحركة العربية"، بيروت: دار النهار، ١٩٧٧.

ـ طه الهاشمي، "مذكرات طه الهاشمي"، بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٧.

ـ عبد الرزاق عيد، "سدنة هياكل الوهم"، بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠٣.

ـ عبد السلام العجيلي، "ذكريات أيام السياسة" (جزآن)، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٢.

ـ عبد الله بن الحسين (الملك)، "الآثار الكاملة"، بيروت: الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٩.
ـ عبد الله حنا، "العامية والانتفاضات الفلاحية في جبل حوران: ١٨٥٠ ــ ١٩١٨"، دمشق: دار الأهالي، ١٩٩٠.
ـ عبد الله قبرصي، "عبد الله قبرصي يتذكر" (أربعة أجزاء) بيروت: دار الفرات، ٢٠٠٤.
ـ عدنان الملوحي، "بين مدينتين: من حمص إلى الشام"، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩٠.
ـ عزت زهر الدين، "المجاهدون الدروز في عهد الانتداب"، لندن: مؤسسة التراث الدرزي، ٢٠٠٤.
ـ عزيز صليبا، "العمل السري في الحزب الشيوعي اللبناني"، بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٢.
ـ عزيز العظمة، "قسطنطين زريق: عربي للقرن العشرين"، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٣.
ـ عصام الدين حفني ناصف، "الأسطورة والوعي"، القاهرة: دار العالم الجديد، ١٩٧٦.
ـ عصام الدين حفني ناصف، "المسيح في مفهوم معاصر"، بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٩.
ـ العفيف الأخضر، "من نقد السماء إلى نقد الأرض" (مقدمة لنصوص لينين حول الدين)، بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٢.
ـ علي أبو نوار، "حين تلاشت العرب"، بيروت: دار الساقي، ١٩٩٠.
ـ علي مرتضى الأمين، "صادق حمزة الفاعور"، بيروت: دار آسيا، ١٩٨٥.

ـ غسان زكريا، "السلطان الأحمر"، لندن: أرادوس للنشر، ١٩٩١.
ـ فارس الخوري، "أوراق فارس الخوري" (إعداد: كوليت الخوري)، دمشق: دار طلاس، ١٩٨٩.
ـ فاضل الربيعي، "كبش المحرقة: نموذج لمجتمع القوميين العرب"، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩٩.
ـ فايز قزي، "من ميشال عفلق إلى ميشال عون"، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٣.
ـ فريد الخازن، "تفكك أوصال الدولة في لبنان: ١٩٦٧ ـ ١٩٧٦"، بيروت: دار النهار، ٢٠٠٢.
ـ فضل الله أبو منصور، "أعاصير دمشق"، بيروت: د. ن.، ١٩٥٩.
ـ فلاديمير لوتسكي، "الحرب الوطنية التحررية في سوريا" (ترجمة: محمد دياب)، بيروت: دار الفارابي، ١٩٨٧.
ـ فؤاد اسحق الخوري، "السلطة لدى القبائل العربية"، بيروت: دار الساقي، ١٩٩١.
ـ فيصل دراج ومحمد جمال باروت (تنسيق)، "الأحزاب والحركات والجماعات الإسلامية" (جزآن)، دمشق: المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، ١٩٩٩.
ـ فيصل دراج ومحمد جمال باروت (تحرير)، "الأحزاب والحركات اليسارية" (جزآن)، دمشق: المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، د. ت.
ـ كريم بقرادوني، "السلام المفقود"، بيروت: عبر الشرق للمنشورات، ١٩٨٤.

ـ كمال جنبلاط، "هذه وصيتي"، بيروت: مؤسسة الوطن العربـــي للطباعـــة والنشر، ١٩٧٨.
ـ كمال الصليبي، "بيت بمنازل كثيرة: الكيان اللبناني بين التصور والواقع"، بيروت: دار نوفل، ١٩٩٠.
ـ لبيب زويا، "الحزب القومي الاجتماعي"، بيروت: دار ابن خلدون، د. ت.
ـ مايلز كوبلاند، "لعبة الأمم"، بيروت: الانترناشيونال سنتر، ١٩٧٠.
ـ مايلز كوبلاند، "اللاعب واللعبة"، بيروت: دار الحمراء، ١٩٩٠.
ـ مجيد خدوري، "الاتجاهات السياسية في العالم العربي"، بيـــروت: الـــدار المتحدة للنشر، ١٩٧٢.
ـ محمد إبراهيم العلي، "حياتي والإعـــدام" (٣ أجـــزاء)، دمشـــق، د. ت.، ٢٠٠٠.
ـ محمد أركون، "من الاجتهاد إلى نقد العقـــل الإســـلامي"، بيـــروت: دار الساقي، ١٩٩١.
ـ محمد أركون، "الإسلام، أوروبا، الغرب"، بيروت: دار الساقي، ١٩٩٥.
ـ محمد أركون، "قضايا في نقد العقل الديني"، بيروت: دار الطليعة، ١٩٩٨.
ـ محمد جعفر الحيالي، "العلاقات بين سوريا والعراق: ١٩٤٥ ـ ١٩٥٨"، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١.
ـ محمد حسنين هيكل، "ما الذي جرى في سوريا؟"، القاهرة: الدار القوميـــة للطباعة والنشر، ١٩٦٢.
ـ محمد شفيق شيّا، "شكيب أرســـلان: مقدمات الفكر السياســـي"، بيـــروت: معهد الإنماء العربي، ١٩٨٣.

ـ محمد معروف، "أيام عشتها"، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٣.
ـ محمود عبيدات، "أحمد مريود"، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩٧.
ـ مصطفى دندشلي، "حزب البعث العربي الاشتراكي"، بيروت: د. ن.، ١٩٧٩.
ـ مصطفى طلاس، "مرآة حياتي" (٣ أجزاء في ٤ مجلدات)، دمشق: دار طلاس، ١٩٩١ ـ ٢٠٠٣.
ـ مطيع السمان، "وطن وعسكر"، بيروت: مكتبة بيسان، ١٩٩٥.
ـ منيف الرزاز، "التجربة المرة"، بيروت: مؤسسة منيف الرزاز للدراسات القومية، ١٩٨٦.
ـ منيف الرزاز، "رسائل إلى أولادي"، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠.
ـ نجاة قصاب حسن، "صانعو الجلاء في سورية"، بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٩٩.
ـ نذير فنصة، "أيام حسني الزعيم"، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٣.
ـ نصوح بابيل، "صحافة وسياسة"، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠١.
ـ نقولا زيادة، "دمشق في عصر المماليك"، بيروت: مكتبة لبنان ومؤسسة فرنكلين، ١٩٦٠.
ـ نيقولاس فان دام، "الصراع على السلطة في سوريا"، القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٥.

ـ هادي حسن عليوي، "فيصل بن الحسين"، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٣.
ـ هادي حسن عليوي، "الأحزاب السياسية في العراق السرية والعلنية"، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠١.
ـ هاشم عثمان، "الأحزاب السياسية في سورية السرية والعلنية"، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠١.
ـ هاشم عثمان، "المحاكمات السياسية في سورية"، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٤.
ـ هاني الفكيكي، "أوكار الهزيمة"، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩٣.
ـ هاني الهندي وعبد الإله النصراوي، "حركة القوميين العرب" (٤ أجزاء)، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٥.
ـ هدى رزق، "سوريا ولبنان: وحدة أم انفصال؟"، بيروت: الفرات للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣.
ـ وجيه كوثراني، "بلاد الشام"، بيروت: معهد الإنماء العربي، ١٩٨٠.
ـ ويلبر كرين إيفلاند، "حبال من رمال" (ترجمة: علي حداد)، بيروت: دار المروج، ١٩٨٥.



شكري القوتلي وناظم القدسي



كمال جنبلاط وشوكت شقير



أمين الحافظ ونور الدين الأتاسي



جمال عبد الناصر وإلى يساره عبد الحميد السراج



جمال عبد الناصر وياسر عرفات وهايل عبد الحميد



صلاح الدين البيطار وجمال عبد الناصر



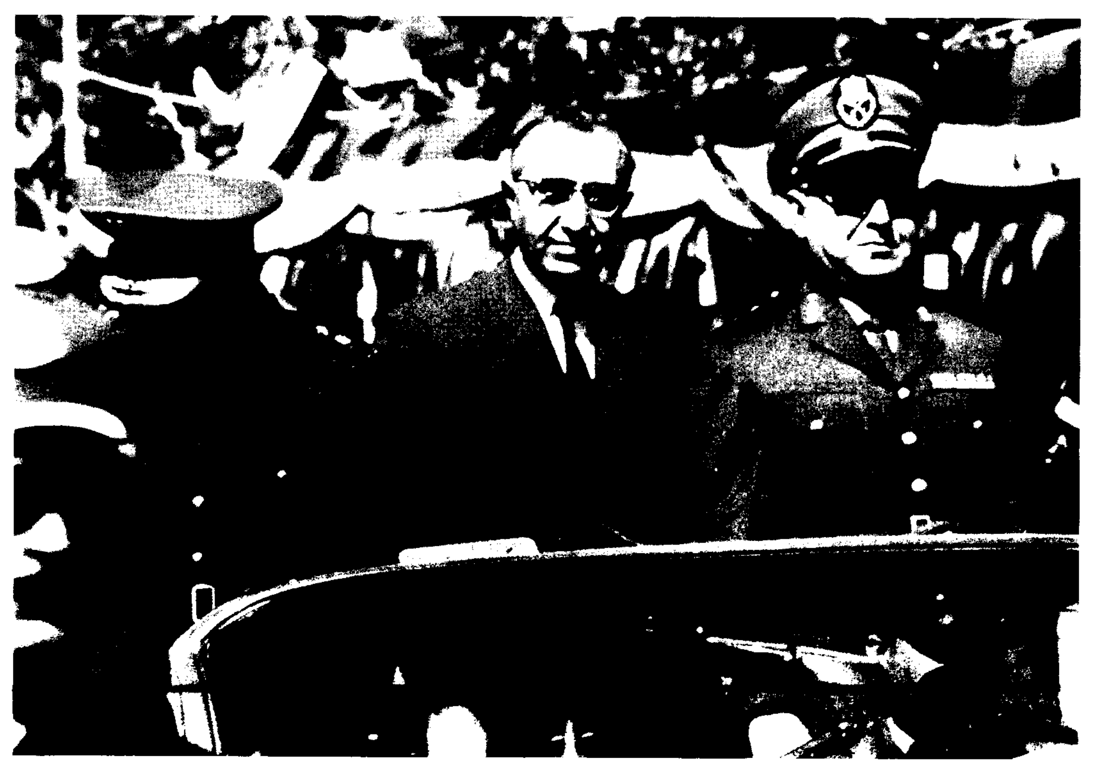
جمال عبد الناصر ونور الدين الأتاسي ومعمر القذافي



صورة نادرة لميشال عفلق وصلاح جديد



أكرم الحوراني (إلى اليمين)



صلاح الدين البيطار وحسني الزعيم



امين الحافظ وصلاح الدين البيطار وصباح الأحمد الصباح



شبلي العيسمي وصدام حسين ويبدو طه ياسين رمضان وعلي غنام

SYRIA: WRECKS OF THE SCATTRED SHIPS



سورية وحطام المراكب المبعثرة

حوارات

عرف نبيل الشويري ميشال عفلق منذ يفاعته الأولى، وتدرج على يديه في مدارج السياسة وفي معارج الفكر السياسي، وتفتح وعيه على القومية العربية كما صاغها ميشال عفلق بنفسه، وطالما تعلق به وبصورته كساحر وقديس معًا. لكنه لم يلبث أن تمرد عليه وانخرط في التآمر السياسي والانقلابات العسكرية مع سليم حاطوم، وحُكم بالأعدام فغادر سورية إلى بيروت ثم إلى باريس. وهذا الحوار هو خلاصة تجربة عاصفة ومديدة. وأهمية هذا الحوار لا تكمن في أنه يؤرخ لحقبة من التاريخ المعاصر لسورية وللبعث معًا، بل محاولة إعادة قراءة الأحداث في ضوء التجربة الشخصية.

صقر آبو فخر

ISBN: 9953-36-301-3

